تفسير القرآن الكريم
بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الخامس

تفسير القرآن الكريم
بوضوح وبيان

منشورات

الالكترونية
١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م

تفسير القرآن الكريم بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَزَلَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَهِيَ تِسْعٌ وستون آية.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الم﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ أظن الناس، ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بِغَيْرِ اخْتِبَارٍ وَلَا ابْتِلَاءٍ، ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ أَيْ بِأَنْ يَقُولُوا، ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لَا يُبْتَلَوْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ كلا لنختبرنهم ليبين الْمُخَلِصَ مِنَ الْمُنَافِقِ وَالصَّادِقَ مِنَ الكاذب، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ له فِي الْبَلَاءِ**»[١]، وَالْمَقْصُودُ: أَظَنَّ النَّاسُ أَنْ يَدَّعُوا الْإِيمَانَ دُونَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ اخْتِبَارٌ يُبَيِّنُ صِدْقَ دَعْوَاهُمْ، وَقِيلَ: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَهُمْ فِي الِابْتِدَاءِ بِمُجَرَّدِ الْإِيمَانِ ثُمَّ

(١) الترمذي (٢٣٩٨).

فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَسَائِرَ الشَّرَائِعِ فَشَقَّ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ عَزَّاهُمْ فَقَالَ:

[٣] : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ فَمِنْهُمْ مَنْ نُشِرَ بِالْمِنْشَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَابْتُلِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِفِرْعَوْنَ فَكَانَ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي قَوْلِهِمْ آمَنَّا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِمْ قَبْلَ الِاخْتِبَارِ، ومعنىٰ الآية: وليظهرن اللهُ الصَّادِقِينَ مِنَ الْكَاذِبِينَ حَتَّىٰ يُوجِدَ مَعْلُومَهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَلَيَرَيَنَّ الله ، وقيل: ليميز اللهُ كَقَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني الشرك، ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ يُعْجِزُونَا وَيَفُوتُونَا فَلَا نَقْدِرُ عَلَىٰ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بِئْسَ مَا حَكَمُوا حِينَ ظَنُّوا ذَلِكَ. وَاللهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كل شي.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا وَمُقَاتِلٌ: مَنْ كَانَ يَخْشَىٰ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ، وَالرَّجَاءُ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَنْ كَانَ يَطْمَعُ فِي ثَوَابِ اللهِ، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ يَعْنِي مَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَكَائِنٌ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ أَوْ يَأْمُلُهُ فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ وَلْيَعْمَلْ لِذَلِكَ الْيَوْمِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لَهُ ثَوَابُهُ، وَالْجِهَادُ هُوَ الصَّبْرُ عَلَىٰ الشِّدَّةِ وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْحَرْبِ وَقَدْ يَكُونُ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ النَّفْسِ، ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ عن أعمالهم وعباداتهم. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ، مَنْ جَاهَدَ عَدُوَّهُ لِنَفْسِهِ لَا يُرِيدُ وَجْهَ اللهِ فليس لله حاجة بجهاده، قالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لِيُجَاهِدُ وَمَا ضَرَبَ يَوْمًا من الدهر بسيف.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ صَدَّقُوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَيْ لَنُغَطِّيَنَّهَا عَنْهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُمْ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ الطَّاعَاتُ، ثُمَّ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ تُكَفَّرَ عَنْهُمْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ عَمِلُوهَا فِي الشِّرْكِ وَيُثَابُوا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ حَسَنَةٍ فِي الْإِسْلَامِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ، وَيُثَابُوا عَلَىٰ حَسَنَاتِهِمْ في الكفر والإسلام.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي برا بهما عطفا عَلَيْهِمَا، مَعْنَاهُ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ أَنْ يَفْعَلَ بِوَالِدَيْهِ مَا يَحْسُنُ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي فِي سُورَةِ لقمان والأحزاب فِي سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه وَأُمُّهُ: حَمْنَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ لَمَّا أَسْلَمَ وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَكَانَ بَارًّا بِأُمِّهِ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي أَحْدَثْتَ؟ ! وَاللهِ لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ أَوْ أَمُوتَ فتعير بذلك أبد الدهر، فَجَاءَ سَعْدٌ إِلَيْهَا وَقَالَ: يَا أُمَّاهُ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ

دِينِي فَكُلِي وَإِنْ شِئْتِ فلا تأكلي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ، وأمر بِالْبِرِّ بِوَالِدَيْهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَأَنْ لا يطعمها فِي الشِّرْكِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جاء فِي الْحَدِيثِ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي معصية الخالق**»[1] ، ثُمَّ أَوْعَدَ بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجزيكم عَلَيْهَا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ فِي زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ، وَقِيلَ: فِي مَدْخَلِ الصَّالِحِينَ، وَهُوَ الْجَنَّةُ ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، كُلٌّ عَلَىٰ حَسَبِ دَرَجَتِهِ وَمَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللهِ، فَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ عُنْوَانٌ عَلَىٰ سَعَادَةِ صَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَنِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَعَالَىٰ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ أَصَابَهُ بَلَاءٌ مِنَ النَّاسِ افْتَتَنَ، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ أَيْ جَعَلَ أَذَىٰ النَّاسِ وَعَذَابَهُمْ كَعَذَابِ اللهِ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ جَزِعَ مِنْ عَذَابِ النَّاسِ وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَأَطَاعَ النَّاسَ كَمَا يُطِيعُ اللهَ مَنْ يَخَافُ عَذَابَهُ، هَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ،

---

(١) البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) .

قَالَا: هُوَ الْمُنَافِقُ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ رَجَعَ عَنِ الدِّينِ وَكَفَرَ، ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيْ فَتْحٌ وَدَوْلَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وهم كاذبون وَإِنَّمَا أكرهنا حتىٰ قُلْنَا فَكَذَّبَهُمُ اللهُ وَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي نَاسٍ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَإِذَا أَصَابَهُمْ بَلَاءٌ مِنَ اللهِ أَوْ مُصِيبَةٌ فِي أَنْفُسِهِمُ افْتُتِنُوا.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صَدَقُوا فَثَبَتُوا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ عِنْدَ البلاء، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ بِتَرْكِ الْإِسْلَامِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا مِنْ قَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: قَالَهُ أَبُو سُفْيَانَ لِمَنْ آمَنَ مِنْ قُرَيْشٍ: اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا دِينَنَا وَمِلَّةَ آبَائِنَا وَنَحْنُ الْكُفَلَاءُ بِكُلِّ تَبِعَةٍ مِنَ اللهِ تُصِيبُكُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي آثامكم إِن كَانَتْ لَكُمْ آثام، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: افْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتُكَ فِي رقبتي، فكذبهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فِيمَا قَالُوا مِنْ حَمْلِ خَطَايَاهُمْ. فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وزر أَحَدٌ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أَوْزَارَ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أَيْ أَوْزَارَ مَنْ أَضَلُّوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَعَ أَوْزَارِهِمْ، مثل قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ

الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»(١)، ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ سؤال توبيخ وتفريع.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِث فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ فغرقوا، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: مشركون، قَالَ ابن كثير: هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِعَبْدِهِ ورسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسِرًّا وَجِهَارًا، وَمَعَ هَذَا مَا زادهم ذلك إلاّ فراراً، وَمَا آمَنُ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ الَّذِينَ رَكِبُوا مَعَهُ، أَهْلَهُ وَمَنْ آمَنَ بِهِ، يَعْنِي مِنَ الْغَرَقِ، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ يَعْنِي السَّفِينَةَ أَوْ قِصَّةَ نُوحٍ ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيَّ عِبْرَةٍ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يَعْتَبِرُونَ بِهَا، عَلَىٰ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ، آخِرُ أَمْرِهِ الْهَلَاكُ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا. وَجَعَلَ اللهُ أَيْضًا السَّفِينَةَ، أَيْ: جِنْسَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ، يَعْتَبِرُونَ بِهَا رَحْمَةَ

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).

رَبِّهِمُ، الَّذِي قَيَّضَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا، وَيَسَّرَ لَهُمْ أَمْرَهَا، وَجَعَلَهَا تَحْمِلُهُمْ وَتَحْمِلُ مَتَاعَهُمْ مِنْ مَحَلٍّ إِلَىٰ مَحَلٍّ وَمِنْ قُطْرٍ إِلَىٰ قُطْرٍ، وَقِيلَ: جَعَلْنَا عُقُوبَتَهُمْ لِلْغَرَقِ عِبْرَةً ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَأَنْجَيْنَا نُوحًا وَأَصْحَابَ سَفِينَتِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ حَمَلَهُمْ فِي سَفِينَتِهِ مِنْ وَلَدِهِ وَأَزْوَاجِهِمْ، يَقُولُ: وَجَعَلْنَا السَّفِينَةَ الَّتِي أَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَهُ فِيهَا عِبْرَةً وَعِظَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، قال ابن عاشور : انْتَقَلَ مِنْ خَبَرِ نُوحٍ إِلَىٰ خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ لِمُنَاسَبَةِ إِنْجَاءِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ كَإِنْجَاءِ نُوحٍ مِنَ الْمَاءِ ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ إِلَىٰ عِظَمِ الْقُدْرَةِ إِذْ أَنْجَتْ مِنَ الْمَاءِ وَمِنَ النَّارِ، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أَيْ أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَالْخَوْفَ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا والآخرة.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا﴾ أصناما،قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الصَّنَمُ مَا يُتَّخَذُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ نُحَاسٍ، وَالْوَثَنُ مَا يُتَّخَذُ مِنْ جِصٍّ أَوْ حِجَارَةٍ ،وَالْوَثَنُ أَخَصُّ مِنَ الصَّنَمِ لِأَنَّ الصَّنَمَ يُطْلَقُ عَلَىٰ حِجَارَةٍ غَيْرِ مُصَوَّرَةٍ مِثْلَ أَكْثَرِ أَصْنَامِ الْعَرَبِ كَصَنَمِ ذِي الْخَلَصَةِ لَخَثْعَمَ، وَكَانَتْ أَصْنَامُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ صُوَرًا ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تقولون كذبـًا، قال مقاتل: تصنعون أصناما بأيديكم فَتُسَمُّونَهَا آلِهَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِفْكُ الْكَذِبُ، وَالْمَعْنَىٰ تَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَتَخْلُقُونَ الْكَذِبَ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فِي نَقْصِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: قَدْ بَانَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ

الْأَوْثَانَ مَخْلُوقَةٌ نَاقِصَةٌ، لَا تَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، وَأَنَّ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، لَا يَسْتَحِقُّ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ مِثْقَالَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّأَلُّهِ، وَالْقُلُوبُ لَا بُدَّ أَنْ تَطْلُبَ مَعْبُودًا تَأْلَهُهُ وَتَسْأَلُهُ حَوَائِجَهَا، فَقَالَ - حَاثًّا لَهُمْ عَلَىٰ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ فَإِنَّهُ هُوَ الْمُيَسِّرُ لَهُ، الْمُقَدِّرُ، الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ مَنْ دَعَاهُ فِي أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِكَوْنِهِ الْكَامِلَ النَّافِعَ الضَّارَّ، الْمُتَفَرِّدَ بِالتَّدْبِيرِ، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وَحْدَهُ، لِكَوْنِ جَمِيعِ مَا وَصَلَ وَيَصِلُ إِلَىٰ الْخَلْقِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنْهُ، وَجَمِيعِ مَا انْدَفَعَ وَيَنْدَفِعُ مِنَ النِّقَمِ عَنْهُمْ فَهُوَ الدَّافِعُ لَهَا ، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُجَازِيكُمْ عَلَىٰ مَا عَمِلْتُمْ، وَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا أَسْرَرْتُمْ وَأَعْلَنْتُمْ، فَاحْذَرُوا الْقُدُومَ عَلَيْهِ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ، وَيُثِيبُكُمْ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ فَأُهْلِكُوا، ﴿وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَاحْرِصُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السعداء.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ﴾ كَيْفَ يَخْلُقُهُمُ ابْتِدَاءً نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فِي الآخرة بعد الْبَعْثِ وقيل: المعنىٰ أو لم يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الثِّمَارَ فَتَحْيَا ثُمَّ تفني ثم يعيدها أبداً ، وكذلك يبدأ خلق والإنسان ثُمَّ يُهْلِكُهُ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ مِنْهُ وَلَدًا، وَخَلَقَ مِنَ الْوَلَدِ وَلَدًا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ

الْحَيَوَانِ ، أَيْ فَإِذَا رَأَيْتُمْ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ الْإِبْدَاءِ وَالْإِيجَادِ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَالَ له كن فيكون.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فَانْظُرُوا إِلَىٰ دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ كَيْفَ بَدَأَ خَلْقَهُمْ، ﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أَيْ ثُمَّ اللهُ الَّذِي خَلَقَهَا يُنْشِئُهَا نَشْأَةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَمَا لَمْ يَتَعَذَّرْ عَلَيْهِ إِحْدَاثُهَا مبتدئا لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ إِنْشَاؤُهَا مُعِيدًا ، قال الْجَوْهَرِيُّ: أَنْشَأَهُ اللهُ خَلَقَهُ ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ إِنْشَاءِ خَلْقِهِ بَعْدَ إِفْنَائِهِمْ، وَعَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ أَيْ بِعَدْلِهِ، ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ﴾ أَيْ بِفَضْلِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرْجَعُونَ وَتُرَدُّونَ، وَالْقَلْبُ: الرُّجُوعُ، أَيْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّتِي بِهَا تَجْرِي عَلَيْكُمْ أَحْكَامُ عَذَابِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَاكْتَسِبُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ، مَا هُوَ مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَتِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَابْتَعِدُوا مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِهِ، وَهِيَ الْمَعَاصِي، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « **إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»[(١)] .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، فكل شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ وَهُوَ

---

(١) أبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧) .

الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَالْمُعْجِزُ حَقِيقَتُهُ: هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ غَيْرَهُ عَاجِزًا عَنْ فِعْلٍ مَا، ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فَإِنْ قِيلَ: مَا وَجْهُ جمعه بين السماء والأرض ، وَالْخِطَابُ مَعَ الْآدَمِيِّينَ وَهُمْ لَيْسُوا فِي السَّمَاءِ؟ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ وَلَا مَنْ فِي السَّمَاءِ بِمُعْجِزٍ أي لَا يُعْجِزُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَهْلُ السَّمَاءِ فِي السَّمَاءِ. وَقَالَ قُطْرُبٌ: مَعْنَاهُ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ لَوْ كُنْتُمْ فِيهَا ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيْ مِنْ وَلِيٍّ يَمْنَعُكُمْ مِنِّي وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ مِنْ عَذَابِي.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ وَبِالْبَعْثِ، ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أَيْ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا، فَالْمَعْنَىٰ: قَدْ أَيْأَسْنَاهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ ، قال القرطبي : ونَسَبَ الْيَأْسَ إِلَيْهِمْ وَالْمَعْنَىٰ أُويِسُوا وَهَذِهِ الْآيَاتُ اعْتِرَاضٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ تَذْكِيرًا وَتَحْذِيرًا لِأَهْلِ مَكَّةَ ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: فَلِذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا سَبَبًا وَاحِدًا يُحَصِّلُونَ بِهِ الرَّحْمَةَ، وَإِلَّا لَوْ طَمِعُوا فِي رَحْمَتِهِ، لَعَمِلُوا لِذَلِكَ أَعْمَالًا، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَاذِيرِ، وَهُوَ نَوْعَانِ: إِيَاسُ الْكُفَّارِ مِنْهَا، وَتَرْكُهُمْ جَمِيعَ سَبَبٍ يُقَرِّبُهُمْ مِنْهَا، وَإِيَاسُ الْعُصَاةِ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ جِنَايَاتِهِمْ أَوْحَشَتْهُمْ، فَمَلَكَتْ قُلُوبَهُمْ، فَأَحْدَثَ لَهَا الْإِيَاسَ، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ مُوجِعٌ شديد فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي تَذْكِيرِ أَهْلِ مَكَّةَ وَتَحْذِيرِهِمْ، وَهِيَ مُعْتَرَضَةٌ فِي قصة إبراهيم ثم عاد إلىٰ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مُعْتَرِضَاتٌ بَيْنَ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، وَرَدِّهِمْ عَلَيْهِ، وَاللهُ

أَعْلَمُ بِذَلِكَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلَكِ بْنِ هَاشِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ الْمِصْرِيَّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ، إِلَيْكَ تَقْصِدُ رَغْبَتِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ حَاجَتِي، وَمِنْكَ أَرْجُو نَجَاحَ طَلِبَتِي، وَبِيَدِكَ مَفَاتِيحُ مَسْأَلَتِي، لَا أَسْأَلُ الْخَيْرَ إِلَّا مِنْكَ، وَلَا أَرْجُوهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا أَيْأَسُ مِنْ رَوْحِكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِي بِفَضْلِكَ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، جاءت هذه الآية في سياق ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ﴾ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ ﴿فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ أَيْ مِنْ إِذَايَتِهَا، قَالَ النَّسَفِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَوْ قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَكَانَ الْبَاقُونَ رَاضِينَ فَكَانُوا جَمِيعًا فِي حُكْمِ الْقَائِلِينَ فَاتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ أَيْ فِي إِنْجَائِهِ مِنَ النَّارِ الْعَظِيمَةِ حَتَّىٰ لَمْ تُحْرِقْهُ بَعْدَ مَا أُلْقِيَ فِيهَا ﴿ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، قَالَ ابنُ كثير : وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَعَدَلُوا إِلَىٰ استعمال جاههم وقوة ملكهم.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ﴾ يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لِقَوْمِهِ، ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ مَعْنَاهُ إِنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَتَوَارَدُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا وَتَتَوَاصَلُونَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا ، قال القرطبي: وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ جَعَلْتُمُ الْأَوْثَانَ تَتَحَابُّونَ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ عِبَادَتِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ أَيْ يَلْعَنُ

الْأَتْبَاعُ الْمَتْبُوعِينَ، وَالْمَتْبُوعُونَ الْأَتْبَاعَ، والمقصود: تَتَبَرَّأُ الْأَوْثَانُ مِنْ عُبَّادِهَا وَالرُّؤَسَاءُ مِنَ السَّفَلَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، قَالَ قتادة: صارت كُلُّ خُلَّةٍ في الدنيا عداوة علىٰ أهلها يوم القيامة إلا خُلّة المتقين، ﴿وَمَأْواكُمُ النَّارُ﴾ أي مصيركم وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ النَّارِ، هُوَ خِطَابٌ لِعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الرُّؤَسَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَتْبَاعِ، وَقِيلَ: تَدْخُلُ فِيهِ الْأَوْثَانُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ من ناصر ينصركم، ولا منفذ ينقذكم من عذاب الله، أَخْرَجَ الْحَاكِمُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ، حَتَّىٰ لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ** -يَعْنِي مَكَانَ الدَّمْعِ- »[(١)].

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يَعْنِي صَدَّقَهُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ إِبْرَاهِيمَ يُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن آزر، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ أُرْسِلُ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَىٰ أَهْلِ سَدُومَ وَإِقْلِيمِهَا، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي ﴿وَقَالَ﴾ يعني ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فَهَاجَرَ مِنْ كُوثَىٰ وَهُوَ مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ إِلَىٰ حَرَّانَ ثُمَّ إِلَىٰ الشَّامِ وَمَعَهُ لُوطٌ وَامْرَأَتُهُ سَارَّةُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ

---

(١) المستدرك (٨٧٦٠).

وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ ، وَقِيلَ: الَّذِي قَالَ: ﴿إِنِّي مُهاجِرٌ إِلىٰ رَبِّي﴾ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال قَتَادَة: أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِهِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَحِبَهُمَا اللهُ، إِنَّ عُثْمَانَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ اللهِ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ**»[1] ، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ﴾ أَيْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْأَوْلَادِ فَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَلَدًا وَيَعْقُوبَ وَلَدَ وَلَدٍ ، وَإِنَّمَا وَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ مِنْ بَعْدِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ مِنْ إِسْحَاقَ ، وفي صحيح البخاري : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ ابنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ** »[2] ، ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾ فَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ صُلْبِهِ، وَوَحَّدَ الْكِتَابَ، لِأَنَّهُ أَرَادَ الْمَصْدَرَ كَالنُّبُوَّةِ، وَالْمُرَادُ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْفُرْقَانُ ، فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْجَمْعِ، فَالتَّوْرَاةُ أُنْزِلَتْ عَلَىٰ مُوسَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ، وَالْإِنْجِيلُ عَلَىٰ عِيسَىٰ مِنْ وَلَدِهِ، وَالْفُرْقَانُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي

---

(١) الطبراني ﴿الكبير ، رقم ٨٠٩) وفي إسناده مقال .

(٢) البخاري (٣٣٨٢) .

الدُّنْيَا﴾ وَهُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فَكُلُّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ يَتوَلَّوْنَهُ، ويثنون عليه، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ أَيْ عَاقِبَةً وَعَمَلًا صَالِحًا وَثَنَاءً حَسَنًا. وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ دِينٍ يَتوَلَّوْنَهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْوَلَدُ الصَّالِحُ، وَقِيلَ: هُوَ أَنَّهُ رَأَىٰ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ فِي زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِثْلَ آدَمَ وَنُوحٍ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَلَهُ هُنَاكَ أَيْضًا جَزَاءُ الصَّالِحِينَ، غَيْرَ مُنْتَقَصٍ حَظُّهُ بِمَا أُعْطِيَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَجْرِ عَلَىٰ بَلَائِهِ فِي اللهِ، عَمَّا لَهُ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: بَلْ هُوَ وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الصَّالِحِينَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً، فَجَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﴿لُوطٍ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ أَنْكَرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ سُوءَ صَنِيعِهِمْ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ الْأَعْمَالِ، فِي اتباعهم الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الفعلة أحد من نبي آدَمَ قَبْلَهُمْ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، أَيْ يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ، قَوْلُهُ ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وَهِيَ إِتْيَانُ الرِّجَالِ، وفي الحديث عن عَبْدِ اللهِ بْنُ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ،**

وَسُوءُ الْجِوَارِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ الْقِطْعَةِ مِنَ الذَّهَبِ، نَفَخَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فَلَمْ تَغَيَّرْ، وَلَمْ تَنْقُصْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ، أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ »(١) ، ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ عن عمرو بنِ دينار قَالَ: مَا نزا ذكر علىٰ ذكر حَتَّىٰ كَانَ قوم لوط ، ﴿مِنْ﴾ لِاسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ، أَيْ لَمْ يَكُنِ اللِّوَاطُ فِي أُمَّةٍ قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ. وَالْمُلْحِدُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ البصري: كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِالْغُرَبَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ الْفَاحِشَةَ بِمَنْ يَمُرُّ بِهِمْ مِنَ الْمُسَافِرِينَ، فَتَرَكَ النَّاسُ الْمَمَرَّ بِهِمْ، وَقِيلَ: تَقْطَعُونَ سَبِيلَ النَّسْلِ بِإِيثَارِ الرِّجَالِ عَلَىٰ النِّسَاءِ، قَالَ ابن عاشور : وَقَطْعُ السَّبِيلِ: قَطْعُ الطَّرِيقِ، أَيِ التَّصَدِّي لِلْمَارِّينَ فِيهِ بِأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ أَوْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَىٰ الْفَاحِشَةِ، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النَّادِي وَالنَّدَىٰ وَالْمُنْتَدَىٰ مَجْلِسُ الْقَوْمِ ومتحدثهم ، وَقيل : وَالنَّادِي: الْمَكَانُ الَّذِي يَنْتَدِي فِيهِ النَّاسُ، أَيْ يَجْتَمِعُونَ نَهَارًا لِلْمُحَادَثَةِ وَالْمُشَاوَرَةِ، وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قَالَ: «**كَانُوا يَحْذُفُونَ أَهْلَ الطَّرِيقِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، فَهُوَ الْمُنْكَرُ الَّذِي**

---

(١) أحمد (٦٨٧٢) .

كَانُوا يَأْتُونَ»[1] ، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ لُوطٌ مَا يَأْتُونَهُ مِنَ الْقَبَائِحِ، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ لَهُ اسْتِهْزَاءً ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِنَا، قال القرطبي : وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا هَذَا إِلَّا وَهُمْ مُصَمِّمُونَ عَلَىٰ اعْتِقَادِ كَذِبِهِ، ثُمَّ استنصر لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةً لِعَذَابِهِمْ، فَجَاءُوا إِبْرَاهِيمَ أَوَّلًا مُبَشِّرِينَ بِنُصْرَةِ لُوطٍ عَلَىٰ قَوْمِهِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي ﴿ هُودٍ﴾ وغيرها.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ، ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ أَرَادَ بِالنَّصْرِ عِقَابَ الْمُكَذِّبِينَ لِيُرِيَهُمْ صِدْقَ مَا أَبْلَغَهُمْ مِنْ رِسَالَةِ اللهِ. ﴿عَلَىٰ الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بِتَحْقِيقِ قَوْلِي فِي الْعَذَابِ، وَهَذَا لُجُوءٌ صَحِيحٌ مِنْ لُوطٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَىٰ رَبِّهِ حِينَ اسْتَعْصَىٰ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، وَأَصَرُّوا عَلَىٰ بَغْيِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، فَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ مِنَ اللهِ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَالْبُشْرَىٰ: اسْمٌ لِلْبِشَارَةِ وَهِيَ الْإِخْبَارُ بِمَا فِيهِ مَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ- بِفَتْحِ الْبَاءِ- قال ابن كثير : لِمَا اسْتَنْصَرَ ﴿ لوط﴾ عليه السلام بالله عزَّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بَعَثَ اللهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً، فَمَرُّوا عَلَىٰ ﴿ إبراهيم﴾ ، عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءتهم بما ينبغي للضيف، فلما رأىٰ إبراهيم أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ

(١) أحمد (٢٦٩٠٩) .

نكِرَهُمْ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُبَشِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنَ امْرَأَتِهِ سَارَّةَ، وَكَانَتْ حَاضِرَةً فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ أَخَذَ يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يُنْظَرُونَ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يَعْنِي قَوْمَ لُوطٍ، وَالْقَرْيَةُ سَدُومُ، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ وَالظُّلْمُ: ظُلْمُهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ وَالْفَوَاحِشِ، وَظُلْمُهُمُ النَّاسَ بِالْغَصْبِ عَلَىٰ الْفَوَاحِشِ وَالتَّدَرُّبِ بِهَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قال﴾ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لِلرُّسُلِ، ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا﴾ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أَيِ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَتْ تُسِرُّ الْكُفْرَ وَتُظْهِرُ الْإِيمَانَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ سَبَبُ الْتِفَاتِهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ غَيْرَ مُوقِنَةٍ بِنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَمَعْنَىٰ مِنَ الْغابِرِينَ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَالْغَابِرُ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْمُنْقَضِي، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْآتِي، فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَضْدَادِ، وَأَشْهَرُ إِطْلَاقَيْهِ هُوَ الْمُنْقَضِي، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: غَبَرَ بِمَعْنَىٰ هَلَكَ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ظَنَّ أَنَّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ حزن بهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ بِمَجِيئِهِمْ ، قَالَ قَتَادَةُ: ضَاقَ ذَرْعُهُ بِضِيَافَتِهِمْ لِمَا عَلِمَ مِنْ خُبْثِ فِعْلِ قَوْمِهِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا سَارَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ مُتَوَجِّهِينَ إِلَىٰ لُوطٍ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَرَدُوا عَلَيْهِ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حِسَانٍ فَلَمَّا رَآهُمُ اغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ؛ فَإِنْ أَضَافَهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مَكْرَ قَوْمِهِ، وَإِنْ لَمْ

يُضِفْهُمْ خَافَ عَلَيْهِمُ اعْتِدَاءَهُمْ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ بَعْدُ ،﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ﴾ مِنْ قَوْمِكَ عَلَيْنَا، ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ بِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُمْ، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ أَيْ: إِنَّا مُنْزِلُونَ -يَا لُوطُ- عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ -سَدُومَ- عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَسْتَهْتِرُونَ بِرُكُوبِهِمُ الْفَوَاحِشَ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهَا، ﴿عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابـًا، وَالرِّجْزُ: الْعَذَابُ الْمُؤْلِمُ وَمَعْنَىٰ كَوْنِهِ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأُفُقِ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: الْخَسْفُ وَالْحَصْبُ، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قال ابن كثير : وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتلع قراهم من قرار الأرض ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ منضود، وَجَعَلَ اللهُ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً خَبِيثَةً مُنْتِنَةً، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَىٰ يَوْمِ التَّنَادِ، وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ مِنْ قرىٰ لُوطٍ، ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ عبرة ظاهرة، قالَ قَتَادَةُ: هِيَ الْحِجَارَةُ الَّتِي أبقيت ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ آثَارُ مَنَازِلِهِمُ الْخَرِبَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَاءُ الْأَسْوَدُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ تَدَبُّرَ ذَوِي الْعُقُولِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْآيَةُ الْبَيِّنَةُ هي آثَارُ مَنَازِلِهِمُ الْخَرِبَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الْحِجَارَةُ الَّتِي أُهْلِكُوا بِهَا أَبْقَاهَا اللهُ حَتَّىٰ أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ ظُهُورُ الْمَاءِ الْأَسْوَدِ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ ابنُ كثير : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﴿ شُعَيْبٍ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ أَهْلَ مَدْيَنَ فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَخَافُوا بَأْسَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ وَسَطْوَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وَقَالَ يُونُسُ النَّحْوِيُّ: أَيِ اخْشَوُا الْآخِرَةَ الَّتِي فِيهَا الْجَزَاءُ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ وَاخْشَوُا الْيَوْمَ الْآخِرَ، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أَيْ لَا تَكْفُرُوا فَإِنَّهُ أَصْلُ كُلِّ فَسَادٍ ، وَالْعُثُوُّ وَالْعِثِيُّ أَشَدُّ الْفَسَادِ، وقد نَهَاهُمْ عَنِ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَهُوَ السَّعْيُ فِيهَا وَالْبَغْيُ عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْقِصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَىٰ النَّاسِ، هَذَا مَعَ كَفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلْزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ، وَصَيْحَةٍ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا، وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والرَّجْفَةُ: الزِّلْزَالُ الشَّدِيدُ الَّذِي تَرْتَجِفُ مِنْهُ الْأَرْضُ، وَفِي سُورَةِ هُودٍ سُمِّيَتْ بِالصَّيْحَةِ لِأَنَّ لِتِلْكَ الرَّجْفَةِ صَوْتًا شَدِيدًا كَالصَّيْحَةِ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَيِّتِينَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: قَدْ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، قال ابن كثير: فأهلكهم الله بِرَجْفَةٍ عظيمة زَلْزَلَت عليهم بلادهم، وصَيحةٍ أخرجت القلوب من حَنَاجرها، وعذاب يَوْمِ الظلّة الذي أزهَقَ الأرواحَ من مُستَقَرِّها، إنه كان عذاب يوم عظيم.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ أي وأهلكنا عادا وثمود، ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ يا أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ مَنَازِلِهِمْ بِالْحِجْرِ وَالْيَمَنِي: وَاذْكُرُوا كَذَلِكَ -أَيُّهَا الْقَوْمُ- مَصِيرَ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَآلَ مَسَاكِنِهِمْ إِلَىٰ الدَّمَارِ وَالْخَرَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ عَادًا -قَوْمَ هُودٍ- كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَثَمُودَ -قَوْمَ صَالِحٍ- كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَىٰ. وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا، فَهُمْ يَمُرُّونَ عَلَىٰ آثَارِ دِيَارِهِمْ كَثِيرًا أَثْنَاءَ الْأَسْفَارِ وَالتَّرْحَالِ، فَذَكَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ تِلْكَ الْبَقَايَا مِنَ الْأَطْلَالِ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَالتَّزْيِينُ: التَّحْسِينُ ، وَالْمُرَادُ: زَيَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الشَّنِيعَةَ فَأَوْهَمَهُمْ بِوَسْوَسَتِهِ أَنَّهَا حَسَنَةٌ ، ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال القرطبي : فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا : وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ فِي الضَّلَالَةِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

وَالثَّانِي: كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ قَدْ عَرَفُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ بِظُهُورِ الْبَرَاهِينِ .

وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ فُلَانٌ مُسْتَبْصِرٌ إِذَا عَرَفَ الشَّيْءَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: كَانُوا عُقَلَاءَ ذَوِي بَصَائِرَ فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ بَصَائِرُهُمْ ، وَقِيلَ: أَتَوْا مَا أَتَوْا ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَتَهُمُ الْعَذَابُ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عُقَلَاءَ مُتَمَكِّنِينَ مِنَ النَّظَرِ وَتَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ ، وَالِاسْتِبْصَارُ: الْبَصَارَةُ بِالْأُمُورِ، وَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلتَّأْكِيدِ

مِثْلَ: اسْتَجَابَ وَاسْتَمْسَكَ وَاسْتَكْبَرَ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَصَائِرَ، أَيْ عُقُولٍ فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي صَدِّهِمْ عَنِ السَّبِيلِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ أَيْ وَأَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ، وَقَارُونَ صَاحِبَ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَالْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ، وَفِرْعَوْنَ وَوَزِيرَهُ ﴿ هَامَانَ﴾ الْقِبْطِيَّيْنِ الْكَافِرَيْنِ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَبِرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالدَّلَالَاتِ، أَيْ: وَكَذَلِكَ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ - وَذَكِّرْ قَوْمَكَ- أَمْرَ قَارُونَ صَاحِبِ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَمَفَاتِيحِ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ، وَأَمْرَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَىٰ وَوَزِيرِهِ هَامَانَ، وَكَانَا -مِنَ الْقِبْطِ- عَلَىٰ الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَبَوْا الْإِيمَانَ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، فَدَكَّهُمُ الْعَذَابُ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَا بِأَنْفُسِهِمْ فَيَفُوتُونَا، بَلْ كُنَّا مُقْتَدِرِينَ عَلَيْهِمْ، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أَيْ فَائِتِينَ مِنْ عَذَابِنَا، وَقِيلَ: سَابِقِينَ فِي الْكُفْرِ بَلْ قَدْ سَبَقَهُمْ لِلْكُفْرِ قُرُونٌ كَثِيرَةٌ فَأَهْلَكْنَاهُمْ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ أَيْ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ﴿فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ وَهُمْ عَادٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ صَرْصَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ، عاتية شديدة الهبوب، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عَلَيْهِمْ، وَتَقْتَلِعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ من الأرض إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَىٰ أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُهُ فَيَبْقَىٰ بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وَهُمْ ثَمُودُ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدلالة علىٰ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ مِثْلَ مَا سَأَلُوا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ طُغْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخمَدَتِ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتِ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وَهُوَ قَارُونُ الَّذِي طَغَىٰ وَبَغَىٰ وَعَتَا وَعَصَىٰ الرب الأعلىٰ، ومشىٰ في الأرض مرحا وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عَنْ آخِرِهِمْ أُغْرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ، ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أَيْ فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي الْأَصْنَامَ يَرْجُونَ نَصْرَهَا وَنَفْعَهَا، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لِنَفْسِهَا تَأْوِي إِلَيْهِ، وَإِنَّ بَيْتَهَا فِي غاية الضعف والوهن،لَا يَدْفَعُ عَنْهَا حَرًّا وَلَا بردا فكذلك الْأَوْثَانُ لَا تَمْلِكُ لِعَابِدِيهَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، قال ابن كثير : فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهَنِهِ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنْ آلِهَتِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَإِنَّهُ لَا يُجْدِي عَنْهُ شَيْئًا، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ

فِي اتِّبَاعِ الشرع، فإنه متمسك بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لاَ انْفِصَامَ لَهَا لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ لَوْ عَلِمُوا أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ كَاتِّخَاذِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شيئًا، وأن هذا مثلهم لما عبدوها، لا أنهم يَعْلَمُونَ أَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ ضَعِيفٌ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الْمَعْنَىٰ: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ضَعْفَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الحكيم﴾ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ جَمِيعًا، الَّتِي قَهَرَ بِهَا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَأَتْقَنَ مَا أَمَرَهُ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ أي هذا المثل وغيره، والمثل كلام ساتر يَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ الْآخِرِ بِالْأَوَّلِ يُرِيدُ أَمْثَالَ الْقُرْآنِ الَّتِي شَبَّهَ بِهَا أَحْوَالَ كُفَّارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَحْوَالِ كفار الأمم المتقدمة، ﴿نَضْرِبُهَا نبينها، ﴿لِلنَّاسِ﴾ قال عطاء ومقاتل: لِكُفَّارِ مَكَّةَ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ مَا يَعْقِلُ الْأَمْثَالَ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الذين يعقلون عن الله، وعَن عَمْرو بن مرّة قَالَ: مَا مَرَرْت بِآيَة فِي كتاب الله لَا أعرفهَا إِلَّا أحزنتني لِأَنِّي سَمِعت الله تَعَالَىٰ يَقُول ﴿وَتلك الْأَمْثَال نَضْرِبهَا للنَّاس وَمَا يَعْقِلهَا إِلَّا الْعَالمُونَ﴾.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ لِلْحَقِّ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ، فيخبر تعالىٰ عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خلق السماوات وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يَعْنِي لَا عَلَىٰ وَجْهِ الْعَبَثِ واللعب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في خلقها، ﴿لَآيَةً﴾

أَيْ لَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُصَدِّقِينَ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ، وإقامة الصلاة أداؤها في وقتها بِقِرَاءَتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَقُعُودِهَا وَتَشَهُّدِهَا وَجَمِيعِ شُرُوطِهَا ، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الْفَحْشَاءُ مَا قُبِّحَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْمُنْكَرُ مَا لَا يُعْرَفُ فِي الشَّرْعِ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ: فِي الصَّلَاةِ مُنْتَهَىٰ وَمُزْدَجَرٌ عَنْ مَعَاصِي اللهِ فَمَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَهُ عن المنكر يزدد بصلاته بالمعروف ولم تنهه عن منكر لَمْ يَزْدَدْ بِصَلَاتِهِ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَصَلَاتُهُ وَبَالٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ أَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ صَاحِبَهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ مَا دَامَ فِيهَا ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: الصَّلَاةُ هُنَا الْقُرْآنُ. وَالْمَعْنَىٰ: الَّذِي يُتْلَىٰ فِي الصَّلَاةِ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وعن الزنىٰ وَالْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك، وقيل: أراد أن يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي الصَّلَاةِ فَالْقُرْآنُ ينهاه عن الفحشاء والمنكر عن أبي هريرة قال: جاءَ رَجُلٌ إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنّ فلانًا يُصَلِّي بالليل فإذا أَصْبَحَ سَرَق! فقال:

« **إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ** »[1]، والمقصود: أَنَّ إِقبال العبد علىٰ الله في صلاته بصدق يورثه تعظيم أوامره واجتناب نواهيه، فلا بد أن تأمره صلاته بترك الفحشاء والمنكر. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ ذِكْرُ اللهِ أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ، قال رسول والله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ من أن تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أعناقكم** ؟ قالوا: بلىٰ، قال: **ذِكْرُ اللهِ**»[2]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَلَذِكْرُ اللهِ إِيَّاكُمْ بِرَحْمَتِهِ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ بِطَاعَتِهِ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَىٰ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- «إِنَّ الْجَبَلَ لَيُنَادِي الْجَبَلَ بِاسْمِهِ: يَا فُلَانُ هَلْ مَرَّ بِكَ أَحَدٌ ذَكَرَ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ-؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ؛ اسْتَبْشَرَ»، قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: الذِّكْرُ لِلْقَلْبِ مِثْلُ الْمَاءِ لِلسَّمَكِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ السَّمَكِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ؟وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ أَيْ ذِكْرُ اللهِ إِيَّاكُمْ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ لَا يَخْفَىٰ عليه شيء.

---

(١) أحمد (٩٤٨٦).

(٢) أحمد (٢٧٥٤٤) والترمذي (٣٣٧٧).

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ لَا تُخَاصِمُوهُمْ، وَالْمُجَادَلَةُ: مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَدَلِ، وَهُوَ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ رَأْيٍ اخْتَلَفَ فِيهِ صَاحِبُهُ مَعَ غَيْرِهِ وأَهْلَ الْكِتابِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْيَهُودُ فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَالْقُرَىٰ حَوْلَهَا، وَيَشْمَلُ النَّصَارَىٰ إِنْ عَرَضَتْ مُجَادَلَتُهُمْ مِثْلَ مَا عَرَضَ مَعَ نَصَارَىٰ نَجْرَان، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَيْ بِالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ اللهِ بِآيَاتِهِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ حُجَجِهِ، وَأَرَادَ مَنْ قَبِلَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ، وقال القرطبي: أَيْ بِالْمُوَافَقَةِ فِيمَا حَدَّثُوكُمْ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَيْ أَبَوْا أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ وَنَصَبُوا الْحَرْبَ، فَجَادِلُوهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ يُسْلِمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ، وَمَجَازُ الْآيَةِ: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوكُمْ لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ ظَالِمٌ بِالْكُفْرِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُمْ أَهْلُ الْحَرْبِ وَمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: صَارَتْ مَنْسُوخَةً بِقَوْلِهِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مُحْكَمَةٌ فَيَجُوزُ مُجَادَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ دعوتهم لَهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ حُجَجِهِ وَآيَاتِهِ، رَجَاءَ إِجَابَتِهِمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، لَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْإِغْلَاظِ وَالْمُخَاشَنَةِ، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صِدْقُهُ وَلَا كَذِبُهُ فَهَذَا لَا نُقْدِمُ عَلَىٰ تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ولا تَصْدِيقِهِ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ به إيماناً مجملاً، وَقُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا** : ﴿آمنا بِالَّذِي أنزل إِلَيْنَا وَأنزل إِلَيْكُم وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ »[1] ، وَنَحْنُ لَهُ خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَهَانَا ، وعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، إِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ أَوْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ تَالِيَةٌ تَدْعُوهُ إِلَىٰ دِينِهِ كَتَالِيَةِ الْمَالِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ يعني كما أنزلنا إليهم الكتاب، ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيْ: الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَارِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم مؤمنو أَهْلِ مَكَّةَ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ وذلك أن اليهود وأهل مكة عَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ وَالْقُرْآنَ حق فجحدوا ، قال ابن عاشور : وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ فِي بَاطِنِهِ وَلَا يُظْهِرُ ذَلِكَ عِنَادًا وَكِبَرًا مِثْلَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وقال قَتَادَةُ: الْجُحُودُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ المعرفة.

---

(١) البخاري (٤٤٨٥) .

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني من قبل ما أنزل إِلَيْكَ الْكِتَابَ، ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ يَعْنِي وَلَا تَكْتُبُهُ، يَعْنِي لَمْ تَكُنْ تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ قَبْلَ الْوَحْيِ، قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ نَبِيُّ اللهِ لَا يَقْرَأُ كِتَابًا قَبْلَهُ، وَلَا يَخُطُّهُ بِيَمِينِهِ، قَالَ: كَانَ أُمِّيًّا، وَالْأُمِّيُّ: الَّذِي لَا يَكْتُبُ، قَالَ النَّحَّاسُ: هذا دليلٌ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ لِقُرَيْشٍ، لِأَنَّهُ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا يُخَالِطُ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ أَهْلُ الْكِتَابِ فَجَاءَهُمْ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ وَزَالَتِ الرِّيبَةُ والشك، ﴿إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَقَالُوا: إِنَّهُ يَقْرَؤُهُ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَيَنْسَخُهُ مِنْهَا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْمُبْطِلُونَ هُمُ الْيَهُودُ، وَمَعْنَاهُ إِذًا لَشَكُّوا فِيكَ وَاتَّهَمُوكَ، وَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي نَجِدُ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَاةِ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَيْسَ هَذَا عَلَىٰ ذَلِكَ النَّعْتِ. قال ابن كثير :يعني لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحي لشك المبطلون فَيَقُولُونَ: إِنَّمَا تَعَلَّمَ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْثُورَةٍ عَنِ الأنبياء، وقد قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ حَمَلُوا الْقُرْآنَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : بَلْ هُوَ - يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذُو آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِأَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ فِي كُتُبِهِمْ، وقال القرطبي : يْ لَيْسَ هَذَا الْقُرْآنُ كَمَا يَقُولُهُ الْمُبْطِلُونَ مِنْ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ شِعْرٌ، وَلَكِنَّهُ عَلَامَاتٌ وَدَلَائِلُ يُعْرَفُ بِهَا دِينُ اللهِ وَأَحْكَامُهُ. وَهِيَ كَذَلِكَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ، وَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ، يَحْفَظُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْعِلْمِ، لِأَنَّهُمْ مَيَّزُوا بِأَفْهَامِهِمْ بَيْنَ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ الْبَشَرِ وَالشَّيَاطِينِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْحِفْظَ، وَكَانَ مَنْ قَبْلَهَا لَا يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ إِلَّا نَظَرًا، فَإِذَا أَطْبَقُوهُ لَمْ يَحْفَظُوا مَا فِيهِ إِلَّا النَّبِيُّونَ ، فَقَالَ كَعْبٌ فِي صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: إِنَّهُمْ حُكَمَاءُ عُلَمَاءَ وَهُمْ فِي الْفِقْهِ أَنْبِيَاءُ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أَيِ الْكُفَّارُ، لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به، وقال ابن كثير : أي لِأَنَّهُ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مُيَسَّرٌ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ، مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، مُعْجِزٌ لَفْظًا وَمَعْنَىٰ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي صِفَةِ هَذِهِ الأمة : أناجيلهم في صدورهم.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾] كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ، قِيلَ: كَمَا جَاءَ صَالِحٌ بِالنَّاقَةِ، وَمُوسَىٰ بِالْعَصَا، وَعِيسَىٰ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، أَيْ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ وهو الْقَادِرِ عَلَىٰ إِرْسَالِهَا إِذَا شَاءَ أَرْسَلَهَا، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أُنْذِرُ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ بِالنَّارِ، وَلَيْسَ إِنْزَالُ الْآيَاتِ بِيَدِي.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ هذا الجواب لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنُ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، قال القرطبي : ولو أَتَيْتَهُمْ بِآيَاتِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ لَقَالُوا: سِحْرٌ وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ السِّحْرَ، وَالْكَلَامُ مَقْدُورٌ، لَهُمْ وَمَعَ

ذَلِكَ عَجَزُوا عَنِ الْمُعَارَضَةِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أَيْ فِي الْقُرْآنِ ﴿لَرَحْمَةً﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِيلَ: رَحْمَةً فِي الدُّنْيَا باستنقاذهم مِنَ الضَّلَالَةِ ، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ فِي الدُّنْيَا بِإِرْشَادِهِمْ بِهِ إِلَىٰ الْحَقِّ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ تَذْكِيرًا وَعِظَةً لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ بِهِ، وفي الصحيح عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ من بني إِلَّا قَدْ أُعطي مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يوم القيامة** »(١) .

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أَنِّي رَسُولُهُ وَهَذَا الْقُرْآنُ كِتَابُهُ أَيْ قُلْ لِلْمُكَذِّبِينَ لَكَ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا يَشْهَدُ لِي بِالصِّدْقِ فِيمَا أَدَّعِيهِ مِنْ أَنِّي رَسُولُهُ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كِتَابُهُ. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِغَيْرِ اللهِ ، وقال قتادة: بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ، قالَ يَحْيَىٰ ابنُ سَلَّامٍ: بِإِبْلِيسَ ، وَقِيلَ: بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ﴿وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ أَيْ لِتَكْذِيبِهِمْ بِرُسُلِهِ، وَجَحْدِهِمْ لِكِتَابِهِ ، وَقِيلَ: بِمَا أَشْرَكُوا بِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَأَضَافُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَضْدَادِ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: الْمَغْبُونُونَ فِي صَفْقَتِهِمْ حَيْثُ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: حَيْثُ هُمْ خَسِرُوا الْإِيمَانَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَيْثُ فَاتَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ، وَحَيْثُ

(١) البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢) .

حَصَلَ لَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ الصَّحِيحِ كُلُّ بَاطِلٍ قَبِيحٍ، وَفِي مُقَابَلَةِ النَّعِيمِ كُلُّ عَذَابٍ أَلِيمٍ، فَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لَمَّا أَنْذَرَهُمْ بِالْعَذَابِ قَالُوا لِفَرْطِ الْإِنْكَارِ: عَجِّلْ لَنَا هَذَا الْعَذَابَ، نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ حِينَ قَالَ: فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا وَعَدْتُكَ أَنِّي لَا أُعَذِّبُ قَوْمَكَ وَلَا أستأصلهم وأؤخر عذابهم، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، فإِذَا مَاتُوا صَارُوا إِلَىٰ الْعَذَابِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ مُدَّةُ أَعْمَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: يَوْمَ بَدْرٍ، وَعَلَىٰ الْجُمْلَةِ فَلِكُلِّ عَذَابٍ أَجَلٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ وَقِيلَ: الْأَجَلُ، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أَعَادَهُ تَأْكِيدًا، وقيل تَهْدِيدٌ وَإِنْذَارٌ بِأَخْذِهِمْ، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أَيْ تُحِيطُ بِهِمْ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ. لَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا دَخَلَهَا.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ﴾ يصيبهم وَالْغَشَيَانُ: التَّغْطِيَةُ وَالْحَجْبُ. ﴿الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يَعْنِي إِذَا غَشِيَهُمُ الْعَذَابُ أَحَاطَتْ بِهِمْ جَهَنَّمُ كَمَا قَالَ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

«**إِنَّ أَهْوَنَ أهل النار عذابًا يَوْمَ القيامة، لَرَجُلٌ يُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ،**

يغلي مِنْهما دِمَاغُه»(١) ، ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة: ثم يقول بِالْيَاءِ أَيْ وَيَقُولُ لَهُمُ الْمُوَكَّلُ بِعَذَابِهِمْ: ذُوقُوا، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالنُّونِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِأَمْرِهِ نُسِبَ إليه، أَيْ جَزَاءَ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ انْقَلَبَتْ عَلَيْكُمْ عَذَابًا، وَشَمَلَكُمُ الْعَذَابُ كَمَا شَمَلَكُمُ الْكُفْرُ وَالذُّنُوبُ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ فِي ضُعَفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ فِي ضِيقٍ بِمَكَّةَ مِنْ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ فَاخْرُجُوا مِنْهَا إِلَىٰ أَرْضِ الْمَدِينَةِ، إِنَّ أَرْضِيَ يَعْنِي الْمَدِينَةَ وَاسِعَةٌ آمِنَةٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ: إن أرضي وَاسِعَةٌ فَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا فِيهَا ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا عُمِلَ فِي الأرض بِالْمَعَاصِي فَاخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ ، وَقَالَ عَطَاءٌ: إِذَا أُمِرْتُمْ بِالْمَعَاصِي فَاهْرُبُوا فَإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ كَانَ فِي بَلَدٍ يُعْمَلُ فِيهَا بِالْمَعَاصِي وَلَا يُمْكِنُهُ تَغْيِيرُ ذَلِكَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ حَيْثُ يَتَهَيَّأُ لَهُ الْعِبَادَةُ ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ تَخَلَّفُوا عَنِ الْهِجْرَةِ بِمَكَّةَ وَقَالُوا: نَخْشَىٰ إِنْ هَاجَرْنَا مِنَ الْجُوعِ وَضِيقِ الْمَعِيشَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَمْ يَعْذُرْهُمْ بِتَرْكِ الْخُرُوجِ، وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: ﴿أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ﴾ أَيْ رِزْقِي لَكُمْ وَاسِعٌ فَاخْرُجُوا ، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ غَالِيَةٍ فَانْتَقِلْ إِلَىٰ غَيْرِهَا تَمْلَأُ فِيهَا جِرَابَكَ خُبْزًا بِدِرْهَمٍ.

---

(١) البخاري (٦٥٦١) ومسلم (٢١٣) .

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ خوفهم بالموت لتهون عَلَيْهِمُ الْهِجْرَةَ أَيْ كُلُّ وَاحِدٍ مَيِّتٌ أَيْنَمَا كَانَ فَلَا تُقِيمُوا بِدَارِ الشِّرْكِ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ، قَالَ ابنُ كثير : أَيْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ وَحَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ، ثُمَّ إِلَىٰ اللهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ ووافاه أتم الثواب ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فَنَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، قَالَ القرطبي : وإنما ذكره ها هنا تَحْقِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَمَخَاوِفِهَا ، كَأَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ نَظَرَ فِي عَاقِبَةٍ تَلْحَقُهُ فِي خُرُوجِهِ مِنْ وَطَنِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنَّهُ يَمُوتُ أَوْ يَجُوعُ أَوْ نَحْوِ هَذَا، فَحَقَّرَ اللهُ شَأْنَ الدُّنْيَا، أَيْ أَنْتُمْ لَا مَحَالَةَ مَيِّتُونَ وَمَحْشُورُونَ إِلَيْنَا، فَالْبِدَارُ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَالْهِجْرَةِ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ مَا يُمْتَثَلُ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أَيْ لننزلهم، وَالتَّبْوِئَةُ: الْإِنْزَالُ وَالْإِسْكَانُ ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ عَلَالِيَ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نِعْمَتْ هَذِهِ الْغُرَفُ أَجْرًا عَلَىٰ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ أَخرَّجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ**

ظُهُورِهَا ، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّىٰ لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ** »[(١)] .

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيْ عَلَىٰ دِينِهِمْ وَهَاجَرُوا إِلَىٰ اللهِ، وَنَابَذُوا الْأَعْدَاءَ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرِبَاءَ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَعْتَمِدُونَ علىٰ الله تعالىٰ : فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ: صَبْرُهُمْ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ وَتَحَمُّلِ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَاقُوهُ فَتَوَكَّلُوا عَلَىٰ ربّهم وَلم يعبأوا بِقَطِيعَةِ قَوْمِهِمْ وَلَا بِحِرْمَانِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ثُمَّ فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ فِرَارًا بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتَنِ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أَيْ لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئًا لغد ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كانوا بمكة وقد آذهم الْمُشْرِكُونَ: «هَاجِرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ» ، فَقَالُوا: كَيْفَ نَخْرُجُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَلَيْسَ لَنَا بِهَا دَارٌ وَلَا مَالٌ، فَمَنْ يُطْعِمُنَا بِهَا وَيَسْقِينَا؟ فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ ذات حاجة إلىٰ غداء، ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا ترفع مَعَهَا وَلَا تَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ مِثْلَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ، قال أبو مُجَلِّز: ﴿ من الدواب ما لا يستطيع أن يَدَّخر لغد، يُوَفَّق لرزقه كل يوم حتىٰ يموت ﴿اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ حَيْثُ كُنْتُمْ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لَوْ**

---

(١) أحمد (٢٢٩٠٨) والترمذي (١٩٨٤) .

أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بطانـاً»[1] ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ لَا نَجِدُ مَا نُنْفِقُ بِالْمَدِينَةِ، الْعَلِيمُ بِمَا فِي قلوبكم.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني كفار مكة، ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْفَقْرِ وَقَالُوا لَوْ كُنْتُمْ عَلَىٰ حَقٍّ لَمْ تَكُونُوا فُقَرَاءَ، وَكَانَ هَذَا تَمْوِيهًا، وَكَانَ فِي الْكُفَّارِ فُقَرَاءُ أَيْضًا أَزَالَ اللهُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ ، وَكَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنْ هَاجَرْنَا لَمْ نَجِدْ مَا نُنْفِقُ، أَيْ فَإِذَا اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَكَيْفَ تَشُكُّونَ فِي الرِّزْقِ، فَمَنْ بِيَدِهِ تَكْوِينُ الْكَائِنَاتِ لَا يَعْجِزُ عَنْ رِزْقِ الْعَبْدِ، وَلِهَذَا وَصَلَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِتَوْحِيدِي وَيَنْقَلِبُونَ عَنْ عِبَادَتِي.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ لَا يَخْتَلِفُ أَمْرُ الرِّزْقِ بِالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَالتَّوْسِيعُ وَالتَّقْتِيرُ مِنْهُ فَلَا تَعْيِيرَ بِالْفَقْرِ، فَكُلُّ شي بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ، ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مِنْ أَحْوَالِكُمْ وَأُمُورِكُمْ ، وقيل: عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ مِنْ إِقْتَارٍ أَوْ تَوْسِيعٍ.

---

(١) أحمد (٢٣٤٤) .

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ أَيْ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، ﴿فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها﴾ أَيْ جَدْبِهَا وَقَحْطِ أَهْلِهَا، ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أَيْ فَإِذَا أَقْرَرْتُمْ بِذَلِكَ فَلِمَ تُشْرِكُونَ بِهِ وَتُنْكِرُونَ الْإِعَادَةَ، وَإِذْ قَدَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ إِغْنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكُرِّرَ تَأْكِيدًا، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَا أَوْضَحَ مِنَ الْحُجَجِ والبراهين علىٰ قدرته، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ يُنْكِرُونَ التَّوْحِيدَ مَعَ إِقْرَارِهِمْ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، وَإِلْزَامٌ لَهُمْ بِمَا أَثْبَتُوهُ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَأَنْتَ لَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَمَنْ بِيَدِهِ تَدْبِيرُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وحده، ولاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله علىٰ شيء من ذلك.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ اللهو هو الاستماع بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَاللَّعِبُ الْعَبَثُ سُمِّيَتْ بِهِمَا لِأَنَّهَا فَانِيَةٌ، وَاللَّهْوُ: مَا يَلْهُو بِهِ النَّاسُ، أَيْ يَشْتَغِلُونَ بِهِ عَنِ الْأُمُورِ الْمُكَدِّرَةِ أَوْ يَعْمُرُونَ بِهِ أَوْقَاتَهُمُ الْخَلِيَّةُ عَنِ الْأَعْمَالِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ فَضَحَ الدُّنْيَا فَلَمْ يَدَعْ لِذِي لُبٍّ بِهَا فَرَحًا، وَقَالَ مُطَرِّفٌ: إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَفْسَدَ عَلَىٰ أَهْلِ النَّعِيمِ نَعِيمَهُمْ فَالْتَمِسُوا نَعِيمًا لَا مَوْتَ فِيهِ، وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: مَا تَرَكَ ذِكْرُ الْمَوْتِ لَنَا قُرَّةَ عَيْنٍ فِي أَهْلٍ وَلَا مَالٍ، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي الحياة الدائمة الباقية،

والحيوان بِمَعْنَىٰ الْحَيَاةِ أَيْ فِيهَا الْحَيَاةُ الدائمة، قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّتِي مِنْ لَوَازِمِهَا، أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُ أَهْلِهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ، وَقُوَاهُمْ فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ، لِأَنَّهَا أَبْدَانٌ وَقُوىً خُلِقَتْ لِلْحَيَاةِ، وَأَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا فِيهَا كُلُّ مَا تَكْمُلُ بِهِ الْحَيَاةُ، وَتَتِمُّ بِهِ اللَّذَّاتُ، مِن مُفَرِّحَاتِ الْقُلُوبِ، وَشَهَوَاتِ الْأَبْدَانِ، مِنَ الْمآكِلِ، وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاكِحِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَنَاءَ الدُّنْيَا وَبَقَاءَ الْآخِرَةِ ، وفي الحديث : عن سَهْلِ بنِ سعْدٍ السَّاعديِّ، رضي الله عنه، قَالَ: جاءَ رجُلٌ إِلَىٰ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقالَ: يَا رسولَ الله دُلَّني عَلىٰ عمَلٍ إِذا عَمِلْتُهُ أَحبَّني الله، وَأَحبَّني النَّاسُ، فقال: « **ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ** »[1] .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يَعْنِي السُّفُنَ وَخَافُوا الْغَرَقَ ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَيْ صَادِقِينَ فِي نِيَّاتِهِمْ، وَتَرَكُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَدُعَاءَهَا، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ عِنَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يُقِرُّونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ كَشْفِهَا هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، فَإِذَا زَالَتْ عَادُوا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ، قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَكِبُوا الْبَحْرَ حَمَلُوا مَعَهُمُ الْأَصْنَامَ ، فَإِذَا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الرِّيحُ أَلْقَوْهَا فِي الْبَحْرِ وقالوا: يا رب يا رب، قال القرطبي : أَيْ يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَمَا يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا. وَقِيلَ: إِشْرَاكُهُمْ أَنْ يَقُولَ

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) .

قَائِلُهُمْ لَوْلَا اللهُ وَالرَّئِيسُ أَوِ الْمَلَّاحُ لَغَرِقْنَا، فَيَجْعَلُونَ مَا فَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِنَ النَّجَاةِ قِسْمَةً بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وقد ذكر محمد بن إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ أَنَّهُ لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، ذَهَبَ فَارًّا مِنْهَا، فَلَمَّا رَكِبَ فِي الْبَحْرِ لِيَذْهَبَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ اضْطَرَبَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَقَالَ أَهْلُهَا: يَا قَوْمِ أَخْلِصُوا لِرَبِّكُمُ الدعاء، فَإِنَّهُ لَا يُنْجِي هَهُنَا إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لَئِنْ كَانَ لَا يُنْجِي فِي الْبَحْرِ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ لَا يُنْجِي فِي الْبَرِّ أَيْضًا غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدٌ لَئِنْ خَرَجْتُ لَأَذْهَبَنَّ فَلَأَضَعَنَّ يَدِي فِي يَدِ مُحَمَّدٍ، فَلَأَجِدَنَّهُ رَؤُوفًا رَحِيمًا، فَكَانَ كَذَلِكَ. [٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هَذَا لَامُ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وقِيلَ: هُمَا لَامُ كَيْ أَيْ لِكَيْ يَكْفُرُوا وَلِكَيْ يَتَمَتَّعُوا، قال ابن كثير : هذه اللام ﴿ لَامَ الْعَاقِبَةِ﴾ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَتَقْيِيضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ لَامُ التَّعْلِيلِ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال مجاهد : مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَسوف تَرَوْنَهُ وَمَا كَانَ فِي الْآخِرَة فسيبدو لكم.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: هِيَ مَكَّةُ وَهُمْ قُرَيْشٌ أَمَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهَا ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَهْلُ مَكَّةَ آمنون، قَالَ الضَّحَّاكُ: يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْخَطْفُ الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ، قال القرطبي : فَأَذْكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ لِيُذْعِنُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ، أَيْ جَعَلْتُ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا أَمِنُوا فِيهِ مِنَ

السَّبْيِ وَالْغَارَةِ وَالْقَتْلِ، وَخَلَّصْتُهُمْ فِي الْبَرِّ كَمَا خَلَّصْتُهُمْ فِي الْبَحْرِ، فَصَارُوا يُشْرِكُونَ فِي الْبَرِّ وَلَا يُشْرِكُونَ فِي الْبَحْرِ، فَهَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ تَنَاقُضِ أَحْوَالِهِمْ. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ بِالْأَصْنَامِ وَالشَّيْطَانِ، ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفَبِعَافِيَةِ اللهِ ، وَقَالَ ابْنُ شَجَرَةَ: أَفَبِعَطَاءِ اللهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَحَكَىٰ النَّقَّاشُ: أَفَبِإِطْعَامِهِمْ مِنْ جُوعٍ، وَأَمْنِهِمْ مِنْ خَوْفٍ يَكْفُرُونَ. وَهَذَا تَعَجُّبٌ وَإِنْكَارٌ خَرَجَ مَخْرَجَ الِاسْتِفْهَامِ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا﴾ فَزَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ شَرِيكًا وَأَنَّهُ أَمَرَ بِالْفَوَاحِشِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنِ، ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّن كَذَبَ علَىٰ الله، فقال إن الله أوحىٰ إليه وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شيء، وَهَكَذَا لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ، فَالْأَوَّلُ مُفْتَرٍ وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ، ولهذا قَال تعالىٰ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًىٰ لِلْكَافِرِينَ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّقْرِيرِ، مَعْنَاهُ: أَمَا لهذا الكافر مَأْوًىٰ فِي جَهَنَّمَ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ الَّذِينَ جَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ لِنُصْرَةِ دِينِنَا، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنثبتهم عَلَىٰ مَا قَاتَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ : أَيْ: الطُّرُقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْنَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : جَاهِدُوا فِي طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابِنَا ، وَقِيلَ: لَنَزِيدَنَّهُمْ هُدًىً ، وَقِيلَ: لَنُوَفِّقَنَّهُمْ لِإِصَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ هي التي توصل بِهَا إِلَىٰ رِضَا اللهِ عَزَّ وجل، وَقِيلَ: الْمُجَاهَدَةُ هِيَ الصَّبْرُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ. قَالَ الْحَسَنُ البصري : أَفْضَلُ الْجِهَادِ مُخَالَفَةُ الْهَوَىٰ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ

ابنُ عِيَاضٍ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي طَلَبِ العلم لنهدينهم سبل الْجَنَّةِ. وَقَالَ سَهْلُ ابنُ عَبْدِ اللهِ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْجَنَّةِ، وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابِنَا، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا فَعَلَيْكَ بِالْمُجَاهِدِينَ وَأَهْلِ الثُّغُورِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، قوله : ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ فِي دُنْيَاهُمْ وَبِالثَّوَابِ وَالْمَغْفِرَةِ فِي عُقْبَاهُمْ، عن الشعبي قال، قال عيسىٰ بن مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الإحسان أَنْ تُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تحسن إلىٰ من أحسن إليك، والله أعلم.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ، وهي ستون آية.

[١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿الم﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ أَيْ هَزَمَ كِسْرَىٰ مَلِكُ الْفُرْسِ جَيْشَ مَلِكِ الرُّومِ، وَالرُّومُ: اسْمٌ غَلَبَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَىٰ أُمَّةٍ مُخْتَلِطَةٍ مِنَ الْيُونَانِ وَالصَّقَالِبَةِ وَمِنَ الرُّومَانِيِّينَ الَّذِينَ أَصْلُهُمْ مِنَ اللَّاطِينِيِّينَ سُكَّانِ بِلَادِ إِيطَالْيَا نَزَحُوا إِلَىٰ أَطْرَافِ شَرْقِ أُورُوبَّا.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي أَدْنَىٰ الْأَرْضِ﴾ أَيْ أَقْرَبِ أَرْضِ الشَّامِ إِلَىٰ أَرْضِ فَارِسَ، قَالَ عِكْرِمَةُ: هِيَ أَذْرِعَاتُ وَكَسْكَرُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرْضُ الْجَزِيرَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْأُرْدُنُ وَفِلَسْطِينُ، ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أَيْ الرُّومُ مِنْ بَعْدِ غَلَبَةِ فَارِسَ إِيَّاهُمْ، وَالْغَلَبُ وَالْغَلَبَةُ لُغَتَانِ، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ الفرس، قال ابن عباس: قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَىٰ الرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَىٰ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿أَمَا إِنَّهُمْ

سَيَغْلِبُونَ﴾ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا فَجَعَلَ أَجَلَ خَمْسِ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿ أَلَا جَعَلْتَهُ إِلَىٰ دُونِ ﴾ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وَالْبِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ السبع، وقيل: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ التِّسْعِ: وَقِيلَ: مَا دُونُ الْعَشَرَةِ، ﴿سَيُغْلَبُونَ﴾ ، وَقَالُوا: نَزَلَتْ حِينَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن غلبة الروم فارس، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: الم غَلَبَتِ الرُّومُ فارس فِي أَدْنَىٰ الْأَرْضِ إِلَيْكُمْ وَهُمْ من بعد غلبهم سيغلبهم الْمُسْلِمُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ، وَعِنْدَ انْقِضَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ فِي جِهَادِ الرُّومِ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ من بعد دَوْلَةِ الرُّومِ عَلَىٰ فَارِسَ وَمِنْ بَعْدِهَا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ لَهُمُ الْغَلَبَةُ فَهُوَ بِأَمْرِ اللهُ وَقَضَائِهِ وقدره؟! ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عاشور : فِيهِ أَدَبٌ عَظِيمٌ لِلْمُسْلِمِينَ لِكَيْ لَا يُعَلِّلُوا الْحَوَادِثَ بِغَيْرِ أَسْبَابِهَا وَيَنْتَحِلُوا لَهَا عِلَلًا تُوَافِقُ الْأَهْوَاءَ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ الدَّجَاجِلَةُ مِنَ الْكُهَّانِ وَأَضْرَابِهِمْ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِنَصْرِ اللهِ﴾ الرُّومَ عَلَىٰ فَارِسَ، قَالَ السُّدِّيُّ: فَرِحَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ، بِظُهُورِهِمْ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ وَظُهُورِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَىٰ أَهْلِ الشِّرْكِ، ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ وَهَذَا مِنَ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ الْمُؤَكِّدِ لِمَعْنَىٰ جُمْلَةٍ قَبْلَهُ هِيَ بِمَعْنَاهُ وَيُسَمِّيهِ النَّحْوِيُّونَ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا ، أَيْ وَعَدَ اللهُ وَعْدًا بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَىٰ فَارِسَ، ﴿ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ لِأَنَّ كَلَامَهُ صِدْقٌ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ وَهُمْ أَكْثَرُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مُشْرِكُو مَكَّةَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي أَمْرَ مَعَاشِهِمْ كَيْفَ يَكْتَسِبُونَ وَيَتَّجِرُونَ وَمَتَىٰ يَغْرِسُونَ وَيَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ وكيف يبنون ويعيشون ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ سَاهُونَ عَنْهَا جَاهِلُونَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي الْآيَةِ قَالَ: لَيَبْلُغُ مِنْ حِذْقِ أَحَدِهِمْ بِأَمْرِ دُنْيَاهُ أَنَّهُ يُقَلِّبُ الدِّرْهَمَ عَلَىٰ ظُفُرِهِ فَيُخْبِرُكَ بِوَزْنِهِ وَمَا يُحْسِنُ يُصَلِّي.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يَعْنِي بِهِ النَّظَرَ وَالتَّأَمُّلَ لِخَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ، مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلِقَتْ سُدًىٰ وَلَا بَاطِلًا بَلْ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مسمىٰ وهو يوم القيامة، ﴿مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ لِلْحَقِّ، قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، وَقِيلَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَلِلْحَقِّ خَلَقَهَا، وَهُوَ الدَّلَالَةُ علىٰ توحيده وقدرته، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ إِذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فَنِيَتْ وَهُوَ الْقِيَامَةُ، قال القرطبي : وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ الْفَنَاءِ، وَعَلَىٰ أَنَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ أَجَلًا، وَعَلَىٰ ثَوَابِ

الْمُحْسِنِ وَعِقَابِ الْمُسِيءِ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ اللَّامُ لِلتَّوْكِيدِ، وَالتَّقْدِيرُ: لَكَافِرُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ، عَلَىٰ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، أَيْ لَكَافِرُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتَقُولُ: إِنَّ زَيْدًا فِي الدَّارِ لَجَالِسٌ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ بِبَصَائِرِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ. أَوَلَمَ يُسَافِرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَىٰ مَصَارِعِ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ فَيَعْتَبِرُوا، ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾أَيْ كَانَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزِّرَاعَةِ، لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ حَرْثٍ، قال الله تعالىٰ في وصف بقرة بني إسرائيل: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]، قوله: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرَهَا أَهْلُ مَكَّةَ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ عِمَارَتُهُمْ وَلَا طُولُ مُدَّتِهِمْ، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَقِيلَ: بِالْأَحْكَامِ فَكَفَرُوا ولم يُؤْمِنُوا فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ، بِأَنْ أَهْلَكَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا رُسُلٍ وَلَا حُجَّةٍ، ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ أي أساءوا العمل، ﴿السُّوأَىٰ﴾ يَعْنِي الْخَلَّةَ الَّتِي تَسُوؤُهُمْ وَهِيَ النار، السُّوأَىٰ فُعْلَىٰ مِنَ السُّوءِ تَأْنِيثُ الْأَسْوَأِ وَهُوَ الْأَقْبَحُ، كَمَا أَنَّ الْحُسْنَىٰ تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ، وقيل: السوء اسْمٌ لِجَهَنَّمَ كَمَا أَنَّ الْحُسْنَىٰ اسم للجنة، ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ أَيْ لِأَنْ كَذَّبُوا، قِيلَ بِمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، وقال مُقَاتِلٌ: بِالْعَذَابِ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ، وقال الضَّحَّاكُ:

بِمُعْجِزَاتِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الْمَعْنَىٰ: كَانَتْ لَهُمُ السُّوأَىٰ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا وَبِرُسُلِهِ.

[١١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَيْ يَخْلُقُهُمُ ابْتِدَاءً ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَحْيَاءً، وَلَمْ يَقُلْ يُعِيدُهُمْ، رَدَّهُ إِلَىٰ الْخَلْقِ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أَيْ: يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَيَرِدُونَ الْقِيَامَةَ عِيَانًا، يَوْمَئِذٍ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ييأسون من كل خير ، قَالَ قَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ: يَيْأَسُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: يَنْقَطِعُ كَلَامُهُمْ وَحَجَّتُهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَفْتَضِحُونَ ، قال الزَّجَّاجُ: الْمُبْلِسُ السَّاكِتُ الْمُنْقَطِعُ فِي حُجَّتِهِ، الْيَائِسُ مِنْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ أَيْ مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ تعالىٰ وَكَفَرُوا بِهِمْ وَخَانُوهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ، ﴿ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ جَاحِدِينَ مُتَبَرِّئِينَ يَتَبَرَّءُونَ مِنْهَا وَتَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أَيْ يَتَمَيَّزُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَتَفَرَّقُونَ بَعْدَ الْحِسَابِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَلَا يَجْتَمِعُونَ أَبَدًا ، فَيُؤْخَذُ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَيُؤْخَذُ بِأَهْلِ الْكُفْرِ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَذَاكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا، لَا لِقَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ وَهِيَ الْبُسْتَانُ الَّذِي فِي غَايَةِ النضارة، وَالرَّوْضَةُ: كُلُّ أَرْضٍ ذَاتِ أَشْجَارٍ وَمَاءٍ وَأَزْهَارٍ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ فِي الْجِنَانِ وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَالرَّوْضَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَا يَنْبُتُ حول الْغَدِيرِ مِنَ الْبُقُولِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْعَرَبِ شي أَحْسَنُ مِنْهُ. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُكْرَمُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يُنَعَّمُونَ. ويُحْبَرُونَ: يُسَرُّونَ مِنَ الْحُبُورِ، وَهُوَ السُّرُورُ الشَّدِيدُ. يُقَالُ: حَبَّرَهُ، إِذَا سَرَّهُ سُرُورًا تَهَلَّلَ لَهُ وَجْهُهُ وَظَهَرَ فِيهِ أَثَرُهُ، وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: تُحْبَرُونَ هُوَ السَّمَاعُ في الجنة.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الَّتِي جاءَتْهُمْ بِهَا رُسُلُنَا ﴿ وَلِقاءِ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ بِالْبَعْثِ، ﴿فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أَيْ مُقِيمُونَ ، وَقِيلَ: مَجْمُوعُونَ ، وَقِيلَ: مُعَذَّبُونَ، وَقِيلَ: نَازِلُونَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: قَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ جَهَنَّمُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ وَاطَّلَعَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ عَلَىٰ أَفْئِدَتِهِمْ وَشَوَىٰ الْحَمِيمُ وُجُوهَهُمْ وَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ، فَأَيْنَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَأَيْنَ التَّسَاوِي بَيْنَ الْمُنَعَّمِينَ وَالْمُعَذَّبِينَ ؟ .

[١٧] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ أَيْ سَبِّحُوا اللهَ وَمَعْنَاهُ صَلُّوا لله، وَفِي تَسْمِيَةِ الصَّلَاةِ بِالتَّسْبِيح وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: لِمَا تَضَمَّنَهَا مِنْ ذِكْرِ التَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ.

الثَّانِي: مَأْخُوذٌ مِنَ السُّبْحَةِ وَالسُّبْحَةُ الصَّلَاةُ.

وجاء في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ صَلَّىٰ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ**»[1]، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي تدخلوا في المساء وَهُوَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاحِ، وَهُوَ صَلَاةُ الصُّبْحِ. لِإِمْسَاءُ: اقْتِرَابُ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَىٰ الْعِشَاءِ، وَالصَّبَاحُ: أَوَّلُ النَّهَارِ، وَالْإِظْهَارُ: حُلُولُ وَقْتِ الظُّهْرِ وَهُوَ نِصْفُ النَّهَارِ ، وفي الحديث: « أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّىٰ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّىٰ ؟ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَكُلَّمَا أَمْسَىٰ: ﴿سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾» ، قَالَ النَّحَّاسُ: أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ :﴿ فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ فِي الصَّلَوَاتِ ، وقال عَلِيَّ ابنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ: حَقِيقَتُهُ عِنْدِي: فَسَبِّحُوا الله في الصلوات، لان التسبيح يكون فِي الصَّلَاةِ، وقيل المعنىٰ : فَسَبِّحُوا اللهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُصَلُّونَ لَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أَيِ الصَّلَاةُ لَهُ لِاخْتِصَاصِهَا بِقِرَاءَةِ الْحَمْدِ ، قَالَ القرطبي : وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، فَإِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ مِنْ نَوْعِ تَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْحَضِّ عَلَىٰ عِبَادَتِهِ وَدَوَامِ نِعْمَتِهِ، فَيَكُونُ نَوْعًا

---

(١) أحمد (٢١١٠٥) والنسائي (١٢٩٨) .

آخَرَ خِلَافَ الصَّلَاةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي صلوا له عَشِيًا يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَالْعَشِيُّ: مَا بَعْدَ الْعَصْرِ، وقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْعِشِيُّ وَالْعَشِيَّةُ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ إِلَىٰ الْعَتَمَةِ، قال الْمَاوَرْدِيُّ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَسَاءِ وَالْعِشَاءِ: أَنَّ الْمَسَاءَ بُدُوُّ الظَّلَامِ بَعْدَ الْمَغِيبِ، وَالْعِشَاءَ آخِرُ النَّهَارِ عِنْدَ مَيْلِ الشَّمْسِ لِلْمَغِيبِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ عَشَا الْعَيْنِ وَهُوَ نَقْصُ النُّورِ مِنَ النَّاظِرِ كنقص نور الشمس.﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة وهو الظُّهْرِ، قَالَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ لابن عباس: هل تجد صلاة الْخَمْسَ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، وَقَالَ: جَمَعَتِ الآية صلاة الخمس ومواقيتها، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَخَصَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ بِاسْمِ التَّسْبِيحِ وَصَلَاةَ النَّهَارِ بِاسْمِ الْحَمْدِ لِأَنَّ لِلْإِنْسَانِ فِي النَّهَارِ مُتَقَلَّبًا فِي أَحْوَالٍ تُوجِبُ حَمْدَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا، وَفِي اللَّيْلِ عَلَىٰ خَلْوَةٍ تُوجِبُ تَنْزِيهَ اللهِ مِنَ الْأَسْوَاءِ فِيهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ الْحَمْدُ بِالنَّهَارِ أَخَصَّ فَسُمِّيَتْ بِهِ صَلَاةُ النَّهَارِ، وَالتَّسْبِيحُ بِاللَّيْلِ أَخصُّ فَسُمِّيَتْ بِهِ صَلَاةُ اللَّيْلِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُخْرِجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَاءً مَيْتًا فَيُخْلَقُ مِنْهُ بَشَرًا فَذَلِكَ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، فَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ يَخْلُقُ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا، فَذَلِكَ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْإِخْرَاجُ: فَصْلُ شَيْءٍ مَحْوِيٍّ عَنْ حَاوِيهِ، يُقَالُ: أَخْرَجَهُ مِنَ الدَّارِ، وَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ، فَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، وقوله: ﴿وَيُحْيِي

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَيْ: فَيُنْبِتُهَا وَيُخْرِجُ زَرْعَهَا بَعْدَ خَرَابِهَا وَجُدُوبِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أَيْ: فَكَذَلِكَ يَبْعَثُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ فَيُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَيْ مِنْ عَلَامَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، أَيْ خَلَقَ أَصْلَكُمْ يَعْنِي آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ تَنْبَسِطُونَ فِي الْأَرْضِ، قَالَ القرطبي : ثُمَّ أَنْتُمْ عُقَلَاءُ نَاطِقُونَ تَتَصَرَّفُونَ فِيمَا هُوَ قِوَامُ مَعَايِشِكُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقَكُمْ عَبَثًا، وَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ أَهْلٌ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّسْبِيحِ. وَالِانْتِشَارُ: الظُّهُورُ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَالتَّبَاعُدُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْأَعْمَالِ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الْجُمُعَة: ١٠] .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قِيلَ: مِنْ جِنْسِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَقِيلَ: خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أَيْ نِسَاءً تَسْكُنُونَ إِلَيْهَا. وَالسُّكُونُ: هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلتَّأَنُّسِ وَفَرَحِ النَّفْسِ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ زَوَالَ اضْطِرَابِ الوحشة والكمد بِالسُّكُونِ الَّذِي هُوَ زَوَالُ اضْطِرَابِ الْجِسْمِ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ جَعَلَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ الْمَوَدَّةَ وَالرَّحْمَةَ فَهُمَا يَتَوَادَّانِ وَيَتَرَاحَمَانِ وَمَا شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ رَحِمٍ بَيْنَهُمَا، قال ابن عاشور: وَالْمَوَدَّةُ: الْمَحَبَّةُ، وَالرَّحْمَةُ: صِفَةٌ تَبْعَثُ عَلَىٰ حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ ، أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

« لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ»[1] ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي عَظَمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ومن آيَاتِهِ﴾ الدالة علىٰ قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ السموات وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَشُفُوفِ أَجْرَامِهَا وَزِهَارَةِ كَوَاكِبِهَا، وَنُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافة، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ، وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ وحيوان وأشجار، ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يَعْنِي اخْتِلَافَ اللُّغَاتِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ والعجمية وغيرهما، قال القرطبي: اللِّسَانُ فِي الْفَمِ، وَفِيهِ اخْتِلَافُ اللُّغَاتِ: مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَجَمِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ ، وَاخْتِلَافُ الْأَلْوَانِ فِي الصُّوَرِ: مِنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ، فَلَا تَكَادُ تَرَىٰ أَحَدًا إِلَّا وَأَنْتَ تُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ. وَلَيْسَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ فِعْلِ النُّطْفَةِ وَلَا مِنْ فِعْلِ الْأَبَوَيْنِ، فَلَا بُدَّ مِنْ فَاعِلٍ، فَعُلِمَ أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَهَذَا مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَىٰ الْمُدَبِّرِ الْبَارِئِ ، ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ ، وَأَنْتُمْ وَلَدُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ .

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِالنَّهَارِ أَيْ تَصَرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ

---

(١) ابن ماجه (١٨٤٧) .

الْمَعِيشَةِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ، وَقِيلَ: يَسْمَعُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ. وَقِيلَ: يَسْمَعُونَ الْوَعْظَ فَيَخَافُونَهُ، وَقِيلَ: يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ فَيُصَدِّقُونَهُ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ، وَقِيلَ: كَانَ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا تُلِيَ الْقُرْآنُ وَهُوَ حَاضِرٌ سَدَّ أُذُنَيْهِ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ، فَبَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الدَّلَائِلَ عَلَيْهِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ أَنَّهُ ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيْ تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَحْدُثُ بَعْدَهُ مِنْ أمطار مزعجة، وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي به من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ موتها﴾ أَيْ بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَىٰ الْمَعَادِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قَامَتَا عَلَىٰ غَيْرِ عَمَدٍ بِأَمْرِهِ، وَقِيلَ: يَدُومُ قيامهما بِأَمْرِهِ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا اجتهد في اليمين، قال: وَالَّذِي تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، أَيْ هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُدِّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءً، بأمره تعالىٰ ودعائه إياهم، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَ

الْقُبُورِ، ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ مِنْهَا وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ الْآيَةِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ من قبوركم ليوم الفصل.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون، قال الكلبي: لهذا خَاصٌ لِمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُطِيعًا، عن ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلٌّ لَهُ مُطِيعُونَ فِي الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ وَالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَإِنْ عَصَوْا فِي الْعِبَادَةِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يَخْلُقُهُمْ أَوَّلًا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْبَعْثِ، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَيْسَرُ عَلَيْهِ، وقال الربيع بن خثيم: أَيْ هُوَ هَيِّنٌ عَلَيْهِ وَمَا شَيْءٌ عَلَيْهِ بِعَزِيزٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أَيْ أَيْسَرُ وَوَجْهُهُ أَنَّهُ عَلَىٰ طَرِيقِ ضَرَبِ الْمَثَلِ أَيْ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ عَلَىٰ مَا يَقَعُ فِي عُقُولِكُمْ، فَإِنَّ الَّذِي يَقَعُ فِي عُقُولِ النَّاسِ أَنَّ الْإِعَادَةَ تَكُونُ أَهْوَنَ مِنَ الْإِنْشَاءِ، أَيْ الِابْتِدَاءِ، وَقِيلَ: هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ عِنْدَكُمْ. وَقِيلَ: هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أَيْ عَلَىٰ الْخَلْقِ يَقُومُونَ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَكُونُ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا نُطَفًا، ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضَغًا إِلَىٰ أَنْ يصيروا رجالا ونساء وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عليَّ مِنْ إِعَادَتِهِ وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** » ، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أَيِ الصِّفَةُ الْعُلْيَا ، قَالَ

السَّعْدِيُّ: هُوَ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَالْكَمَالُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِنَابَةُ التَّامَّةُ الْكَامِلَةُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ وَالذِّكْرُ الْجَلِيلُ وَالْعِبَادَةُ مِنْهُمْ. فَالْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ هُوَ وَصْفُهُ الْأَعْلَىٰ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمِلُونَ فِي حَقِّ الْبَارِي قِيَاسَ الْأَوْلَىٰ، فَيَقُولُونَ: كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فَخَالِقُهَا أَحَقُّ بِالِاتِّصَافِ بِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ يُنَزَّهُ عَنْهُ فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهُ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ ، أَيْ: لَهُ الْعِزَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحِكْمَةُ الْوَاسِعَةُ، فَعِزَّتُهُ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ وَأَظْهَرَ الْمَأْمُورَاتِ، وَحِكْمَتُهُ أَتْقَنَ بِهَا مَا صَنَعَهُ وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا شَرَعَهُ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ بَيَّنَ لَكُمْ متمثلاً بِحَالِكُمْ، وَذَلِكَ الْمَثَلُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ثُمَّ بَيَّنَ الْمَثَلَ فَقَالَ: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي عبيدكم ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من المال ﴿فَأَنْتُمْ﴾ وهم، ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي شرع أَيْ هَلْ يُشَارِكُكُمْ عَبِيدُكُمْ فِي أَمْوَالِكُمُ الَّتِي أَعْطَيْنَاكُمْ، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ تَخَافُونَ أَنْ يُشَارِكُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَيُقَاسِمُوكُمْ كَمَا يَخَافُ الْحُرُّ شَرِيكَهُ الْحُرَّ فِي الْمَالِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا أَنْ يَنْفَرِدَ فِيهِ بِأَمْرٍ دُونَهُ وَكَمَا يَخَافُ الرَّجُلُ شَرِيكَهُ فِي الْمِيرَاثِ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَنْفَرِدَ بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَخَافُونَهُمْ أَنْ يَرِثُوكُمْ كَمَا يَرِثُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَإِذَا لَمْ تَخَافُوا هذا

من مواليكم وَلَمْ تَرْضَوْا ذَلِكَ لِأَنْفُسِكُمْ فَكَيْفَ رَضِيتُمْ أَنْ تَكُونَ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا شُرَكَائِي وَهُمْ عَبِيدِي، قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: إِنَّ مَمْلُوكَكَ لَا تَخَافُ أَنْ يُقَاسِمَكَ مَالَكَ وَلَيْسَ لَهُ ذَاكَ، كَذَلِكَ اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمَعْنَىٰ: هَلْ يَرْضَىٰ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ مِثْلَهُ، فَإِذَا لَمْ تَرْضَوْا بِهَذَا لِأَنْفُسِكُمْ فَكَيْفَ جَعَلْتُمْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّلَائِلِ بِعُقُولِهِمْ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا بالله، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الشرك، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جَهْلًا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، ا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ذَكَرَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ بِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِي عِبَادَتِهَا وَتَقْلِيدِ الْأَسْلَافِ فِي ذَلِكَ ، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ أَيْ لَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أَيْ أَخْلِصْ دِينَكَ لِلَّهِ ، وَإِقَامَةُ الْوَجْهِ إِقَامَةُ الدِّينِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: سَدِّدْ عَمَلَكَ، وَالْوَجْهُ مَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَدِينُهُ وَعَمَلُهُ، مِمَّا يَتَوَجَّهُ إليه لتسديده ﴿حَنِيفًا﴾ مَائِلًا مُسْتَقِيمًا عَلَيْهِ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿أَيْ: فَقَوِّمْهُ لَهُ، وَاجْعَلْهُ مُسْتَقِيمًا مُتَوَجِّهًا لَهُ﴾ وَالْحَنِيفُ: الْمَائِلُ عَنِ الْبَاطِلِ إِلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ، ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ دِينَ اللهِ وَهُوَ نُصِبَ عَلَىٰ الْإِغْرَاءِ أَيْ إِلْزَمْ فِطْرَةَ اللهِ ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خلق الناس عليها، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِطْرَةِ الدِّينُ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَذَهَبَ

قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ فِي المؤمنين هم الَّذِينَ فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ فَمَنْ حَمَلَ الْفِطْرَةَ عَلَىٰ الدِّينِ قَالَ: مَعْنَاهُ ، لَا تَبْدِيلَ لِدِينِ اللهِ وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَىٰ النَّهْيِ أَيْ لَا تُبَدِّلُوا دِينَ اللهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ الْزَمُوا فِطْرَةَ اللهِ أَيْ دِينَ اللهِ وَاتَّبِعُوهُ وَلَا تُبَدِّلُوا التَّوْحِيدَ بالشرك، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَىٰ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»(١) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الْمُسْتَقِيمُ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَقِيلَ: لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ أَيْ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ من السعادة والشقاء لا يبدل فَلَا يَصِيرُ السَّعِيدُ شَقِيًّا وَلَا الشقي سعيدا. وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «**إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وأمرتهم أن لا يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(٢).

---

(١) البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُنِيبِينَ﴾ أَيْ فَأَقِمْ وَجْهَكَ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ منيبين إليه لأن المخاطبة لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل مَعَهُ فِيهَا الْأُمَّةُ ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمُنِيبُ إِلَىٰ اللهِ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ، الَّذِي أَنَابَ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ، وَرَجَعَ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، كَانَ الْقَوْمُ كُفَّارًا، فَنَزَعُوا وَرَجَعُوا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَالْمُنِيبُ: الْمُلَازِمُ لِلطَّاعَةِ ، وَيَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَىٰ أَنَابَ صَارَ ذَا نَوْبَةٍ، أَيْ ذَا رُجُوعٍ مُتكَرِّرٍ ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كونوا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ لَا يُرِيدُونَ بها سواه، قال ابن جرير: مَرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِمُعَاذِ بْنِ جبل، فقال عمر: مَا قِوَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ مُعَاذٌ: ثَلَاثٌ وهن الْمُنْجِيَاتِ: الإخلاص، وَهِيَ الْفِطْرَةُ، فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَالصَّلَاةُ وَهِيَ الْمِلَّةُ، وَالطَّاعَةُ وهي العصمة، فقال عمر صدقت.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أَيْ صَارُوا فِرَقًا مُخْتَلِفَةً وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ. وَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالشِّيَعُ: جَمْعُ شِيعَةٍ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي تُشَايِعُ، أَيْ تُوَافِقُ رَأْيًا، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيْ رَاضُونَ بِمَا عِنْدَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَبَيَّنُوا الْحَقَّ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَبَيَّنُوهُ، وَقِيلَ: كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْفَرَائِضُ، وَالْحِزْبُ: الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ رَأْيُهُمْ ونزعتهم وَاحِدَة ، وبِما لَدَيْهِمْ هُوَ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ قَحطٌ وَشِدَّةٌ، وَالْمَسُّ: مُسْتَعَارٌ لِلْإِصَابَةِ. وَحَقِيقَةُ الْمَسِّ: أَنَّهُ وَضْعُ الْيَدِ عَلَىٰ شَيْءٍ لِيَعْرِفَ وُجُودَهُ أَوْ يَخْتَبِرَ

حَالَهَ، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مُقْبِلِينَ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ أَنْ يَرْفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَالْمُنِيبُ: الْمُلَازِمُ لِلطَّاعَةِ، قال القرطبي : وَمَعْنَىٰ هَذَا الْكَلَامِ التَّعَجُّبُ، عَجِبَ نَبِيُّهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي تَرْكِ الْإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَعَ تَتَابُعِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ، أَيْ إِذَا مَسَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ ضُرٌّ مِنْ مَرَضٍ وَشِدَّةٍ دَعَوْا رَبَّهُمْ، أَيِ اسْتَغَاثُوا بِهِ فِي كَشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ، مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ الْأَصْنَامِ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ لَا فَرَجَ عِنْدَهَا. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أَيْ عَافِيَةً وَنِعْمَةً ، وَالْإِذَاقَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلْإِصَابَةِ أَيْضًا، وَحَقِيقَتُهَا: إِصَابَةُ الطعام بِطَرَفِ اللِّسَانِ وَهِيَ أَضْعَفُ إِصَابَاتِ الْأَعْضَاءِ لِلْأَجْسَامِ فَهِيَ أَقَلُّ مِنَ الْمَضْغِ وَالْبَلْعِ، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ يشركون به في العبادة.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ثُمَّ خَاطَبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَعَلُوا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قِيلَ: (اللَّامُ) هَا هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ، وَقِيلَ: لَامُ التَّعْلِيلِ، بِمَعْنَىٰ قَيَّضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا، أَيْ: يَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ الْمُسْدِي إِلَيْهِمُ النِّعَمَ، الْكَاشِفُ عَنْهُمُ النِّقَمَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾، أَيْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا، فَقَالَ: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حَالَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللهِ لَوْ تَوَعَّدَنِي حارس لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس: حُجَّةً وَعُذْرًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: كِتَابًا، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ يَنْطِقُ، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ ، ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ

يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ يَنْطِقُ بِشِرْكِهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَقِيلَ أَنَّ مَعْنَىٰ الْآيَةِ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ ذَا سُلْطَانٍ، أَيْ مَلَكًا مَعَهُ بُرْهَانٌ، فَذَلِكَ الْمَلَكُ يَتَكَلَّمُ بِالْبُرْهَانِ الَّذِي بِسَبَبِهِ يُشْرِكُونَ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أَيْ خصوبة الأرض وَكَثْرَةَ الْمَطَرِ، وقال النَّقَّاشُ: النِّعْمَةُ وَالْمَطَرُ، وَقِيلَ: الْأَمْنُ وَالدَّعَةُ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ، ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ يَعْنِي فَرَحَ الْبَطَرِ، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أَيِ الْجَدْبُ وَقِلَّةُ الْمَطَرِ وَيُقَالُ الْخَوْفُ وَالْبَلَاءُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ السَّيِّئَاتِ، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَهَذَا خِلَافُ وَصْفِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَشْكُرُ اللهَ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ، أما الكافر فإنه : يَقْنَطُ عِنْدَ الشِّدَّةِ، وَيَبْطَرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: إِنَّ الْقُنُوطَ تَرْكُ فَرَائِضِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي السِّرِّ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ يُوَسِّعُ الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ يَشَاءُ أَوْ يُضَيِّقُ، فَلَا يَجِبُ أَنْ يَدْعُوَهُمُ الْفَقْرُ إِلَىٰ الْقُنُوطِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَالْقُنُوطُ بَعْدَمَا عُلِمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللهِ وَالرِّزْقَ سَعَتَهُ وَضِيقَهُ مِنْ تَقْدِيرِهِ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ مَحَلٌّ، فَلَا تَنْظُرْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ لِمُجَرَّدِ الْأَسْبَابِ بَلِ اجْعَلْ نَظَرَكَ لِمُسَبِّبِهَا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فَهُمُ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ بَسْطَ اللهِ لِمَنْ يَشَاءُ وَقَبْضَهُ، وَيَعْرِفُونَ بِذَلِكَ حِكْمَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ وَجُودَهُ وَجَذْبَ الْقُلُوبِ لِسُؤَالِهِ فِي جَمِيعِ مَطَالِبِ الرِّزْقِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من البر والصلة، وَالْإِيتَاءُ: الْإِعْطَاءُ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : حَقُّ ذِي الْقُرْبَىٰ الْمُوَاسَاةُ فِي الْيُسْرِ، وَقَوْلٌ مَيْسُورٌ فِي الْعُسْرِ، والْقُرْبىٰ: قُرْبُ النَّسَبِ وَالرَّحِمِ ، ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ وَحَقُّهُ أَنْ يُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، والمسكين هو الفقير ذو الحاجة لا يجد ما يكفيه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ أَطْعِمِ السَّائِلَ الطَّوَّافَ ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يَعْنِي الْمُسَافِرَ، وَقِيلَ: هُوَ الضَّعِيفُ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ يَطْلُبُونَ ثَوَابَ اللهِ بِمَا يَعْمَلُونَ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ قتادة : هَذَا الَّذِي يقبله الله ويضاعفه لَهُم عشر أَمْثَالهَا وَأكْثر من ذَلِك.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ أَيْ مَنْ أَعْطَىٰ عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَىٰ لَهُمْ فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللهِ، ﴿لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ قَالَ عكرمة: الرِّبَا رِبَوَانِ، رِبَا حَلَالٌ وَرِبَا حَرَامٌ، فَأَمَّا الرِّبَا الْحَلَالُ فَهُوَ الَّذِي يُهْدَىٰ، يُلْتَمَسُ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ الرِّبَا الْحَلَالُ الَّذِي يُهْدَىٰ لِيُثَابَ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ إِثْمٌ، ﴿فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ﴾ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ أَيْ فِي اخْتِطَافِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَاجْتِذَابِهَا، ﴾ أي لا يزكوا وَلَا يُثِيبُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ وَكَانَ خَالِصًا لَهُ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ الرَّجُلُ يعطي غيره العطية ليثيبه أَكْثَرَ مِنْهَا فَهَذَا جَائِزٌ حَلَالٌ لكن لا ثواب عليها فِي الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ عز وجل: فلا يربو عِنْدَ اللهِ،

وَكَانَ هَذَا حَرَامًا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ. ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أَيْ لَا تُعْطِ وَتَطْلُبْ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَيْتَ، وَقَالَ النَّخَعِيُّ: هُوَ الرَّجُلُ يُعْطِي صَدِيقَهُ أَوْ قَرِيبَهُ لِيُكْثِرَ مَالَهُ وَلَا يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ الرَّجُلُ يَلْتَزِقُ بِالرَّجُلِ فَيَخْدِمُهُ وَيُسَافِرُ مَعَهُ فَيَجْعَلُ لَهُ رِبْحَ مَالِهِ الْتِمَاسَ عَوْنِهِ لوجه الله فلا يربو عِنْدَ اللهِ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أَعْطَيْتُمْ مِنْ صَدَقَةٍ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: الْمَوَاهِبُ ثَلَاثَةٌ: مَوْهِبَةٌ يُرَادُ بِهَا وَجْهُ اللهِ، وَمَوْهِبَةٌ يُرَادُ بِهَا وُجُوهُ النَّاسِ، وَمَوْهِبَةٌ يُرَادُ بِهَا الثَّوَابُ، فَمَوْهِبَةُ الثَّوَابِ يَرْجِعُ فِيهَا صَاحِبُهَا إِذَا لَمْ يُثَبْ مِنْهَا، ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فيضاعف لَهُمُ الثَّوَابُ فَيُعْطَوْنَ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَالْمُضْعِفُ ذُو الْأَضْعَافِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، قال القرطبي : وَفِي مَعْنَىٰ الْمُضْعِفِينَ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا- أَنَّهُ تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ كَمَا ذَكَرْنَا.

وَالْآخَرُ: أَنَّهُمْ قَدْ أُضْعِفَ لَهُمُ الْخَيْرُ وَالنَّعِيمُ، أَيْ هُمْ أَصْحَابُ أَضْعَافٍ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْوٍ إِذَا كَانَتْ إبله قوية، أوله أَصْحَابٌ أَقْوِيَاءُ. وَمُسْمِنٌ إِذَا كَانَتْ إِبِلُهُ سِمَانًا. وَمُعْطِشٌ إِذَا كَانَتْ إِبِلُهُ عِطَاشًا.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أعاد الْكَلَامُ إِلَىٰ الِاحْتِجَاجِ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أَيْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يوم القيامة، وقوله تعالىٰ: ﴿هل من شركائهم﴾ أَيِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ عَلَىٰ جِهَةِ الِاسْتِفْهَامِ: ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا

يفعل ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْأَنْدَادِ وَالْأَضْدَادِ وَالصَّاحِبَةِ والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ، وتنزّه وتعاظم عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَأَضَافَ الشُّرَكَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُمْ بِالْآلِهَةِ وَالشُّرَكَاءِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يَعْنِي قَحْطَ الْمَطَرِ وَقِلَّةَ النَّبَاتِ وَأَرَادَ بِالْبَرِّ الْبَوَادِيَ وَالْمَفَاوِزَ وَبِالْبَحْرِ الْمَدَائِنَ وَالْقُرَىٰ الَّتِي هِيَ عَلَىٰ الْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ ، قَالَ عِكْرِمَةُ: الْعَرَبُ تسمي المصر بحرا يقال: أَجْدَبَ الْبَرُّ وَانْقَطَعَتْ مَادَّةُ الْبَحْرِ، والْفَسادُ في اللغة : سُوءُ الْحَالِ، وَهُوَ ضِدُّ الصَّلَاحِ، قَالَ مجاهد : فَسَادُ الْبَرِّ قَتْلُ ابْنِ آدَمَ، وَفَسَادُ الْبَحْرِ أخذ السفينة غصبًا، وقال عطاء: الْمُرَادُ بِالْبَرِّ مَا فِيهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَىٰ، وَبِالْبَحْرِ جَزَائِرُهُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ ، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بشؤم ذنوبهم ، قَالَ ابن عباس : نُقْصَان الْبركَة بأعمال الْعباد كي يتوبوا ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أَيْ عُقُوبَةَ بَعْضِ الَّذِي عَمِلُوا من الذنوب، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: وَهَذَا لِأَنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ لِنَقْصِ الرِّزْقِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَإِذَا أُقِيمَتِ الْحُدُودُ ظَهَرَتْ طَاعَةُ اللهِ وَنَقَصَتْ مَعْصِيَةُ اللهِ تَعَالَىٰ، فَحَصَلَ الرِّزْقُ وَالنَّصْرُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ لِيَعْتَبِرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ، وَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لِتَرَوْا مَنَازِلَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ خَاوِيَةً، قَالَ الطَّبَرِيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مِنْ قَوْمِكَ: سِيرُوا فِي الْبِلَادِ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَسَاكِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، كَيْفَ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ، وَعَاقِبَةُ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ اللهِ وَكُفْرِهِمْ، أَلَمْ نُهْلِكْهُمْ بِعَذَابٍ مِنَّا، وَنَجْعَلْهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ فَأُهْلِكُوا بِكُفْرِهِمْ، يَقُولُ: فَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِمْ، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ بِاللهِ مِثْلَهُمْ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: أَقْبِلْ بِقَلْبِكَ وَتَوَجَّهْ بِوَجْهِكَ وَاسْعَ بِبَدَنِكَ لِإِقَامَةِ الدِّينِ الْقَيِّمِ الْمُسْتَقِيمِ، فَنَفِّذْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَقُمْ بِوَظَائِفِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَبَادِرْ زَمَانَكَ وَحَيَاتَكَ وَشَبَابَكَ، وفي حديث الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ؛ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَىٰ شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ - رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ -لَا مَلْجَأَ وَلَا منجىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ،آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ،وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ،وَاجْعَلْهُ**

آخِرَ مَا تَقُولُ،فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ»[1] ، قوله : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ رَدِّهِ مِنَ اللهِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أَيْ يَتَفَرَّقُونَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَالْأَصْلُ يَتَصَدَّعُونَ، وَيُقَالُ: تَصَدَّعَ الْقَوْمُ إِذَا تَفَرَّقُوا، وَمِنْهُ اشتق الصداع، لأنه يفرق شعب الرأس.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَيْ وَبَالُ كُفْرِهِ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ مِنَ الْحُقُوقِ الَّتِي لِلَّهِ أَوْ الَّتِي لِلْعِبَادِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ، ﴿فَلأَنْفُسِهِمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أَيْ يُوَطِّئُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فِرَاشًا وَمَسْكَنًا وَقَرَارًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمِنْهُ: مَهْدُ الصَّبِيِّ ، وَالْمِهَادُ الْفِرَاشُ، وَقَدْ مَهَّدْتُ الْفِرَاشَ مَهْدًا: بَسَطْتُهُ وَوَطَّأْتُهُ. وَتَمْهِيدُ الْأُمُورِ: تَسْوِيَتُهَا وَإِصْلَاحُهَا.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ يُمَهِّدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَقِيلَ يُصَدَّعُونَ ليجزيهم الله، أي ليميز الْكَافِرُ مِنَ الْمُسْلِمِ، قال ابن عباس: لِيُثِيبَهُمُ اللهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمْ الَّذِي لَا يَجُورُ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ تُبَشِّرُ بِالْمَطَرِ، وَمِنْ أَعْلَامِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ إِرْسَالُ الرِّيَاحِ مُبَشِّرَاتٍ أَيْ بِالْمَطَرِ لِأَنَّهَا تَتَقَدَّمُهُ ، وَالْمُبَشِّرَاتُ: الْمُؤْذِنَةُ بِالْخَيْرِ وَهُوَ الْمَطَرُ، وَأَصْلُ الْبِشَارَةِ: الْخَبَرُ السَّارُّ، شُبِّهَتِ

---

(١) البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠) .

الرِّيَاحُ بِرُسُلٍ مُوَجَّهَةٍ بِأَخْبَارِ الْمَسَرَّةِ ، ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ نِعْمَةَ الْمَطَرِ وَهِيَ الْخِصْبُ، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لِتَطْلُبُوا مِنْ رِزْقِهِ بِالتِّجَارَةِ فِي الْبَحْرِ، أَيْ فِي الْبَحْرِ عِنْدَ هُبُوبِهَا، فَتَجْرِي السُّفُنُ بِتَدْبِيرِهِ سُبْحَانَهُ أَوْ بِتَكْوِينِهِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ رَبَّ هَذِهِ النِّعَمِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ ، ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ عَذَّبْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنجاؤهم مِنَ الْعَذَابِ فَفِي هَذَا تَبْشِيرٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالظَّفَرِ فِي الْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَنْجَاهُمْ مَعَ الرَّسُولِ مِنْ عَذَابِ الْأُمَمِ ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَعْظِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَفْعٌ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَتَأْهِيلٌ لِكَرَامَةٍ سَنِيَّةٍ، وَإِظْهَارٌ لِفَضْلٍ سَابِقَةٍ وَمَزِيَّةٍ ، حَيْثُ جَعَلَهُمْ مُسْتَحِقِّينَ عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَنْصُرَهُمْ، مُسْتَوْجِبِينَ عَلَيْهِ أَنْ يُظْهِرَهُمْ وَيُظْفِرَهُمْ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أَيْ يَنْشُرُهُ، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ مسيرة يوم أو يومين أو أكثر عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَالْبَسْطُ: النَّشْرُ. ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعا متفرقة، ﴿فَتَرَىٰ الْوَدْقَ﴾ المطر، والوَدْقُ: الْمَطَرُ كُلُّهُ شديدُه وهيِّنُه، وَقَدْ وَدَقَ يَدِقُ وَدْقًا أَيْ قَطَر، يعني نقطت بالعراقي قال ابن عاشور: وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ الْوَدْقَ هُوَ الْمَطَرُ، وَهُوَ الَّذِي اقْتَصَرَتْ عَلَيْهِ دَوَاوِينُ اللُّغَةِ، وَالْمَطَرُ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ. ﴿يَخْرُجُ مِنْ

خِلَالِهِ﴾ وَسَطِهِ، أَيْ فَتَرَىٰ الْمَطَرَ ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ بِالْوَدْقِ، ﴿مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِ الْمَطَرِ عَلَيْهِمْ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ: فَإِذَا صَرَفَ ذَلِكَ الْوَدْقَ إِلَىٰ أَرْضِ مَنْ أَرَادَ صَرْفَهُ إِلَىٰ أَرْضِهِ مِنْ خَلْقِهِ رَأَيْتَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِأَنَّهُ صَرَفَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَيَفْرَحُونَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ وَقَدْ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أَيْ يَائِسِينَ مُكْتَئِبِينَ قَدْ ظَهَرَ الْحُزْنُ عليهم لاحتباس المطر عنهم ، وَقِيلَ: الْأُولَىٰ تَرْجِعُ إِلَىٰ إِنْزَالِ الْمَطَرِ وَالثَّانِيَةُ إِلَىٰ إِنْشَاءِ السَّحَابِ ، وَقَالَ قُطْرُبٌ: إِنَّ ﴿قَبْلِ﴾ الْأُولَىٰ لِلْإِنْزَالِ وَالثَّانِيَةُ لِلْمَطَرِ، أَيْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ التَّنْزِيلِ مِنْ قَبْلِ الْمَطَرِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ مِنْ قَبْلِ تَنْزِيلِ الْغَيْثِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ الزَّرْعِ، وَدَلَّ عَلَىٰ الزَّرْعِ الْمَطَرُ إِذْ بِسَبَبِهِ يَكُونُ ، قَالَ ابن كثير : مَعْنَىٰ الْكَلَامِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين من نزول المطر إليهم، فَلَمَّا جَاءَهُمْ، جَاءَهُمْ عَلَىٰ فَاقَةٍ فَوَقَعَ مِنْهُمْ موقعاً عظيماً، فبعدما كَانَتْ أَرْضُهُمْ مُقْشَعِرَةً هَامِدَةً، أَصْبَحَتْ وَقَدِ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ:

[٥٠] : ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾ أَرَادَ بِرَحْمَةِ اللهِ الْمَطَرَ أَيِ انْظُرْ إِلَىٰ حُسْنِ تَأْثِيرِهِ فِي الأرض، قال مُقَاتِلٌ: أَثَرُ رَحْمَةِ اللهِ أَيْ نِعْمَتُهُ وَهُوَ النَّبْتُ، قال القرطبي : أَيِ انْظُرُوا نَظَرَ اسْتِبْصَارٍ وَاسْتِدْلَالٍ، أَيِ اسْتَدِلُّوا بِذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ

قَدَرَ عَلَيْهِ قَادِرٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ بعد موتهم وهو علىٰ ذلك وعلىٰ غيره قدير، وليس شيء عليه بعسير.

قَوْلُهُ: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يَعْنِي إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي يُحْيِي الْأَرْضَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَقَالَ قُطْرُبٌ: إِنَّ (قَبْلِ) الْأُولَىٰ لِلْإِنْزَالِ وَالثَّانِيَةُ لِلْمَطَرِ، أَيْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ التَّنْزِيلِ مِنْ قَبْلِ الْمَطَرِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ مِنْ قَبْلِ تَنْزِيلِ الْغَيْثِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ الزَّرْعِ، وَدَلَّ عَلَىٰ الزَّرْعِ الْمَطَرُ إِذْ بِسَبَبِهِ يَكُونُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: اسْتِدْلَالٌ بِالشَّاهِدِ عَلَىٰ الْغَائِبِ، وَالْمَقْصُودُ: إِنَّ الَّذِي يُحْيِي هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ يُبْسِهَا وَدُثُورِهَا بِهَذَا الْغَيْثِ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ وَعَلَىٰ غَيْرِهِ قَدِيرٌ، وَلَيْسَ شَيْءٌ عَلَيْهِ بِعَسِيرٍ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أَبْلُغَ رَحْمَتَكَ، فَإِنَّ رَحْمَتَكَ أَهْلٌ أَنْ تَبْلُغَنِي، رَحْمَتُكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَا شَيْءٌ، فَلْتَسَعْنِي رَحْمَتُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَلَقْتَ قَوْمًا فَأَطَاعُوكَ فِيمَا أَمَرْتَهُمْ، وَعَمِلُوا فِي الَّذِي خَلَقْتَهُمْ لَهُ، فَرَحْمَتُكَ إِيَّاهُمْ كَانَتْ قَبْلَ طَاعَتِهِمْ لَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ بَارِدَةً مُضِرَّةً فَأَفْسَدَتِ الزرع، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالَةِ الْخَلْقِ وَأَنَّهُمْ مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَشْرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ لَوْ أَرْسَلْنَا عَلَىٰ هَذَا النَّبَاتِ النَّاشِئِ عَنِ الْمَطَرِ وَعَلَىٰ زُرُوعِهِمْ رِيحًا مُضِرَّةً مُتْلِفَةً أَوْ مُنْقِصَةً، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي

والنبت وَاصْفِرَارُ الزَّرْعِ بَعْدَ اخْضِرَارِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ يُبْسِهِ، وَكَذَا السَّحَابُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُمْطِرُ، وَالرِّيحُ عَلَىٰ أَنَّهَا لَا تُلَقِّحُ ﴿لَظَلُّوا﴾ لصاروا، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ اصْفِرَارِ الزَّرْعِ، ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يَجْحَدُونَ مَا سَلَفَ مِنَ النِّعْمَةِ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ عِنْدَ الخضرة وطيب الثمار وَلَوْ أَرْسَلْتُ عَذَابًا عَلَىٰ زَرْعِهِمْ جَحَدُوا سَالِفَ نِعْمَتِي.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ أَيْ وَضَحَتِ الْحُجَجُ يَا مُحَمَّدُ، لَكِنَّهُمْ لِإِلْفِهِمْ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ فِي الْكُفْرِ مَاتَتْ عُقُولُهُمْ وَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَكَ إِسْمَاعُهُمْ وَهِدَايَتُهُمْ ، قَالَ قتادة: هَذَا مثل ضربه الله لِلْكَافِرِ كَمَا لَا يسمع الْمَيِّت كَذَلِك لَا يسمع الْكَافِر وَلَا ينْتَفع بِهِ ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ أَصَمَّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ثُمَّ نَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي عَدَمِ سَمَاعِ الْأَمْوَاتِ فِي قُبُورِهِمْ نِدَاءَ الْأَحْيَاءِ، وَإِنَّمَا جَاءَ الِاسْتِثْنَاءُ فِي أَمْرَيْنِ خَاصَّيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: سَمَاعُ الْمَيِّتِ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ. وَهَذَا سَمَاعٌ مَحْدُودٌ بِخَفْقِ النِّعَالِ كَمَا وَرَدَ فِي النَّصِّ الصَّحِيحِ، لَا يَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ مِنَ النَّاسِ أَوْ مَعْرِفَتِهِمْ أَوْ سَمَاعِ حَدِيثِهِمْ، فَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ مَرْفُوعًا: « **فَيُرَدُّ إِلَىٰ الْأَرْضِ وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ. فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهُ وَيُجْلِسَانِهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟** » الْحَدِيثَ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: سَمَاعُ قَتْلَىٰ بَدْرٍ تَوْبِيخَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّىٰ أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ، تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ أَيْ كُفْرِهِمْ، أَيْ لَيْسَ فِي وُسْعِكَ خَلْقُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ، ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أَيْ مَا تُسْمِعُ. ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ إِلَّا مَنْ خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد، قَالَ ابن كثير : أَيْ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بصير، السمع والبصر النافع في القلب، الْخَاضِعُ لِلَّهِ وَلِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ذَكَرَ اسْتِدْلَالًا آخَرَ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ لِيَعْتَبِرَ. وَمَعْنَىٰ:﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ، وَقِيلَ:﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ أَيْ فِي حَالِ ضَعْفٍ، وَهُوَ مَا كَانُوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ من بَعْدَ ضَعْفِ الطُّفُولِيَّةِ شَبَابًا وَهُوَ وَقْتُ الْقُوَّةِ، قَالَ ابن كثير : يُنَبِّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ تَنَقُّلِ الإنسان فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ، حَالًا بَعْدَ حَالٍ، فَأَصْلُهُ مِن تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عظامـًا، ثم تكسىٰ العظام لَحْمًا، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقُوَىٰ، ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّىٰ يَكُونَ صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثًا، ثُمَّ مُرَاهِقًا، ثُمَّ شَابًّا وَهُوَ - الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ - ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ فَيَكْتَهِلُ، ثُمَّ يَشِيخُ ثُمَّ يَهْرَمُ وَهُوَ - الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ - فَتَضْعُفُ الْهِمَّةُ وَالْحَرَكَةُ

وَالْبَطْشِ، وَتَشِيبُ اللِّمَّةُ وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تعالىٰ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضَّعْفَ وَالْقُوَّةَ وَالشَّبَابَ وَالشَّيْبَةَ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه،﴿الْقَدِيرُ﴾ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف المشركون، ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إِلَّا سَاعَةً اسْتَقَلُّوا أَجَلَ الدُّنْيَا لَمَّا عَايَنُوا الْآخِرَةَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَا لَبِثُوا فِي قُبُورِهِمْ غَيْرَ سَاعَةٍ ، قال القرطبي : لَيْسَ فِي هَذَا رَدٌّ لِعَذَابِ الْقَبْرِ، إِذْ كَانَ قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ أَنَّهُ تَعَوَّذَ مِنْهُ، وَأَمَرَ أَنْ يُتَعَوَّذَ مِنْهُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ حَبِيبَةَ وَهِيَ تَقُولُ: « اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَقَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ وَلَكِنْ سَلِيهِ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ** »[1] ، فِي أَحَادِيثَ مَشْهُورَةٍ خَرَّجَهَا مُسْلِمٌ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: كَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَمَا كَذَبُوا فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا بَعْثَ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يفضحهم فحلفوا علىٰ شيء يتبين لِأَهْلِ الْجَمْعِ أَنَّهُمْ

---

(١) مسلم (٢٦٦٣) .

كَاذِبُونَ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللهِ وَبِقَدَرِهِ بدليل قوله: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ، ثُمَّ ذَكَرَ إِنْكَارَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ كَذِبَهُمْ فَقَالَ:

[٥٦] : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ قَالَ قتادة: هَذَا من تقاديم الْكَلَام وتأويلها: وَقَالَ الَّذين أُوتُوا الإِيمان وَالْعلم فِي كتاب الله لقد لبثتم إِلَىٰ يَوْم الْبَعْث ، اخْتُلِفَ فِي الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، فَقِيلَ الْمَلَائِكَةُ، وَقِيلَ الْأَنْبِيَاءُ، وَقِيلَ عُلَمَاءُ الْأُمَمِ، وَقِيلَ مُؤْمِنُو هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقِيلَ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لِلْكُفَّارِ رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أَيْ فِيمَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ مِنَ اللُّبْثِ فِي الْقُبُورِ، وَقِيلَ: الَّذِينَ حُكِمَ لَهُمْ فِي الْكِتَابِ بِالْعِلْمِ ﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه، ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وُقُوعَهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا يَنْفَعُكُمُ الْعِلْمُ بِهِ الْآنَ بِدَلِيلِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُمُ الْعِلْمُ بِالْقِيَامَةِ وَلَا الِاعْتِذَارُ يَوْمَئِذٍ. وَقِيلَ: لَمَّا رَدَّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ سَأَلُوا الرُّجُوعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَاعْتَذَرُوا فَلَمْ يُعْذَرُوا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَىٰ وَالرُّجُوعُ إلىٰ الدنيا. أَيْ وَلَا حَالُهُمْ حَالُ مَنْ يُسْتَعْتَبُ وَيَرْجِعُ، يُقَالُ: اسْتَعْتَبْتُهُ فَأَعْتَبَنِي، أَيِ اسْتَرْضَيْتُهُ فَأَرْضَانِي، وَذَلِكَ إِذَا كُنْتُ جَانِيًا عَلَيْهِ ، وَحَقِيقَةُ أَعَتَبْتُهُ: أَزَلْتُ عَتْبَهُ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ

الرُّسُلِ. ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أَيْ مُعْجِزَةٍ، كَفَلْقِ الْبَحْرِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَيْ تَتَّبِعُونَ الْبَاطِلَ وَالسِّحْرَ ﴿ كَذلِكَ﴾ أَيْ كَمَا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَفْهَمُوا الْآيَاتِ عَنِ اللهِ فَكَذَلِكَ﴿ يَطْبَعُ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَدِلَّةَ التَّوْحِيدِ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أَيِ اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُم فَإِنَّ اللهَ يَنْصُرُكَ ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أَيْ لَا يَسْتَفِزَّنَّكَ عَنْ دِينِكَ ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قِيلَ: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ يُقَالُ: اسْتَخَفَّ فُلَانٌ فُلَانًا أَيِ اسْتَجْهَلَهُ حَتَّىٰ حَمَلَهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ فِي الْغَيِّ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ وَلَا تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا بَلْ تَرَىٰ الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا، وَالطَّبْعِ إِنَّمَا هُوَ فِعْلُ مَا يَصِيرُ بِهِ الْقَلْبُ مَطْبُوعًا مَخْتُومًا، لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ التَّسْمِيَةَ وَالْحُكْمَ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: فُلَانٌ طَبَعَ الْكِتَابَ وَخَتَمَهُ، كَانَ حَقِيقَةً أَنَّهُ فَعَلَ مَا صَارَ بِهِ الْكِتَابُ مَطْبُوعًا وَمَخْتُومًا، لَا التَّسْمِيَةَ وَالْحُكْمَ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ فِي نُصْرَتِكَ وَإِظْهَارِكَ عَلَىٰ عَدُوِّكَ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لَا يَسْتَجْهِلَنَّكَ مَعْنَاهُ لَا يَحْمِلَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ عَلَىٰ الْجَهْلِ وَاتِّبَاعِهِمْ فِي الْغَيِّ وَقِيلَ: لَا يَسْتَخِفَّنَّ رَأْيَكَ وَحِلْمَكَ، ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ لُقْمَانَ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، غَيْرَ آيَتَيْنِ قَالَ قَتَادَةُ: أَوَّلُهُمَا ﴿ وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، وقد سَمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِإِضَافَتِهَا إِلَىٰ لُقْمَانَ لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ لُقْمَانَ وَحِكْمَتِهِ وَجُمَلًا مِنْ حِكْمَتِهِ الَّتِي أَدَّبَ بِهَا ابْنَهُ. قَالَ أَبُو حَيَّانَ: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ قُرَيْشًا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قِصَّةِ لُقْمَانَ مَعَ ابْنِهِ، أَيْ سَأَلُوهُ سُؤَالَ تَعَنُّتٍ وَاخْتِبَارٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الم﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ الْكِتَابُ: الْقُرْآنُ، وَالْحَكِيمُ: الْمُحْكَمُ، أَيْ لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا تَنَاقُضَ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُدًىٰ﴾ لَهُمْ، يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ طُرُقِ الْجَحِيمِ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لَهُمْ، تَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْخَيْرُ الْكَثِيرُ، وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَيَنْدَفِعُ عَنْهُمُ الضَّلَالُ وَالشَّقَاءُ، ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾، وَهُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ، وَأَيْقَنُوا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَرَغِبُوا إِلَىٰ اللهِ في ثواب ذلك، لم يراؤوا وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شَكُورًا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُقِيمُونَ الصلاة﴾ قال ابْنِ عَبَّاسٍ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: إتمامُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالتِّلَاوَةُ وَالْخُشُوعُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا فِيهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ مَوَاقِيتِهَا وَوُضُوئِهَا، وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قال ابن عباس: زكاة أموالهم ، وقال نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نفقةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تنزل الزكاة ، وقال قتادة: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارٍ وَوَدَائِعُ عِنْدَكَ يَا ابْنَ آدَمَ يُوشِكُ أَنْ تُفَارِقَهَا وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ في الزكاة والنفقات ، قال ابن كثير: كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدِهِ وَالِابْتِهَالِ إِلَيْهِ، وَدُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيِ الْمُتَّصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللهُ وَالْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ، وَالْإِيقَانَ بِالْآخِرَةِ ﴿عَلَىٰ هُدًىٰ﴾ أَيْ عَلَىٰ نُورٍ وَبَيَانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ. ، ﴿وأولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ ابن عباس ﴿عَلَىٰ هُدًىٰ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ نورٍ من ربهم واستقامة علىٰ ما جاءهم به ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا مَا طلبوا، ونجوا من شر ما هربوا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ كَانَ يَتَّجِرُ فَيَأْتِي الْحِيْرَةَ ويشتري

أخبار العجم فيحدث بها قريشا فَيَسْتَمْلِحُونَ حَدِيثَهُ وَيَتْرُكُونَ اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي شِرَاءَ الْقِيَانِ وَالْمُغَنِّيِّينَ، وَوَجْهُ الْكَلَامِ عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ مَنْ يَشْتَرِي ذَاتَ لَهْوٍ أَوْ ذا لهو الحديث، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالُوا: لَهْوُ الْحَدِيثِ هُوَ الْغِنَاءُ وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أَيْ يَسْتَبْدِلُ وَيَخْتَارُ الْغِنَاءَ وَالْمَزَامِيرَ وَالْمَعَازِفَ عَلَىٰ الْقُرْآنِ، قَالَ أَبُو الصِّبَاءِ الْبَكْرِيُّ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: هُوَ الْغِنَاءُ وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُرَدِّدُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: هُوَ الشِّرْكُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ كُلُّ لَهْوٍ وَلَعِبٍ ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني يَفْعَلُهُ عَنْ جَهْلٍ ، قَالَ قَتَادَةُ: بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الضَّلَالَةِ أَنْ يَخْتَارَ حَدِيثَ الْبَاطِلِ عَلَىٰ حَدِيثِ الحق ، ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ اللهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللهِ هُزُواً،﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الغناء والمزامير ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَيْ كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ اللهِ وَسَبِيلِهِ، أُهِينُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِرِّ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أَيْ: أَدْبَرَ إِدْبَارَ مُسْتَكْبِرٍ عَنْهَا، رَادٍّ لَهَا، وَلَمْ تَدْخُلْ قَلْبَهُ وَلَا أَثَّرَتْ فِيهِ، بَلْ أَدْبَرَ عَنْهَا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ:أَيْ هَذَا الْمُقْبِلُ عَلَىٰ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ، إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ، وَلَّىٰ عَنْهَا وَأَعْرَضَ وَأَدْبَرَ، وتصامم وما به من

صمم: كأنه ما سمعها لأنه يتأذىٰ بسماعها، إذ لاانتفاع لَهُ بِهَا وَلَا أَرَبَ لَهُ فِيهَا، ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أَيْ: صَمَمًا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأَصْوَاتُ؛ فَهَذَا لَا حِيلَةَ فِي هِدَايَتِهِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾هَذَا ذِكْرُ مَآلِ الْأَبْرَارِ، مِنَ السُّعَدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لِشَرِيعَةِ اللهِ ﴿لَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أَيْ يَتَنَعَّمُونَ فيها بأنواع الملاذ، مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمُشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ، وَالْمَرَاكِبِ، وَالنِّسَاءِ، وَالنَّضْرَةِ، وَالسَّمَاعِ، الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ، وهم في ذلك مقيمون دائمـًا لَا يَظْعَنُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا.

[٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللهِ حَقّـًا﴾ أَيْ هَذَا كَائِنٌ لَا محالة، لأنه وَعْدِ اللهِ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لِأَنَّهُ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، الْقَادِرُ عَلَىٰ كل شيء، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ الَّذِي جَعَلَ الْقُرْآنَ هُدًىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

[١٠] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: لَيْسَ لَهَا عمد، وقال ابن عباس: لَهَا عُمُدٌ لَا تَرَوْنَهَا، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يَعْنِي الْجِبَالُ أَرْسَتِ الْأَرْضَ وَثَقَّلَتْهَا لِئَلَّا تَضْطَرِبُ بِأَهْلِهَا عَلَىٰ وَجْهِ الماء، ولهذا قال: ﴿إِنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد بكم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أَيْ وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ مِمَّا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا

وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه علىٰ أنه الرزاق، بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء ماَء فأنبتنا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ ﴿كَرِيمٍ﴾ أَيْ حَسَنِ الْمَنْظَرِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَالنَّاسُ أَيْضًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فهو لئيم .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَىٰ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تعالىٰ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أَيْ مِمَّا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ لَهُ شُرَكَاءَ، تَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ، يَلْزَمُ عَلَىٰ هَذَا، أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَلْقٌ كَخَلْقِهِ، وَرِزْقٌ كَرِزْقِهِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَأَرُونِيهِ، لِيَصِحَّ مَا ادَّعَيْتُمْ فِيهِمْ مِنِ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُرُوهُ شَيْئًا مِنَ الْخَلْقِ لَهَا، لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَذْكُورَاتِ، قَدْ أَقَرُّوا أَنَّهَا خَلْقُ اللهِ وَحْدَهُ، وَلَا ثَمَّ شَيْءٌ يُعْلَمُ غَيْرُهَا، فَثَبَتَ عَجْزُهُمْ عَنْ إِثْبَاتِ شَيْءٍ لَهَا تَسْتَحِقُّ بِهِ أَنْ تُعْبَدَ، وَلَكِنَّ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا، عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، بَلْ عَنْ جَهْلٍ وَضَلَالٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فِي ضَلالٍ﴾ أَيْ جَهْلٍ وَعَمًىٰ ﴿مُّبِينٍ﴾ أَيْ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ بِهِ، قَالَ ابنُ عاشور : وَالضَّلَالُ الْمُبِينُ: الْكُفْرُ الْفَظِيعُ، لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ لِلْحَقِّ، وَذَلِكَ ضَلَالٌ، وَأَشْرَكُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَذَلِكَ كُفْرٌ فَظِيعٌ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ لقمان قال الزَّمَخْشَرِيُّ: وَهُوَ لُقْمَانُ بْنُ باعوراء ابن أُخْتِ أَيُّوبَ أَوِ ابْنِ خَالَتِهِ، وَقِيلَ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ آزَرَ، قال القرطبي : وَالصَّوَابُ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا حَكِيمًا قَاضِيًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَسْوَدَ مُشَقَّقَ الرِّجْلَيْنِ ذَا مَشَافِرَ، أَيْ عَظِيمَ الشَّفَتَيْنِ، وَقِيلَ: كَانَ رَاعِيًا، فَرَآهُ رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ عَبْدَ بَنِي فُلَانٍ؟ قَالَ بَلَىٰ، قَالَ: فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَىٰ؟ قَالَ: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِينِي، وَحِكَمُ لُقْمَانَ كَثِيرَةٌ مَأْثُورَةٌ وجُمْهُورُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّهُ كَانَ وَلِيًّا وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا. والحكمة: الْعَقْلَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ بِهِ والإصابة في الأمور ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أَيْ أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ مَا أَتَاهُ اللهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خصصه بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَىٰ الشَّاكِرِينَ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ﴾ أَيْ كَفَرَ النِّعَمَ فَلَمْ يُوَحِّدِ الله ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيْ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، فَإِنَّهُ الغني عما سِوَاهُ؛ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا نَعْبُدُ إلا إياه.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ وَاسْمُهُ أَنْعَمُ وَيُقَالُ: مِشْكَمٌ، ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ هُوَ أَعْظَمُ الظلم. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ

إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنه ليس بذلك، أَلَا تَسْمَعَ إِلَىٰ قَوْلِ لُقْمَانَ ﴿يَا بنيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، قَرَنَ وَصِيَّتَهُ ابْنَهُ إِفْرَادَ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ، بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ ، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شِدَّةً بَعْدَ شِدَّةٍ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ضَعْفًا عَلَىٰ ضَعْفٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَشَقَّةً عَلَىٰ مَشَقَّةٍ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَرْأَةُ إِذَا حَمَلَتْ تَوَالَىٰ عَلَيْهَا الضَّعْفُ وَالْمَشَقَّةُ ، وَيُقَالُ: الْحَمْلُ ضَعْفٌ وَالطَّلْقُ ضَعْفٌ والوضع ضعف، ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أَيْ فِطَامُهُ، وَالْفِصَالُ: اسْمٌ لِلْفِطَامِ، فَهُوَ فَصْلٌ عَنِ الرَّضَاعَةِ. ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ قَالَ ابن كثير: أي تربيتُه وإرضاعُه بعد وَضْعِه في عامين، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ الْمَرْجِعُ، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَنْ صَلَّىٰ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فَقَدْ شَكَرَ اللهَ، وَمَنْ دَعَا لِلْوَالِدَيْنِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَدْ شَكَرَ الْوَالِدَيْنِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أَيْ بِالْمَعْرُوفِ، وَهُوَ الْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْعِشْرَةُ الْجَمِيلَةُ،يُقَالُ صَاحَبْتُهُ مُصَاحَبَةً وَمُصَاحِبًا ، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أَيْ دِينَ مَنْ أَقْبَلَ إِلَىٰ طَاعَتِي وَهُوَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَبَا بَكْرٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ أَسْلَمَ أَتَاهُ عُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ صَدَّقْتَ هَذَا الرَّجُلَ

وَآمَنْتَ بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ هُوَ صَادِقٌ فَآمِنُوا بِهِ ثُمَّ حَمَلَهُمْ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ أَسْلَمُوا فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ سَابِقَةُ الْإِسْلَامِ أَسْلَمُوا بِإِرْشَادِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ،وَإِلَانَةِ الْقَوْلِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ بِرِفْقٍ. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَأُمِّهِ وَقِيلَ: الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي حَقِّ كَافَّةِ النَّاسِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أَيْ إِنَّ الْمَظْلَمَةَ أَوِ الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل، وكانت مخفية فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْنَ لُقْمَانَ قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنْ عَمِلْتُ الْخَطِيئَةَ حَيْثُ لَا يَرَانِي أَحَدٌ كَيْفَ يَعْلَمُهَا اللهُ؟ فَقَالَ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: تَكُنْ فِي جَبَلٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي صَخْرَةٍ تحت الأرضين السبع قال ابن كثير : وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي حَقَارَتِهَا لَوْ كَانَتْ دَاخِلَ صَخْرَةٍ فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف عمله، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ للناس كائنًا ما كان ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها، ﴿خَبِيرٌ﴾ عَالَمٌ بِمَكَانِهَا، قَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَىٰ الآية هي الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا بنيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أَيْ بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَيْ بِحَسَبِ طَاقَتِكِ وَجُهْدِكَ، ﴿وَاصْبِرْ

عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ لأن الْآمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَذًىٰ فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ، يَعْنِي مِنَ الْأَذَىٰ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يُرِيدُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالصَّبْرَ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِيهِمَا مِنَ الْأُمُورِ الْوَاجِبَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا أَوْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لِوُجُوبِهَا.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يُقَالُ: صَعَّرَ وَجْهَهُ وَصَاعَرَ إِذَا مَالَ "أعرض تَكَبُّرًا وَرَجُلٌ أَصْعَرُ أَيْ مَائِلُ الْعُنُقِ، يُقَالُ: أَصَابَ الْبَعِيرَ صَعَرٌ وَصَيَدٌ إِذْ أَصَابَهُ دَاءٌ يَلْوِي مِنْهُ عُنُقَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ لَا تَتَكَبَّرْ فَتُحَقِّرَ النَّاسَ وَتُعْرِضَ عَنْهُمْ بِوَجْهِكَ إِذَا كَلَّمُوكَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِحْنَةٌ فَتَلْقَاهُ فَيُعْرِضُ عَنْكَ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الَّذِي إِذَا سُلِّمَ عَلَيْهِ لَوَىٰ عُنُقَهُ تقصيرا. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ولا تحتقرن الفقراء ليكن الفقر وَالْغَنِيُّ عِنْدَكَ سَوَاءً، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيْ مُتَبَخْتِرًا مُتَكَبِّرًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ عَلَىٰ النَّاسِ، قال قتادة: الْفَخُورُ: هُوَ الَّذِي يُعَدِّدُ مَا أُعْطِيَ وَلَا يَشْكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَحُكِيَ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ نَظَرَ إِلَىٰ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا وَيَمْشِي الْخُيَلَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا هَذِهِ الْمِشْيَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ فَقَالَ الْمُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلْ أَعْرِفُك، أَوَّلُك نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُك جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَحَشْوُك فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وَعَذِرَةٌ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أَيْ لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا لَا تَخَيُّلًا وَلَا إِسْرَاعًا، وَقَالَ عَطَاءٌ: امْشِ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ،وَالْقَصْدُ: مَا بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالْبُطْءِ، أَيْ لَا تَدِبَّ دَبِيبَ الْمُتَمَاوِتِينَ وَلَا تَثِبْ وَثْبَ الشُّطَّارِ، ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وقال مقاتل: اخفض مِنْ صَوْتِك، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أقبح الأصوات ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد: إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَيْ غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَىٰ الله تعالىٰ، وهذا التشبيه بِالْحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ وَقَالَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قَالَ: صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْبِيحٌ لِلَّهِ إِلَّا الْحِمَارَ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً**»[١].

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنَجْمٍ وَسَحَابٍ ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ دَابَّةٍ وَشَجَرٍ وَمَاءٍ وَبَحْرٍ وَفُلْكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، يَجْرِي ذَلِكَ كُلُّهُ لِمَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ لِغِذَائِكُمْ وَأَقْوَاتِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ وَمَلَاذِّكُمْ، تَتَمَتَّعُونَ بِبَعْضِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَنْتَفِعُونَ بِجَمِيعِهِ،وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قَالَ ابن

---

(١) البخاري (٣٣٠٣) ومسلم (٢٧٢٩) .

عَبَّاسٍ: النِّعْمَةُ الظَّاهِرَةُ الْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ وَالْبَاطِنَةُ مَا سَتَرَ عَلَيْكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَمْ يُعَجِّلْ عَلَيْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الظَّاهِرَةُ حُسْنُ الصُّورَةِ وَتَسْوِيَةُ الْأَعْضَاءِ وَالْبَاطِنَةُ الْمَعْرِفَةُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الظَّاهِرَةُ تَسْوِيَةُ الْخَلْقِ وَالرِّزْقُ وَالْإِسْلَامُ، والباطنة الإيمان ، وقال الربيع: الظاهرة الجوارح والباطنة القلب، وَقِيلَ: الظَّاهِرَةُ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالْبَاطِنَةُ الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ، وَقِيلَ: الظَّاهِرَةُ تَمَامُ الرِّزْقِ وَالْبَاطِنَةُ حُسْنُ الْخُلُقِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: الظَّاهِرَةُ تَخْفِيفُ الشَّرَائِعِ وَالْبَاطِنَةُ الشَّفَاعَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الظَّاهِرَةُ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ وَالنَّصْرُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ وَالْبَاطِنَةُ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ: الظَّاهِرَةُ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْبَاطِنَةُ إِلْقَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: الظَّاهِرَةُ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ وَالْبَاطِنَةُ مَحَبَّتُهُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَإِزَاحَةِ الشُّبَه وَالْعِلَلِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ، أَيْ: فِي تَوْحِيدِهِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَمُجَادَلَتُهُ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَلَا كِتَابٍ مَأْثُورٍ صَحِيحٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَأُبَيِّ بْن خَلَفٍ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَأَشْبَاهِهِمْ كَانُوا يُجَادِلُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اللهِ وَفِي صِفَاتِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ﴿وَلَا هُدًىٰ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: مُبين مُضِيء ،ولهذا قال:

[٢١] : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزلَ اللهُ﴾ علىٰ أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فَلَا نَتْرُكُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا لِقَوْلِ أَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ. قَالَ تَعَالَىٰ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ آبَائِهِمْ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ آبَاؤُهُمْ، وَمَشَوْا خَلْفَهُ، وَصَارُوا مِنْ تَلَامِيذِ الشَّيْطَانِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَيْرَةُ ، قَالَ الْبَغَوِيُّ: يَعْنِي يَتَّبِعُونَ الشَّيْطَانَ وَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَىٰ اللهِ﴾ أَيْ يُخْلِصُ عِبَادَتَهُ وَقَصْدَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ إِحْسَانٍ وَلَا مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ لَا تَنْفَعُ وَفِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» ، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أَيْ اعْتَصَمَ بِالْعَهْدِ الْأَوْثَقِ الَّذِي لَا يَخَافُ انْقِطَاعَهُ، وَمَعْنَىٰ اسْتَمْسَكَ تَمَسَّكَ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلتَّأْكِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف : ٤٣] قَالَ فِي «الْكَشَّافِ»: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ مِنَ الْحَبْلِ الْوَثِيقِ. والْوُثْقىٰ الْمَحْكَمَةُ الشَّدِّ. ﴿وَإِلَىٰ اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أَيْ مصيرها.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ أيْ لَا تحزن عليهم يا محمد فِي كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ قَدَرَ اللهِ نَافِذٌ فِيهِمْ، وَإِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُهُمْ

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ أَيْ فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خافيةإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أَيْ نُمْهِلُهُمْ لِيَتَمَتَّعُوا بِنَعِيمِ الدُّنْيَا قَلِيلًا إِلَىٰ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ نُبْقِيهِمْ فِي الدُّنْيَا مُدَّةً قَلِيلَةً يَتَمَتَّعُونَ بِهَا.، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ ثُمَّ نُلْجِئُهُمْ وَنَرُدُّهُمْ فِي الْآخِرَةِ، ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلِمَ يعبدون غيره، قال ابن كثير : يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عن هؤلاء المشركين، إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلْقٌ لَهُ وَمِلْكٌ له، ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لَهُ مِنْ دِينِهِ، وَلَيْسَ الْحَمْدُ لِغَيْرِهِ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ لا ينظرون ولا يتدبرون.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مُلْكًا وَخَلْقًا، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أَيِ الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ، وَإِنَّمَا أَمَرَهُمْ لِيَنْفَعَهُمُ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ لَهُ الحمد في السماوات والأرض، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنَّ الْقُرْآنَ وَمَا يَأْتِي بِهِ مُحَمَّدٌ يُوشِكُ أَنْ يَنْفَدَ فَيَنْقَطِعَ فَنَزَلَتْ.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ يَقُول: لَو كَانَ شجر الأَرْض أقلاماً وَمَعَ الْبَحْر سَبْعَة أبحر مداد لتكسرت الأقلام ونفد مَاء البحور قبل أَن تنفد عجائب ربين وحكمته وَعلمه أَيْ بُرِيَتْ أَقْلَامًا، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ أَيْ يَزِيدُ فِيهِ. قَالَتْ فِرْقَةٌ: مَدَّ الشَّيْءُ بَعْضَهُ بَعْضًا، كَمَا تَقُولُ: مَدَّ النِّيلُ الْخَلِيجَ، أَيْ زَادَ فِيهِ، وَأَمَدَّ الشَّيْءَ مَا لَيْسَ مِنْهُ، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من خَلْفِهِ، ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ قال البغوي : وَفِي الْآيَةِ اخْتِصَارٌ تَقْدِيرُهُ: وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شجرة أقلام والبحر يمده مع بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ يُكْتَبُ بِهَا كَلَامُ اللهِ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ، قال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَوْ جُعِلَ شَجَرُ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا، وَقَالَ اللهُ: إِنَّ مِنْ أمري كذا لنفذ ماء البحر وتكسرت الأقلام، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَثَلَ عِلْمِ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ فِي عِلْمِ اللهِ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ الْبُحُورِ كُلِّهَا، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَقَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وفي جميع شؤونه.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَبَعْثِهَا لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ،قَالَ الضَّحَّاكُ: الْمَعْنَىٰ مَا ابْتِدَاءُ خَلْقِكُمْ جَمِيعًا إِلَّا كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا بَعْثُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ. ﴿﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يَقُولُونَ ﴿ بَصِيرٌ﴾ بِمَا يَفْعَلُونَ ، عَن ابْن مَسْعُود رَضِي الله عَنهُ قَالَ: جَاءَ حبر من الْأَحْبَار إِلَىٰ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد إِنَّا نجد أَن الله يحمل السَّمَوَات يَوْم الْقِيَامَة علىٰ إِصْبَع وَالْأَرضين علىٰ

إِصْبَع وَالشَّجر علىٰ إِصْبَع وَالْمَاء وَالثَّرَىٰ علىٰ إِصْبَع وَسَائِر الْخلق علىٰ إِصْبَع فَيَقُول: أَنا الْملك فَضَحِك رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَدَت نَوَاجِذه تَصْدِيقًا لقَوْل الحبر ثمَّ قَرَأَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا قدرُوا الله حق قدره وَالْأَرْض جَمِيعًا قَبضته يَوْم الْقِيَامَة﴾.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك عظيم قدرة الله، ﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيْ تُدْخِلُ مَا نَقَصَ مِنْ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ، حَتَّىٰ يَصِيرَ النَّهَارُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهُوَ أَطْوَلُ مَا يَكُونُ، وَاللَّيْلُ تِسْعَ سَاعَاتٍ وَهُوَ أَقْصَرُ مَا يَكُونُ ، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أَيْ ذَلَّلَهُمَا لِمَنَافِعِ خَلْقِهِ وَمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ مُذَلَّلٌ لِلْخَالِقِ، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ إِلَىٰ وَقْتٍ مَعْلُومٍ، وَهُوَ فَنَاءُ الدُّنْيَا، وَقِيَامُ السَّاعَةِ الَّتِي عِنْدَهَا تُكَوَّرُ الشَّمْسُ، وَيُخْسَفُ الْقَمَرُ، وَتَنْكَدِرُ النُّجُومُ، وَتَنْتَثِرُ الْكَوَاكِبُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بالأجل المسمىٰ درجاتهما ومنازلها التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها، وقِيلَ إِلَىٰ غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ، وَقِيلَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكِلَا الْمَعْنِيَّيْنَ صَحِيحٌ قال ابن كثير : وَيُسْتَشْهِدُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟**» قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟ قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ**

رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ»[1]، ﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المعنىٰ أنه تعالىٰ الخالق العالم بجميع الأشياء.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْتُ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، والمعنىٰ: هُوَ الْحَقُّ لَا أَصْنَامُكُمْ وَلَا غَيْرُهَا مِمَّا يُدَّعَىٰ إِلَهِيَّةً غَيْرَهُ تَعَالَىٰ، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ قال مجاهد: أَيِ الشَّيْطَانُ، وَقِيلَ: مَا أَشْرَكُوا بِهِ اللهَ تَعَالَىٰ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ: ذَلِكَ الْوَصْفُ الَّذِي وُصِفَ بِهِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا الْأَحْيَاءُ الْقَادِرُونَ الْعَالِمُونَ، فَكَيْفَ بِالْجَمَادِ الَّذِي يَدْعُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّ مَنْ دُونِهِ بَاطِلُ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الشَّأْنِ الْكَبِيرُ السُّلْطَانِ، ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الْعَلِيُّ فِي مَكَانَتِهِ، الْكَبِيرُ فِي سلطانه، فالكل خَاضِعٌ حَقِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أَيِ السُّفُنَ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: مِفْتَاحُ الْبِحَارِ السُّفُنُ، وَمِفْتَاحُ الْأَرْضِ الطُّرُقُ، وَمِفْتَاحُ السَّمَاءِ الدُّعَاءُ. ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عليكم، ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ عَجَائِبِهِ، قال يحيىٰ بن سلام ﴿مِن﴾ لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ لِيُرِيَكُمْ جَرْيَ السُّفُنِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ علىٰ أمر الله أَيْ صَبَّارٍ لِقَضَائِهِ. ﴿شَكُورٍ﴾ شَكُورٍ

---

(١) البخاري (٣١٩٩) ومسلم (١٥٩).

عَلَىٰ نَعْمَائِهِ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَرَادَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، لِأَنَّ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ مِنْ أَفْضَلِ خِصَالِ الْإِيمَانِ، وَالْآيَةُ: الْعَلَامَةُ، وَالْعَلَامَةُ لَا تَسْتَبِينُ فِي صَدْرِ كُلِّ مُؤْمِنٍ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ لِمَنْ صَبَرَ عَلَىٰ الْبَلَاءِ وَشَكَرَ عَلَىٰ الرَّخَاءِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالشُّكْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ، أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: كَالْجِبَالِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كالسحاب ، والظل جَمْعُ الظُّلَّةِ شَبَّهَ بِهَا الْمَوْجَ فِي كَثْرَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَجَعَلَ الْمَوْجَ وهو واحد كالظل وَهِيَ جَمْعٌ، لِأَنَّ الْمَوْجَ يَأْتِي مِنْهُ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ، وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: ﴿مَوْجٌ كَالظِّلَالِ﴾ جَمْعُ ظِلٍّ، ﴿ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مُوَحِّدِينَ لَهُ لَا يَدْعُونَ لِخَلَاصِهِمْ سِوَاهُ ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْبَحْرِ. ﴿ إِلَىٰ الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: انْقَسَمُوا فَرِيقَيْنِ: فِرْقَةٌ مُقْتَصِدَةٌ، أَيْ: لَمْ تَقُمْ بِشُكْرِ اللهِ عَلَىٰ وَجْهِ الْكَمَالِ، بَلْ هُمْ مُذْنِبُونَ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَفِرْقَةٌ كَافِرَةٌ بِنِعْمَةِ اللهِ، وقيل: نَزَلَتْ فِي عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهلٍ هَرَبَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَىٰ البر فجاءتهم رِيحٌ عَاصِفٌ، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَئِنْ أنجانا اللهُ مِنْ هَذَا لَأَرْجِعَنَّ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَأَضَعَنَّ يَدِي فِي يَدِهِ فَسَكَنَتِ الرِّيحُ، فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ إِلَىٰ مَكَّةَ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ فِي الْقَوْلِ مُضْمِرٌ لِلْكُفْرِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مُقْتَصِدٌ فِي القول أي مكان الْكُفَّارِ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ أَشَدَّ قَوْلًا وَأَغْلَىٰ فِي الِافْتِرَاءِ مِنْ بَعْضٍ، وقال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ:

فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، وَدَلَّ عَلَىٰ الْمَحْذُوفِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الْخَتَّارُ: الْغَدَّارُ، وَالْخَتْرُ: أسوأ الغدر.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي﴾ لا يقضي ولا يغني، ﴿وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ مغن، ﴿عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ امْرِئٍ تهمه نَفْسُهُ، وقال القاسمي : أي ليس بمغن أحدهما عن الآخر شيئًا، لانقطاع الوُصَل في ذلك اليوم الرهيب نَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أَيِ الْبَعْثَ ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي تخدعنكم ﴿ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾ بزينتها وما تدعوا إِلَيْهِ فَتَتَّكِلُوا عَلَيْهَا وَتَرْكَنُوا إِلَيْهَا وَتَتْرُكُوا الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْمَعْصِيَةَ ويتمنىٰ المغفرة، والْغَرُورُ بفتح الغين الشيطان ، وبضمها : أَيْ لَا تَغْتَرُّوا. قالَ ابْنُ عَرَفَةَ: الْغُرُورُ مَا رَأَيْتَ له ظاهرا تحبه وفية بَاطِنٌ مَكْرُوهٌ أَوْ مَجْهُولٌ. وَالشَّيْطَانُ غَرُورٌ، لِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَىٰ مَحَابِّ النَّفْسِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَسُوءُ ، وَقَالَ الْكَفَوِيُّ: كُلُّ مَنْ غَرَّ شَيْئًا فَهُوَ غَرَورٌ ﴿بِالْفَتْحِ﴾، وَالْغُرُورُ ﴿بِالضَّمِّ﴾: الْبَاطِلُ ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ الْوَفَاةُ، قَالَ: ائْتُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أُكَفَّنُ فِيهِ، أَنْظُرْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا لِي كَثِيرُ مَا أُخَلِّفُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا! ثُمَّ وَلَّىٰ ظَهْرَهُ وَبَكَىٰ وَقَالَ: أُفٍّ لَكِ مِنْ دَارٍ! إِنْ كَانَ كَثِيرُكِ لَقَلِيلٌ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكِ لَكَثِيرٌ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكِ لَفِي غُرُورٍ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية نَزَلَتْ فِي الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ وَوَقْتِهَا وَقَالَ: إِنَّ أَرْضَنَا أَجْدَبَتْ فَمَتَىٰ يَنْزِلُ الْغَيْثُ وَتَرَكْتُ امْرَأَتِي حُبْلَىٰ، فَمَتَىٰ تَلِدُ، وَقَدْ علمتُ أَيْنَ ولدتُ فَبِأَيِّ أَرْضٍ أَمُوتُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ وَقِيلَ أراد بالأرض المكان، فعن ابن عمر أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**»(١) ، وَفِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: « **أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ**؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** »، ﴿وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِإِنْزَالِهِ، وَعِلْمِ وَقْتِ نُزُولِهِ ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ مَا فِيهَا، وَعَلَمَ مَا هُوَ، هَلْ هُوَ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ، وَلِهَذَا يَسْأَلُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْأَرْحَامِ رَبَّهُ: هَلْ هُوَ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِي اللهُ مَا يَشَاءُ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالىٰ، هو المختص بعلم ذلك جميعه ، قال ابن كثير: أي لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَدْرِي أَيْنَ مَضْجَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ، أَفِي بَحْرٍ أَمْ بَرٍّ، أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ. وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

(١) البخاري (٤٧٧٨) .

« إِذَا كَانَ أَجَلُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضٍ، أَوْثَبَتْهُ إِلَيْهَا الْحَاجَةُ، فَإِذَا بَلَغَ أَقْصَىٰ أَثَرِهِ، قَبَضَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ، فَتَقُولُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَبِّ! هَذَا مَا اسْتَوْدَعْتَنِي »[1] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مُحِيطٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَالْخَفَايَا وَالْخَبَايَا، وَالسَّرَائِرِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ التَّامَّةِ، أَنْ أَخْفَىٰ عِلْمَ هَذِهِ الْخَمْسَةِ عَنِ الْعِبَادِ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، هُوَ اللهُ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ سِوَاهُ، إِنَّهُ ذُو عِلْمٍ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، خَبِيرٌ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا قَدْ كَانَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) أحمد (١٥٦٠٩) .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، إلا ثَلَاث آيَاتٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ « ﴿الم. تَنْزِيلُ﴾ السَّجْدَةَ، وَ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ الْحَدِيثَ»[1].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الم﴾

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن قَالَ الطَّبَرِيُّ: مَعْنَىٰ الْكَلَامِ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَيْسَ بِشِعْرٍ وَلَا سَجْعِ كَاهِنٍ ، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَيْسَ بِسِحْرٍ وَلَا شِعْرٍ وَلَا كهانة ولا أساطير الأولين.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون، قال القرطبي : هَذِهِ (أَمْ) الْمُنْقَطِعَةُ الَّتِي تُقَدَّرُ بِبَلْ وَأَلِفِ الِاسْتِفْهَامِ، أَيْ بَلْ أَيَقُولُونَ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ حَدِيثٍ إِلَىٰ حَدِيثٍ، فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَثْبَتَ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

---

(١) البخاري (٨٩١) ومسلم (٨٨٠) .

وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ، ، ثُمَّ قال: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا﴾ كَذَّبَهُمْ فِي دَعْوَىٰ الافتراء ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي قُرَيْشًا، كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقَوْمِ أَهْلُ الْفَتْرَةِ بَيْنَ عِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿مَا أَتَاهُمْ﴾ يعني لَمْ يَأْتِهِمْ، ﴿مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ قَبلَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ ابن عباس ومقاتل: ذاك فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ عيسىٰ عليه السلام وبين مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن عاشور : وَقِيلَ: أُرِيدَ بِالْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ مِنْ قَبْلُ جَمِيعُ الْأُمَمِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ بَعْدَ أَنْ ضَلُّوا، سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ ضَلَّ فِي شَرْعِهِ مِثْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَنْ ضَلَّ بِالْخُلُوِّ عَنْ شَرْعٍ كَالْعَرَبِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قَالَ القرطبي عَرَّفَهُمْ كَمَالَ قُدْرَتِهِ لِيَسْمَعُوا الْقُرْآنَ وَيَتَأَمَّلُوهُ، وَمَعْنَىٰ: (خَلَقَ) أَبْدَعَ وَأَوْجَدَ بَعْدَ الْعَدَمِ وَبَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، في أموركم، فينفعكم ﴿وَلا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم، إن توجه عليكم العقاب. ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي قدرته ومخلوقاته.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المتفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُنْزِلُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ. وَقِيلَ: يُنْزِلُ الْوَحْيَ مَعَ جِبْرِيلَ ، ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأرْضِ﴾ فَيُسْعِدُ بها ويُشْقِي، ويُغْنِي ويُفْقِرُ، ويُعِزُّ، ويُذِلُّ، ويُكرِمُ، ويُهِينُ، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين، ويُنزل الأرزاق، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة. قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: هُوَ جِبْرِيلُ يَصْعَدُ إِلَىٰ السَّمَاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ بِالْوَحْيِ. قال القرطبي : وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنْيَا إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ فَيَحْكُمُ فِيهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَىٰ مَوْضِعِهَا مِنَ الطُّلُوعِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ فِي الْمَسَافَةِ أَلْفَ سَنَةٍ، ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي خَلَقَ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، الَّذِي اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَانْفَرَدَ بِالتَّدَابِيرِ فِي الْكَوْنِ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فَبِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ عِزَّتِهِ، وَعُمُومِ رَحْمَتِهِ، أَوْجَدَهَا، وَأَوْدَعَ فِيهَا، مِنَ الْمَنَافِعِ مَا أَوْدَعَ، وَلَمْ يَعْسُرْ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهَا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ معنىٰ ذَلِكَ الَّذِي صَنَعَ مَا ذَكَرَهُ من خلق السماوات والأرض عالم ما غاب عن عيان الْخَلْقِ وَمَا حَضَرَ، وفِي الْكَلَامِ مَعْنَىٰ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، أَيْ أَخْلِصُوا أَفْعَالَكُمْ وَأَقْوَالَكُمْ فَإِنِّي

أُجَازِي عَلَيْهَا، ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرِّقَابُ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أَيْ أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أتقنه وأحكمه، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: عَلِمَ كَيْفَ يَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ، مِنْ قَوْلِكَ: فُلَانٌ يُحْسِنُ كَذَا إِذَا كَانَ يَعْلَمُهُ، وَقِيلَ: خَلَقَ كُلَّ حَيَوَانٍ عَلَىٰ صُورَتِهِ لَمْ يَخْلُقِ الْبَعْضَ عَلَىٰ صُورَةِ الْبَعْضِ، فَكُلُّ حَيَوَانٍ كَامِلٌ فِي خَلْقِهِ حُسْنٌ، وَكُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ مُقَدَّرٌ بِمَا يَصْلُحُ بِهِ مَعَاشُهُ، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي آدَمَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ يعني ذريته، وَالنَّسْلُ: الْأَبْنَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ. سُمِّيَ نَسْلًا لِأَنَّهُ يَنْسَلُّ، أَيْ: يَنْفَصِلُ مِنْ أَصْلِهِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ نَسَلَ الصُّوفُ وَالْوَبَرُ إِذَا سَقَطَ عَنْ جِلْدِ الْحَيَوَانِ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ نُطْفَةٍ سُمِّيَتْ سُلَالَةً لِأَنَّهَا تُسَلُّ مِنَ الْإِنْسَانِ قال ابن عاشور : وَسُمِّيَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي يَتَقَوَّمُ مِنْهَا تَكْوِينُ الْجَنِينِ سُلَالَةً كَمَا فِي الْآيَةِ لِأَنَّهَا تَنْفَصِلُ عَنِ الرَّجُلِ ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي ضعف وَهُوَ نُطْفَةُ الرَّجُلِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ ثُمَّ سَوَّىٰ خَلْقَهُ، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ نُطَفًا، ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ يَعْنِي لَا تَشْكُرُونَ رَبَّ هَذِهِ النعم فتوحدونه. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **يُؤْتَىٰ**

بالعبدِ يومَ القيامةِ فيقولُ له: أَلَمْ أجْعَل لكَ سمعًا وبَصَرًا، ومالًا وولدًا، وسخَّرتُ لك الأنعام والحَرْثَ، وتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وترْبَعُ، فكنت تَظُنُّ أنكَ مُلاقيَّ يَوْمَك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليومَ أنساكَ كما نسيتني»[1] .

[١٠] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني منكري البعث، ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا﴾ هلكنا أَيْ تَمَزَّقَتْ أَجْسَامُنَا، وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَصِرْنَا تُرَابًا وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَلَّ الْمَاءُ فِي اللَّبَنِ إِذَا ذَهَبَ، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَمَبْعُوثُونَ بَعْثًا جَدِيدًا بِزَعْمِهِمْ أَنَّ هَذَا مِنْ أَبْعَدِ الْأَشْيَاءِ، وَذَلِكَ لِقِيَاسِهِمْ قُدْرَةَ الْخَالِقِ، بِقَدَرِهِمْ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أَيْ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والمعنىٰ : لَيْسَ لَهُمْ جُحُودُ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِعَادَةِ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِقُدْرَتِهِ وَلَكِنَّهُمُ اعْتَقَدُوا أَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لا يلقون الله تعالىٰ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ، يُقَالُ: تَوَفَّاهُ اللهُ أَيِ اسْتَوْفَىٰ رُوحَهُ ثُمَّ قَبَضَهُ، وَتَوَفَّيْتُ مَالِيَ مِنْ فُلَانٍ أَيِ اسْتَوْفَيْتُهُ، ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أَيْ وُكِّلَ بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ وَهُوَ عزرائيل، قَال قتادة: ﴿ ملك الموت يتوفاكم، ومعهُ أعوان من الملائكة﴾ ، وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ مَرْفُوعًا: « **وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ - وَفِي رِوَايَةٍ: الْفَاجِرَ - إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ**

---

(١) مسلم (٢٩٦٨) .

الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ مِنَ النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا، لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ - جَمْعُ مِسْحٍ، وَهُوَ مَا يُلْبَسُ مِنْ نَسِيجِ الشَّعْرِ عَلَىٰ الْبَدَنِ تَقَشُّفًا وَقَهْرًا لِلْبَدَنِ»[1] ، قوله : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ تَصِيرُونَ إِلَيْهِ أَحْيَاءً فَيَجْزِيكُمْ بأعمالكم.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون، الذين أصروا علىٰ الذنوب العظيمة، ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ مطأطئو رءوسهم، وَالنَّاكِسُ: الَّذِي يَجْعَلُ أَعْلَىٰ شَيْءٍ إِلَىٰ أَسْفَلَ، يُقَالُ: نَكَّسَ رَأْسَهُ، إِذَا طَأْطَأَهُ لِأَنَّهُ كَمَنْ جَعَلَ أَعْلَىٰ الشَّيْءِ إِلَىٰ أَسْفَلَ. ونكس الرؤوس عَلَامَةُ الذُّلِّ وَالنَّدَامَةِ، وَذَلِكَ مِمَّا يُلَاقُونَ مِنَ التَّقْرِيعِ وَالْإِهَانَةِ ، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حياء منه وندمًا ، ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون: ربنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ مَا كُنَّا بِهِ مُكَذِّبِينَ، ﴿وَسَمِعْنَا﴾ مِنْكَ تَصْدِيقَ مَا أَتَتْنَا بِهِ رُسُلُكَ. وَقِيلَ: أَبْصَرْنَا مَعَاصِيَنَا وَسَمِعْنَا ما قيل فينا، ﴿فَارْجِعْنَا﴾ فَأَرْدُدْنَا إِلَىٰ الدُّنْيَا، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وَجَوَابُ لَوْ مُضْمَرٌ مَجَازُهُ لَرَأَيْتَ الْعَجَبَ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ

---

(١) أحمد (١٨٥٣٤) وأبو داود (٤٧٥٣) .

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أَيْ قَدْ زَالَتْ عَنَّا الشُّكُوكُ الْآنَ، وَكَانُوا يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ فِي الدنيا، ولكن لم يكونوا يَتَدَبَّرُونَ، وَكَانُوا كَمَنْ لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ، فَلَمَّا تَنَبَّهُوا فِي الْآخِرَةِ صَارُوا حِينَئِذٍ كَأَنَّهُمْ سَمِعُوا وَأَبْصَرُوا، وَقِيلَ: أَيْ رَبَّنَا لَكَ الْحُجَّةُ، فَقَدْ أَبْصَرْنَا رُسُلَكَ وَعَجَائِبَ خَلْقِكَ فِي الدُّنْيَا، وَسَمِعْنَا كَلَامَهُمْ فَلَا حُجَّةَ لَنَا، فَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ طَلَبُوا أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا ليؤمنوا ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَمَّا قَالُوا:﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ رَدَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ يَقُولُ: لَوْ شِئْتُ لَهَدَيْتُ النَّاسَ جَمِيعًا فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ رُشْدَهَا وَتَوْفِيقَهَا لِلْإِيمَانِ، قَالَ قَتَادَةُ: لَوْ شَاءَ اللهُ لَهَدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا، لَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ، ﴿وَلَكِنْ حَقَّ﴾ وَجَبَ، قال القرطبي : أَيْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأُعَذِّبَنَّ مَنْ عَصَانِي بِنَارِ جَهَنَّمَ ، ﴿الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ لِإِبْلِيسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والْجِنَّةِ: الجنّ وهم الشَّيَاطِين، ثُمَّ يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِذَا دَخَلُوا النَّارَ قَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَيْ تَرَكْتُمُ الْإِيمَانَ بِهِ فِي الدنيا، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تَرَكْنَاكُمْ قال ابن كثير : أي سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَنْسَىٰ شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ مِنْ باب المقابلة، قَالَ

الضَّحَّاكُ:﴿ نَسِيتُمْ﴾ أَيْ تَرَكْتُمْ أَمْرِي، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: أَيْ تَرَكْتُمُ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، ﴿ نَسِيناكُمْ﴾ تَرَكْنَاكُمْ مِنَ الْخَيْرِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ ، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: فَذُوقُوا هَذَا، أَيْ ما أنتم فيه من نكس الرؤوس وَالْخِزْيِ وَالْغَمِّ بِسَبَبِ نِسْيَانِ اللهِ، أَوْ ذُوقُوا الْعَذَابَ الْمُخَلَّدَ، وَهُوَ الدَّائِمُ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ له في جهنم ، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا مِنَ المعاصي، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِالذَّوْقِ عَمَّا يَطْرَأُ عَلَىٰ النَّفْسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَطْعُومًا، لِإِحْسَاسِهَا بِهِ كَإِحْسَاسِهَا بِذَوْقِ الْمَطْعُومِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّداً﴾ أَيِ اسْتَمَعُوا لَهَا وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سَقَطُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ سَاجِدِينَ، وَالْخُرُورُ: الْهُوِيُّ مِنْ عُلُوٍّ إِلَىٰ سُفْلٍ، وَالسُّجُودُ: وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِرَادَةَ التَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قِيلَ: صَلُّوا بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقِيلَ: قَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، قال القرطبي : أَيْ خَلَطُوا التَّسْبِيحَ بِالْحَمْدِ، أَيْ نَزَّهُوهُ وَحَمِدُوهُ، فَقَالُوا فِي سُجُودِهِمْ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ وَبِحَمْدِهِ، أَيْ تَنْزِيهًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ سُفْيَانُ: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ صَلَّوْا حَمْدًا لِرَبِّهِمْ، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالسُّجُودِ لَهُ، وقال النَّقَّاشُ: لَا يَسْتَكْبِرُونَ كَمَا اسْتَكْبَرَ أَهْلُ مَكَّةَ عَنِ السُّجُودِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ مَشْرُوعِيَّةِ السُّجُودِ هَاهُنَا، اقْتِدَاءً بِهِمْ، وَاتِّبَاعًا لِمِنْوَالِهِمْ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي

هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَعَصَيْتُ، فَلِي النَّارُ**»(١).

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع وتنبوا، وَالتَّجَافِي: التَّبَاعُدُ وَالْمُتَارَكَةُ. وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ تَجَافِيَ جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَتَكَرَّرُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ، أَيْ: يُكْثِرُونَ السَّهَرَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ لِلَّهِ وَقَدْ فَسَّرَهُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَلَاةِ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: تَرْتَفِعُ جُنُوبُهُمْ، وَتَنْزَعِجُ عَنْ مَضَاجِعِهَا اللَّذِيذَةِ، إِلَىٰ مَا هُوَ أَلَذُّ عِنْدَهُمْ مِنْهُ وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ الصَّلَاةُ فِي اللَّيْلِ، وَمُنَاجَاةُ اللهِ تَعَالَىٰ، والْمَضَاجِعِ: جَمْعُ مَضْجَعٍ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُضْطَجَعُ عَلَيْهِ يَعْنِي الْفُرُشَ وَهُمُ المتهجدون بالليل، الذين يَقُومُونَ لِلصَّلَاةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ أَنَسٌ: نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ فَلَا نَرْجِعُ إِلَىٰ رِحَالِنَا حَتَّىٰ نُصَلِّيَ الْعِشَاءَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الَّذِينَ لَا يقومون حَتَّىٰ يُصَلُّوا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي ذَرٍ وَعُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: هُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ والفجر في جماعة، وَأَشْهُرُ الْأَقَاوِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ صَلَاةُ اللَّيْلِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة، قَالَ الضَّحَّاكُ: تَجَافِي الْجَنْبِ

---

(١) مسلم (٨١) .

هُوَ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ الْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ ، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ: فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِمَا ، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيْ: جَامِعِينَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ، خَوْفًا أَنْ تُرَدَّ أَعْمَالُهُمْ، وَطَمَعًا فِي قَبُولِهَا، خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَوْفًا مِنَ النَّارِ وَطَمَعًا فِي الْجَنَّةِ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِهِ الصَّدَقَةَ الْمَفْرُوضَةَ، وقيل: فِي الْوَاجِبِ وَالتَّطَوُّعِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مِمَّا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، قال ابن كثير : أَيْ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظَمَةَ مَا أَخْفَىٰ اللهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ، مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَاللَّذَّاتِ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعُ عَلَىٰ مِثْلِهَا أَحَدٌ، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أَخْفَىٰ اللهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، جَزَاءً وِفَاقًا، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْفَىٰ قَوْمٌ عَمَلَهُمْ فَأَخْفَىٰ اللهُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قلب بشر، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»[١] ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ اقرأوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وَقُرَّةُ الْأَعْيُنِ: كِنَايَةٌ عَنِ الْمَسَرَّةِ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَعَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ: أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ فأخفىٰ الله ثوابهم.

---

(١) البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٧) .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ لَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَالْفَاسِقِ، فَلِهَذَا آتَيْنَا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ ، وَلَمْ يَقُلْ لَا يَسْتَوِيَانِ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ مُؤْمِنًا وَاحِدًا وَفَاسِقًا وَاحِدًا ، بَلْ أَرَادَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وجميع الفاسقين ، وَالْفَاسِقُ هُنَا هُوَ: مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، فَالْمُرَادُ: الْفِسْقُ عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ وَهُوَ إِطْلَاقٌ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ، والْمَأْوىٰ: الْمَكَانُ الَّذِي يُؤْوَىٰ إِلَيْهِ، أَيْ يُرْجَعُ إِلَيْهِ. ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَالنُّزُلُ مُشْتَقٌّ مِنَ النُّزُولِ فَيُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يُعَدُّ لِلنَّزِيلِ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْضيافة ، ثُمَّ صَارَ عَامًّا، أَيْ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْعَطَاءِ وَلَوْ بِدُونِ ضِيَافَةٍ مَجَازًا مُرْسَلًا.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أَيْ خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ، ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ الآية، قَالَ الفضيل ابن عِيَاضٍ: وَاللهِ إِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوثَقَةٌ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ، وَالْمَلَائِكَةَ تَقْمَعُهُمْ، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أَيْ سِوَىٰ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ البصري : الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَأَسْقَامِهَا وَقَالَ عِكْرِمَةُ عنه: الْحُدُودُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْجُوعُ سَبْعَ سِنِينَ بِمَكَّةَ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْجِيَفَ وَالْعِظَامَ وَالْكِلَابَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْقَتْلُ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ، ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ يَعْنِي عَذَابَ الْآخِرَةِ، قال القرطبي : وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ عَذَابُ جَهَنَّمَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلَمَّا كَانَتِ الْإِذَاقَةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ فِي الدُّنْيَا، قَدْ لَا يَتَّصِلُ بِهَا الْمَوْتُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يُذِيقُهُمْ ذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، يَعْنِي مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ بَعْدَ بَدْرٍ وَبَعْدَ الْقَحْطِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ لِنَفْسِهِ. ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أَيْ بِحُجَجِهِ وَعَلَامَاتِهِ ، ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بِتَرْكِ الْقَبُولِ، أَيْ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَّرَهُ اللهُ بِآيَاتِهِ وَبَيَّنَهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا، قَالَ قتادة: إِيَّاكُمْ وَالْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ فَقَدِ اغْتَرَّ أَكْبَرَ الْغِرَّةِ وأعوز أشد العوز، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم، والمعنىٰ: سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فعل ذلك أشد الانتقام.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ يَعْنِي فَلَا تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ مُوسَىٰ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسَرِيَ بِي مُوسَىٰ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ من رجال شنوءة**»[1] ، قَالَ السُّدِّيُ: فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ أَيْ مِنْ تَلَقِّي مُوسَىٰ كِتَابَ اللهِ بِالرِّضَا والقبول، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَاةُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مُوسَىٰ، ﴿هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: جَعَلَ اللهُ مُوسَىٰ هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: ﴿جَعَلْنَا الْكِتَابَ هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: التوراة، والتأويل الثاني أرجح ، قال ابن عاشور: وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ إِذْ لَمْ يَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَىٰ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ بِالْقُرْآنِ لِيَهْتَدُوا فَأَعْرَضُوا وَكَانُوا أَحَقَّ بِأَنْ يَحْرِصُوا عَلَىٰ الِاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ وبهدي مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿أَئِمَّةً﴾ قَادَةً فِي الْخَيْرِ يُقْتَدَىٰ بِهِمْ، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، ﴿يَهْدُونَ﴾ يدعون، ﴿بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ أَيْ حِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَعَلَىٰ الْبَلَاءِ مِنْ عَدُوهُمْ بِمِصْرَ، أَيْ: لِصَبْرِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَاجْتِهَادِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ ، قَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا، وَقَالَ سُفْيَانُ: هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُقْتَدَىٰ بِهِ حَتَّىٰ يَتَحَامَىٰ عن الدنيا، وسئل سُفْيَانُ عَنْ قَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ

---

(١) البخاري (٣٣٩٤) .

بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾؟ قَالَ: لَمَّا أَخَذُوا بِرَأْسِ الأمر صاروا رؤساء، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تَنَالُ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يَقْضِي، قَالَ النَّقَّاشُ: يَقْضِي بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ، وَقِيلَ: يَقْضِي وَيَحْكُمُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، فَيُجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ، ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ يُبَيِّنُ جَمِيعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ فِي الدُّنْيَا يَخْتَلِفُونَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ دِينِهِمْ، فَيَفْرِقُ بَيْنَهُمْ بِقَضَاءٍ فَاصِلٍ بِإِيجَابِهِ لِأَهْلِ الْحَقِّ الْجَنَّةَ، وَلِأَهْلِ الْبَاطِلِ النَّارَ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْد لهم﴾ لَمْ يَتَبَيَّنْ، يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدهم إلىٰ الصواب، ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أَيْ وَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَيَعْمُرُهَا ذهبوا منها كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فيها، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ هُمْ لَمْ يَهْتَدُوا بِدَلَائِلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ الَّتِي جَاءَهُمْ بِهَا الْقُرْآنُ فَأَعْرَضُوا عَنْهَا وَلَا اتَّعَظُوا بِمَصَارِعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَفِي مَهْلِكِهِمْ آيَاتٌ تَزْجُرُ أَمْثَالَهُمْ عَنِ السُّلُوكِ فِيمَا سَلَكُوهُ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أَيْ إِنَّ فِي ذَهَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَدَمَارِهِمْ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَنَجَاةِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ، لآيات ، وعبراً ومواعظ

ودلائل ﴿أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ آيَاتِ اللهِ وَعِظَاتِهِ فَيَتَّعِظُونَ بِهَا. أَيْ أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كان من أمرهم.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أَيْ أو لم يَعْلَمُوا كَمَالَ قُدْرَتِنَا بِسَوْقِنَا الْمَاءَ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا لِنُحْيِيَهَا.والجرز الْيَابِسَةِ الْغَلِيظَةِ الَّتِي لَا نبات فيها الزَّمَخْشَرِيُّ: الْجُرُزُ الْأَرْضُ الَّتِي جُرِزَ نَبَاتُهَا، أَيْ قُطِعَ، إِمَّا لِعَدَمِ الْمَاءِ وَإِمَّا لِأَنَّهُ رُعِيَ وَأُزِيلَ، وَلَا يُقَالُ لِلَّتِي لَا تُنْبِتُ كَالسِّبَاخِ جُرُزٌ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا. وَجَرَزَتِ الْجَرَادُ الزَّرْعَ: إِذَا اسْتَأْصَلَتْهُ بِالْأَكْلِ، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من العشب والتبن، ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأَقْوَاتِ، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ بِأَعْيُنِهِمْ، فَيَعْلَمُوا بِرُؤْيَتِهِمْ لَهُ أَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي بِهَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ أَنْ أُحْيِيَ بِهَا الْأَمْوَاتَ وَأُنْشِرَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَأُعِيدَهُمْ بِهَيْئَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا بِهَا قَبْلَ وَفَاتِهِمْ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعذيبنا علىٰ زعمكم وقِيلَ: أَرَادَ بِيَوْمِ الْفَتْحِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي فِيهِ الْحُكْمُ بَيْنَ الْعِبَادِ، قَالَ قَتَادَةُ: قَالَ أَصْحَابُ النبي لِلْكُفَّارِ: إِنْ لَنَا يَوْمًا نَتَنَعَّمُ فِيهِ وَنَسْتَرِيحُ وَيُحْكَمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَقَالُوا اسْتِهْزَاءً: مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ؟ أَيْ الْقَضَاءُ وَالْحُكْمُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَوْمَ بَدْرٍ لِأَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ نَاصِرُنَا وَمُظْهِرُنَا عَلَيْكُمْ، فَيَقُولُونَ: مَتَىٰ

هَذَا الفتح، قَالَ ابن كثير : أَيْ مَتَىٰ تُنْصَرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تُدَالُ عَلَيْنَا وَيُنْتَقَمُ لَكَ مِنَّا، فَمَتَىٰ يَكُونُ هَذَا؟ مَا نَرَاكَ أَنْتَ وَأَصْحَابَكَ إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها الرسل ﴿صَادِقِينَ﴾ في دعواكم. وَالْمَعْنَىٰ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّهُ وَاقِعٌ فَبَيِّنُوا لَنَا وَقْتَهُ فَإِنَّكُمْ إِذْ عَلِمْتُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِكُمْ فَلْتَعْلَمُوا وَقْتَهُ، وَهَذَا مِنَ السَّفْسَطَةِ الْبَاطِلَةِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ وَمَنْ حَمَلَ الْفَتْحَ عَلَىٰ فَتْحِ مكة والقتل يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ: مَعْنَاهُ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَقُتِلُوا، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ لَا يُمْهَلُونَ لِيَتُوبُوا وَيَعْتَذِرُوا. وَالِانْتِظَارُ: التَّرَقُّبُ، وَأَصْلُهُ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّظَرِ فَكَأَنَّهُ مُطَاوِعُ: أَنْظَرَهُ، أَيْ أَرَاهُ فَانْتَظَرَ، أَيْ: تَكَلَّفَ أَنْ يَنْظُرَ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أَيْ أَعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْهَا آيَةُ السيف، ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أَيْ أَنْتَ مُنْتَظِرٌ وَهُمْ مُنْتَظِرُونَ، وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، وقِيلَ: انْتَظِرْ مَوْعِدِي لَكَ بِالنَّصْرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ بِكَ حَوَادِثَ الزَّمَانِ. وَقِيلَ: انْتَظِرْ عَذَابَنَا فِيهِمْ فَإِنَّهُمْ منتظرون ذلك.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

هَكَذَا سُمِّيَتْ سُورَةُ الْأَحْزَابِ فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالسُّنَّةِ، وَوسبب التَّسْمِيَةِ أَنَّ فِيهَا ذِكْرَ أَحْزَابِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ تَحَزَّبَ مَعَهُمْ، أَرَادُوا غَزْوَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ سنة الخامسة للهجرة ، وَتُسَمَّىٰ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ حِينَ أَحَاطَ جَمَاعَاتٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَغَطَفَانَ وَكَانُوا عَشَرَةَ آلَافٍ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَقِبَتْهَا غَزْوَةُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ. فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُمْ وَكَفَىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي الْأَعْوَرِ وَعَمْرِو بْنِ سُفْيَانَ السُّلَمِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابن سَلُولٍ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ قِتَالِ أُحُدٍ، وَقَدْ أَعْطَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمَانَ عَلَىٰ أن يكلموه فَقَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ، وَقُلْ: إِنَّ لَهَا شَفَاعَةً لِمَنْ عَبَدَهَا، وَنَدَعُكَ وَرَبَّكَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لَنَا فِي قَتْلِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ

أَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ، فَقَالَ عُمَرُ: اخْرُجُوا فِي لَعْنَةِ اللهِ وَغَضَبِهِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ أَيْ دُمْ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ، كَالرَّجُلِ يَقُولُ لِغَيْرِهِ وَهُوَ قَائِمٌ: قُمْ هَاهُنَا أَيِ اثْبُتْ قَائِمًا. وَقِيلَ: الْخِطَابُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَعْنَاهُ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَنْقُضِ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَكَ وبينهم. ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَعْنِي أَبَا سُفْيَانَ وَعِكْرِمَةَ وَأَبَا الْأَعْوَرِ، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ سَعْدٍ وَطُعْمَةَ ، فلا تقبل منهم رأيًا ولا تستشرهم مستنصحًا بهم، فإنهم لك أعداء ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ لخلقه، قبل أن يخلقهم، وَلَا تَمِلْ إِلَيْهِمْ، ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ ، فهو أحقُّ أَنْ تَتَّبعَ أوامرَهُ وتُطيعهُ، فإنه عليمٌ بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ. وَفِيهِ زَجْرٌ عَنِ اتِّبَاعِ مَرَاسِمِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَمْرٌ بِجِهَادِهِمْ وَمُنَابَذَتِهِمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ تَرْكِ اتِّبَاعِ الْآرَاءِ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أَيْ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيُجَازِيكُمْ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ، مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ﴾ ثِقْ بِاللهِ، وَفَوِّضْ أَمْرَكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَىٰ اللهِ، فَإِنَّهُ بِالتَّوَكُّلِ يُرْفَعُ مَقَامُ الْعَبْدِ، وَيَحْظَىٰ مِنْ رَبِّهِ بِالتَّأْيِيدِ وَالْفَرَجِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا﴾ حَافِظًا لَكَ، أَيْ: وَحَسْبُكَ يَا مُحَمَّدُ بِاللهِ حَفِيظًا وَكَفِيلًا. وَالْوَكِيلُ: الْحَافِظُ الْقَائِمُ عَلَىٰ الْأَمْرِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي مَعْمَرٍ جَمِيلِ بْنِ مَعْمَرٍ الْفِهْرِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا لَبِيبًا حَافِظًا لِمَا يَسْمَعُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا حَفِظَ أَبُو مَعْمَرٍ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا وَلَهُ قَلْبَانِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ لِي قَلْبَيْنِ أَعْقِلُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَفْضَلَ من عقل محمد، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَمُقَاتِلٌ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُظَاهِرِ مِنِ امْرَأَتِهِ وَلِلْمُتَبَنِّي وَلَدَ غَيْرِهِ، يَقُولُ: فَكَمَا لَا يَكُونُ لِرَجُلٍ قَلْبَانِ كَذَلِكَ لَا تَكُونُ امْرَأَةُ المظاهر أمه حتىٰ تكون له أُمَّانِ، وَلَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَاحِدٌ ابْنَ رَجُلَيْنِ، ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ صورة الظِّهَارِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ: أَنْتَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَا جَعَلَ نِسَاءَكُمُ اللَّائِي تَقُولُونَ لَهُنَّ هَذَا فِي التَّحْرِيمِ كَأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَكِنَّهُ مُنْكَرٌ وَزُورٌ، وَفِيهِ كَفَّارَةٌ نَذْكُرُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ يعني من تبنيتموه ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ فِيهِ نَسْخُ التَّبَنِّي، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ يَتَبَنَّىٰ الرَّجُلَ فَيَجْعَلُهُ كَالِابْنِ الْمَوْلُودِ لَهُ يَدْعُوهُ النَّاسُ إِلَيْهِ وَيَرِثُ مِيرَاثَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتَقَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بْنِ شَرَاحِيلَ الْكَلْبِيَّ، وَتَبَنَّاهُ قَبْلَ الْوَحْيِ وَآخَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَمْزَةَ بْنِ عَبدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَكَانَتْ تَحْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ: تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأَةَ ابْنِهِ وهو ينهىٰ الناس من ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَنَسَخَ التَّبَنِّي، ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لَا حَقِيقَةَ لَهُ يَعْنِي

قَوْلَهُمْ زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ يعني قَوْلُهُ الْحَقُّ، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي يرشدهم إِلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ الذين ولدوهم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ يعني فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ، ﴿فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ إن كانوا محررين وليسوا بنيكم، أَيْ سَمُّوهُمْ بِأَسْمَاءِ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ، وَقِيلَ: مَوَالِيكُمْ أَيْ أَوْلِيَاءُكُمْ فِي الدِّينِ، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ قَبْلَ النَّهْيِ فَنَسَبْتُمُوهُ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ومن دُعَائِهِمْ إِلَىٰ غَيْرِ آبَائِهِمْ بَعْدَ النَّهْيِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ أَنْ تَدْعُوهُ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ كَذَلِكَ وقيل المعنىٰ : وَلَكِنْ فِيمَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ** »(١) .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي نفوذ حكمه فيهم وَوُجُوبِ طَاعَتِهِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي إِذَا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَىٰ شَيْءٍ كَانَتْ طَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولىٰ بهم من أنفسهم، وَقِيلَ: هُوَ أَوْلَىٰ بِهِمْ فِي الحمل علىٰ الجهاد وبذلك النَّفْسِ دُونَه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

---

(١) البخاري (٦٧٦٦) ومسلم (٦٣) .

«**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا أَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقرءوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فليرثه عصبته من كانوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فليأتني فأنا مولاه**»(١) ، قَوْلُهُ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ فِي الْحُرْمَةِ وَالِاحْتِرَامِ، وَالتَّوْقِيرِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْإِعْظَامِ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ الْخَلْوَةُ بِهِنَّ وَلَا ينتشر التحريم إلىٰ بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أَيِ الأقرباء أَوْلَىٰ بِالتَّوَارُثِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَهَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنْ التَّوَارُثِ بِالْحَلِفِ وَالْمُؤَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَىٰ بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِينَا خَاصَّةً مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارَ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بعض﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا من الْمَدِينَةَ قَدِمْنَا وَلَا أَمْوَالَ لَنَا، فَوَجَدْنَا الْأَنْصَارَ نِعْمَ الْإِخْوَانُ فَوَاخَيْنَاهُمْ وَوَارَثْنَاهُمْ، فَآخَىٰ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه خارجة بن زيد ، وآخىٰ عمر رضي الله عنه فلانـًا، وآخىٰ عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ - ابن سَعْدٍ الزُّرَقِيِّ - وَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ غَيْرَهُ، قَالَ الزبير رضي الله عنه، وَوَاخَيْتُ أَنَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَجِئْتُهُ فَابْتَعَلْتُهُ، فَوَجَدَتُ

---

(١) البخاري (٤٧٨١) ومسلم (١٦١٩) .

السِّلَاحَ قَدْ ثَقِلَهُ فِيمَا يُرَىٰ، فَوَاللهِ يا بني لو مات يؤمئذ عَنِ الدُّنْيَا مَا وَرِثَهُ غَيْرِي، حَتَّىٰ أَنْزَلَ الله تعالىٰ هَذِهِ الْآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَالْأَنْصَارَ خَاصَّةً، فرجعنا إلىٰ مواريثنا. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً﴾ أَيْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَبَقِيَ النَّصْرُ وَالْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْإِحْسَانُ والوصية، وقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ أَيْ هَذَا الْحُكْمُ، وَهُوَ أَنَّ أُولِي الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ، حُكْمٌ مِنَ اللهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ، وإن كان تعالىٰ قَدْ شَرَعَ خِلَافَهُ فِي وَقْتٍ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَىٰ مَا هُوَ جَارٍ فِي قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي والله أعلم.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أَيْ عَهْدَهُمْ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِمَا حُمِّلُوا، وَأَنْ يُبَشِّرَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَيْ كَانَ مَسْطُورًا حِينَ كَتَبَ اللهُ مَا هُوَ كَائِنٌ، وَحِينَ أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ الْمَوَاثِيقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿وَمِنْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وَإِنَّمَا خُصَّ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ وَإِنْ دَخلُوا فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ تَفْضِيلًا لَهُمْ ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الشَّرَائِعِ وَالْكُتُبِ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَأَئِمَّةُ الْأُمَمِ ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عَهْدًا شَدِيدًا عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِمَا حُمِّلُوا، فَالْمِيثَاقُ الثَّانِي تَأْكِيدٌ لِلْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ بِالْيَمِينِ، وَقِيلَ: الْأَوَّلُ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَالثَّانِي فِي أَمْرِ النُّبُوَّةِ ، وَحَقِيقَةُ الْغَلِيظِ: الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْخَلْقِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ يقول: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يَعْنِي النَّبِيِّينَ عَنْ تَبْلِيغِهِمِ الرِّسَالَةَ وَالْحِكْمَةُ فِي سُؤَالِهِمْ مَعَ عِلْمِهِ أنهم صادقون لتبكيت مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، وَقِيلَ: لِيَسْأَلَ الصادقين عن علمهم لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ بِأَفْوَاهِهِمْ عَنْ صِدْقِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ، كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يُسْأَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ، مِثْلَ إِسْمَاعِيلَ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَكَيْفَ بِالْكَذَّابِينَ مِنْ أَمْثَالِنَا؟!، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيْ مِنْ أُمَمِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ مُوجِعًا، وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ وَذَلِكَ حِينَ حُوصِرَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ، وَذَلِكَ بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا وَنَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ وَحَفَرَ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَنَزَلُوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أُحُد، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي أَعَالِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ، ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يَعْنِي الْأَحْزَابَ وَهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَيَهُودُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي الصَّبَا وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» ، قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ

تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَئِذٍ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ رِيحًا بَارِدَةً فَقَلَعَتِ الْأَوْتَادَ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَ الْفَسَاطِيطِ وَأَطْفَأَتِ النِّيرَانَ وَأَكْفَأَتِ الْقُدُورَ، وَجَالَتِ الْخَيْلُ بَعْضُهَا فِي بعض فَانْهَزَمُوا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَكَانَ اللهُ بِأَعْمَالِكُمْ يَوْمَئِذٍ، وَذَلِكَ صَبْرُهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالشِّدَّةِ، وَثَبَاتُهُمْ لِعَدُوِّهِمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، بَصِيرًا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، يُحْصِيهِ عَلَيْهِمْ، لِيَجْزِيَهُمْ عَلَيْهِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من فوق الْوَادِي مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُمْ أَسَدٌ وَغَطَفَانُ وَعَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي أَلْفٍ مِنْ غَطَفَانَ وَمَعَهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيُّ فِي بَنِي أَسَدٍ وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ فِي يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي مِنْ بَطْنِ الْوَادِي مِنْ قبل الغرب، وَهُمْ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ عَلَيْهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فِي قُرَيْشٍ ومن تبعه، وأبو الأعور بْنُ سُفْيَانَ السُّلَمِيُّ مِنْ قِبَلِ الخندق، وكان السبب الَّذِي جَرَّ غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ فِيمَا قِيلَ إِجْلَاءُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ دِيَارِهِمْ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مَالَتْ وَشَخَصَتْ مِنَ الرُّعْبِ، وَقِيلَ: مالت عن الشيء فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَىٰ عَدُوِّهَا، ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ فَزَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا حَتَّىٰ بَلَغَتِ الحلوق من الْفَزَعِ، وَالْحَنْجَرَةُ جَوْفُ الْحُلْقُومِ وَهَذَا عَلَىٰ التَّمْثِيلِ عَبَّرَ بِهِ عَنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، قَالَ القرطبي : والْأَظْهَرُ أَنَّهُ أَرَادَ اضْطِرَابَ الْقَلْبِ وَضَرَبَانَهُ، أَيْ كَأَنَّهُ لِشِدَّةِ اضْطِرَابِهِ بَلَغَ الْحَنْجَرَةَ ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ

الظُّنُونَا﴾ أَيْ اخْتَلَفَتِ الظُّنُونُ فَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ اسْتِئْصَالَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قَالَ: « قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُ، فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحناجر؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا** ، قَالَ: فَضَرَبَ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ بِالرِّيحِ »(١).

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ﴾ هُنَا لِلْقَرِيبِ مِنَ الْمَكَانِ، وَ﴿هُنَالِكَ﴾ لِلْبَعِيدِ، أَيْ عِنْدَ ذَلِكَ اخْتُبِرَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَتَبَيَّنَ الْمُخْلِصُ مِنَ الْمُنَافِقِ، ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِالْحَصْرِ وَالْقِتَالِ لِيَتَبَيَّنَ الْمُخْلِصُ مِنَ المنافق، ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حُرِّكُوا حَرَكَةً شَدِيدَةً.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، وَقِيلَ: عَبْدُ اللهِ ابنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ وَضَعْفُ اعْتِقَادٍ، ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ النِّفَاقِ: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ فَتْحَ قُصُورِ الشَّامِ وَفَارِسَ وَأَحَدُنَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجَاوِزَ رَحْلَهُ، هَذَا وَاللهِ الْغُرُورُ. وَالْغُرُورُ: ظُهُورُ الشَّيْءِ الْمَكْرُوهِ فِي صُورَةِ الْمَحْبُوبِ، وعَن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِي

---

(١) أحمد (١١٠٣٢) .

بَعْضِ الْجَبَلِ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ شَدِيدَةٌ،لَا تَدْخُلُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَآهَا أَخَذَ الْمِعْوَلَ وَأَلْقَىٰ ثَوْبَهُ ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، ثُمَّ ضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا، وَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ**»، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَطَعَ ثُلُثًا آخَرَ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ**»، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**» ، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ**»(١) .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُمْ أَوْسُ ابْنُ قَيْظِيٍّ وَأَصْحَابُهُ، ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يَعْنِي الْمَدِينَةَ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يثرب، وقال: هي مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا، وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَىٰ أَنْ تُسَمَّىٰ الْمَدِينَةُ يَثْرِبَ، وَقَالَ: «**هِيَ طابة**»، كأنه كره هذا اللفظ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَثْرِبُ اسْمُ أَرْضٍ، ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي ههنا يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَقَامِ الْمُرَابِطَةِ، ﴿فَارْجِعُوا﴾ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: عَنِ الْقِتَالِ إِلَىٰ مَسَاكِنِكُمْ، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ فِي الرُّجُوعِ إِلَىٰ منازلهم بالمدينة،

---

(١) أحمد (١٨٦٩٥) .

وَهُمْ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أَيْ خَالِيَةٌ ضَائِعَةٌ، وَهُوَ مِمَّا يلي العدو ونخشىٰ عَلَيْهَا السُّرَّاقَ، يُقَالُ: دَارٌ ذَاتُ عَوْرَةٍ إِذَا كَانَ يَسْهُلُ دُخُولُهَا ، قال الْجَوْهَرِيُّ: وَالْعَوْرَةُ كُلُّ خَلَلٍ يُتَخَوَّفُ مِنْهُ فِي ثَغْرٍ أَوْ حَرْبٍ، فَكَذَّبَهُمُ اللهُ فَقَالَ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أَيْ مَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْفِرَارَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو دخل عليهم المدينة هَؤُلَاءِ الْجُيُوشَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ قِتَالَهُمْ وهم الأحزاب ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ جَوَانِبِهَا وَنَوَاحِيهَا، وَالْأَقْطَارُ: جَمْعُ قُطْرٍ - بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ- وَهُوَ النَّاحِيَةُ مِنَ الْمَكَانِ ، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي الشرك، ﴿لَآتَوْهَا﴾ لَأَعْطَوْهَا، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أَيْ مَا احْتَبَسُوا عَنِ الْفِتْنَةِ، ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: أَيْ وَمَا احْتَبَسُوا عَنْ فِتْنَةِ الشِّرْكِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَأَجَابُوا بِالشِّرْكِ مُسْرِعِينَ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ نِيَّاتِهِمْ وَلِفَرْطِ نِفَاقِهِمْ، فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَمَا أَقَامُوا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ إِعْطَاءِ الْكُفْرِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ يَهْلَكُوا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ مِنْ عَدُوِّهِمْ أَيْ لَا يَنْهَزِمُونَ، قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ نَاسٌ كَانُوا قَدْ غَابُوا عَنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ وَرَأَوْا مَا أَعْطَىٰ اللهُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيلَةِ، قَالُوا: لَئِنْ أَشْهَدَنَا اللهُ قِتَالًا لَنُقَاتِلَنَّ فَسَاقَ اللهُ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا﴾ أي وإن الله سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْكُمْ لِأَنَّ مِنْ حَضَرَ أَجَلُهُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ، فَلَا يَنْفَعُه الْفِرَارُ، ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْفِرَارِ إِلَىٰ أَنْ تَنْقَضِيَ آجَالُكُمْ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَقَرِيبٌ ، أَيْ إِنْ خُيِّلَ إِلَيْكُمْ أَنَّ الْفِرَارَ نَفَعَ الَّذِي فَرَّ فِي وَقْتٍ مَا فَمَا هُوَ إِلَّا نَفْعٌ زَهِيدٌ لِأَنَّهُ تَأْخِيرٌ فِي أَجَلِ الْحَيَاةِ وَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْأَسْبَابَ كُلَّهَا لَا تُغْنِي عَنِ الْعَبْدِ شَيْئًا إِذَا أَرَادَهُ اللهُ بِسُوءٍ، فَقَالَ:

[١٧] : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ﴾ أَيْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ هَزِيمَةً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ نُصْرَةً، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ أَيْ قَرِيبًا يَنْفَعُهُمْ، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أَيْ نَاصِرًا يَمْنَعُهُمْ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ الْمُثَبِّطِينَ لِلنَّاسِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُعَوِّقُ: اسْمُ فَاعِلٍ مَنْ عَوَّقَ الدَّالِّ عَلَىٰ شِدَّةِ حُصُولِ الْعَوْقِ، يُقَالُ: عَاقَهُ عَنْ كَذَا، إِذَا مَنَعَهُ وَثَبَّطَهُ عَنْ شَيْءٍ ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أَيْ ارْجِعُوا إِلَيْنَا وَدَعُوا مُحَمَّدًا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُ الْحَرْبَ فَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكُمُ الْهَلَاكَ، قَالَ قَتَادَةُ: هَؤُلَاءِ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يُثَبِّطُونَ أَنْصَارَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ الحرب، وَالْمُرَادُ: الْبَأْسُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ: مَكْرًا بِالْمُسْلِمِينَ لَا جُبْنًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِيَاءً وَسُمْعَةً مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ لِلَّهِ لكان كثيراً.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ، أَيْ بِالْحَفْرِ فِي الْخَنْدَقِ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بُخَلَاءُ عِنْدَ الْغَنِيمَةِ وَصَفَهُمُ اللهُ بِالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَالشُّحُّ: الْبُخْلُ بِمَا فِي الْوُسْعِ مِمَّا يَنْفَعُ الْغَيْرَ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ فِي الرُّءُوسِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ، ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي كدوران عين الَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَرُبَ مِنَ الموت وغشيه أَسْبَابُهُ يَذْهَبُ عَقْلُهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ، فَلَا يَطْرِفُ، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ﴾ آذَوْكُمْ وَرَمَوْكُمْ فِي حَالِ الْأَمْنِ، وَالسَّلْقُ: قُوَّةُ الصَّوْتِ وَالصِّيَاحِ وَالْمَعْنَىٰ: رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْمَلَامَةِ عَلَىٰ التَّعَرُّضِ لِخَطَرِ الْعَدُوِّ الشَّدِيدِ وَعَدَمِ الِانْصِيَاعِ إِلَىٰ إِشَارَتِهِمْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِمُسَالَمَةِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَةٍ، جَمْعُ حَدِيدٍ، قال ابن كثير : أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبنُ شيء ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ وَقْتَ قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ، يَقُولُونَ: أَعْطُونَا فَإِنَّا قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمُ الْقِتَالَ، فَلَسْتُمْ أَحَقَّ بِالْغَنِيمَةِ مِنَّا، فَهُمْ عِنْدَ الْغَنِيمَةِ أَشَحُّ قَوْمٍ وَعِنْدَ الْبَأْسِ أَجْبَنُ قوم، ﴿أَشِحَّةً عَلَىٰ الْخَيْرِ﴾ أَيْ عِنْدَ الْغَنِيمَةِ يُشَاحُّونَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: أَبْطَلَ اللهُ جِهَادَهُمْ، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرًا﴾ أَيْ سَهْلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، ﴿الْأَحْزَابَ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ وَالْيَهُودَ، الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَىٰ حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْصِلُوهُمْ، فَخَابَ ظَنُّهُمْ، وَبَطَلَ حُسْبَانُهُمْ، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ قِتَالِهِمْ جُبْنًا وَفَرَقًا وَقَدِ انْصَرَفُوا، ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي يرجعوا إليهم لِلْقِتَالِ بَعْدَ الذَّهَابِ، ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أَيْ يَتَمَنَّوْا لَوْ كَانُوا فِي بادية مع الْأَعْرَابِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ، يُقَالُ: بَدَا يَبْدُو بَدَاوَةً إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الْبَادِيَةِ، ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ يْ عَنْ أَخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَحَدَّثُونَ: أَمَا هَلَكَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ! أَمَا غَلَبَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَحْزَابُهُ! أَيْ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ سَائِلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ مِنْ غَيْرِ مُشَاهَدَةِ الْقِتَالِ لِفَرْطِ جُبْنِهِمْ ، وَقِيلَ: أَيْ هُمْ أَبَدًا لِجُبْنِهِمْ يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلْ أُصِيبُوا ، ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، ﴿ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ تَعْذِيرًا، أَيْ يُقَاتِلُونَ قَلِيلًا يُقِيمُونَ بِهِ عُذْرَهُمْ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَاتَلْنَا. عَلَىٰ طَرِيقِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَلَوْ كان ذلك لله لكان قليله كثيراً.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَيْ قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ وَالْأُسْوَةُ الْقُدْوَةُ ، وَالْأُسْوَةُ مَا يُتَأَسَّىٰ بِهِ، أَيْ يُتَعَزَّىٰ بِهِ، فَيُقْتَدَىٰ بِهِ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَيُتَعَزَّىٰ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، فَلَقَدْ شُجَّ وَجْهُهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَقُتِلَ عَمُّهُ حَمْزَةُ، وَجَاعَ بَطْنُهُ، وَلَمْ يُلْفَ إِلَّا صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَشَاكِرًا رَاضِيًا، وَأُوذِيَ بِضُرُوبٍ مِنَ الْأَذَىٰ فَوَاسَاكُمْ مَعَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، فَافْعَلُوا أَنْتُمْ كَذَلِكَ أَيْضًا وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُوعَ وَرَفَعْنَا [عَنْ بُطُونِنَا] عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ عَنْ حَجَرَيْنِ ، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا شُجَّ: « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يعلمون**»(١) ، ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَرْجُو ثَوَابَ اللهِ. وَقَالَ مَقَاتِلٌ: يخشىٰ الله ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أَيْ يَخْشَىٰ يَوْمَ الْبَعْثِ الَّذِي فِيهِ جَزَاءُ الْأَعْمَالِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْمَعْنَىٰ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ بِإِيمَانِهِ وَيُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ الَّذِي فِيهِ جَزَاءُ الْأَفْعَالِ، وَقِيلَ: أَيْ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ الْجُنَيْدُ الْبَغْدَادِيُّ: الطَّرِيقُ إِلَىٰ اللهِ مَسْدُودٌ عَلَىٰ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا عَلَىٰ الْمُقْتَفِينَ آثَارَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّابِعِينَ لِسُنَّتِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، قَوْلُهُ تعالَىٰ: ﴿وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ عَلَىٰ السَّرَّاءِ والضراء ، ثُمَّ وَصَفَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَحْزَابِ فَقَالَ:

[٢٢] : ﴿وَلَمَّا رَأَىٰ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا﴾ تَسْلِيمًا لِأَمْرِ اللهِ وَتَصْدِيقًا لِوَعْدِهِ، ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ وَعْدُ اللهِ إِيَّاهُمْ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤] فَالْآيَةُ تَتَضَمَّنُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَلْحَقُهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ الْبَلَاءِ، فَلَمَّا رَأَوُا الْأَحْزَابَ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، ﴿وَمَا

(١) البخاري (٣٤٧٧) .

زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أَيْ تَصْدِيقًا لِلَّهِ وَتَسْلِيمًا لِأَمْرِ الله ، ولما اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَطَالَ الْمُقَامُ فِي الْخَنْدَقِ، قَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ التَّلِّ الَّذِي عَلَيْهِ مَسْجِدُ الْفَتْحِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، وَتَوَقَّعَ مَا وَعَدَهُ اللهُ مِنَ النَّصْرِ وَقَالَ: مَنْ يَذْهَبُ لِيَأْتِيَنَا بِخَبَرِهِمْ وَلَهُ الْجَنَّةُ ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، وَقَالَ ثَانِيًا وَثَالِثًا فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، فَنَظَرَ إِلَىٰ جَانِبِهِ وَقَالَ: **مَنْ هَذَا** ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ : فَقَالَ: **أَلَمْ تَسْمَعْ كَلَامِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ** ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنَعَنِي أَنْ أُجِيبَكَ الضُّرُّ وَالْقُرُّ، قَالَ: **انْطَلِقْ حَتَّىٰ تَدْخُلَ فِي الْقَوْمِ فَتَسْمَعَ كَلَامَهُمْ وَتَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ، اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ حَتَّىٰ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، انْطَلِقْ وَلَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي فَانْطَلَقَ حُذَيْفَةُ بِسِلَاحِهِ**، وَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ يَقُولُ: **يَا صَرِيخَ الْمَكْرُوبِينَ وَيَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي فَقَدْ تَرَىٰ حَالِي وَحَالَ أَصْحَابِي** ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ دَعْوَتَكَ وَكَفَاكَ هَوْلَ عَدُوِّكَ ، فَخَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ وَأَرْخَىٰ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: **شُكْرًا شُكْرًا كَمَا رَحِمْتَنِي وَرَحِمْتَ أَصْحَابِي** ، وَأَخْبَرَهُ جِبْرِيلُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُرْسِلٌ عَلَيْهِمْ رِيحًا، فَبَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، قَالَ حُذَيْفَةُ: فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِمْ وَإِذَا نِيرَانُهُمْ تَتَّقِدُ، فَأَقْبَلَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فِيهَا حَصْبَاءُ فَمَا تَرَكَتْ لَهُمْ نَارًا إِلَّا أَطْفَأَتْهَا وَلَا بِنَاءً إِلَّا طَرَحَتْهُ، وَجَعَلُوا يَتَتَرَّسُونَ مِنَ الْحَصْبَاءِ. قَامَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ رَاحِلَتِهِ وَصَاحَ فِي قُرَيْشٍ: النَّجَاءَ النَّجَاءَ! وَفَعَلَ كَذَلِكَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْحَارِثُ بن عوف والأقرع ابن حَابِسٍ، وَتَفَرَّقَتِ الْأَحْزَابُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ قَامُوا بِمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ وَوَفَّوْا بِهِ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أَيْ فَرَغَ مِنْ نَذْرِهِ وَوَفَّىٰ بِعَهْدِهِ فَصَبَرَ عَلَىٰ الْجِهَادِ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدَ، وَالنَّحْبُ: النَّذْرُ وَالْعَهْدُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: قَضَىٰ نَحْبَهُ يَعْنِي أَجْلَهُ فَقُتِلَ عَلَىٰ الْوَفَاءِ يَعْنِي حَمْزَةَ وَأَصْحَابَهُ. وَقِيلَ: قَضَىٰ نَحْبَهُ أَيْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: نَحَبَ فُلَانٌ فِي سَيْرِهِ يومه وليله أجمع إِذَا مَدَّ فَلَمْ يَنْزِلْ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ الشَّهَادَةَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ مَنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ يَعْنِي مَنْ بَقِيَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَظِرُونَ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ إِمَّا الشَّهَادَةَ أَوِ النصر، ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ أَيْ وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ اللهِ وَلَا نَقَضُوهُ وَلَا بدلوه. وجاء فِي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ- سُمِّيتُ بِهِ- وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبُرَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غِبْتُ عَنْهُ، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَعْدُ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ! أَجِدُهَا دُونَ أُحُدٍ، فَقَاتَلَ حَتَّىٰ قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ ، فَقَالَتْ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا

بِبَنَاتِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ »[1] .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أَيْ جَزَاءَ صِدْقِهِمْ، وَصِدْقُهُمْ هُوَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قالت عَائِشَةَ: الَّذِينَ كَفَرُوا هَاهُنَا: أَبُو سُفْيَانَ وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ، رَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ تِهَامَةَ، وَرَجَعَ عُيَيْنَةُ إِلَىٰ نَجْدٍ. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ لَمْ يَشْفِ صُدُورَهُمْ بِنَيْلِ مَا أرادوا، ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ لا في الدنيا مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعداوة وهمهم بقتله، ﴿وَكَفَىٰ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بِالْمَلَائِكَةِ وَالرِّيحِ، أَيْ لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَىٰ مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّىٰ يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ؛ بَلْ كَفَىٰ اللهُ وَحْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جنده، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فلا شيء بعده**»[2] ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا انْصَرَفَ أهل الْخَنْدَقِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما

---

(١) البخاري (٢٨٠٥) .

(٢) البخاري (٣٠٨٤) ومسلم (١٣٤٤) .

بَلَغْنَا: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُونَهُمْ**»، فَلَمْ تَغْزُ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ يَغْزُوهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ فَتَحَ اللهُ تعالىٰ مكة، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ أَيْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً، وأعز الله الإسلام وأهله، قال قتادة: قويًا في أمره، عزيزًا في نقمته.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَيْ عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ وَهُمْ بنو قريظة، ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ حُصُونِهِمْ وَمَعَاقِلِهِمْ، وَاحِدُهَا صِيصِيَةٌ، وَأَصْلُهَا أَنَّهَا جَمْعُ صِيصَيَةٍ وَهِيَ الْقَرْنُ لِلثَّوْرِ فَلَمَّا كَانَ الْقَرْنُ يُدَافِعُ بِهِ الثَّوْرُ عَنْ نَفْسِهِ سُمِّيَ الْمَعْقِلُ الَّذِي يَعْتَصِمُ بِهِ الْجَيْشُ صِيصَيَةً وَالْحُصُونُ صَيَاصِيَ. وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَصْبَحَ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي انْصَرَفَ الْأَحْزَابُ فِيهَا رَاجِعِينَ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَانْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْخَنْدَقِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَوَضَعُوا السِّلَاحَ فَلَمَّا كَانَ الظُّهْرُ أَتَىٰ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: عَفَا اللهُ عَنْكَ مَا وَضَعَتِ الْمَلَائِكَةُ السِّلَاحَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَمَا رَجَعْتُ الْآنَ إِلَّا مِنْ طلب القوم، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ بِالسَّيْرِ إِلىٰ بني قريظة فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيًا فَأَذَّنَ أَنَّ مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَلَمَّا أَتَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي

قُرَيْظَةَ نَزَلَ عَلَىٰ بِئْرٍ مِنْ آبَارِهَا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَتَلَاحَقَ بِهِ النَّاسُ فَأَتَاهُ رِجَالٌ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَلَمْ يُصَلُّوا الْعَصْرَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» ، فَصَلُّوا الْعَصْرَ بِهَا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ، فَمَا عَابَهُمُ اللهُ بِذَلِكَ وَلَا عَنَّفَهُمْ بِهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً حَتَّىٰ جَهَدَهُمُ الْحِصَارُ، وَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا نَزَلُوا عَلَىٰ حُكْمِ رسول اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَّا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيكُمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ**؟ ، قَالُوا: بَلَىٰ ، قَالَ: **فَذَاكَ إِلَىٰ سَعْدِ بْنِ معاذ**، قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُقَسَّمَ الْأَمْوَالُ وَتُسْبَىٰ الذَّرَارِي وَالنِّسَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسَعْدٍ: **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**»(١) ، وَكَانَ فَتْحُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي آخِرِ ذِي الْقِعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ من الهجرة ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وَهُمُ الرِّجَالُ يُقَالُ: كانوا ستمائة، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وَهُمُ النِّسَاءُ وَالذَّرَارِي، يُقَالُ: كَانُوا سبعمائة وخمسين، ويقال: سبعمائة.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾ بَعْدُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَمُقَاتِلٌ: يَعْنِي خَيْبَرَ، قَالَ قَتَادَةُ كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهَا مَكَّةُ.

---

(١) البخاري (٤١١٩) ومسلم ١٧٧٠ .

وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : فَارِسُ وَالرُّومُ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كُلُّ أَرْضٍ تُفْتَحُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أَيْ: وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَوْرِيثِهِمْ أَمْوَالَ وَدِيَارَ الْكُفَّارِ وَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ قَدِيرًا؛ فَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فِعْلُ شَيْءٍ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُنَّ فِي غَيْرِهَا مَطْلَبٌ، وَصِرْتُنَّ تَرْضَيْنَ لِوُجُودِهَا، وَتَغْضَبْنَ لِفَقْدِهَا، فَلَيْسَ لِي فِيكُنَّ أَرَبٌ وَحَاجَةٌ، وَأَنْتُنَّ بِهَذِهِ الْحَالِ ، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ شَيْئًا مِمَّا عِنْدِي، مِنَ الدُّنْيَا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أَيْ: أُفَارِقْكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مِنْ دُونِ مُغَاضَبَةٍ وَلَا مُشَاتَمَةٍ، بَلْ بِسَعَةِ صَدْرٍ، وَانْشِرَاحِ بَالٍ، قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الْحَالُ إِلَىٰ مَا لَا يَنْبَغِي.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مُرَادُكُنَّ، وَغَايَةُ مَقْصُودِكُنَّ، وَإِذَا حَصَلَ لَكُنَّ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالْجَنَّةُ، لَمْ تُبَالِينَ بِسَعَةِ الدُّنْيَا وَضِيقِهَا، وَيُسْرِهَا وَعُسْرِهَا، وَقَنَعْتُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ بِمَا تَيَسَّرَ، وَلَمْ تَطْلُبْنَ مِنْهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ، ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رَتَّبَ الْأَجْرَ عَلَىٰ وَصْفِهِنَّ بِالْإِحْسَانِ، لِأَنَّهُ السَّبَبُ الْمُوجِبُ لِذَلِكَ، لَا لِكَوْنِهِنَّ زَوْجَاتٍ لِلرَّسُولِ فَإِنَّ مُجَرَّدَ ذَلِكَ، لَا يَكْفِي، بَلْ لَا يُفِيدُ شَيْئًا، مَعَ عَدَمِ الْإِحْسَانِ، فَخَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَاخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، كُلُّهُنَّ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ ، وسبب الْآيَةِ أَنَّ

نِسَاءَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْنَهُ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا وَطَلَبْنَ مِنْهُ زِيَادَةً فِي النَّفَقَةِ وَآذَيْنَهُ بِغَيْرَةِ بعضهن علىٰ بعض فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ بَدَأَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَائِشَةَ، وَكَانَتْ أَحَبَّهُنَّ إِلَيْهِ فَخَيَّرَهَا وَقَرَأَ عَلَيْهَا الْقُرْآنَ فَاخْتَارَتِ الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الْفَرَحُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتابعنها عَلَىٰ ذَلِكَ ، قَالَ قَتَادَةُ: فَلَمَّا اخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ شَكَرَهُنَّ اللهُ علىٰ ذلك فَقَالَ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ بمعصية ظاهرة وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَادُ بِالْفَاحِشَةِ النُّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ، ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال أَبُو عُبَيْدَةَ: ضَعَّفْت الشَّيْءَ إِذَا جَعَلْتَهُ مثليه وضاعفته جَعَلْتَهُ أَمْثَالَهُ، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرًا﴾ أَيْ سَهْلًا هنيـًا، قَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَ عَذَابُهَا عَلَىٰ الله هاهنا وَتَضْعِيفُ عُقُوبَتِهِنَّ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ لِشَرَفِهِنَّ كَتَضْعِيفِ عُقُوبَةِ الْحُرَّةِ عَلَىٰ الْأَمَةِ وَتَضْعِيفِ ثَوَابِهِنَّ لِرَفْعِ مَنْزِلَتِهِنَّ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُنَّ أَشْرَفُ نِسَاءِ العالمين.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ ﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي مثل أَجْرِ غَيْرِهَا، وَالْقُنُوتُ: الطَّاعَةُ، وَالْقُنُوتُ لِلرَّسُولِ: الدَّوَامُ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَاجْتِلَابُ رِضَاهُ لِأَنَّ فِي رِضَاهُ رِضَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: مَكَانَ كل حسنة عشرين حسنة ، قال ابن عاشور: وَهَذِهِ الْمُضَاعَفَةُ فِي

الْحَالَيْنِ مِنْ خَصَائِص أَزوَاج النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِظَمِ قَدْرِهِنَّ، لِأَنَّ زِيَادَةَ قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ تَتْبَعُ زِيَادَةَ فَضْلِ الْآتِي بِهَا ، ودرجة أَزوَاج النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَظِيمَةٌ ، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ حَسَنًا يَعْنِي الْجَنَّةَ، قال ابن كثير : أيْ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْعَرْشِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ لَيْسَ قَدْرُكُنَّ عِنْدِي مِثْلَ قَدْرِ غَيْرِكُنَّ مِنَ النِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ أَنْتُنَّ أَكْرَمُ عَلِيَّ وَثَوَابُكُنَّ أَعْظَمُ لَدَيَّ وَلَمْ يَقُلْ كَوَاحِدَةٍ لِأَنَّ الْأَحَدَ عَامٌّ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٨٥] وَقَالَ: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ، وَقَالَ:﴿ كَأَحَدٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ كَوَاحِدَةٍ، لِأَنَّ أَحَدًا نَفْيٌ مِنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَدْ يُقَالُ عَلَىٰ مَا لَيْسَ بِآدَمِيٍّ، يُقَالُ: لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، لَا شَاةَ وَلَا بَعِيرَ. وَإِنَّمَا خُصِّصَ النِّسَاءُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ فِيمَنْ تَقَدَّمَ آسِيَةَ وَمَرْيَمَ. ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله أَطِعْنَهُ، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لَا تَلِنَّ بِالْقَوْلِ لِلرِّجَالِ وَلَا تُرَقِّقْنَ الْكَلَامَ، ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أَيْ فُجُورٌ وَشَهْوَةٌ، وَقِيلَ: نِفَاقٌ، وَالْمَعْنَىٰ لَا تَقُلْنَ قَوْلًا يَجِدُ مُنَافِقٌ أَوْ فَاجِرٌ بِهِ سَبِيلًا إِلَىٰ الطَّمَعِ فِيكِنَّ، وَالْمَرْأَةُ مَنْدُوبَةٌ إِلىٰ الغلظة في المنالة إِذَا

خَاطَبَتِ الْأَجَانِبَ لِقَطْعِ الْأَطْمَاعِ، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ما يوجبه الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ بِتَصْرِيحٍ وَبَيَانٍ مِنْ غَيْرِ خُضُوعٍ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أَيِ الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ، فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، مَعْنَاهُ: اقْرَرْنَ أَيْ الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قررت بالمكان أقر قرا، وقال الكسائي والزجاج هي: لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي قَرَّ بِمَعْنَىٰ: أَقَامَ وَاسْتَقَرَّ، وَقِيلَ: وَهُوَ الْأَصَحُّ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ الْوَقَارِ كَقَوْلِهِمْ مِنَ الْوَعْدِ عِدْنَ وَمِنَ الْوَصْلِ صِلْنَ أَيْ كُنَّ أَهْلَ وَقَارٍ وَسُكُونٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: وَقَرَ فُلَانٌ يَقِرُ وُقُورًا إِذَا سَكَنَ وَاطْمَأَنَّ، وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَىٰ النَّاسِ خُرُوجُ عَائِشَةَ إِلَىٰ الْبَصْرَةِ فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي تُدْعَىٰ: وَقْعَةُ الْجَمَلِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهَا ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ جِلَّةِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ. وَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا بَعْضُهُمْ مِثْلَ: عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَلِكُلٍّ نَظَرٌ فِي الاجْتِهَادِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِثْلَ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْهَا عَنِ اجْتِهَادٍ فَإِنَّهَا رَأَتْ أَنَّ فِي خُرُوجِهَا إِلَىٰ الْبَصْرَةِ مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِتَسْعَىٰ بَيْنَ فَرِيقَي الْفِتْنَةِ بِالصُّلْحِ فَإِنَّ النَّاسَ تَعَلَّقُوا بِهَا وَشَكَوْا إِلَيْهَا مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْفِتْنَةِ وَرَجَوْا بَرَكَتَهَا أَنْ تَخْرُجَ فَتُصْلِحَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَظَنُّوا أَنَّ النَّاسَ يَسْتَحْيُونَ مِنْهَا وَقَدْ أَشَارَ عَلَيْهَا جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بِذَلِكَ وَخَرَجُوا مَعَهَا مِثْلَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَنَاهِيكَ بِهِمَا ، وَهَذَا مِنْ مَوَاقِعِ اجْتِهَادِ الصَّحَابَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا حَمْلُهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ الْمَخَارِجِ وَنَظُنُّ بِهَا أَحْسَنَ الْمَذَاهِبِ، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ التَّبَرُّجُ: إِظْهَارُ الْمَرْأَةِ مَحَاسِنَ ذَاتِهَا وَثِيَابِهَا وَحُلِيِّهَا بِمَرْأَىٰ الرِّجَالِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: التَّبَرُّجُ

هُوَ التَّكَسُّرُ وَالتَّغَنُّجُ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ: هُوَ التَّبَخْتُرُ، وَقِيلَ: هُوَ إِظْهَارُ الزِّينَةِ وَإِبْرَازُ الْمَحَاسِنِ لِلرِّجَالِ، ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ تَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ الرِّجَالِ فَذَلِكَ تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَالَ قتادة: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك، وقال مقاتل: التبرج أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَىٰ رَأْسِهَا وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ، ثُمَّ عُمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ في التبرج ، عَنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « **إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ وَجْهِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا** »(١) ، قَالَ الْمُنْذِرِيُّ :قَوْلُهُ: « **فَيَسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ** » أَيْ يَنْتَصِبُ وَيَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَيْهَا وَيَهُمُّ بِهَا؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَعَاطَتْ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ تَسَلُّطِهِ عَلَيْهَا، وَهُوَ خُرُوجُهَا مِنْ بَيْتِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَهَاهُنَّ أَوَّلًا عَنِ الشَّرِّ ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِينَ، ﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِ علىٰ الخاص، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه اللآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً

(١) الترمذي (١١٧٣) وابن حبان (٥٥٩٩) .

واحداً، وعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي السُّوقِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، وليس المراد أنهن المراد فقط دون غيرهن.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ أي القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي السَّنَةَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَحْكَامُ الْقُرْآنِ وَمَوَاعِظُهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَالْمُرَادُ بِآيَاتِ اللهِ، الْقُرْآنُ. وَالْحِكْمَةُ، أَسْرَارُهُ. وَسُنَّةُ رَسُولِهِ. وَأَمَرَهُنَّ بِذِكْرِهِ، يَشْمَلُ ذِكْرَ لَفْظِهِ، بِتِلَاوَتِهِ، وَذِكْرَ مَعْنَاهُ، بِتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَاسْتِخْرَاجِ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ، وَذِكْرَ الْعَمَلِ بِهِ وَتَأْوِيلِهِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَفْظُ الذِّكْرِ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: أَيِ اذْكُرْنَ مَوْضِعَ النِّعْمَةِ، إِذْ صَيَّرَكُنَّ اللهُ فِي بُيُوتٍ تُتْلَىٰ فِيهَا آيَاتُ اللهِ وَالْحِكْمَةُ.

الثَّانِي: اذْكُرْنَ آيَاتِ اللهِ وَاقْدُرْنَ قَدْرَهَا، وَفَكِّرْنَ فِيهَا حَتَّىٰ تَكُونَ مِنْكُنَّ عَلَىٰ بَالٍ لِتَتَّعِظْنَ بِمَوَاعِظِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ ينبغي أن تحسن أفعاله.

الثالث: ﴿اذْكُرْنَ﴾ بِمَعْنَىٰ احْفَظْنَ وَاقْرَأْنَ وَأَلْزِمْنَهُ الْأَلْسِنَةَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: احْفَظْنَ أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَىٰ وَنَوَاهِيَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أَيْ لَطِيفًا بِأَوْلِيَائِهِ خَبِيرًا بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ اللهَ كَانَ ذَا لُطْفٍ بِكُنَّ، إِذْ جَعَلَكُنَّ فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تُتْلَىٰ فِيهَا آيَاتُهُ وَالْحِكْمَةُ، خَبِيرًا بِكُنَّ إِذِ اخْتَارَكُنَّ لِرَسُولِهِ أَزْوَاجًا.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الْآيَةَ. عن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا نَبِيَّ اللهِ: مَا لِي أَسْمَعُ الرِّجَالَ يُذْكَرُونَ فِي الْقُرْآنِ، وَالنِّسَاءُ لَا يُذْكَرْنَ؟ فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ﴾ المطيعين ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ فِي إِيمَانِهِمْ وَفِيمَا سَاءَهُمْ وَسَرَّهُمْ، ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ﴾ عَلَىٰ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين، ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ الْخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ وَمِنَ الْخُشُوعِ أَلَّا يَلْتَفِتَ، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا حَتَّىٰ يَذْكُرَ اللهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ ذَاكِرًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ كَثِيرًا حَتَّىٰ يَذْكُرَهُ قَائِمًا وَجَالِسًا وَمُضْطَجِعًا ، قال القرطبي : بَدَأَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِذِكْرِ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَعُمُّ الْإِيمَانَ وَعَمَلَ الْجَوَارِحِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْإِيمَانَ تَخْصِيصًا لَهُ وَتَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّهُ عُظْمُ الْإِسْلَامِ وَدِعَامَتُهُ، وَالْقَانِتُ: الْعَابِدُ الْمُطِيعُ. وَالصَّادِقُ: مَعْنَاهُ فِيمَا عُوهِدَ عَلَيْهِ أَنْ يَفِيَ بِهِ، وَالصَّابِرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَعَلَىٰ الطَّاعَاتِ فِي الْمَكْرَهِ وَالْمَنْشَطِ، وَالْخَاشِعُ: الْخَائِفُ لِلَّهِ، وَالْمُتَصَدِّقُ بِالْفَرْضِ وَالنَّفْلِ، وَقِيلَ: بِالْفَرْضِ خَاصَّةً، وَالْأَوَّلُ أَمْدَحُ، وَالصَّائِمُ كَذَلِكَ، ﴿

وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ﴾ أَيْ عَمَّا لَا يَحِلُّ مِنَ الزِّنَىٰ وَغَيْرِهِ ، ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية نزلت فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الْأَسَدِيَةِ وَأَخِيهَا عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ وَأُمِّهِمَا أُمَيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَكَانَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَرَىٰ زَيْدًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِعُكَاظٍ فَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ، فَلَمَّا خَطَبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب وَظَنَّتْ أَنَّهُ يَخْطِبُهَا لِنَفْسِهِ فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُ يَخْطِبُهَا لِزَيْدٍ أَبَتْ وَقَالَتْ: أَنَا ابْنَةُ عَمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَلَا أَرْضَاهُ لِنَفْسِي، وَكَانَتْ بَيْضَاءَ جَمِيلَةً فِيهَا حِدَّةٌ، وَكَذَلِكَ كَرِهَ أَخُوهَا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ؟ ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يَعْنِي أُخْتَهُ زَيْنَبَ، ﴿إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أَيْ إِذَا أَرَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا وَهُوَ نِكَاحُ زَيْنَبَ لِزَيْدٍ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ، وَالْخِيَرَةُ الِاخْتِيَارُ، وَالْمَعْنَىٰ أَنْ يُرِيدَ غَيْرَ مَا أَرَادَ اللهُ أَوْ يَمْتَنِعَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِ، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي أَخْطَأَ خَطَأً ظَاهِرًا فَلَمَّا سَمِعَا ذَلِكَ رَضِيَا بِذَلِكَ وَسَلَّمَا، وَجَعَلَتْ أَمْرَهَا بِيَدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ أَخُوهَا، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدًا فَدَخَلَ بِهَا ، وَفِي

الْحَدِيثِ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»(١).

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي زَيْنَبَ وَذَلِكَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا زَوَّجَ زَيْنَبَ مِنْ زَيْدٍ مَكَثَتْ عِنْدَهُ حِينًا ثُمَّ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُفَارِقَ صَاحِبَتِي، قَالَ: مَا لَكَ أَرَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْتُ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا، وَلَكِنَّهَا تَتَعَظَّمُ عَلَيَّ لِشَرَفِهَا وَتُؤْذِينِي بِلِسَانِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَمْسِكْ عليك زوجك**»(٢)، ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ فِي أَمْرِهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا زَيْدٌ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي ﴿ أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أَيْ بِالْإِسْلَامِ ومتابعة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ بِالْعِتْقِ مِنَ الرِّقِّ، وَكَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ الشَّأْنِ جَلِيلَ الْقَدْرِ، حَبِيبًا إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ ﴿ الْحِبُّ﴾ وَيُقَالُ لِابْنِهِ أُسَامَةَ ﴿ الْحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ إِلَّا أَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ عَاشَ بَعْدَهُ لاستخلفه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يَعْنِي زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ فِيهَا وَلَا تُفَارِقْهَا، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾

---

(١) ابن أبي عاصم ﴿السنة، رقم ١٥).

(٢) البخاري (٤٧٨٧).

أَيْ تُسِرُّ فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُظْهِرُهُ، أَيْ كَانَ فِي قَلْبِهِ لَوْ فَارَقَهَا لَتَزَوَّجَهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حُبُّهَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَدَّ أَنَّهُ طَلَّقَهَا، ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَسْتَحْيِي منهم ، وقيل: تخشى لَائِمَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا أَمَرَ رَجُلًا بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ نكَحَهَا. ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ قال ابن عُمَرُ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةُ: مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةٌ هِيَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَرُوِيَ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ كَتَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ قَالَ: كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْلَمَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ زَيْنَبَ سَتكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ، فَلَمَّا أَتَاهُ زَيْدٌ يَشْكُوهَا قَالَ: اتَّقِ اللهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، قال الله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ ، وقوله : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ فِي عَدَمِ إِبْدَاءِ مَا فِي نَفْسِكَ ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وَأَنْ لَا تُبَالِيَ بِهِمْ شَيْئًا،﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ أَيْ: طَابَتْ نَفْسُهُ، وَرَغِبَ عَنْهَا، وَفَارَقَهَا،﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنمافعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل، ينتسب إليك ، وَذَكَرَ قَضَاءَ الْوَطَرِ لِيُعْلَمَ أَنَّ زَوْجَةَ الْمُتَبَنَّى تَحِلُّ بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا، قَالَ أَنَسٌ: كَانَتْ زَيْنَبُ تَفْتَخِرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سبع سماوات ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَتْ زَيْنَبُ تَقُولُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لأدلُ عَلَيْكَ بِثَلَاثٍ: مَا من نسائك

امرأة تدلي بِهِنَّ. جَدِّي وَجَدُّكَ وَاحِدٌ، أَنِّي أَنْكَحَنِيكَ اللهُ فِي السَّمَاءِ، وَإِنَّ السفير لجبريل عليه السلام، ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ إِثْمٌ، ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ والأدعياء جميع الدَّعِيِّ وَهُوَ الْمُتَبَنَّىٰ، يَقُولُ: زَوَّجْنَاكَ زَيْنَبَ وَهِيَ امْرَأَةُ زَيْدٍ الَّذِي تبنيته لتعلم أَنَّ زَوْجَةَ الْمُتَبَنَّىٰ حَلَالٌ لِلْمُتَبَنِّي، وَإِنْ كَانَ قَدْ دَخَلَ بِهَا الْمُتَبَنَّىٰ بِخِلَافِ امْرَأَةِ ابْنِ الصُّلْبِ فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِلْأَبِ ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ أَيْ كَانَ قَضَاءُ اللهِ مَاضِيًا وَحُكْمُهُ نَافِذًا وَقَدْ قَضَىٰ فِي زَيْنَبَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ عَلَىٰ النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ أَيْ فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيجِ زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا حكم الله تعالىٰ فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُمْ بِشَيْءٍ وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد مَنْ تَوَهَّمَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجِهِ امْرَأَةَ زَيْدٍ مَوْلَاهُ وَدَعِيِّهِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ أَيْ وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي يُقَدِّرُهُ كَائِنًا لَا مَحَالَةَ، وَوَاقِعًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَعْدَلَ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ﴾ يَعْنِي سُنَّةَ اللهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ أي لَا يَخْشَوْنَ قَالَةَ النَّاسِ وَلَائِمَتَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ وَفَرَضَ عليهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ

حَسِيبًا﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ وَمُحَاسِبَهُمْ : ثُمَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ قَالَ النَّاسُ: إِنْ مُحَمَّدًا تَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ يَعْنِي زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، أَيْ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمُ الَّذِينَ لَمْ يَلِدْهُمْ فَيَحْرُمَ عَلَيْهِ نِكَاحُ زَوْجَتِهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ إِيَّاهَا، فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَبْنَاءٌ الْقَاسِمُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّاهِرُ وَإِبْرَاهِيمُ وَكَذَلِكَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْحَسَنِ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ**»(١) ؟ ، قِيلَ: هَؤُلَاءِ كَانُوا صِغَارًا لَمْ يَكُونُوا رِجَالًا، وَالصَّحِيحُ مَا قُلْنَا: إِنَّهُ أَرَادَ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ختم الله به النبيين، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمَّا حَكَمَ أَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ لَمْ يُعْطِهِ وَلَدًا ذَكَرًا يَصِيرُ رَجُلًا، ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قال ابن كثير: هَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رسول بعده بالطريق الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ، لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَخَصُّ مِنْ مقام النبوة، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا**

---

(١) البخاري (٢٧٠٤) .

فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبِنَةِ، فَأَنَا مَوْضِعُ اللبنة ختم بي الأنبياء»[1].

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَفْرِضِ الله تعالىٰ فريضة علىٰ عباده إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا وعذر أهلها في حال العذر غير الذِّكْرُ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يُنْتَهَىٰ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَغْلُوبًا علىٰ عقله فلذلك أمرهم بِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَقَالَ: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّسَاءِ: ١٠٣]، وَقَالَ: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أَيْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَفِي الصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَفِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الذِّكْرُ الْكَثِيرُ أَنْ لَا تَنْسَاهُ أَبَدًا.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي صلوا له، ﴿بُكْرَةً﴾ يعني صلاة الصبح، ﴿وَأَصِيلًا﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: وَأَصِيلًا صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْعِشَاءَيْنِ، وقال مجاهد: يعني قوله سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله العلي العظيم، فَعَبَّرَ بِالتَّسْبِيحِ عَنْ أَخَوَاتِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ ذِكْرًا كَثِيرًا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ يَقُولُهَا الطَّاهِرُ وَالْجُنُبُ وَالْمُحْدِثُ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فَالصَّلَاةُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةُ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الِاسْتِغْفَارُ لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ السُّدِّيُّ: قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ

---

(١) البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).

لِمُوسَىٰ: أَيُصَلِّي رَبُّنَا فَكَبُرَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنْ قُلْ لَهُمْ إِنِّي أُصَلِّي وَإِنَّ صَلَاتِي رَحْمَتِي، وَقَدْ وَسِعَتْ رَحْمَتِي كُلَّ شَيْءٍ، وَقِيلَ: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ هِيَ إِشَاعَةُ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ لَهُ فِي عِبَادِهِ، وقيل: الثناء عليه ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾ أَيْ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إِلَىٰ نُورِ الْإِيمَانِ، يَعْنِي أَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ وَدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لَكُمْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إِلَىٰ النُّورِ؟ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أَيْ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي يرون الله، ﴿سَلَامٌ﴾ أي يسلم الله عَلَيْهِمْ، وَيُسَلِّمُهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ. وَرُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يَعْنِي يَلْقَوْنَ مَلَكَ الْمَوْتِ، لَا يَقْبِضُ رُوحَ مُؤْمِنٍ إِلَّا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ روح المؤمن قال: إن رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ ، وَقِيلَ: تُسَلِّمُ عليهم الملائكة وتبشرهم حتىٰ يخرجوا مِنْ قُبُورِهِمْ، قال القرطبي : اخْتُلِفَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ عَلَىٰ مَنْ يَعُودُ، فَقِيلَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، أَيْ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، فَهُوَ يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَلْقَوْنَهُ، وَ﴿ تَحِيَّتُهُمْ﴾ أَيْ تَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، ﴿سَلامٌ﴾ أَيْ سَلَامَةٌ لَنَا وَلَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقِيلَ: هَذِهِ التَّحِيَّةُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمَعْنَىٰ: فَيُسَلِّمُهُمْ مِنَ الْآفَاتِ، أَوْ يُبَشِّرُهُمْ بِالْأَمْنِ مِنَ الْمُخَافَاتِ ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ وَمَا فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن

والمناكح والملاذ والمناظر مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ شَاهِدًا لِلرُّسُلِ بِالتَّبْلِيغِ وَمُبَشِّرًا لِمَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ وَنَذِيرًا لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا بِالنَّارِ، عَنْ قَتَادَةَ: ﴿شاهِداً﴾ عَلَىٰ أُمَّتِهِ بِالتَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ بِتَبْلِيغِ أَنْبِيَائِهِمْ، و ﴿ مُبَشِّراً﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة و ﴿ نَذِيراً﴾ مَعْنَاهُ لِلْعُصَاةِ وَالْمُكَذِّبِينَ مِنَ النَّارِ وَعَذَابِ الْخُلْدِ ، وَالنَّذِيرُ: مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِنْذَارِ وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِحُلُولِ حَادِثٍ مُسِيءٍ أَوْ قرب حُلُوله، والنبيء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذِرٌ لِلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ دِينِهِ مِنْ كَافِرِينَ بِهِ وَمِنْ أَهْلِ الْعِصْيَانِ بِمُتَفَاوِتِ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَىٰ عَمَلِهِمْ. وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَيَقُولُ: « **أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمُقَفِّي وَالْحَاشِرُ ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(١) ، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مُبَشِّرٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْمُطِيعِينَ بِمَرَاتِبِ فَوْزِهِمْ .

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ بِإِذْنِهِ﴾ إلىٰ توحيده وطاعته، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ :الدُّعَاءُ إِلَىٰ اللهِ هُوَ تَبْلِيغُ التَّوْحِيدِ وَالْأَخْذُ بِهِ، وَمُكَافَحَةُ الْكَفَرَةِ، إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ ، و﴿بِإِذْنِهِ﴾ هُنَا مَعْنَاهُ: بِأَمْرِهِ إِيَّاكَ، وَتَقْدِيرِهِ ذَلِكَ فِي وقته وأوانه،

---

(١) مسلم (٢٣٥٥) .

﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ سَمَّاهُ سِرَاجًا لِأَنَّهُ يُهْتَدَىٰ بِهِ كَالسِّرَاجِ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي الظُّلْمَةِ ، وَقِيلَ: ﴿وَسِراجاً﴾ أَيْ هَادِيًا مِنْ ظُلْمِ الضَّلَالَةِ، وأنت كالمصباح المضي، وَوَصَفَهُ بِالْإِنَارَةِ لِأَنَّ مِنَ السُّرُجِ مَا لَا يضيء، إِذَا قَلَّ وقوده وصغرت فَتِيلَتُهُ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ :فَالْمُبَشَّرُ هُمْ: الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَرْكِ الْمَعَاصِي، لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِكُلِّ ثَوَابٍ دُنْيَوِيٍّ وَدِينِيٍّ، رُتِّبَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ، وَفِي الْأُخْرَىٰ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَسْتَلْزِمُ، ذِكْرَ تَفْصِيلِ الْمَذْكُورِ، مِنَ تَفَاصِيلِ الْأَعْمَالِ، وَخِصَالِ التَّقْوَىٰ، وَأَنْوَاعِ الثَّوَابِ. وَالْمُنْذَرُ هُمْ: الْمُجْرِمُونَ الظَّالِمُونَ، أَهْلُ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ، لَهُمُ النَّذَارَةُ فِي الدُّنْيَا، مِنَ الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَىٰ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَفِي الْأُخْرَىٰ، بِالْعِقَابِ الْوَبِيلِ، وَالْعَذَابِ الطَّوِيلِ.قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: قَالَ لَنَا أَبِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هَذِهِ مِنْ أَرْجَىٰ آيَةٍ عِنْدِي فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عِنْدَهُ فَضْلًا كَبِيرًا.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ أَيْ لَا تُطِعْهُمْ فِيمَا يُشِيرُونَ عَلَيْكَ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ وَلَا تُمَالِئْهُمْ، ﴿ الْكافِرِينَ﴾ : أبي سفيان وعكرمة وأبي الْأَعْوَرِ السُّلَمِيِّ، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا تَذْكُرْ آلهتنا بسوء نتبعك، و﴿الْمُنافِقِينَ﴾ : عبد الله بن أبي وعبد الله ابن سَعْدٍ وَطُعْمَةَ بْنَ أُبَيْرِقٍ، حَثُّوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ إِجَابَتِهِمْ بِتَعِلَّةِ الْمَصْلَحَةِ، و ﴿ دَعْ أَذاهُمْ﴾ أَيْ دَعْ أَنْ

تُؤْذِيَهُمْ مُجَازَاةً عَلَىٰ إذيتهم إِيَّاكَ، فَأَمَرَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَرْكِ مُعَاقَبَتِهِمْ، وَالصَّفْحِ عَنْ زَلَلِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لَا تجازهم عليه وهذا منسوخ بآياته الْقِتَالِ ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا﴾ حَافِظًا، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ :التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ جِمَاعُ الْإِيمَانِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الطَّلَاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ غَيْرُ وَاقِعٍ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَتَّبَ الطَّلَاقَ عَلَىٰ النِّكَاحِ، حَتَّىٰ لَوْ قَالَ لِامْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ: إِذَا نَكَحْتُكِ فَأَنْتِ طَالِقٌ، وَقَالَ: كُلُّ امْرَأَةٍ أَنْكِحُهَا فَهِيَ طَالِقٌ، فَنَكَحَ لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ أَنْ لَا عِدَّةَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ إِذَا لَمْ يَدْخُلْ بِهَا زَوْجُهَا لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَالنِّكَاحُ: هُوَ الْعَقْدُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ لِتَكُونَ زَوْجًا بِوَاسِطَةِ وَلِيِّهَا، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طلاق المرأة قبل الدخول بها، وَالْمَسُّ وَالْمَسِيسُ: كِنَايَةٌ عَنِ الْوَطْءِ، كَمَا سُمِّيَ مُلَامَسَةٌ فِي قَوْلِهِ: أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ ، وقوله تعالىٰ: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ، إِذْ لَا فَرْقَ الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ، وقد استبدل ابن عباس وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَهُ نِكَاحٌ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فَعَقَبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ، وَهَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَذَهَبَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ إِلَىٰ صِحَّةِ الطَّلَاقِ قَبْلَ النِّكَاحِ، فِيمَا إِذَا قَالَ: إِنْ تَزَوَّجْتُ فُلَانَةً فَهِيَ طَالِقٌ، فَعِنْدَهُمَا متىٰ تزوجها طلقت مِنْهُ، فَأَمَّا

الْجُمْهُورُ فَاحْتَجُّوا عَلَىٰ عَدَمِ وُقُوعِ الطَّلَاقِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ تحصونها بالأقراء والأشهر، وَالْعِدَّةُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ: هِيَ فِي الْأَصْلِ اسْمُ هَيْئَةٍ مِنَ الْعَدِّ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَهُوَ الْحِسَابُ فَأُطْلِقَتِ الْعِدَّةُ عَلَىٰ الشَّيْءِ الْمَعْدُودِ، يُقَالُ: جَاءَ عِدَّةُ رِجَالٍ وَغَلَبَ إِطْلَاقُ هَذَا اللَّفْظِ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ عَلَىٰ الْمُدَّةِ الْمُحَدَّدَةِ لِانْتِظَارِ الْمَرْأَةِ زَوَاجًا ثَانِيًا، وَمَعْنَىٰ: تَعْتَدُّونَها تَعُدُّونَهَا عَلَيْهِنَّ، أَيْ تَعُدُّونَ أَيَّامَهَا عَلَيْهِنَّ، كَمَا يُقَالُ: اعْتَدَتِ الْمَرْأَةُ، إِذَا قَضَتْ أَيَّامَ عِدَّتِهَا. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَيْ أَعْطُوهُنَّ مَا يَسْتَمْتِعْنَ بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ سَمَّىٰ لَهَا صَدَاقًا فَلَهَا الْمُتْعَةُ فَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَضَ لَهَا صَدَاقًا فَلَهَا نِصْفُ الصداق ولا متعة وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٣٧] وَقِيلَ: هَذَا أَمْرُ نَدْبٍ فَالْمُتْعَةُ مستحبة ولها مَعَ نِصْفِ الْمَهْرِ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ إِنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْمُتْعَةَ بِكُلِّ حَالٍ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ خَلُّوا سَبِيلَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ ضرار، وَالسَّرَاحُ: الطَّلَاقُ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِيَغِهِ، وَالْجَمِيلُ: الْحَسَنُ حُسْنًا بِمَعْنَىٰ الْقَبُولِ عِنْدَ النَّفْسِ، وَهُوَ الطَّلَاقُ دُونَ غَضَبٍ وَلَا كَرَاهِيَةٍ لِأَنَّهُ طَلَاقٌ مُرَاعًىٰ فِيهِ اجْتِنَابُ تَكْلِيفِ الزَّوْجَةِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهَا.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أَيْ مُهُورَهُنَّ، ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ رَدَّ عَلَيْكَ مِنَ الْكُفَّارِ بِأَنْ تَسْبِيَ فَتَمْلِكَ مِثْلَ صَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ، وَقَدْ كَانَتْ مَارِيَةُ مِمَّا مَلَكَتْ يمينه

فولدت له، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ يَعْنِي نِسَاءَ قُرَيْشٍ، ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يَعْنِي نِسَاءَ بَنِي زُهْرَةَ، ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَمَنْ لَمْ تُهَاجِرْ مِنْهُنَّ مَعَهُ لَمْ يَجُزْ لَهُ نِكَاحُهَا. وَرَوَىٰ أَبُو صَالِحٍ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ خَطَبَنِي ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَلَمْ أَحِلَّ لَهُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ وَكُنْتُ مِنَ الطُّلَقَاءِ، ثُمَّ نُسِخَ شَرْطُ الْهِجْرَةِ فِي التَّحْلِيلِ ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ أَحْلَلْنَا لَكَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً وهبت نفسها لك من غير صَدَاقٍ، فَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ فَلَا تَحِلُّ لَهُ إِذَا وَهَبَتْ نَفْسَهَا منه، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الْهِجْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ أَيْ أَسْلَمْنَ مَعَكَ، وَكَانَ النِّكَاحُ يَنْعَقِدُ فِي حَقِّهِ بِمَعْنَىٰ الْهِبَةِ مِنْ غَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا شُهُودٍ وَلَا مَهْرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النِّكَاحِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَالزِّيَادَةِ عَلَىٰ الْأَرْبَعِ وَوُجُوبِ تَخْيِيرِ النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ أَوْجَبْنَا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من الأحكام ألا يَتَزَوَّجُوا أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَلَا يَتَزَوَّجُوا إِلَّا بِوَلِيٍّ وَشُهُودٍ وَمَهْرٍ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَيْ مَا أَوْجَبْنَا مِنَ الْأَحْكَامِ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَىٰ أَوَّلِ الْآيَةِ أَيْ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَالْمَوْهُوبَةَ لَكَ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَضِيقٌ، ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُرْجِي﴾ أَيْ تُؤَخِّرُ ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أَيْ من الواهبات، ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أَيْ مَنْ شِئْتَ رددتها، ومن رددتها فأنت أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَآوَيْتَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قال الشعبي: كن نساءاً وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ بِبَعْضِهِنَّ وَأَرْجَأَ بَعْضَهُنَّ لَمْ يُنْكَحْنَ بَعْدَهُ، مِنْهُنَّ أُمُّ شَرِيكٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية، أَيْ مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ الْقَسْمَ لَهُنَّ، فَتُقَدِّمْ مَنْ شِئْتَ، وَتُؤَخِّرْ مَنْ شِئْتَ، وَتُجَامِعْ مَنْ شِئْتَ، وَتَتْرُكْ مَنْ شئت؛ ومع هذا كان النبي يَقْسِمُ لَهُنَّ، وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ القسم واجبًا عليه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، وروىٰ البخاري عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستأذن في اليوم الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ فَقَالَتْ: كنت أقول: إن كان ذلك إليَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ أن أوثر عليك أحداً ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أَيْ طَلَبْتَ وَأَرَدْتَ أَنْ تُؤْوِيَ إِلَيْكَ امْرَأَةً مِمَّنْ عَزَلْتَهُنَّ عَنِ الْقَسْمِ، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لَا إِثْمَ عَلَيْكَ فَأَبَاحَ اللهُ لَهُ تَرْكَ الْقَسْمِةِ لَهُنَّ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُؤَخِّرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُنَّ فِي نَوْبَتِهَا وَيَطَأُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُنَّ فِي غَيْرِ نَوْبَتِهَا، وَيَرُدُّ إِلَىٰ فِرَاشِهِ مَنْ عَزَلَهَا تَفْضِيلًا لَهُ عَلَىٰ سَائِرِ الرِّجَالِ، ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا

يَحْزَنَّ﴾ أَيِ التَّخْيِيرُ الَّذِي خَيَّرْتُكَ فِي صُحْبَتِهِنَّ أَقْرَبُ إِلَىٰ رِضَاهُنَّ وَأَطْيَبُ لأنفسهن وأقل لحزنهم إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ﴾ أعطيتهن، ﴿كُلُّهُنَّ﴾ مِنْ تَقْرِيرٍ وَإِرْجَاءٍ وَعَزْلٍ وَإِيوَاءٍ، وَبِالْجَمْعِ بَيْنَ سَبَبَيِ النُّزُولِ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ، وَفِي زَوْجَاتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ يُقَدِّمُ مَنْ شَاءَ مِنَ الْوَاهِبَاتِ وَيُؤَخِّرُ، وَكَذَلِكَ يُقَدِّمُ مَنْ شَاءَ مِنَ الزَّوْجَاتِ فِي الْقَسْمِ وَيُؤَخِّرُ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ وَالْمَيْلِ إِلَىٰ بَعْضِهِنَّ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بِضَمَائِرِ الْأَسْرَارِ وَمِمَّا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ مِنْ مَيْلِ الْقُلُوبِ، ﴿حَلِيمًا﴾ عَلَىٰ عِبَادِهِ، يَفْسَحُ لَهُمُ الْوَقْتَ لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ فَلَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ يَعْنِي مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ التِّسْعِ اللَّاتِي خَيَّرْتَهُنَّ فَاخْتَرْنَكَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَيَّرَهُنَّ فَاخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ شَكَرَ اللهُ لَهُنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ النِّسَاءَ سِوَاهُنَّ وَنَهَاهُ عَنْ تَطْلِيقِهِنَّ وَعَنِ الِاسْتِبْدَالِ بِهِنَّ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَهُودِيَّاتُ وَلَا النَّصْرَانِيَّاتُ بَعْدَ الْمُسْلِمَاتِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ، يَقُولُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِالْمُسْلِمَاتِ غَيْرَهُنَّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، يَقُولُ: لَا تَكُونُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ يَهُودِيَّةً وَلَا نَصْرَانِيَّةً، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، أَحَلَّ لَهُ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ مِنَ الْكِتَابِيَّاتِ أَنْ يَتَسَرَّىٰ بهن وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أَيْ: وَلَا تُطَلِّقَ بَعْضَهُنَّ، فَتَأْخُذَ بَدَلَهَا.

فَحَصَلَ بِهَذَا، أَمْنُهُنَّ مِنَ الضَّرَائِرِ، وَمِنَ الطَّلَاقِ، لِأَنَّ اللهَ قَضَىٰ أَنَّهُنَّ زَوْجَاتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ فُرْقَةٌ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يَعْنِي لَيْسَ لَكَ أَنْ تُطَلِّقَ أَحَدًا مِنْ نِسَائِكَ وَتَنْكِحَ بَدَلَهَا أُخْرَىٰ وَلَوْ أَعْجَبَكَ جَمَالُهَا. وَالْمعْنَىٰ: وَلَا أَن تطلق امْرَأَة مِنْهُنَّ تُرِيدُ بِطَلَاقِهَا أَن تتبدل بهَا زوجا أُخْرَىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ الْخَثْعَمِيَّةَ امْرَأَةَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ جَعْفَرُ أَرَادَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَخْطِبَهَا فَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَلَكَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مَارِيَةَ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ حافظـًا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يَقُولُ: إِلَّا أَنْ تُدْعَوْا، ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فَيُؤْذَنُ لَكُمْ فَتَأْكُلُونَهُ، ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ غَيْرَ مُنْتَظِرِينَ إِدْرَاكَهُ وَوَقْتَ نُضْجِهِ، أَيْ غَيْرَ مُتَحَيِّنِينَ نُضْجَهُ وَاسْتِوَاءَهُ، أَيْ لَا ترقبوا الطعام إذا طبخ حَتَّىٰ إِذَا قَارَبَ الِاسْتِوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ، فَإِنَّ هذا مما يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَذُمُّهُ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ تَحْرِيمِ التطفيل ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي عَائِشَةَ: حَسْبُكَ مِنَ الثُّقَلَاءِ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَحْتَمِلْهُمْ، ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أكلتم الطعام، ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ تَفَرَّقُوا وَاخْرُجُوا مِنْ مَنْزِلِهِ، ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ وَلَا طَالِبِينَ الْأُنْسَ لِلْحَدِيثِ، وَالِاسْتِئْنَاسُ: طَلَبُ الْأُنْسِ مَعَ الْغَيْرِ. وَاسْتِئْنَاسُ الْحَدِيثِ: تَسَمُّعُهُ وَالْعِنَايَةُ بِالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ بَعْدَ الطَّعَامِ يَتَحَدَّثُونَ طَوِيلًا فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللهِ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ، فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَخَفِّفُوا عَنْ أَهْلِ الْمَنْزِلِ وَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**»(١)، ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كان يشق عليه ويتأذىٰ به، ولكن كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، مِنْ شِدَّةِ حَيَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ عليه النهي عن ذلك، وَالْمَعْنَىٰ: أَن أَذَىٰ النبيء عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام مَحْظُورٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيْ لَا يَتْرُكُ تَأْدِيبَكُمْ وَبَيَانَ الْحَقِّ حَيَاءً، وَلِهَذَا نَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ، وفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سليم إِلَىٰ النبيء فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ فَهَلْ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **نَعَمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**»(٢) ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أَيْ مِنْ وَرَاءِ سِتْرٍ، فَبَعْدَ آيَةِ الْحِجَابِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أن ينظر إلىٰ امرأة رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متنقبة كانت أو غير متنقبة، قال ابن كثير : أَيْ وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ فَلَا يَنْظُرْ إِلَيْهِنَّ، وَلَا يَسْأَلْهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حجاب،

---

(١) البخاري (٤٧٨٧) .

(٢) البخاري (١٣٠) ومسلم (٣١٣) .

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مِنَ الرَّيْبِ ، قَالَ النَّسَفِيُّ: مِن خَوَاطِرِ الشَّيْطَانِ وَعَوَارِضِ الْفِتَنِ ، وَكَانَتِ النِّسَاءُ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يَبْرُزْنَ لِلرِّجَالِ، وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحِبُّ ضَرْبَ الْحِجَابِ عَلَيْهِنَّ وَيَوَدُّ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ؛ فَنَزَلَتْ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ لَيْسَ لَكُمْ أَذَاهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَئِنْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَنْكِحَنَّ عَائِشَةَ، قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ فَأَخْبَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا﴾ أي ذنبا عظيما. يَعْنِي أَذِيَّةَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوِ نِكَاحَ أَزْوَاجِهِ فَجُعِلَ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ الْكَبَائِرِ وَلَا ذَنْبَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه. أَيْ مَهْمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ، فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ فَإِنَّهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، عَن أبي أُمَامَة فِي قَوْله ﴿إِن تبدوا شَيْئا أَو تُخْفُوهُ﴾ قَالَ: ان تتكلموا بِهِ فتقولن: نتزوج فُلَانَة لبَعض أَزوَاج النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَو تخفوا ذَلِك فِي أَنفسكُم فَلَا تنطقوا بِهِ يُعلمهُ الله ، نَزَلَتْ فِيمَنْ أَضْمَرَ نِكَاحَ عَائِشَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِيلَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ

الصَّحَابَةِ: مَا بَالُنَا نُمْنَعُ مِنَ الدُّخولِ عَلَىٰ بَنَاتِ أَعْمَامِنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قال القرطبي : وَالْمُرَادُ به ها هنا التَّوْبِيخُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ تَقَدَّمَ التَّعْرِيضُ بِهِ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا، مِمَّنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ قَالَ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ وَالْأَقَارِبُ: وَنَحْنُ أَيْضًا نُكَلِّمُهُنَّ مِنْ وراء الحجاب؟.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لما نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ ، قَالَ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ وَالْأَقَارِبُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَنَحْنُ أَيْضًا نُكَلِّمُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، أَيْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِنَّ فِي تَرْكِ الِاحْتِجَابِ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِهِ النِّسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ حَتَّىٰ لَا يَجُوزَ لِلْكِتَابِيَّاتِ الدُّخُولُ عَلَيْهِنَّ، وَقِيلَ: هُوَ عَامٌّ فِي الْمُسْلِمَاتِ وَالْكِتَابِيَّاتِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ لأنهن بين أَجْنَاسِهِنَّ، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ عَبْدَ الْمَرْأَةِ هَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا لَهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ قَوْمٌ: يَكُونُ مُحَرَّمًا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ كَالْأَجَانِبِ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْإِمَاءُ دُونَ الْعَبِيدِ، ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ﴾ أَنْ يَرَاكُنَّ غَيْرُ هَؤُلَاءِ، قال القرطبي : كَأَنَّهُ قَالَ: اقْتَصِرْنَ عَلَىٰ هَذَا وَاتَّقِينَ اللهَ فِيهِ أَنْ تتَعَدَّيْنَهُ إِلَىٰ غَيْرِه. وَخَصَّ النِّسَاءَ بِالذِّكْرِ وَعَيَّنَهُنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ، لِقِلَّةِ تَحَفُّظِهِنَّ وَكَثْرَةِ اسْتِرْسَالِهِنَّ.﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ﴿شَهِيدًا﴾ يَشْهَدُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، وَيَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ، وَيَرَىٰ حَرَكَاتِهِمْ، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَتَمَّ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ إِنَّ اللهَ يَرْحَمُ النَّبِيَّ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْعُونَ لَهُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: يُصَلُّونَ يَتَبَرَّكُونَ. وَقِيلَ: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةُ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الِاسْتِغْفَارُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أَيِ ادْعُوَا لَهُ بِالرَّحْمَةِ، ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَيْ حَيُّوهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدعاء. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنِ صَلَّىٰ عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّىٰ اللهُ عليه عشراً** »(١)، قَالَ ابن كثير : وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَىٰ أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ، لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ ﴿الْعُلْوِيِّ﴾ و ﴿السفلي﴾ جَمِيعـًا،وروىٰ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قل، قلنا: يا رسول الله هذا السلام عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كما باركت علىٰ آل إبراهيم**»(٢).

(١) مسلم (٤٠٨) .

(٢) البخاري (٤٧٩٨) .

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمُشْرِكُونَ فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَأَمَّا النَّصَارَىٰ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ وَثَالِثُ ثلاثة وأما المشركون فَقَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ وَالْأَصْنَامُ شركاؤه وقيل: معنىٰ يؤذون الله: أي يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَقَالَ عكرمة: هم أصحاب التصاوير،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً**»(١) ، وقال بعضهم: ﴿يُؤْذُونَ اللهَ﴾ أَيْ يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فعن النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» وَمَعْنَىٰ الْأَذَىٰ هُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَارْتِكَابُ مَعَاصِيهِ، ذَكَرَهُ عَلَىٰ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَلْحَقَهُ أَذًىٰ مِنْ أَحَدٍ، وَإِيذَاءُ الرَّسُولِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَنَّهُ شُجَّ فِي وَجْهِهِ وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ. وَقِيلَ: شَاعِرٌ سَاحِرٌ مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ. ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: أبعدهم وطردهم، وَاللَّعْنُ فِي اللُّغَةِ: الْإِبْعَادُ، وَمِنْهُ اللِّعَانُ ، قال ابن عاشور : فَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُحَقَّرُونَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَمَحْرُومُونَ مِنْ لُطْفِ اللهِ وَعِنَايَتِهِ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مُحَقَّرُونَ بِالْإِهَانَةِ فِي الْحَشْرِ وَفِي الدُّخُولِ فِي النَّارِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ جزاء له علىٰ أذاه، أن يؤذىٰ بالعذاب الأليم، فأذية

---

(١) البخاري (٧٥٥٩) ومسلم (٢١١١)

الرسول، ليست كأذية غيره، لأنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يؤمن العبد بالله، حتىٰ يؤمن برسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَهُ مِنَ التَّعْظِيمِ، الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ، مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلَ غَيْرِهِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ قَالَ القرطبي: أَذِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ هِيَ أَيْضًا بِالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الْقَبِيحَةِ، كَالْبُهْتَانِ وَالتَّكْذِيبِ الْفَاحِشِ الْمُخْتَلَقِ، وَالْمُرَادُ بِالْأَذَىٰ: أَذَىٰ الْقَوْلِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ لِأَنَّ الْبُهْتَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَقْوَالِ وَذَلِكَ تَحْقِيرٌ لِأَقْوَالِهِمْ، قَدْ نَهَىٰ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْغِيبَةِ ، وَقَالَ: «**هِيَ أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ،** فَقِيلَ: وَإِنْ كَانَ حَقًّا؟ قَالَ: **إِنْ كَانَ غَيْرَ حَقٍّ فَذَلِكَ الْبُهْتَانُ**»[1] ، ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ من غير أن عملوا مَا أَوْجَبَ أَذَاهُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَقَعُونَ فِيهِمْ وَيَرْمُونَهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ علىٰ ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ، وَمَعْنَىٰ احْتَمَلُوا كَلَّفُوا أَنْفُسَهُمْ حِمْلًا، وَذَلِكَ تَمْثِيلٌ لِلْبُهْتَانِ بِحِمْلٍ ثَقِيلٍ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، مثل فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ، وهذا هو البهت الكبير أَنْ يُحْكَىٰ أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلَىٰ سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُمْ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الوعيد بعض الجهلة الَّذِينَ يَتَنَقَّصُونَ الصَّحَابَةَ،

---

(١) مسلم (٢٥٨٩).

وَيَعِيبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّأَهُمُ اللهُ مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ يَسُبُّونَهُمْ وَيَتَنَقَّصُونَهُمْ، وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مُنَكَّسُو الْقُلُوبِ، يَذُمُّونَ الْمَمْدُوحِينَ وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ، فَقَالَ: جَلَّ ذِكْرُهُ:

[٥٩] : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الْجَلَابِيبُ جَمْعُ جِلْبَابٍ، وَهُوَ ثَوْبٌ أَكْبَرُ مِنَ الْخِمَارِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ الثَّوْبُ الَّذِي يَسْتُرُ جَمِيعَ الْبَدَنِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَانَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: ﴿ لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا﴾ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يغطين رءوسهن وَوُجُوهَهُنَّ بِالْجَلَابِيبِ إِلَّا عَيْنًا وَاحِدَةً لِيُعْلَمَ أَنَّهُنَّ حَرَائِرُ، ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أنهن حرائر، حَتَّىٰ لَا يَخْتَلِطْنَ بِالْإِمَاءِ، فَإِذَا عُرِفْنَ لَمْ يُقَابَلْنَ بِأَدْنَىٰ مِنَ الْمُعَارَضَةِ مُرَاقَبَةً لِرُتْبَةِ الْحُرِّيَّةِ، فَتَنْقَطِعُ الْأَطْمَاعُ عَنْهُنَّ، وَلَيْسَ الْمَعْنَىٰ أَنْ تُعْرَفَ الْمَرْأَةُ حَتَّىٰ تُعْلَمَ مَنْ هِيَ. وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا رَأَىٰ أَمَةً قَدْ تَقَنَّعَتْ ضَرَبَهَا بِالدِّرَّةِ، مُحَافَظَةً عَلَىٰ زِيِّ الْحَرَائِرِ ، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فَلَا يُتَعَرَّضْنَ لَهُنَّ، رُبَّمَا اسْتُهِينَ بِهِنَّ، وَظُنَّ أَنَّهُنَّ إِمَاءٌ، فَتَهَاوَنَ بِهِنَّ مَنْ يُرِيدُ الشَّرَّ، فَالِاحْتِجَابُ حَاسِمٌ لِمَطَامِعِ الطَّامِعِينَ فِيهِنَّ.﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تَأْنِيسٌ لِلنِّسَاءِ فِي تَرْكِ الجلابيب قبل هذا الامر المشروع.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عَنْ نِفَاقِهِمْ، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فجور، يعني الزنا، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ بِالْكَذِبِ ، وَالْإِرْجَافُ: إِشَاعَةُ الْأَخْبَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّ نَاسًا مِنْهُمْ كَانُوا إِذَا خَرَجَتْ سَرَايَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوقعون في الناس الرعب وإذا التحم القتال ولوا وانهزموا، وَيَقُولُونَ : قَدْ أَتَاكُمُ الْعَدُوُّ وَنَحْوَهَا ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ويفشون الأخبار ، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لَنُحَرِّشَنَّكَ بِهِمْ وَلَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ لَا يُسَاكِنُوكَ فِي الْمَدِينَةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ حَتَّىٰ يُخْرَجُوا مِنْهَا، وَقِيلَ: لَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ تَقْتُلَهُمْ وَتُخْلِي مِنْهُمُ المدينة.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ وُجِدُوا وَأُدْرِكُوا، ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ أَيِ الْحُكْمُ فِيهِمْ هَذَا عَلَىٰ جِهَةِ الْأَمْرِ بِهِ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ أَيْ كَسُنَّةِ اللهِ، ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فَعَلُوا مِثْلَ هَؤُلَاءِ، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾ أَيْ: هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلَ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَيَصِلُ إِلَىٰ نَصْرِ اللهِ الْإِيمَانُ عَلَىٰ الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقَّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ نَصَرَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ قِلَّةِ عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم .

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُؤْذُونَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تُوُعِّدُوا بِالْعَذَابِ سَأَلُوا عَنِ السَّاعَةِ، اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا، مُوهِمِينَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ ، ﴿ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ أَيْ أَجِبْهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ وَقُلْ عِلْمُهَا عِنْدَ الله، وليس إِخْفَاءِ اللهِ وَقْتَهَا عَنِّي مَا يُبْطِلُ نُبُوَّتِي، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ الْغَيْبَ بغير تعليم من الله عز وجل ، ﴿ وَما يُدْرِيكَ﴾ أَيْ مَا يُعْلِمُكَ. ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أَيْ فِي زَمَانٍ قَرِيبٍ. وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ** ، وَأَشَارَ إِلَىٰ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىٰ » [1] ، فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ سِوَىٰ أَنَّىٰ أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[2] ، وَقِيلَ: إِنَّمَا أَخْفَىٰ وَقْتَ السَّاعَةِ لِيَكُونَ العبد مستعدا لها في كل وقت.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ﴾ أَيْ طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ ، وَاللَّعْنُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنِ الرَّحْمَةِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ السَّعِيرُ: النَّارُ الشَّدِيدَةُ الْإِيقَادِ، وأنث السَّعِيرَ لِأَنَّهَا بِمَعْنَىٰ النَّارِ.

---

(١) البخاري (٥٣٠١) ومسلم (٦٥٠٣) .

(٢) البخاري (٦١٧١) ومسلم (٢٦٣٩) .

[٦٥] : ﴿لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ فَيُعْطِيَهُمْ مَا طَلَبُوهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَدْفَعُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، بَلْ قَدْ تَخَلَّىٰ عَنْهُمُ الْوَلِيُّ النَّصِيرُ، وَأَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُ السَّعِيرِ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ:

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ظَهْرًا لِبَطْنٍ حِينَ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا، قَالَ ابنُ عاشور : وَالْمَعْنَىٰ : يَوْمَ تُقَلِّبُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ، أَوْ يَجْعَلُ اللهُ ذَلِكَ التَّقَلُّبَ فِي وُجُوهِهِمْ لِتَنَالَ النَّارُ جَمِيعَ الْوَجْهِ كَمَا يُقَلَّبُ الشِّوَاءُ عَلَىٰ الْمَشْوَىٰ لِيَنْضَجَ عَلَىٰ سَوَاءٍ، وَلَوْ كَانَ لَفْحُ النَّارِ مُقْتَصِرًا عَلَىٰ أَحَدِ جَانِبَيِ الْوَجْهِ لَكَانَ لِلْجَانِبِ الْآخَرِ بَعْضُ الرَّاحَةِ. وَتَخْصِيصُ الْوُجُوهِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ لِأَنَّ حَرَّ النَّارِ يُؤْذِي الْوُجُوهَ أَشَدَّ مِمَّا يُؤْذِي بَقِيَّةَ الْجِلْدِ لِأَنَّ الْوُجُوهَ مَقَرُّ الْحَوَاسِّ الرَّقِيقَةِ: الْعُيُونِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْآذَانِ ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ فِي الدُّنْيَا، أَيْ لَمْ نَكْفُرْ فَنَنْجُوَ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ كَمَا نَجَا الْمُؤْمِنُونَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَسَلِمْنَا مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، وَاسْتَحْقَقْنَا، كَالْمُطِيعِينَ، جَزِيلَ الثَّوَابِ. وَلَكِنْ أُمْنِيَّةٌ فَاتَ وَقْتُهَا، فَلَمْ تُفِدْهُمْ إِلَّا حَسْرَةً وَنَدَمًا، وَهَمًّا، وَغَمًّا، وَأَلَمًا.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ قال قتادة : أَي رؤوسنا فِي الشَّرّ والشرك والسَّادَةُ: جَمْعُ سَيِّدٍ ، وَالسَّادَةُ: عُظَمَاءُ الْقَوْمِ وَالْقَبَائِلِ مِثْلُ الْمُلُوكِ، وَالْكُبَرَاءُ: جَمْعُ كَبِيرٍ وَهُوَ عَظِيمُ الْعَشِيرَةِ، وَهُمْ دُونَ السَّادَةِ ، قال

طاووس: ﴿سَادَتَنَا﴾ يعني الأشراف و ﴿كُبَرَآءَنَا﴾ يعني العلماء، أَيِ اتَّبَعْنَا السَّادَةَ وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ المشيخة، وخالفنا الرسل ، قال القرطبي : والْأَظْهَرُ الْعُمُومُ فِي الْقَادَةِ وَالرُّؤَسَاءِ فِي الشِّرْكِ وَالضَّلَالَةِ، أَيْ أَطَعْنَاهُمْ فِي مَعْصِيَتِكَ وَمَا دَعَوْنَا إِلَيْهِ ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أَيْ عَنِ السَّبِيلِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي ضعفي عذاب غيرهم ، قَالَ قَتَادَةُ: عَذَابُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: عَذَابُ الْكُفْرِ وَعَذَابُ الْإِضْلَالِ، أَيْ عَذِّبْهُمْ مِثْلَيْ مَا تُعَذِّبُنَا فَإِنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، قوله تعالىٰ: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قَرَأَ عَاصِمٌ كَبِيرًا بِالْبَاءِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَيْ عَذَابًا كَثِيرًا، وَقَرَأَ الآخرون بالثاء ﴿ كثيرا﴾ قال القرطبي : وَقِرَاءَةُ الْبَاءِ تَرْجِعُ فِي الْمَعْنَىٰ إِلَىٰ الثَّاءِ، لِأَنَّ مَا كَبُرَ كَانَ كَثِيرًا عَظِيمَ الْمِقْدَارِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي السَّرِيِّ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي مَسْجِدِ عَسْقَلَانَ وَكَأَنَّ رَجُلًا يُنَاظِرُنِي فِيمَنْ يُبْغِضُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَقَالَ: وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا، ثُمَّ كَرَّرَهَا حَتَّىٰ غَابَ عَنِّي، لَا يَقُولُهَا إِلَّا بِالثَّاءِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارَ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْإِيذَاءِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَذِيَّتِهِمْ نَبِيَّهُمْ مُوسَىٰ. ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ فَطَهَّرَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا، أخرج الإمام البخاري عند تفسير هذه الآية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا**

لَا يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَتَسَتَّرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عيب في جلده إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَىٰ حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فرغ أقبل علىٰ ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثُوبِي حَجَرُ، ثُوبِي حَجَرُ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَىٰ فَبرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ »[1]، ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا﴾ أي كَرِيمًا ذَا جَاهٍ، يُقَالُ: وَجُهَ الرَّجُلُ يُوجَهُ وَجَاهَةً فَهُوَ وَجِيهٌ، إِذَا كَانَ ذَا جَاهٍ وَقَدْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ حَظِيًّا عِنْدَ اللهِ لَا يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَقِيلَ: كَانَ محببًا مقبولاً.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَوَابًا، وَقَالَ قَتَادَةُ، عَدْلًا، وَقَالَ الْحَسَنُ: صِدْقًا، وَقِيلَ: مُسْتَقِيمًا، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،

---

(١) البخاري (٣٤٠٤).

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَقَبَّلْ حَسَنَاتِكُمْ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يُزَكِّ أَعْمَالَكُمْ، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفر بالخير كله.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الْآيَةَ، أَرَادَ بِالْأَمَانَةِ الطَّاعَةَ وَالْفَرَائِضَ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، عَرَضَهَا عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ إِنْ أَدَّوْهَا أَثَابَهُمْ وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الأمانة أداء الصلاة وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَقَضَاءُ الدَّيْنِ وَالْعَدْلُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ الْوَدَائِعُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ أَمَانَاتُ النَّاسِ والوفاء بالعهد، فَحَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ لا يغش مؤمنا ولا معاهد فِي شَيْءٍ قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أَيْ خِفْنَ مِنَ الْأَمَانَةِ أَنْ لَا يُؤَدِّينَهَا فَيَلْحَقُهُنَّ الْعِقَابُ، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ الله لآدم: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ تُطِقْهَا فَهَلْ أَنْتَ آخِذُهَا بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إِنْ أَحْسَنْتَ جُوزِيتَ، وَإِنْ أَسَأْتَ عوقبت، فتحملها آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ظَلُومًا لِنَفْسِهِ جهولا لأمر اللهِ وَمَا احْتَمَلَ مِنَ الْأَمَانَةِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: ظَلُومًا حِينَ عَصَىٰ رَبَّهُ، جَهُولًا لَا يَدْرِي مَا الْعِقَابُ فِي تَرْكِ الْأَمَانَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ظَلُومًا لِنَفْسِهِ جَهُولًا بِعَاقِبَةِ ما تحمَّل.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وقال مُقَاتِلٌ: لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا خَانُوا الْأَمَانَةَ وَنَقَضُوا الْمِيثَاقَ، ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يَهْدِيهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ بِمَا أَدَّوْا مِنَ الْأَمَانَةِ ، وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: أَيْ عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ لِيَظْهَرَ نِفَاقُ الْمُنَافِقِ وَشِرْكُ الْمُشْرِكِ فَيُعَذِّبُهُمَا اللهُ، وَيَظْهَرُ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ أَيْ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ إِنْ حَصَلَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ فِي بعض الطاعات.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ سَبَأٍ

وسميت بهذا الاسم لذكر قِصَّةُ أَهْلِ سَبأٍ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَحُكِيَ اتِّفَاقُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ عَلَيْهِ.

[١] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: الْحَمْدُ: الثَّنَاءُ بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْحَسَنَةِ، فَلِلَّهِ تَعَالَىٰ الْحَمْدُ، لِأَنَّ جَمِيعَ صِفَاتِهِ، يُحْمَدُ عَلَيْهَا، لِكَوْنِهَا صِفَاتِ كَمَالٍ، وَأَفْعَالَهُ، يُحْمَدُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا دَائِرَةٌ بَيْنَ الْفَضْلِ الَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ وَيُشْكَرُ، وَالْعَدْلِ الَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ وَيُعْتَرَفُ بِحِكْمَتِهِ فِيهِ، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا** » ، وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ: مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا وَجَبَتْ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ بِقَوْلِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَجَزَاءُ تِلْكَ النِّعْمَةِ أَنْ يَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَجَاءَتْ نِعْمَةٌ أُخْرَىٰ فَلَا تَنْفَدُ نِعَمُ اللهِ ، قَوْلُهُ : ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِلْكًا وَعَبِيدًا، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحَمْدِهِ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كَمَا هُوَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ النِّعَمَ فِي الدَّارَيْنِ كُلَّهَا مِنْهُ، وَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فِي الْآخِرَةِ هُوَ حَمْدُ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فَاطِرِ: ٣٤] وَ ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزُّمَرِ: ٧٤] ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ ، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأمر خلقه.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْمَاءِ والأموات، وَالْوُلُوجُ: الدُّخُولُ وَالسُّلُوكُ مثل ولوج مَاء الْمَطَرِ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِنَ النَّبَاتِ وَالْأَمْوَاتِ إِذَا حُشِرُوا، وقيل : الأعال الصالحة إذ ترفع إليه ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار، ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد، ﴿فِيهَا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَأَعْمَالِ الْعِبَادِ، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أَيِ الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ فَلَا يُعَاجِلُ عُصَاتَهُمْ بالعقوبة ﴿الغفور﴾ عن ذنوب التَّائِبِينَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ أَهْلُ مَكَّةَ. قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ أَبَدًا وَلَا نُبْعَثُ ، فَقَالَ اللهُ:﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: مَا هِيَ، إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، نَمُوتُ وَنَحْيَا. فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَرُدَّ قَوْلَهُمْ وَيُبْطِلَهُ، وَيُقْسِمَ عَلَىٰ الْبَعْثِ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ، وَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِدَلِيلِ مَنْ أَقَرَّ بِهِ، لَزِمَهُ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْبَعْثِ ضَرُورَةً، وَهُوَ عِلْمُهُ تَعَالَىٰ الْوَاسِعُ الْعَامُّ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أَيِ: الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ عَنْ أَبْصَارِنَا، وَعَنْ عِلْمِنَا، فَكَيْفَ بِالشَّهَادَةِ؟ وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: الشَّهَادَة مَا قد رَأَيْتُمْ من خلقه والغيب مَا غَابَ عَنْكُم مِمَّا لم تروه وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَامَ

مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1] ، ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لَا يَغِيبُ، وَالْعُزُوبُ: الْخَفَاءُ ، ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيْ مِنَ الذَّرَّةِ، ﴿وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا خَلَقَ وَلَا يَخْفَىٰ عليه شيء.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِقُلُوبِهِمْ، صَدَقُوا اللهَ، وَصَدَقُوا رُسُلَهُ تَصْدِيقًا جَازِمًا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تَصْدِيقًا لِإِيمَانِهِمْ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لِذُنُوبِهِمْ، بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، يَنْدَفِعُ بِهَا كُلُّ شَرٍّ وَعِقَابٍ ﴾، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بِإِحْسَانِهِمْ، يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ كُلُّ مَطْلُوبٍ وَمَرْغُوبٍ، وَأُمْنِيَّةٍ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ في إبطال أدلتنا، قال ابن عاشور: وَمَعْنَىٰ سَعَوْا فِي آيَاتِنا اجْتَهَدُوا بِالصَّدِّ عَنْهَا وَمُحَاوَلَةِ إِبْطَالِهَا، فَالسَّعْيُ مُسْتَعَارٌ لِلْجِدِّ فِي فِعْلٍ مَا، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَفُوتُونَنَا، وأن الله لا يقدر علىٰ بعثهم في الآخرة وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ بَعْثِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَظَنُّوا أَنَّا نُهْمِلُهُمْ، فَهَؤُلَاءِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يقال: عَاجَزَهُ وَأَعْجَزَهُ إِذَا غَالَبَهُ وَسَبَقَهُ، أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم ، وعَن ابْن عَبَّاس قَالَ: كل شَيْء فِي كتاب الله من

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

الرجز يَعْنِي بِهِ الْعَذَاب، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّجَزِ وَهُوَ دَاءٌ يُصِيبُ الْإِبِلَ فِي أَعْجَازِهَا فَإِذَا ثَارَتِ ارْتَعَشَتْ أَفْخَاذُهَا، وَالرِّجْزُ: الْعَذَابُ (بالزاي) و (بالسين): النَّتْنُ وَالْقَذَرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أي نتنا إلىٰ نتنهم ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الرِّجْزُ هُوَ الرِّجْسُ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَرَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَعْنِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَبْدَ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَصَحُّ لِعُمُومِهِ. قال ابن عاشور : وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَنْ آمَنُوا بِالنَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لِأَنَّهُمْ أُوتُوا الْقُرْآنَ ، ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن، ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿وَيَهْدِي﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، قال القرطبي : أَيْ يَهْدِي الْقُرْآنُ إِلَىٰ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ دِينُ اللهِ، وَدَلَّ بِقَوْلِهِ: (الْعَزِيزِ) عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُغَالَبُ. وَبِقَوْلِهِ: (الْحَمِيدِ) عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ صفة العجز، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَزَمُوا بِصِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: مِنْ جِهَةِ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِ مَنْ أَخْبَرَ بِهِ، وَمِنْ جِهَةِ مُوَافَقَتِهِ لِلْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ، وَالْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا يُشَاهِدُونَ مِنْ أَخْبَارِهَا، الَّتِي تَقَعُ عِيَانًا، وَمِنْ جِهَةِ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ وَمِنْ جِهَةِ مُوَافَقَتِهَا، لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ تَعَالَىٰ وَأَوْصَافُهُ. وَيَرَوْنَ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، أَنَّهَا تَهْدِي إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُتَضَمِّنِ لِلْأَمْرِ بِكُلِّ

صِفَةٍ تُزَكِّي النَّفْسَ ، وَتُنَمِّي الْأَجْرَ، وَتُفِيدُ الْعَامِلَ وَغَيْرَهُ، كَالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ عُمُومِ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَتَنْهَىٰ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ قَبِيحَةٍ، تُدَنِّسُ النَّفْسَ، وَتُحْبِطُ الْأَجْرَ، وَتُوجِبُ الْإِثْمَ وَالْوِزْرَ، مِنَ الشِّرْكِ، وَالزِّنَا، وَالرِّبَا، وَالظُّلْمِ فِي الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْأَعْرَاضِ. وَهَذِهِ مَنْقَبَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَفَضِيلَةٌ، وَعَلَامَةٌ لَهُمْ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْظَمَ عِلْمًا وَتَصْدِيقًا بِأَخْبَارِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَأَعْظَمَ مَعْرِفَةً بِحِكْمِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ حُجَّةً عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، احْتَجَّ اللهُ بِهِمْ عَلَىٰ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من منكري البعث الْمُتَعَجِّبِينَ مِنْهُ، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي يخبركم يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ هَلْ نُرْشِدُكُمْ إِلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ، أَيْ يَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ تُبْعَثُونَ بَعْدَ الْبِلَىٰ فِي الْقُبُورِ، وَهَذَا صَادِرٌ عَنْ فَرْطِ إِنْكَارِهِمْ.﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ قُطِّعْتُم كُلَّ تَقْطِيعٍ وَفُرِّقْتُم كُلَّ تَفْرِيقٍ وَصِرْتُم تُرَابًا ، قال قتادة : يَقُول: إِذا أكلتكم الأَرْض وصرتم عظاماً ورفاتاً وتقطعتكم السبَاع وَالطير ، وَأَجَازَ الزَّجَّاجُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِيهَا مَحْذُوفًا، التَّقْدِيرُ: إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ بُعِثْتُمْ، أَوْ يُنَبِّئُكُمْ بِأَنَّكُمْ تُبْعَثُونَ إِذَا مُزِّقْتُمْ ، وَالتَّمْزِيقُ: تَفْكِيكُ الْأَجْزَاءِ الْمُتَلَاصِقَةِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِحَيْثُ تَصِيرُ قِطَعًا مُتَبَاعِدَةً، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جديد قال قالوا تكذيبًا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ لَمَّا دَخلَتْ أَلِفُ الِاسْتِفْهَامِ اسْتَغْنَيْتُ عَنْ أَلِفِ الْوَصْلِ فَحَذَفْتُهَا، ﴿عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أَيْ جُنُونٌ، فَهُوَ يَتكَلَّمُ بِمَا لَا يَدْرِي، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالُوا، بَلْ هُوَ أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ يُنْكِرُ الْبَعْثَ فَهُوَ غَدًا فِي الْعَذَابِ، وَالْيَوْمَ فِي الضَّلَالِ عَنِ الصَّوَابِ، إِذْ صَارُوا إِلَىٰ تَعْجِيزِ الْإِلَهِ وَنِسْبَةِ الِافْتِرَاءِ إِلَىٰ مَنْ أَيَّدَهُ اللهُ بِالْمُعْجِزَاتِ ، والضَّلالِ: خَطَأُ الطَّرِيقِ الْمُوصِّلِ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، والْبَعِيدِ وُصِفَ بِهِ الضَّلَالُ باعْتِبَارِ كَوْنِهِ وَصْفًا لِطَرِيقِ الضَّالِّ ، لِأَنَّ الضَّالَّ كُلَّمَا تَوَغَّلَ مَسَافَةً فِي الطَّرِيقِ الْمَضْلُولِ فِيهِ ازْدَادَ بُعْدًا عَنِ الْمَقْصُودِ فَاشْتَدَّ ضَلَالُهُ، وصعب خَلَاصُهُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وذهبوا، فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم، لَا يَخْرُجُونَ مِنْ أَقْطَارِهَا وَأَنَا الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ، ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أَيْ فِيمَا تَرَوْنَ مِنَ السَّمَاءِ والأرض، ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ أَيْ فِي هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قُدْرَتِنَا ﴿ لَآيَةً﴾ أَيْ دَلَالَةً ظَاهِرَةً ، ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ تَائِبٍ رَاجِعٍ إِلَىٰ اللهِ بِقَلْبِهِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُنِيبُ إِلَىٰ اللهِ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ، الَّذِي أَنَابَ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ، وَرَجَعَ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، كَانَ الْقَوْمُ كُفَّارًا، فَنَزَعُوا وَرَجَعُوا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يَعْنِي النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَقِيلَ: الْمُلْكُ، وَقِيلَ: جَمِيعُ مَا أُوتِيَ مِنْ حُسْنِ الصَّوْتِ وَتَلْيِينِ الْحَدِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا خُصَّ بِهِ، ﴿يَا جِبَالُ﴾ أَيْ وَقُلْنَا: يَا جِبَالُ، ﴿أَوِّبِي﴾ أي سبحي، ﴿مَعَهُ﴾ إذا سبح، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَصْلُهُ مِنَ التَّأْوِيبِ فِي السَّيْرِ وَهُوَ أَنْ يَسِيرَ النهار كله فينزل ليلا بِالتَّسْبِيحِ مَعَهُ، وَقَالَ وَهْبٌ: نَوِّحِي معه، قال القرطبي: وَمَعْنَىٰ تَسْبِيحِ الْجِبَالِ: هُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ فِيهَا تَسْبِيحًا كَمَا خَلَقَ الْكَلَامَ فِي الشَّجَرَةِ، فَيُسْمَعُ مِنْهَا مَا يُسْمَعُ مِنَ الْمُسَبِّحِ مُعْجِزَةً لِدَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عُطِفَ عَلَىٰ مَوْضِعِ الْجِبَالِ، لِأَنَّ كُلَّ مُنَادَىٰ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَسَخَّرْنَا وَأَمَرْنَا الطَّيْرَ أَنْ تُسَبِّحَ مَعَهُ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: وَالطَّيْر بِالرَّفْعِ رَدًّا عَلَىٰ الْجِبَالِ أي أوبي أنت والطير ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ حَتَّىٰ كَانَ الْحَدِيدُ فِي يَدِهِ كالشمع والعجين يعمل فيه مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ ولا ضرب مطرقة، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إن خَيْرَ مَا أَكَلَ الْمَرْءُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[1].

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دُرُوعًا كَوَامِلَ وَاسِعَاتٍ طِوَالًا تَسْحَبُ فِي الْأَرْضِ، يُقَالُ: سَبَغَ الدِّرْعَ وَالثَّوْبَ وَغَيْرَهُمَا إِذَا غَطَّىٰ كُلَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَفَضَلَ مِنْهُ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ**

(١) البخاري (٢٠٧٧).

الْمَكَارِهِ »[1] ، وَمَعْنَىٰ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ إِتْمَامُهُ، وَإِكْمَالُهُ عَلَىٰ كُلِّ عُضْوٍ، بِإِبْلَاغِ الْمَاءِ بِسَيْلِ الْمَاءِ عَلَيْهِ ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ يَقُولُ: قَدِّرِ الْمَسَامِيرَ فِي حَلَقِ الدِّرْعِ أَيْ لَا تَجْعَلِ الْمَسَامِيرَ دِقَاقًا فَتُفْلِتُ وَلَا غِلَاظًا فَتكْسِرُ الْحَلَقَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَقَدِّرِ الْمَسَامِيرَ فِي حِلَقِ الدُّرُوعِ حَتَّىٰ يَكُونَ بِمِقْدَارٍ لَا تُغْلِظَ الْمِسْمَارَ وَتُضَيِّقَ الْحَلْقَةَ فَتَفْصِمَ الْحَلْقَةَ، وَلَا تُوَسِّعَ الْحَلْقَةَ وَتُصَغِّرَ الْمَسَامِيرَ وَتُدِقَّهَا فَتَسْلَسَ فِي الْحَلْقَةِ ، وَيُقَالُ: السَّرْدُ الْمِسْمَارُ فِي الْحَلْقَةِ، يُقَالُ: دِرْعٌ مَسْرُودَةٌ أَيْ مَسْمُورَةُ الْحَلَقِ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ اجْعَلْهُ عَلَىٰ الْقَصْدِ وَقَدْرِ الحاجة، ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أَيْ عَمَلًا صَالِحًا. وَهَذَا خِطَابٌ لِدَاوُدَ وَأَهْلِهِ، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أَيْ وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أَيْ سَيْرُ غُدُوِّ تِلْكَ الرِّيحِ الْمُسَخَّرَةِ لَهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَسَيْرُ رَوَاحِهَا مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَكَانَتْ تَسِيرُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أَيْ أَذَبْنَا لَهُ عَيْنَ النُّحَاسِ، والقطر النحاس ، وَالْإِسَالَةُ: جَعْلُ الشَّيْءِ سَائِلًا، أَي سَائِلًا، أَي مَائِعا مُنْبَطِحًا فِي الْأَرْضِ كَمَسِيلِ الْوَادِي، والْقِطْرِ- بِكَسْرِ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ- النُّحَاسُ الْمُذَابُ، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بِأَمْرِ رَبِّهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَخَّرَ اللهُ الْجِنَّ لِسُلَيْمَانَ وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ الزَّيْغُ: تَجَاوُزُ الْحَدِّ وَالطَّرِيقِ،

---

(١) مسلم (٢٥١) .

وَالْمَعْنَىٰ: مَنْ يَعْصِ أَمْرَنَا الْجَارِي عَلَىٰ لِسَانِ سُلَيْمَانَ. ﴿مِنْهُمْ﴾ من الجن، ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ مِنْ طَاعَةِ سُلَيْمَانَ، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِهِمْ مَلَكًا بِيَدِهِ سَوْطٌ مِنْ نَارٍ فَمَنْ زَاغَ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِ سُلَيْمَانَ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً أَحْرَقَتْهُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ أي مساجد والأبنية المرتفعة وَالْمَحَارِيبُ: جَمْعُ مِحْرَابٍ، وَهُوَ الْحِصْنُ الَّذِي يُحَارَبُ مِنْهُ الْعَدُوُّ وَالْمُهَاجِمُ لِلْمَدِينَةِ، أَوْ لِأَنَّهُ يُرْمَىٰ مِنْ شُرُفَاتِهِ بِالْحِرَابِ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَىٰ الْقَصْرِ الْحَصِينِ ، قوله: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ أَيْ كَانُوا يَعْمَلُونَ لَهُ تَمَاثِيلَ أَيْ صُوَرًا مِنْ نُحَاسٍ وَصُفْرٍ وَشَبَّةٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ، وَقِيلَ: كَانُوا يصورون السباع والطير. وَقِيلَ: كَانُوا يَتَّخِذُونَ صُوَرَ الْمَلَائِكَةِ والأنبياء والصالحين في المسجد لِيَرَاهَا النَّاسُ فَيَزْدَادُوا عِبَادَةً، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ مُبَاحَةً فِي شَرِيعَتِهِمْ، كَمَا أَنَّ عِيسَىٰ كَانَ يَتَّخِذُ صُوَرًا مِنَ الطِّينِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طيرا بإذن الله ، ﴿وَجِفَانٍ﴾ أَيْ قِصَاعٍ وَاحِدَتُهَا جَفْنَةٌ، وَالْجِفَانُ: جَمْعُ جَفْنَةٍ، وَهِيَ الْقَصْعَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يُجْفَنُ فِيهَا الْمَاءُ، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالأحواض الَّتِي يُجْبَىٰ فِيهَا الْمَاءُ أي يجمع واحدتها جابية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أَيْ وَقُلْنَا: اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا، مَجَازُهُ: اعْمَلُوا يَا آلَ دَاوُدَ بِطَاعَةِ اللهِ شُكْرًا لَهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أَيِ الْعَامِلُ بِطَاعَتِي شُكْرًا لِنِعْمَتِي قِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ آلِ دَاوُدَ هُوَ دَاوُدُ نَفْسُهُ، قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَسَّمَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَلَمْ يَكُنْ سَاعَةٌ

مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا وَإِنْسَانٌ مِنْ آلِ دَاوُدَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِيهَا، قَالَ: فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْرًا وقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أَيْ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ عليه السلام، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: كَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَجَرَّدُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ السَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ، وَالشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ، وَأَقَلَّ مِنْ ذلك وأكثر وَكَانَتِ الْجِنُّ تُخْبِرُ الْإِنْسَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ أَشْيَاءَ وَيَعْلَمُونَ مَا فِي غَدٍ، ثُمَّ دَخَلَ الْمِحْرَابَ فَقَامَ يُصَلِّي مُتَّكِئًا عَلَىٰ عصاه فمات قائما وكانت الْجِنُّ يَعْمَلُونَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي حَيَاتِهِ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ حَيٌّ وَلَا يُنْكِرُونَ احْتِبَاسَهُ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَىٰ النَّاسِ لِطُولِ صَلَاتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَكَثُوا يَدْأَبُونَ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ سنةً كاملة حَتَّىٰ أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ عَصَا سُلَيْمَانَ، فَخَرَّ مَيِّتًا فعلموا بموته فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة التي، ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ يعني عصاه وَأَصْلُهَا : مِنْ نَسَأْتُ الْغَنَمَ أَيْ زَجَرْتُهَا وَسُقْتُهَا، فَسُمِّيَتِ الْعَصَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُزْجَرُ بِهَا الشَّيْءُ وَيُسَاقُ ، ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أَيْ سَقَطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ، ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أَيْ عَلِمَتِ الْجِنُّ وَأَيْقَنَتْ، ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أَيْ فِي التَّعَبِ وَالشَّقَاءِ مُسَخَّرِينَ لِسُلَيْمَانَ وَهُوَ ميت يظنونه حيا، أراد بِذَلِكَ أَنْ يُعْلِمَ الْجِنَّ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، لِغَلَبَةِ الجهل عليهم، وذكر الأزهري أن معناه تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ، أَيْ ظَهَرَتْ وَانْكَشَفَتِ الْجِنُّ لِلْإِنْسِ، أَيْ ظَهَرَ أَمْرُهُمْ أنهم لا

يعلمون لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ شَبَّهُوا عَلَىٰ الْإِنْسِ ذَلِكَ، قال ابن عاشور : وَهَذَا إِبْطَالٌ لِاعْتِقَادِ العوام يَوْمَئِذٍ وَمَا يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ فَلِذَلِكَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَعْلِمُونَ الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْكُهَّانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ لِكُلِّ كَاهِنٍ جِنِّيًّا يَأْتِيهِ بِأَخْبَارِ الْغَيْبِ، وَيُسَمُّونَهُ رَئِيًّا إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ لَكَانَ أَنْ يَعْلَمُوا وَفَاةَ سُلَيْمَانَ أَهْون عَلَيْهِم ، وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ يصلي الصبح، وأنا خَلْفُهُ فقَرَأَ، فَالْتَبَسَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صِلَاتِهِ قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي، فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ - الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا - ولولا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ يَتَلَاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ الْمَدِينَةِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»(١) .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ اسْمُ سَبَأٍ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ كَمَا هُنَا وَعَلَىٰ بِلَادِهِمْ كَمَا فِي آيَةِ النَّمْلِ ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ بمأرب من اليمن، قال ابن الجوزي : سَبَأٌ هِيَ الْقَبِيلَةُ الَّتِي هُمْ مِنْ أَوْلادِ سَبَإٍ، وَكَانَتْ بَلْقِيسُ لَمَّا مَلَكَتْ قَوْمَهَا تَرَاهُمْ يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ مَاءِ وَادِيهِمْ فَجَعَلَتْ تَنْهَاهُمْ فَلا يُطِيعُونَهَا، فَتَرَكَتْ مُلْكَهَا وَانْطَلَقَتْ إِلَىٰ قَصْرِهَا فَنَزَلَتْهُ، فَلَمَّا كَثُرَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ أَتَوْهَا فَسَأَلُوهَا أَنْ تَرْجِعَ

---

(١) البخاري (٣٤٢٣) .

إِلَىٰ مُلْكِهَا فَأَبَتْ، فَقَالُوا: لَتَرْجِعِنَّ أَوْ لَنَقْتُلُكِ ، فَقَالَتْ إِنَّكُمْ لا تُطِيعُونَنِي. فَقَالُوا: إِنَّا نُطِيعُكِ. فَجَاءَتْ إِلَىٰ وَادِيهِمْ وَكَانُوا إِذَا مُطِرُوا أَتَاهُ السَّيْلُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ، فَأَمَرَتْ فَسُدَّ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ بِمُسَنَّاةٍ وَحَبَسَتِ الْمَاءَ مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ؛ وَجَعَلَتْ لَهُ أَبْوَابًا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَبَنَتْ مِنْ دُونِهِ بِرْكَةً وَجَعَلَتْ فِيهَا اثْنَيْ عَشَرَ مَخْرَجًا عَلَىٰ عَدَدِ أَنْهَارِهِمْ، فَكَانَ الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْهَا بِالسَّوِيَّةِ، إِلَىٰ أَنْ أَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ. وَقِيلَ: إِنَّمَا بَنَوْا ذَلِكَ لِئَلا يَغْشَىٰ السَّيْلُ أَمْوَالَهُمْ فَتَهْلِكَ، فَكَانُوا يَفْتَحُونَ مِنْ أَبْوَابِ السَّدِّ مَا يُرِيدُونَ فَيَأْخُذُونَ مِنَ الْمَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ لَهُمْ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينِ وَادِيهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَأَخْصَبَتْ أَرْضُهُمْ وَكَثُرَتْ فَوَاكِهُهُمْ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ لَتَمُرُّ بَيْنَ الْجَنَّتَيْنِ وَالْمِكْتَلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا فَتَرْجِعُ وقد امتلأ من التمر وَلا تَمَسُّ بِيَدِهَا شَيْئًا مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَلْدَتِهِمْ حَيَّةٌ وَلا عَقْرَبٌ وَلا بَعُوضَةٌ وَلا ذُبَابَةٌ وَلا بَرْغُوثٌ ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ ثَلاثَةَ عَشَرَ نَبِيًّا وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أَيْ هَذِهِ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ، وَلَمْ تَكُنْ سَبِخَةً ولا فيها ما يؤذي ﴿ورب غفور﴾ أي والله رب غفور، ﴿آيَةٌ﴾ دَلَالَةٌ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِنَا وَقُدْرَتِنَا ، قال ابن عاشور : وَالْآيَةُ هُنَا: الْأَمَارَةُ وَالدَّلَالَةُ بِتَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَتَقَلُّبِ الْأَزْمَانِ، فَهِيَ آيَةٌ عَلَىٰ تَصَرُّفِ اللهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا بِتِلْكَ الْآيَةِ فَأَشْرَكُوا بِهِ، وَقَدْ كَانَ فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ ثُمَّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ. ثُمَّ فسر الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أَيْ هِيَ جَنَّتَانِ بُسْتَانَانِ، ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أَيْ عَنْ يَمِينِ الْوَادِي وَشِمَالِهِ ، وَقِيلَ: عَنْ يَمِينِ مَنْ أَتَاهُمَا وَشِمَالِهِ، وَكَانَ لَهُمَا وَادٍ قَدْ

أَحَاطَتِ الْجَنَّتَانِ بِذَلِكَ الْوَادِي ﴿كُلُوا﴾ أَيْ وَقِيلَ لَهُمْ: كُلُوا، ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من ثمار الجنتين ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَا رَزَقَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْمَعْنَىٰ اعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ، ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أَيْ أَرْضُ سَبَأٍ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ليست بسبخة أَيْ طَيِّبَةُ الْهَوَاءِ، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: وَرَبُّكُمْ إِنْ شَكَرْتُمُوهُ فِيمَا رَزَقَكُمْ رَبٌّ غَفُورٌ لِلذُّنُوبِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ قال وهب: أرسل اللهُ إِلَىٰ سَبَأٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَبِيًّا فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ اللهِ وَذَكَّرُوهُمْ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْذَرُوهُمْ عِقَابَهُ فَكَذَّبُوهُمْ، وَقَالُوا: مَا نَعْرِفُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا نِعْمَةً فَقُولُوا لِرَبِّكُمْ فَلْيَحْبِسْ هَذِهِ النِّعَمَ عَنَّا إِنِ اسْتَطَاعَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وَالْعَرِمِ جَمْعُ عُرْمَةٍ وَهِيَ الحاجز الَّذِي يُحْبَسُ بِهِ الْمَاءُ، قال ابن عاشور: لُغَةٌ يَمَنِيَّةٌ وَحَبَشِيَّةٌ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْعَرِمُ السَّيْلُ الَّذِي لَا يطاق وَقِيلَ: الْعَرِمُ الْوَادِي وَأَصْلُهُ مِنَ العرامة وهي الشدة والقوة ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الْخَمْطُ الْأَرَاكُ وَثَمَرُهُ يُقَالُ لَهُ الْبَرِيرُ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ وَالزَّجَّاجُ: كُلُّ نَبْتٍ قَدْ أَخَذَ طَعْمًا مِنَ الْمَرَارَةِ حتىٰ لا يمكن أكله هو خَمْطٌ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْخَمْطُ ثَمَرُ شَجَرَةٍ عَلَىٰ صُورَةِ الْخَشْخَاشِ يَتَفَرَّكُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ، ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فَالْأَثْلُ هُوَ الطَّرْفَاءُ، وَقِيلَ: هُوَ شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفَاءَ إِلَّا أَنَّهُ أعظم منه، والسدر شَجَرُ النَّبْقِ يُنْتَفَعُ بِوَرَقِهِ لِغَسْلِ اليد وَيُغْرَسُ فِي الْبَسَاتِينِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ سِدْرًا بَرِّيًّا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَلَا يَصْلُحُ

وَرَقُهُ لِشَيْءٍ، قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ شَجَرُ الْقَوْمِ مِنْ خَيْرِ الشَّجَرِ فَصَيَّرَهُ اللهُ مِنْ شَرِّ الشَّجَرِ بِأَعْمَالِهِمْ.

[١٧] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلْنَا بِهِمْ جَزَيْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ، ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أَيْ وَهَلْ يُجَازَىٰ مِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ إِلَّا الْكَفُورُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُجَازَىٰ أَيْ يُعَاقَبُ ، وَيُقَالُ فِي الْعُقُوبَةِ: يُجَازَىٰ، وَفِي الْمَثُوبَةِ يُجْزَىٰ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هَلْ يُكَافَأُ بِعَمَلِهِ السيئ إِلَّا الْكَفُورُ لِلَّهِ فِي نِعَمِهِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْمُؤْمِنُ يُجْزَىٰ وَلَا يُجَازَىٰ أَيْ يُجْزَىٰ لِلثَّوَابِ بِعَمَلِهِ وَلَا يُكَافَأُ بِسَيِّئَاتِهِ ، وقال ابن عاشور: والْكَفُورَ: الشَّدِيدُ الْكُفْرِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ اللهَ وَيَعْبُدُونَ الشَّمْسَ فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بِالْمَاءِ وَالشَّجَرِ هِيَ قُرَىٰ الشَّامِ، ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ مُتَوَاصِلَةً تَظْهَرُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْأُولَىٰ لِقُرْبِهَا مِنْهَا، وكانوا يتاجرون مَنَ الْيَمَنِ إِلَىٰ الشَّامِ وَالْمُرَادُ بِالْقُرَىٰ الَّتِي بُورِكَتْ قُرَىٰ بِلَادِ الشَّامِ فَكَانُوا إِذَا خَرَجُوا مِنْ مَأْرِبَ إِلَىٰ الْبِلَاد الشامية قوافل لِلتِّجَارَةِ وَبَيْعِ الطَّعَامِ سَلَكُوا طَرِيقَ تِهَامَةَ ثُمَّ الْحِجَازِ ثُمَّ مَشَارِفِ الشَّامِ ثُمَّ بِلَادِ الشَّامِ، فَكَانُوا كُلَّمَا سَارُوا مَرْحَلَةً وَجَدُوا قَرْيَةً أَوْ بَلَدًا أَوْ دَارًا لِلِاسْتِرَاحَةِ واستراحوا وَتَزَوَّدُوا. فَكَانُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ أَزْوَادًا إِذَا خَرَجُوا مِنْ مَأْرِبَ ، ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أَيْ قَدَّرْنَا سَيْرَهُمْ بَيْنَ هَذِهِ الْقُرَىٰ وَكَانَ مَسِيرُهُمْ فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ عَلَىٰ قَدْرِ نِصْفِ يَوْمٍ، فَإِذَا سَارُوا نِصْفَ يَوْمٍ وَصَلُوا إِلَىٰ قَرْيَةٍ ذَاتِ مِيَاهٍ

وَأَشْجَارٍ ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أَيْ وَقُلْنَا لَهُمْ: سِيرُوا فِيهَا، وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِمَعْنَىٰ الْخَبَرِ أَيْ مَكَّنَّاهُمْ مِنَ السَّيْرِ فَكَانُوا يسيرون فيها ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي بالليالي والأيام أي وقت شئتم، ﴿آمِنِينَ﴾ لَا تَخَافُونَ عَدُوًّا وَلَا جُوعًا وَلَا عَطَشًا، فَبَطِرُوا وَطَغَوْا وَلَمْ يصبروا عَلَىٰ الْعَافِيَةِ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَتْ جَنَّاتُنَا أَبْعَدَ مِمَّا هِيَ كَانَ أجدر أن تشتهيه.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الشَّامِ فَلَوَاتٍ وَمَفَاوِزَ لِنَرْكَبَ فِيهَا الرَّوَاحِلَ وَنَتَزَوَّدَ الْأَزْوَادَ، فَعَجَّلَ اللهُ لَهُمُ الْإِجَابَةَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَطِرُوا النِّعْمَةَ وَسَئِمُوا الراحة ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾بالبطر والطغيان، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِأَمْرِهِمْ وشأنهم، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنَ البلاد كل التفريق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لعبرا ودلالات، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن معاصي الله، ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله تعالىٰ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْمُؤْمِنَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَبُورٌ عَلَىٰ الْبَلَاءِ شَاكِرٌ لِلنَّعْمَاءِ قَالَ مُطَرِّفٌ: هُوَ الْمُؤْمِنُ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: (صَدَّقَ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْ ظَنَّ فِيهِمْ ظَنًّا حَيْثُ قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فَصَدَّقَ ظَنَّهُ وَحَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ بِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ أَيْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ فِي ظَنِّهِ بِهِمْ أَيْ عَلَىٰ أَهْلِ سَبَأٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَّا مَنْ أَطَاعَ اللهَ، ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الْحِجْرِ: ٤٢] يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَقِيلَ: هُوَ خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُطِيعُونَ اللهَ ولا يعصونه.

[٢١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مِنْ حُجَّةٍ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللهِ مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصَا وَلَا أَكْرَهَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِيَّ، دعاهم إليها فأجابوه، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إِلَّا لِنَعْلَمَ أَيْ لِنَرَىٰ وَنُمَيِّزَ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَأَرَادَ عِلْمَ الْوُقُوعِ وَالظُّهُورِ، وَقَدْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُ بِالْغَيْبِ، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب ، أيْ وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنَ اتِّبَاعِ إِبْلِيسَ، وَبِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أتباع الرسل.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ، ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ أَيِ ادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُوا الضُّرَّ الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ فِي سِنِيِّ الْجُوعِ، ثُمَّ وَصَفَهَا فَقَالَ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَنَفْعٍ وَضُرٍّ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي للآلهة، ﴿فِيهِمَا﴾ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾ من شركة، ﴿وَمَا لَهُ﴾ أَيْ وَمَا لِلَّهِ، ﴿مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ عون.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ﴾ أَيْ شَفَاعَةُ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ. ﴿عِنْدَهُ﴾ أَيْ عِنْدَ اللهِ ، ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ اللهُ فِي الشَّفَاعَةِ، قَالَهُ تَكْذِيبًا لَهُمْ حَيْثُ قَالُوا: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ له أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، قال ابن كثير : قال تعالىٰ ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أَيْ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَىٰ فِي شَيْءٍ، إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾؟ وقال جلَّ وعلا: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضىٰ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خشيته مشفقون﴾ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَكْبَرُ شَفِيعٍ عِنْدَ الله تعالىٰ، أَنَّهُ حِينَ يَقُومُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لِيَشْفَعَ فِي الخلق كلهم، قال: «**فأسجد لله تعالىٰ فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، وَيَفْتَحَ عليَّ بِمَحَامِدَ لَا أُحْصِيهَا الْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»(١) .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خُلِّيَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْفَزَعُ ، قال قُطْرُبٌ: أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْخَوْفِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْغِطَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَيْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ مِنْ أَحَدِ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ

---

(١) البخاري (٧٤٤٠) .

اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْنَامِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَأْذَنُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ فِي الشَّفَاعَةِ وَهُمْ عَلَىٰ غَايَةِ الْفَزَعِ مِنَ اللهِ، وقال البغوي : فالتفزيع إزالة الفزع كالتمريض والتفريط وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا يُفَزَّعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ غَشْيَةٍ تُصِيبُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ كلام اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا يَفْزَعُونَ حَذَرًا مِنْ قِيَامِ الساعة، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: الْمَوْصُوفُونَ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ: حَتَّىٰ إِذَا كُشِفَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ نُزُولِ الْمَوْتِ بِهِمْ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ قَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فِي الدُّنْيَا قَالُوا: الْحَقَّ، فَأَقَرُّوا بِهِ حين لا ينفعهم الإقرار، قال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ وَوَرَدَ عَلَيْهِمْ كَلَامُ اللهِ فَزِعُوا، لِمَا يَقْتَرِنُ بِتِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْأَمْرِ الْهَائِلِ وَالْخَوْفِ أَنْ يَقَعَ فِي تَنْفِيذِ مَا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ تَقْصِيرٌ، فَإِذَا سُرِّيَ عَنْهُمْ قَالُوا لِلْمَلَائِكَةِ فَوْقَهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ يُورِدُونَ عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ بِالْإِذْنِ ﴿مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ﴾ أَيْ مَاذَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فيقولون لهم: (قالُوا الْحَقَّ) هو أَنَّهُ أَذِنَ لَكُمْ فِي الشَّفَاعَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فَلَهُ أَنْ يَحْكُمَ فِي عِبَادِهِ بما يريد.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالرزق من السماوات وَمِنَ الْأَرْضِ النَّبَاتُ، ﴿قُلِ اللهُ﴾ أَيْ إِنْ لَمْ يَقُولُوا: رَازِقُنَا اللهُ، فَقُلْ أَنْتَ إِنَّ رَازِقَكُمْ هُوَ اللهُ، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لَيْسَ هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ الشَّكِّ وَلَكِنْ عَلَىٰ جِهَةِ الْإِنْصَافِ فِي الْحُجَاجِ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ

لِلْآخَرِ: أَحَدُنَا كَاذِبٌ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ وَصَاحِبَهُ كَاذِبٌ، وَالْمَعْنَىٰ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ أَمْرٍ وَاحِدٍ بَلْ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ مُهْتَدٍ وَالْآخَرُ ضَالٌّ، فَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنِ اتَّبَعَهُ عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَمَنْ خَالَفَهُ فِي ضَلَالٍ، فَكَذَّبَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَرِّحَ بِالتَّكْذِيبِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْ بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ وَالْأَلِفُ فِيهِ صِلَةٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ يَعْنِي نَحْنُ علىٰ الهدىٰ وأنتم علىٰ الضَّلَالِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا﴾ أي اكتسبنا، ﴿وَلا نُسْئَلُ﴾ نَحْنُ أَيْضًا ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَقْصِدُ بِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الْخَيْرَ لَكُمْ، لَا أَنَّهُ يَنَالُنِي ضَرَرُ كُفْرِكُمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وَاللهُ مُجَازِي الْجَمِيعِ. فَهَذِهِ آيَةُ مُهَادَنَةٍ وَمُتَارَكَةٍ، قال ابن كثير : مَعْنَاهُ التَّبَرِّي مِنْهُمْ أَيْ لَسْتُمْ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ، بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الله تعالىٰ وَإِلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَنَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَآءُ مِنَّا ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِالسَّيْفِ، وَقِيلَ: نَزَلَ هَذَا قَبْلَ آية السيف.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيَحْكُمَ بَيْنَنَا حُكْمًا، يَتَبَيَّنُ بِهِ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلثَّوَابِ، مِنَ الْمُسْتَحِقِّ لِلْعِقَابِ ، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَسَتَعْلَمُونَ

يَوْمَئِذٍ لِمَنِ الْعِزَّةُ وَالنُّصْرَةُ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أَيِ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بحقائق الأمور.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أَيْ عَرِّفُونِي الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَلْ شَارَكَتْ في خلق شي، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها، ﴿كَلَّا﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ" كَلَّا" رَدٌّ لِجَوَابِهِمُ الْمَحْذُوفِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ. قَالُوا: هِيَ الْأَصْنَامُ ، فَقَالَ كَلَّا، أَيْ لَيْسَ لَهُ شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب علىٰ أمره، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِهِ لِخَلْقِهِ فَأَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ يعني للناس أحمرهم وأسودهم، ﴿بَشِيراً﴾ أَيْ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ، ﴿وَنَذِيراً﴾ مِنَ النَّارِ لِمَنْ كَفَرَ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا جَامِعًا لِلنَّاسِ بِالْإِنْذَارِ وَالْإِبْلَاغِ ، وَالْكَافَّةُ بِمَعْنَىٰ الْجَامِعِ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَافًّا لِلنَّاسِ، تَكُفُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ. وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالىٰ فَضَّلَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَهْلِ السَّمَاءِ وَعَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، قَالُوا: يَا ابْنَ عباس فيم فضله علىٰ الأنبياء؟ قال رضي الله عنه إن الله تعالىٰ قَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فأرسله الله تعالىٰ إلىٰ الجن والإنس، وهذا كما ثبت في الصحيحين، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خاصة وبعثت إلىٰ الناس عامة**»(١).

[٢٩] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتىٰ هذَا الْوَعْدُ﴾ يَعْنِي مَوْعِدَكُمْ لَنَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٣٠] : ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ تَأْخِيرُهُ ، وَالْمِيعَادُ الْمِيقَاتُ ، وَيَعْنِي بِهَذَا الْمِيعَادِ وَقْتَ الْبَعْثِ وَقِيلَ وَقْتَ حُضُورِ الْمَوْتِ، أَيْ لَكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ تَمُوتُونَ فِيهِ فَتَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ قَوْلِي ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهَذَا الْيَوْمِ يَوْمَ بَدْرٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ كَانَ مِيعَادَ عَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا فِي حُكْمِ اللهِ تَعالَىٰ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَوْمُ الْمَوْتِ لَا تَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ وَلَا تَتَقَدَّمُونَ بِأَنْ يُزَادَ فِي أَجَلِكُمْ أَوْ يُنْقَصَ مِنْهُ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يُرِيدُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعْنِي التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، قال قَتَادَةَ: ﴿ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، قوله: ﴿وَلَوْ تَرىٰ﴾ يَا

---

(١) البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

مُحَمَّدُ، ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ مَحْبُوسُونَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ تَرَاجَعُونَ الْكَلَامَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِاللَّوْمِ وَالْعِتَابِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَخِلَّاءَ مُتَنَاصِرِينَ ، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ اسْتُحْقِرُوا وَهُمُ الْأَتْبَاعُ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وَهُمُ الْقَادَةُ وَالْأَشْرَافُ، ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ أَنْتُمْ مَنَعْتُمُونَا عَنِ الْإِيمَانِ بالله ورسوله.

[٣٢] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ ، جاءت هذه الآية بعد قوله تعالىٰ : ﴿ ولو ترىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾: فردوا عليهم : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أَجَابَهُمُ الْمَتْبُوعُونَ فِي الْكُفْرِ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ هُوَ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ، أَيْ مَا رَدَدْنَاكُمْ نحن عن الهدىٰ، وَلَا أَكْرَهْنَاكُمْ. ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أَيْ مُشْرِكِينَ مُصِرِّينَ عَلَىٰ الْكُفْرِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ مَكْرُكُمْ بِنَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْعَرَبُ تُضِيفُ الْفِعْلَ إِلَىٰ الليل والنهار علىٰ توسع في الكلام ، وقيل: مكر الليل والنهار وهو طُولُ السَّلَامَةِ وَطُولُ الْأَمَلِ فِيهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الْحَدِيدِ: ١٦]، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَقُولُ: بَلْ مَكْرُكُمْ بِنَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَيُّهَا الْعُظَمَاءُ الرُّؤَسَاءُ حَتَّىٰ أَزَلْتُمُونَا عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، أَيْ: حَتَّىٰ جَعَلْنَاكُمْ لَهُ أَشْبَاهًا

وَأَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: بَلْ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بنا ليلاً ونهاراً، وتغرّونا وَتُخْبِرُونَا أَنَّا عَلَىٰ هُدًىٰ وَأَنَّا عَلَىٰ شَيْءٍ، فإذا اجتمع ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ وَمَيْنٌ، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا﴾ وأظهروا ﴿النَّدَامَةَ﴾ وَقِيلَ: أَخْفَوْا، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ، قال القرطبي : وقيل: (وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ) أَيْ تَبَيَّنَتِ النَّدَامَةُ فِي أَسْرَارِ وُجُوهِهِمْ ، قِيلَ: النَّدَامَةُ لَا تَظْهَرُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا، وَقِيلَ: أَسَرُّوا النَّدَامَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَجْهَرُوا القول بها، كما قال:﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النار والأتباع وَالْمَتْبُوعِينَ جَمِيعًا، الْأَغْلَالُ جَمْعُ غُلٍّ، يُقَالُ: فِي رَقَبَتِهِ غُلٌّ مِنْ حَدِيدٍ، وَغَلَلْتُ يَدَهُ إِلَىٰ عنقه، وقد غل فهو مغلول، وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيهِمْ مَعَ أَعْنَاقِهِمْ، قال الحسن البصري : مَا فِي جَهَنَّم دَار وَلَا مغار وَلَا غل وَلَا قيد وَلَا سلسلة إِلَّا اسْم صَاحبهَا عَلَيْهَا مَكْتُوب ، وَقال ابن عاشور : وَجَعْلُ الْأَغْلَالِ فِي الْأَعْنَاقِ شِعَارٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَىٰ مَا يُحَاوِلُونَ الْفِرَارَ وَالِانْفِلَاتَ مِنْهُ ، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا. أَيْ إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، كلٌّ بِحَسْبِهِ لِلْقَادَةِ عَذَابٌ بِحَسْبِهِمْ، وَلِلْأَتْبَاعِ بِحَسْبِهِمْ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ رُؤَسَاؤُهَا وَأَغْنِيَاؤُهَا، وَالْمُتْرَفُونَ: الَّذِينَ أُعْطُوا التَّرَفَ، وَالتَّرَفُ: النَّعِيمُ وَسَعَةُ

الْعَيْشِ، قال قتادة : قَالَ: هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وَقَادَتهمْ فِي الشَّرّ ، قالوا لِلرُّسُلِ ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي قَالَ الْمُتْرَفُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا، ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أَيِ افْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَاعْتَقَدُوا أن ذلك دليل علىٰ محبة الله تعالىٰ لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وقالوا : وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللهُ رَاضِيًا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَمَلِ لَمْ يُخَوِّلْنَا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَيْ إِنَّ اللهَ أَحْسَنَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ فَلَا يُعَذِّبُنَا، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ وَمَا احْتَجُّوا بِهِ مِنَ الْغِنَىٰ فَقَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[٣٦] : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أي يوسعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيَقْدِرُ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لَا يَدُلُّ الْبَسْطُ عَلَىٰ رِضَا اللهِ عَنْهُ وَلَا التَّضْيِيقُ عَلَىٰ سَخَطِهِ، قال القرطبي : أَيْ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُفَاضِلُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي الْأَرْزَاقِ امْتِحَانًا لهم، فلا يدل شي مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا فِي الْعَوَاقِبِ، فَسَعَةُ الرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا لَا تَدُلُّ عَلَىٰ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ فَلَا تَظُنُّوا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ تُغْنِي عَنْكُمْ غَدًا شَيْئًا ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهَا كَذَلِكَ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ أَيْ قُرْبَىٰ، وَالزُّلْفَةُ الْقُرْبَةُ ، قَالَ الْأَخْفَشُ: كَأَنَّهُ قَالَ: بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تَقْرِيبًا، ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ يعني من آمن ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُرِيدُ إِيمَانَهُ

وَعَمَلَهُ يُقَرِّبُهُ مِنِّي، وقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْمَعْنَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَنْ يَضُرَّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيْ يُضَعِّفُ اللهُ لَهُمْ حَسَنَاتِهِمْ فيجزي بالحسنة الواحدة إلىٰ سبعمائة ، قال القرطبي : أيْ لَهُمُ الْجَزَاءُ الْمُضَعَّفُ، لِلْوَاحِدِ عَشَرَةٌ إِلَىٰ مَا يُرِيدُ اللهُ مِنَ الزِّيَادَةِ ، وَبِهَذِهِ الْآيَةِ اسْتَدَلَّ مَنْ فَضَّلَ الْغِنَىٰ عَلَىٰ الْفَقْرِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ غَنِيًّا تَقِيًّا أَتَاهُ اللهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أَيْ فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ، والْغُرْفَةَ: الْبَيْتُ الْمُعْتَلِي يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِدَرَجٍ وَهُوَ أَعَزُّ مَنْزِلًا مِنَ الْبَيْتِ الْأَرْضِيِّ ﴿آمِنُونَ﴾ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَخَوْفٍ وأذىٰ، ومن كل شر يحذر منه، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: فِي الْمَنَازِلِ الْعَالِيَاتِ الْمُرْتَفِعَاتِ جِدًّا، سَاكِنِينَ فِيهَا مُطْمَئِنِّينَ، آمِنُونَ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ وَالْمُنَغِّصَاتِ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ اللَّذَّاتِ، وَأَنْوَاعِ الْمُشْتَهَيَاتِ، وَآمِنُونَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا وَالْحُزْنِ فِيهَا، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ؟ قال صلىٰ الله عليه وسلم: «**لِمَنْ طيَّب الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وصلىٰ بالليل والناس نيام**»[1] .

---

(١) أحمد (٦٦١٤) والترمذي (١٩٨٤) .

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ يعملون، وَالسَّعْيُ مُسْتَعَارٌ لِلِاجْتِهَادِ فِي الْعَمَل كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعىٰ ، فَمَعْنَىٰ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا يَجْتَهِدُونَ فِي إِبْطَالِهَا، ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ في إبطال حجتنا، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مُعَانِدِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَنَا وَيَفُوتُونَنَا، ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أَيْ في جهنم تحضرهم الزبانية فيها.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ كَرَّرَ تَأْكِيدًا ، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يُعْطِي خُلْفَهُ ، أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُغْتَرِّينَ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ إِنَّ اللهَ يُوَسِّعُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بَلْ أَنْفِقُوهَا فِي طَاعَةِ اللهِ، فَإِنَّ مَا أَنْفَقْتُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَفِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَا كَانَ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ صَدَقَةٍ وَأَنْفَقْتُمْ فِي الْخَيْرِ مِنْ نَفَقَةٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَىٰ الْمُنْفِقِ، إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهُ لَهُ فِي الآخرة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ خَيْرُ مَنْ يُعْطِي وَيَرْزُقُ ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم: « **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** »(١) ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ**

(١) البخاري (٤٦٨٤) .

يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ ممسكًا تلفًا»[1] ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَرْزُقُ مِنْ خَزَائِنَ لَا تَفْنَىٰ وَلَا تَتَنَاهَىٰ ، وَمَنْ أَخْرَجَ مِنْ عَدَمٍ إِلَىٰ الْوُجُودِ فَهُوَ الرَّازِقُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: النَّفَقَةُ تَعُمُّ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ، لَكِنَّ الْمُمْسِكَ عَنِ الْمَنْدُوبَاتِ لَا يَسْتَحِقُّ دُعَاءَ الْمَلَكِ : «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا» إِلَّا أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهِ الْبُخْلُ الْمَذْمُومُ بِحَيْثُ لَا تَطِيبُ نَفْسُهُ بِإِخْرَاجِ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ لَوْ أَخْرَجَهُ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ : الْإِنْفَاقُ الْمَمْدُوحُ مَا كَانَ فِي الطَّاعَاتِ، عَلَىٰ الْعِيَالِ، وَالضِّيفَانِ، وَالتَّطَوُّعَاتِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ هَذَا مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ:﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ أَيْ لَوْ تَرَاهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيعًا. وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ هُوَ وَأُمَّتُهُ.﴿جَمِيعًا﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ، الْعَابِدِينَ وَالْمَعْبُودِينَ، أَيْ نَجْمَعُهُمْ لِلْحِسَابِ ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِعِيسَىٰ: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فَتَتَبَرَّأُ مِنْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، قَالَ النَّحَّاسُ: فَالْمَعْنَىٰ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إِذَا كَذَّبَتْهُمْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَبْكِيتٌ لَهُمْ، فَهُوَ اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ لِلْعَابِدِينَ.

---

(١) البخاري (١٤٤٢) .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ،أن يكون لك شريك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أَيْ أَنْتَ رَبُّنَا الَّذِي نَتَوَلَّاهُ وَنُطِيعُهُ وَنَعْبُدُهُ وَنُخْلِصُ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يَعْنِي الشَّيَاطِينَ، فَإِنْ قِيلَ لَهُمْ: كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ فَكَيْفَ وَجْهُ قوله: ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ قِيلَ: أَرَادَ الشَّيَاطِينَ زَيَّنُوا لَهُمْ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ، فَهُمْ كَانُوا يُطِيعُونَ الشَّيَاطِينَ فِي عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَقَوْلُهُ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ أَيْ يُطِيعُونَ الْجِنَّ ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي مُصَدِّقُونَ لِلشَّيَاطِينِ، فِي بعض الأخبار: أَنَّ حَيًّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو مُلَيْحٍ مِنْ خُزَاعَةَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْجِنَّ تَتَرَاءَىٰ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ:

[٤٢] : ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا﴾ بالشفاعة، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بِالْعَذَابِ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ لَا نَفْعَ عِنْدَهُمْ وَلَا ضُرَّ، وَقِيلَ: أَيْ لَا تَمْلِكُ الْمَلَائِكَةُ دَفْعَ ضَرٍّ عَنْ عَابِدِيهِمْ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْبُدُونَكُمْ نَفْعًا يَنْفَعُونَكُمْ بِهِ وَلَا ضَرًّا يَنَالُونَكُمْ بِهِ أَوْ تَنَالُونَهُمْ بِهِ، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَالْيَوْمَ عَايَنْتُمُوهَا وَدَخَلْتُمُوهَا جَزَاءً لِتَكْذِيبِكُمْ وَعُقُوبَةً لِمَا أَحْدَثَهُ ذَلِكَ التَّكْذِيبُ مِنْ عَدَمِ الْهَرَبِ مِنْ أَسْبَابِهَا.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ووصفها بالبيّنات لِأَجْلِ ظُهُورِ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لإعجازها إيَّاهُم عَن مُعَارَضَتِهَا، وَلِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَعَانِيهَا مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ عَلَىٰ صدق مَا تَدْعُو إِلَيْهِ، فَهِيَ محفوفة بِالْبَيَانِ بِأَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا، ﴿قالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ أَيْ أَسْلَافُكُمْ من الْآلِهَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَالصَّدُّ: الْمَنْعُ، أَيْ يعنون يريد الرسول أن يمنعكم ﴿وَقالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ يَعْنُونَ الْقُرْآنَ، أَيْ مَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ، ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ، فَتَارَةً قَالُوا سِحْرٌ، وَتَارَةً قَالُوا إِفْكٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ سِحْرٌ ومنهم من قال إفك.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يَقْرَؤُونَهَا، وَالدِّرَاسَةُ: الْقِرَاءَةُ بِتَمَهُّلٍ وَتَفَهُّمٍ،أَيْ لَمْ يَقْرَءُوا فِي كِتَابٍ أُوتُوهُ بُطْلَانَ مَا جِئْتَ بِهِ، وَلَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَيْهِمْ، لَيْسَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَجْهٌ يُتَشَبَّثُ بِهِ وَلَا شُبْهَةٌ مُتَعَلِّقٍ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانُوا مُبْطِلِينَ: نَحْنُ أَهْلُ كِتَابٍ وَشَرَائِعَ وَمُسْتَنِدُونَ إِلَىٰ رُسُلٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَيْ لَمْ يَأْتِ الْعَرَبَ قَبْلَكَ نَبِيٌّ وَلَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ. ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ الْحَقِّ .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ رُسُلَنَا وَهُمْ عَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وغيرهم، كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ بَطْشًا وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَأَوْسَعَ عَيْشًا، فَأَهْلَكْتُهُمْ ، وفي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْدِيدٌ لِلَّذِينِ كَذَّبُوهُ، ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ يعني هؤلاء المشركين، ﴿مِعْشَارَ﴾ أي عشر، وَالْمِعْشَارُ وَالْعُشْرُ سَوَاءٌ، لُغَتَانِ ، وَقِيلَ: الْمِعْشَارُ عُشْرُ الْعُشْرِ. وَقِيلَ: مَا أَعْطَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ قَبْلَهُمْ مِعْشَارَ مَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَيْسَ أُمَّةٌ أَعْلَمَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَلَا كِتَابٌ أَبْيَنَ مِنْ كِتَابِهِ، وَقِيلَ: الْمِعْشَارُ هُوَ عُشْرُ الْعَشِيرِ، وَالْعَشِيرُ هُوَ عُشْرُ الْعُشْرِ فَيَكُونُ جُزْءًا مِنْ أَلْفِ جُزْءٍ. قال الْمَاوَرْدِيُّ: وَهُوَ الْأَظْهَرُ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّقْلِيلِ، ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أَيْ أَعْطَيْنَا الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنِّعْمَةِ وَطُولِ الْعُمُرِ، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيْ إِنْكَارِي وَتَغْيِيرِي عَلَيْهِمْ، يُحَذِّرُ كُفَّارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، والنكير: اسْمٌ لِلْإِنْكَارِ وَهُوَ عَدُّ الشَّيْءِ مُنْكَرًا، أَيْ مَكْرُوهًا.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة، وَالْوَعْظُ: كَلَامٌ فِيهِ تَحْذِيرٌ مِنْ مَكْرُوهٍ وَتَرْغِيبٌ فِي ضِدِّهِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: بِطَاعَةِ اللهِ ، وَقِيلَ: بِالْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ كُلَّ الْمَوَاعِظِ، وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ بِخَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ، ثم بَيْنَ تِلْكَ الْخَصْلَةَ فَقَالَ: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أي لأجل الله، ﴿مَثْنَىٰ﴾ أي اثنين اثنين، ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ أَيْ وَاحِدًا

وَاحِدًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ جَمِيعًا أَيْ تَجْتَمِعُونَ فَتَنْظُرُونَ وَتَتَحَاوَرُونَ وَتَنْفَرِدُونَ، فَتُفَكِّرُونَ فِي حَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَعْلَمُوا، قال القرطبي : وَهَذَا الْقِيَامُ مَعْنَاهُ الْقِيَامُ إِلَىٰ طَلَبِ الْحَقِّ لَا الْقِيَامُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْقُعُودِ، وَهُوَ كَمَا يُقَالُ: قَامَ فُلَانٌ بِأَمْرِ كَذَا، أَيْ لِوَجْهِ اللهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧]، ﴿مَثْنىٰ وَفُرادىٰ ﴾ أَيْ وُحْدَانًا وَمُجْتَمِعِينَ ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿ مَثْنىٰ وَفُرادىٰ ﴾ لِأَنَّ الذِّهْنَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ وَهُوَ الْعَقْلُ، فَأَوْفَرُهُمْ عَقْلًا أَوْفَرُهُمْ حَظًّا مِنَ اللهِ، فَإِذَا كَانُوا فُرَادَىٰ كَانَتْ فِكْرَةً وَاحِدَةً، وَإِذَا كَانُوا مَثْنَىٰ تَقَابَلَ الذِّهْنَانِ فَتَرَاءَىٰ مِنَ الْعِلْمِ لَهُمَا مَا أُضْعِفَ عَلَىٰ الِانْفِرَادِ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، ﴿مَا بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي جُنُونٍ، والجنة : اسْمٌ لِلْجُنُونِ، وَهُوَ الْخَبَالُ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ أَثَرِ مَسِّ الْجِنِّ إِيَّاهُ فِي عُرْفِ النَّاسِ ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ النَّذِيرُ الْمُحَذِّرُ مِنْ شَيْءٍ يَضُرُّ، وَأَصْلُهُ الَّذِي يُخْبِرُ الْقَوْمَ بِقُدُومِ عَدُوِّهِمْ، قَالَ مُقَاتِلٌ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أَيْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَعْلَمُوا أَنَّ خَالِقَهَا وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ﴾ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ جُعْلَ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يَقُولُ: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ تبليغ الرسالة أجراً فتفهموني، ومعنىٰ قوله: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَيْ لَمْ أَسْأَلْكُمْ شَيْئًا كَقَوْلِ الْقَائِلِ: مَا لِي مِنْ هَذَا فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ يُرِيدُ لَيْسَ لِي فِيهِ شَيْءٌ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مَا ثَوَابِي، ﴿إِلَّا عَلَىٰ اللهِ ﴾ قال

الطبري : ما ثوابي علىٰ دعائكم إلىٰ الإيمان بالله والعمل بطاعته وتبليغكم رسالته إلا علىٰ الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أيْ رَقِيبٌ وَعَالِمٌ وَحَاضِرٌ لِأَعْمَالِي وَأَعْمَالِكُمْ، لَا يَخْفَىٰ عليه شي فهو يجازي الجميع.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ وَالْقَذْفُ الرَّمْيُ بِالسَّهْمِ وَالْحَصَىٰ، وَالْكَلَامِ، ومعناه أتىٰ بِالْحَقِّ وَبِالْوَحْيِ يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فَيَقْذِفُهُ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ قَتَادَةُ: بِالْحَقِّ بِالْوَحْيِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أي يقذف الباطل بالحق، ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: الَّذِي يَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الْقُلُوبُ، مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالشُّبَهِ، وَيَعْلَمُ مَا يُقَابِلُ ذَلِكَ، وَيَدْفَعُهُ مِنَ الْحُجَجِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أَيْ ذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ فَلَمْ يبق منه بقية يبدىء شَيْئًا أَوْ يُعِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : الْبَاطِلُ هُوَ إِبْلِيسُ، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ وَالْكَلْبِيِّ، وَقِيلَ: الْبَاطِلُ الْأَصْنَامُ ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنَّهُ مَا دَامَ مَوْجُودًا إِمَّا أَنْ يُبْدِئَ فِعْلًا أَوْ يُعِيدَهُ، فَإِذَا هَلَكَ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِبْدَاءٌ وَلَا إِعَادَةٌ، وَقِيلَ: (مَا) اسْتِفْهَامِيَّةٌ، أَيْ جَاءَ الْحَقُّ فَأَيُّ شَيْءٍ بَقِيَ لِلْبَاطِلِ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الْحَاقَّة: ٨]، أَيْ لَا تَرَىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ، جَعَلَ يَطْعَنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٨١] ، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، وَقِيلَ وَجْهُ النَّظْمِ: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَيُبَيِّنُ الْحُجَّةَ، وَضَلَالُ مَنْ ضَلَّ لَا يُبْطِلُ الْحُجَّةَ، وَلَوْ ضَلَلْتُ لَأَضْرَرْتُ بِنَفْسِي، لَا أَنَّهُ يُبْطِلُ حُجَّةَ اللهِ، وَإِذَا اهْتَدَيْتُ فَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ إِذْ ثَبَّتَنِي عَلَىٰ الْحُجَّةِ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلَمَّا تَبَيَّنَ الْحَقُّ بِمَا دَعَا إِلَيْهِ الرَّسُولُ، وَكَانَ الْمُكَذِّبُونَ لَهُ يَرْمُونَهُ بِالضَّلَالِ، أَخْبَرَهُمْ بِالْحَقِّ، وَوَضَّحَهُ لَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ عَجْزَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَمْيَهُمْ لَهُ بِالضَّلَالِ لَيْسَ بِضَائِرِ الْحَقِّ شَيْئًا، وَلَا دَافِعٍ مَا جَاءَ بِهِ، وَأَنَّهُ إِنْ ضَلَّ - وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ، لَكِنْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّنَزُّلِ فِي الْمُجَادَلَةِ ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أَيْ: ضَلَالُهُ قَاصِرٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، غَيْرُ مُتَعَدٍّ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وذلك أن كفار مكة يَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ ضَلَلْتَ حين تركت دين آبائك، وقال اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أَيْ إِثْمُ ضَلَالَتِي عَلَىٰ نَفْسِي، وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ ضِدُّ الرَّشَادِ ،﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أَيْ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿قَرِيبٌ﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وعنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُنَيْنًا أَوْ قَالَ: « لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَىٰ وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا**

تَدْعُونَ أَصَمًّا، وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ»[(١)] ، قال القرطبي: وَقِيلَ وَجْهُ النَّظْمِ: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَيُبَيِّنُ الْحُجَّةَ، وَضَلَالُ مَنْ ضَلَّ لَا يُبْطِلُ الْحُجَّةَ، وَلَوْ ضَلَلْتُ لَأَضْرَرْتُ بِنَفْسِي، لَا أَنَّهُ يُبْطِلُ حُجَّةَ اللهِ، وَإِذَا اهْتَدَيْتُ فَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ إِذْ ثبتني علىٰ الحجة إنه سميع قريب.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: عِنْدَ الْبَعْثِ حِينَ يُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَالْمَعْنَىٰ: لَوْ تَرَىٰ إِذَا فَزِعُوا فِي الدُّنْيَا عِنْدَ نُزُولِ الْمَوْتِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ بَأْسِ اللهِ تَعَالَىٰ بِهِمْ، وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيَةً لَهُ أَوْ لِكُلِّ مُخَاطَبٍ. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أَيْ فَلَا يَفُوتُونَنِي كَمَا قَالَ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَا نَجَاةَ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَا هَرَبَ ، وَقِيلَ: إذا فزعوا، فَوْتَ وَلَا نَجَاةَ، ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وَقِيلَ: أُخِذُوا مِنْ بَطْنِ الْأَرْضِ إِلَىٰ ظَهْرِهَا، وَحَيْثُمَا كَانُوا فَهُمْ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ، لَا يَفُوتُونَهُ ، وَقِيلَ: مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَعْنِي عَذَابَ الدُّنْيَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَوْمَ بدر، قال البغوي : وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ: وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا لَرَأَيْتَ أَمْرًا تَعْتَبِرُ بِهِ، قال القرطبي : وَمَنْ قَالَ: أَرَادَ الْخَسْفَ أَوِ الْقَتْلَ فِي الدُّنْيَا كَيَوْمِ بَدْرٍ قَالَ: أُخِذُوا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذُوا فِي الْآخِرَةِ. وَمَنْ قَالَ: هُوَ فَزَعُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

---

(١) البخاري (٢٩٩٢) .

قَالَ: أُخِذُوا مِنْ بَطْنِ الْأَرْضِ إِلَىٰ ظَهْرِهَا. وَقِيلَ: ﴿أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ من جهنم فألقوا فيها.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ، قالوا أمنا : أَيِ الْقُرْآنِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقال الْحَسَنُ البصري : بِالْبَعْثِ، قَتَادَةُ: بِالرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَأَنَّىٰ﴾ من أين، ﴿لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ قال ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّنَاوُشُ الرَّجْعَةُ، أَيْ يَطْلُبُونَ الرَّجْعَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا، وقيل : التَّنَاوُلُ لِذَلِكَ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: التَّنَاوُشُ تَنَاوُلُهُمُ الْإِيمَانَ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُمُ الدُّنْيَا، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمَا إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يُنَالُ، تَعَاطَوُا الْإِيمَانَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَسْأَلُونَ الرَّدَّ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَيُقَالُ: وَأَنَّىٰ لَهُمُ الرَّدُّ إِلَىٰ الدُّنْيَا،وقال قتادة: كان القوم يشتهون طاعة الله أن يكونوا عملوا بها في الدنيا حين عاينوا ما عاينوا ، ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَىٰ الدُّنْيَا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ بِالْقُرْآنِ، وَقِيلَ: بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُعَايِنُوا الْعَذَابَ وَأَهْوَالَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، يَرْمُونَ مُحَمَّدًا بِالظَّنِّ لَا بِالْيَقِينِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ، وَمَعْنَىٰ الْغَيْبِ: هُوَ الظَّنُّ لِأَنَّهُ غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ، وَالْمَكَانُ الْبَعِيدُ بُعْدُهُمْ عَنْ عِلْمِ مَا يَقُولُونَ، وَالْمَعْنَىٰ يَرْمُونَ مُحَمَّدًا بِمَا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ يَقُولُونَ لَا بَعْثَ وَلَا

جَنَّةَ وَلَا نَارَ ، والْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِ مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا لَا يَحُقُّهُ: هُوَ يَقْذِفُ وَيَرْجُمُ بِالْغَيْبِ ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ عَلَىٰ جِهَةِ التَّمْثِيلِ لِمَنْ يَرْجُمُ وَلَا يُصِيبُ، أَيْ يَرْمُونَ بِالظَّنِّ فَيَقُولُونَ: لَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ، رَجْمًا منهم بالظن.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أَيِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَىٰ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ: نَعِيمُ الدُّنْيَا وَزَهْرَتُها، قَالَ السَّعْدِيُّ: مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ، وَالْأَوْلَادِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْخَدَمِ، وَالْجُنُودِ، قَدِ انْفَرَدُوا بِأَعْمَالِهِمْ، وَجَاءُوا فُرَادَىٰ، كَمَا خُلِقُوا، وَتَرَكُوا مَا خُوِّلُوا، وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ يعني بِنُظَرَائِهِمْ من الأمم السابقين، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ حَالِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، والْأَشْيَاعُ جَمْعُ شَيْعٍ، وَشِيَعٌ جَمْعُ شِيعَةٍ، ﴿مِنْ قَبْل﴾ أَيْ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ وَالتَّوْبَةُ فِي وَقْتِ الْيَأْسِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ أَيْ مِنْ أَمْرِ الرسل والبعث والجنة والنار، وقيل: فِي الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ ، ﴿مُرِيبٍ﴾ أَيْ يُسْتَرَابُ بِهِ، يُقَالُ: أَرَابَ الرَّجُلُ أَيْ صَارَ ذَا رِيبَةٍ، فَهُوَ مُرِيبٌ. وَمَنْ قَالَ هُوَ مِنَ الرَّيْبِ الَّذِي هُوَ الشَّكُّ وَالتُّهْمَةُ قَالَ: يُقَالُ شَكٌّ مُرِيبٌ، عَنْ عُقَيْلِ بْنِ شَهْرٍ الرَّيَاحِيِّ قَالَ: شَرِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ مَاءً بَارِدًا فَبَكَىٰ فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ إِلَّا الْمَاءَ الْبَارِدَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف : ٥٠].

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ فَاطِرٍ

سُمِّيَتْ «سُورَةَ فَاطِرٍ» فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَاحِفِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَفِي كَثِيرٍ مِنَ التَّفَاسِيرِ، وَسُمِّيَتْ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَفِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَالتَّفَاسِيرِ «سُورَةَ الْمَلَائِكَةِ» لَا غَيْرَ، وَقَدْ ذَكَرَ لَهَا كِلَا الِاسْمَيْنِ السيوطي في «الْإِتْقَانِ»، وسبب سْمِيَتِهَا «سُورَةَ فَاطِرٍ» أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ وَقَعَ فِي طَالِعَةِ السُّورَةِ وَلَمْ يَقَعْ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ أُخْرَىٰ، وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا «سُورَةَ الْمَلَائِكَةِ» أَنَّهُ ذُكِرَ فِي أَوَّلِهَا صِفَةُ الْمَلَائِكَةِ وَلَمْ يَقَعْ فِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما وَمُبْدِعِهَا عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: كنت لَا أَدْرِي مَا فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض حَتَّىٰ أَتَانِي اعرابيان يختصمان فِي بِئْر، فَقَالَ أَحدهمَا: أَنا فطرتها يَقُول: أَنا ابْتَدَأتهَا ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ ذَوِي أَجْنِحَةٍ ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: بَعْضُهُمْ لَهُ جَنَاحَانِ وَبَعْضُهُمْ لَهُ ثَلَاثَةُ أَجْنِحَةٍ وَبَعْضُهُمْ لَهُ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ، وَيَزِيدُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَهُوَ قَوْلُهُ، ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حُسْنُ الصَّوْتِ، وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: هُوَ الْمَلَاحَةُ

فِي الْعَيْنَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنَ النُّقْصَانِ وَالزِّيَادَةِ، فَقُدْرَتُهُ تَعَالَىٰ تَأْتِي عَلَىٰ مَا يَشَاؤُهُ، وَلَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَمِنْ ذَلِكَ، زِيَادَةُ مَخْلُوقَاتِهِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: وَالْآيَةُ مُطْلَقَةٌ تَتَنَاوَلُ كُلَّ زِيَادَةٍ فِي الْخَلْقِ، مِنْ طُولِ قَامَةٍ، وَاعْتِدَالِ صُورَةٍ، وَتَمَامٍ فِي الْأَعْضَاءِ، وَقُوَّةٍ فِي الْبَطْشِ، وَحَصَافَةٍ فِي الْعَقْلِ، وَجَزَالَةٍ فِي الرَّأْيِ، وَجُرْأَةٍ فِي الْقَلْبِ، وَسَمَاحَةٍ فِي النَّفْسِ، وَذَلَاقَةٍ فِي اللِّسَانِ، وَلَبَاقَةٍ فِي التَّكَلُّمِ، وَحُسْنِ تَأَتٍّ «٥» فِي مُزَاوَلَةِ الْأُمُورِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحِيطُ به وصف.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ قِيلَ: مِنْ مَطَرٍ وَرِزْقٍ، ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ لا يستطيع أحد حَبْسِهَا، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فيما أمسك ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أرسل من مطر ورزق، وعن أبي هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ وَقَدْ مُطِرَ النَّاسُ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ الْفَتْحِ، ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها﴾، قوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَىٰ ولا معطي لما منع، رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، كان يقول إذا انصرف من الصَّلَاةِ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ**

ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الجد»[1] ، وفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: **«سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمْدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مَلْءَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»**[2].

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الْخِطَابُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ: أَنِ اذْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ فَهَلْ مِنْ خَالِقٍ سِوَاهُ يَبْسُطُ وَيُغْلِقُ، فَإِنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَىٰ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّقْرِيرِ كَأَنَّهُ قَالَ لَا خَالِقَ غَيْرُ اللهِ، قَالَ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ البصري : مَنْ خَلَقَ الشَّرَّ؟ فَقَالَ سُبْحَانَ اللهِ! هل من خالق غير الله عز وجل، خَلَقَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مِنَ السَّمَاءِ الْمَطَرَ وَمِنَ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ الرَّجُلُ: إِنَّهُ لَيُؤْفَكُ عَنِّي كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ مِنَ الْأَفْكِ وَهُوَ الصَّرْفُ، وَقِيلَ مِنَ الْإِفْكِ: وَهُوَ الْكَذِبُ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ مِنْ أَيْنَ يَقَعُ لَكُمُ التَّكْذِيبُ بِتَوْحِيدِ اللهِ،

---

(١) البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣) .

(٢) مسلم (٤٧٧) .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَأَيَّ وَجْهٍ عَنْ خَالِقِكُمْ وَرَازِقِكُمُ الَّذِي بِيَدِهِ نَفْعُكُمْ وَضَرُّكُمْ تُصْرَفُونَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإن يكذبوك يَا مُحَمَّدُ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ - وَيُخَالِفُوكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَلَكَ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ أُسْوَةٌ، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ جَاءُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَمَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، ﴿وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَيْ وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ أوفر الجزاء.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ يعني وعد الْقِيَامَةِ، هَذَا وَعْظٌ لِلْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسُولِ بَعْدَ إِيضَاحِ الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِحَّةِ قَوْلِهِ: إِنَّ الْبَعْثَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ حق، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، قال القرطبي : وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ ﴿ الْغَرُورُ﴾ (بِفَتْحِ الْغَيْنِ) وَهُوَ الشَّيْطَانُ، أَيْ لَا يَغُرَّنَّكُم بِوَسَاوِسِهِ فِي أَنَّهُ يَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ لِفَضْلِكُمْ، وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: وَالْغُرُورُ (بِالضَّمِّ) مَا اغْتُرَّ بِهِ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غُرُورُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ يَشْتَغِلَ الْإِنْسَانُ بِنَعِيمِهَا وَلَذَّاتِهَا عَنْ عَمَلِ الآخرة، حتىٰ يقول: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أَيْ عَادُوهُ بِطَاعَةِ اللهِ وَلَا تطيعوه، وَكَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ: يَا كَذَّابُ يَا مُفْتَرٍ، اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسُبَّ الشَّيْطَانَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَأَنْتَ صَدِيقُهُ فِي السِّرِّ ، وَقَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: يَا عَجَبًا

لِمَنْ عَصَىٰ الْمُحْسِنَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِإِحْسَانِهِ! وَأَطَاعَ اللَّعِينَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِعَدَاوَتِهِ! ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ أَيْ أَشْيَاعَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيْ لِيَكُونُوا فِي السَّعِيرِ، والسَّعِيرِ: النَّارُ الشَّدِيدَةُ، وَغَلَبَ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ علىٰ جنهم. فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ المبين، ثُمَّ بين حال مرافقيه وَمُخَالِفِيهِ فَقَالَ:

[٧] : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوُا الرَّحْمَنَ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أَيْ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عَلَىٰ مَا عَمِلُوهُ من خير ، قَالَ ابن جريج : كل شَيْء فِي الْقُرْآن ﴿لَهُم مغْفِرَة وَأجر كَبِير﴾ ورزق كريم فَهُوَ الْجنَّة.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَمُشْرِكِي مَكَّةَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مِنْهُمْ الْخَوَارِجُ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَمَّا أَهْلُ الْكَبَائِرِ فَلَيْسُوا مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ الكبائر، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ﴾ شُبِّهَ وَمُوِّهَ (عَلَيْهِ) وَحُسِّنَ ﴿لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أَيْ قَبِيحُ عَمَلِهِ، ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ بِالْوَسْوَاسِ، وَالتَّزْيِينُ: تَحْسِينُ مَا لَيْسَ بِحَسَنٍ بَعْضَهُ أَوْ كُلَّهُ، قال البغوي : وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ مَجَازُهُ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَىٰ الْبَاطِلَ حَقًّا كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَأَىٰ الْحَقَّ حَقًّا وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وَقِيلَ: جَوَابُهُ تَحت قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أَيْ لَا تُتْلِفْ نَفْسَكَ لِأَجْلِ الْحَسْرَةِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] كَمَا تَقُولُ: هَلَكَ عَلَيْهِ حُبًّا وَمَاتَ عَلَيْهِ حُزْنًا، وَهُوَ بَيَانٌ لِلْمُتَحَسَّرِ عَلَيْهِ. فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَفَمَنَّ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَأَضَلَّهُ اللهُ ذَهَبَتْ نَفْسُكَ عَلَيْهِ حَسْرَةً، أَيْ تَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ فَلَا تَذْهَبْ نفسك عليهم حسرات. وقال الحسن ابنُ الْفَضْلِ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَالْحَسْرَةُ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَىٰ مَا فَاتَ مِنَ الْأَمْرِ، وَمَعْنَىٰ الآية: لا تهتم بِكُفْرِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، قرأ أَبُو جَعْفَرٍ فَلَا تُذْهِبْ بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ نَفْسَكَ نُصِبَ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وَالصُّنْعُ أَجَادَةُ الْفِعْلِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الْعَمَلِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتَسُوقُ السَّحَابَ فَأَحْيَا اللهُ بِهِ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بِهَذَا الْمَاءِ، فَكَذَلِكَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: سُقْتُهُ لِبَلَدِ كَذَا وَإِلَىٰ بَلَدِ كَذَا، أي حملته ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ مِنَ الْقُبُورِ، وَعَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: **أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مُمْحِلًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا** قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قال: فكذلك يحيي الله الموتىٰ وتلك آياته فِي خَلْقِهِ»[١].

---

(١) أحمد (١٦١٨٨).

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وقال الْفَرَّاءُ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ لِمَنِ الْعِزَّةُ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَتَعَزَّزْ بِطَاعَةِ اللهِ، مَعْنَاهُ: الدُّعَاءُ إِلَىٰ طَاعَةِ مِنْ لَهُ الْعِزَّةُ، أَيْ فَلْيَطْلُبِ الْعِزَّةَ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِطَاعَتِهِ، كَمَا يُقَالُ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَ فَالْمَالُ لِفُلَانٍ، أَيْ فَلْيَطْلُبْهُ مِنْ عِنْدِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ١٦] وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَىٰ اللهِ، ﴿يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَقِيلَ: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ذِكْرُ اللهِ. وَعَنْ قَتَادَةَ: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ أَيْ يَقْبَلُ اللهُ الْكَلِمَ الطيب، قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أَيْ يَرْفَعُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، فَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ يَرْفَعُهُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ذِكْرُ اللهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ أَدَاءُ فَرَائِضِهِ، فَمِنْ ذَكَرَ اللهَ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، فَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا يَرْفَعُهُ الْعَمَلُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وَقَالَ قَوْمٌ: الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ يَرْفَعُهُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَيْ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَادِرًا

عَنِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ الْكَلْبِيِّ وَمُقَاتِلٍ، وَقِيلَ: الرَّفْعُ مِنْ صِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعْنَاهُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْخَالِصُ يَعْنِي أَنَّ الْإِخْلَاصَ سَبَبُ قَبُولِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الْكَهْفِ: ١١٠] فَجَعَلَ نَقِيضَ الصَّالِحِ الشِّرْكَ وَالرِّيَاءَ، ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَيِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الشِّرْكَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَعْنِي الَّذِينَ مَكَرُوا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٠] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ أَصْحَابُ الرِّيَاءِ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبطل ويهلك فِي الْآخِرَةِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَيْ آدَمَ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يَعْنِي نَسْلَهُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وَإِنَاثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ لَا يَطُولُ عُمُرُهُ، ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ يَعْنِي مِنْ عُمُرِ آخَرَ، كَمَا يقال لِفُلَانٍ: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ أَيْ نِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ، قال ابن كثير : يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إِلَّا وَهُوَ بَالِغٌ مَا قَدَّرْتُ لَهُ مِنَ الْعُمُرِ، وَقَدْ قَضَيْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي قَدَّرْتُ لَا يُزَادُ عَلَيْهِ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر، والحياة ببالغ العمر، وَلَكِنْ يَنْتَهِي إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وَقِيلَ: قَوْلُهُ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عمره

منصرف إلىٰ الأول ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ أَيْ كِتَابَةُ الْأَجَلِ وَالْأَعْمَارِ عَلَىٰ اللهِ هَيِّنٌ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ يَعْنِي الْعَذْبَ وَالْمَالِحَ ثُمَّ ذَكَرَهُمَا فقال، ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ طيب، ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي جائز في الخلق هنيء، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ الْمُرُّ، وَالْبَحْرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: اسْمٌ لِلْمَاءِ الْكَثِيرِ الْقَارِّ فِي سَعَةٍ، فَالْفُرَاتُ وَالدِّجْلَةُ بَحْرَانِ عَذْبَانِ وَبَحْرُ الخليج العربي مِلْحٌ، قال ابن عاشور: فَالتَّقْدِيرُ: وَخَلَقَ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ وَالْأُجَاجَ عَلَىٰ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ وَخَالف بين أعراضهما، ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يَعْنِي الْحِيتَانَ مِنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ جميعا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِحِ دُونَ الْعَذْبِ، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يَعْنِي اللُّؤْلُؤَ ، وَقِيلَ: نُسِبَ اللُّؤْلُؤُ إليهما، عُيُونٌ عَذْبَةٌ تَمْتَزِجُ بِالْمِلْحِ فَيَكُونُ اللؤلؤ من ذَلِكَ، قال القرطبي : دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ لباس كل شي بِحَسَبِهِ، فَالْخَاتَمُ يُجْعَلُ فِي الْإِصْبَعِ، وَالسِّوَارُ فِي الذِّرَاعِ، وَالْقِلَادَةُ فِي الْعُنُقِ، وَالْخَلْخَالُ فِي الرِّجْلِ، ﴿وَتَرَىٰ الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ جَوَارِي مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ، ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ. وَخُلَاصَةُ مَعْنَىٰ الْآيَةِ: تَذْكِيرُ اللهِ عِبَادَهُ بِبَعْضِ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، فَهَا هُوَ الْمَاءُ الْعَذْبُ أَوْدَعَهُ مَسَارِبَ ضَخْمَةً كَالْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَالْآبَارِ، وَهُوَ فِي حَرَكَتِهِ يُحَافِظُ عَلَىٰ الْمَذَاقِ الْحُلْوِ الْفُرَاتِ الْعَذْبِ الزُّلَالِ، وَذَاكَ الْمَاءُ الْمَالِحُ الْمُرُّ الزُّعَاقُ أَوْدَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُحِيطَاتِ وَالْبِحَارَ، فَهِيَ مُنْشَآتٌ سَاكِنَةٌ

مَالِحَةُ الْمَاءِ، لِئَلَّا يَحْصُلَ بِسَبَبِهَا نَتَنُ الْهَوَاءِ، فَيَفْسُدَ الْوُجُودُ بِذَلِكَ. فَهِيَ تَجْمَعُ بِمُلُوحَتِهَا بَيْنَ طَهَارَةِ الْمَاءِ، وَصِحَّةِ الْهَوَاءِ، وَكَوْنِ مَيْتَتِهَا طَيِّبَةً،قَالَ السَّعْدِيُّ: وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا، إِيلَاجُهُ تَعَالَىٰ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ وَالنَّهَارَ بِاللَّيْلِ، يُدْخِلُ هَذَا عَلَىٰ هَذَا، وَهَذَا عَلَىٰ هَذَا، كُلَّمَا أَتَىٰ أَحَدُهُمَا ذَهَبَ الْآخَرُ، وَيَزِيدُ أَحَدُهُمَا وَيَنْقُصُ الْآخَرُ، وَيَتَسَاوَيَانِ، فَيَقُومُ بِذَلِكَ مَا يَقُومُ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَحَيَوَانَاتِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ. وَكَذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِي تَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، الضِّيَاءُ وَالنُّورُ، وَالْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، وَانْتِشَارُ الْعِبَادِ فِي طَلَبِ فَضْلِهِ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ تَنْضِيجِ الثِّمَارِ وَتَجْفِيفِ مَا يُجَفَّفُ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ، الَّتِي لَوْ فُقِدَتْ لَلَحِقَ النَّاسَ الضَّرَرُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني يَأْخُذُ مِنْهُ فِي النَّهَارِ فَيَطُولُ ذَلِكَ وَيَقْصُرُ هَذَا، وَهَذَا يَكُونُ زَمَنَ الصَّيْفِ يَطُولُ النَّهَارُ إِلَىٰ الغاية، ثم يشرع فِي النَّقْصِ فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، وَهَذَا يكون فِي الشِّتَاءِ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ قِيلَ إِلَىٰ غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ، وَقِيلَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكِلَا الْمَعْنِيِّينَ صَحِيحٌ وَيُسْتَشْهَدُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟**» قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟ قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ**

جِئْتِ»[1] ، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي مِنْ صُنْعِهِ مَا تَقَرَّرَ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، وَالْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ، فَهُوَ الَّذِي يُعْبَدُ، يَعْنِي الْأَصْنَامَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَىٰ خَلْقِهِ ، والقطمير : لِفَافَةُ النَّوَاةِ، وَهِيَ الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ نَوَاةِ التَّمْرِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، حَتَّىٰ وَلَا الْقِطْمِيرَ الَّذِي هُوَ أَحْقَرُ الْأَشْيَاءِ، وَهَذَا مِنْ تَنْصِيصِ النَّفْيِ وَعُمُومِهِ، فَكَيْفَ يُدْعَوْنَ، وَهُمْ غَيْرُ مَالِكِينَ لِشَيْءٍ مِنْ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ يعني إن تدعوا الْأَصْنَامَ، ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ مَا أَجَابُوكُمْ، أَيْ إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِهِمْ بِهِمْ فِي النَّوَائِبِ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، لِأَنَّهَا جمادات لا تبصر ولا تسمع، إِذْ لَيْسَ كُلُّ سَامِعٍ نَاطِقًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَىٰ لَوْ سَمِعُوا لَمْ يَنْفَعُوكُمْ، وَقِيلَ: أَيْ لَوْ جَعَلْنَا لَهُمْ عُقُولًا وَحَيَاةً فَسَمِعُوا دُعَاءَكُمْ لَكَانُوا أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَلَمَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ عَلَىٰ الْكُفْرِ ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يتبرءون مِنْكُمْ وَمِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهَا، يَقُولُونَ: مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، قَالَ القرطبي : ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ هَذَا إِلَىٰ الْمَعْبُودِينَ مِمَّا يَعْقِلُ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشَّيَاطِينِ أَيْ يَجْحَدُونَ أَنْ يَكُونَ مَا فَعَلْتُمُوهُ حَقًّا، وَأَنَّهُمْ أَمَرُوكُمْ بِعِبَادَتِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ عِيسَىٰ بِقَوْلِهِ:

---

(١) البخاري (٣١٩٩) ومسلم (١٥٩) .

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وَيَجُوزُ أَنْ يَنْدَرِجَ فِيهِ الْأَصْنَامُ أَيْضًا، أَيْ يُحْيِيهَا اللهُ حَتَّىٰ تُخْبِرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أَهْلًا للعبادة ، هو الله عز وجل، أَيْ لَا أَحَدَ أَخْبَرُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ الله، فلا ينبئك مثله في عمله، ينبئك مثله في عمله ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ أَيْ لَا يُنَبِّئُكَ أحد مثلي خبير عَالِمٌ بِالْأَشْيَاءِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَا أَحَدَ يُنَبِّئُكَ، أَصْدَقُ مِنَ اللهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، فَاجْزِمْ بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ، الَّذِي نَبَّأَ بِهِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلَا تَشُكَّ فِيهِ وَلَا تَمْتَرِ. فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ، الدَّالَّةَ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ الْمَأْلُوهُ الْمَعْبُودُ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ سِوَاهُ، وَأَنَّ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَاطِلٍ، لَا تُفِيدُ عَابِدَهُ شَيْئًا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَىٰ اللهِ﴾ أَيِ الْمُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي بَقَائِكُمْ وَكُلِّ أَحْوَالِكُمْ. وَالْفَقِيرُ الْمُحْتَاجُ، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: فَإِنْ قُلْتَ لِمَ عَرَّفَ الْفُقَرَاءَ؟ قُلْتُ: قَصَدَ بِذَلِكَ أَنْ يُرِيَهُمْ أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ افْتِقَارِهِمْ إِلَيْهِ هُمْ جِنْسُ الْفُقَرَاءِ، وَإِنْ كَانَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ مُفْتَقِرِينَ إِلَيْهِ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ لِأَنَّ الْفَقْرَ مِمَّا يَتْبَعُ الضَّعْفَ، وَكُلَّمَا كَانَ الْفَقِيرُ أَضْعَفَ كَانَ أَفْقَرَ، وَقَدْ شَهِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ بِالضَّعْفِ فِي قَوْلِهِ:﴿وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ الْمَحْمُودُ فِي إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، قال القرطبي : لَمَّا أَثْبَتَ فَقْرَهُمْ إِلَيْهِ وَغِنَاهُ عَنْهُمْ، وَلَيْسَ كُلُّ غَنِيٍّ نَافِعًا بِغِنَاهُ إِلَّا إِذَا كَانَ الْغَنِيُّ جَوَادًا مُنْعِمًا، وَإِذَا جَادَ وَأَنْعَمَ حَمِدَهُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ

وَاسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْحَمْدَ- ذَكَرَ ﴿الْحَمِيدُ﴾ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ الْغَنِيُّ النَّافِعُ بِغِنَاهُ خَلْقَهُ، الْجَوَادُ الْمُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، الْمُسْتَحِقُّ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمَدُوهُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَيْ لَوْ شَاءَ لَأَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَتَىٰ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ، أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَيَكُونُ فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالْإِبَادَةِ، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُ غَيْرُ قَاصِرَةٍ عَنْ ذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ، إِثْبَاتُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَأَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ تَعَالَىٰ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي إِعَادَتِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَلَكِنَّ لِذَلِكَ الْوَقْتِ أَجَلًا قَدَّرَهُ اللهُ، لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ: بِمُمْتَنِعٍ، وَلَا مُعْجِزَ لَهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أَيْ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِذُنُوبِهَا غَيْرَهَا، وأنّث ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ لتدل علىٰ النفس، أي وإن تدع نفس مثقلة أن يحمل عنها ذنوبها ذا قربىٰ لها، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أَيْ حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرٌ لَا يَجِدُ أَحَدًا يَحْمِلُ عَنْهُ مِنْ وِزْرِهِ شَيْئًا، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أَيْ وَلَوْ كَانَ الْمَدْعُوُّ ذَا قَرَابَةٍ لَهُ ابْنَهُ أَوْ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ أَوْ أَخَاهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَلْقَىٰ الْأَبُ وَالْأُمُّ ابْنَهُ فَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ احْمِلْ عَنِّي بَعْضَ ذُنُوبِي، فَيَقُولُ: لَا أَسْتَطِيعُ حَسْبِي مَا عَلَيَّ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: وَإِنْ تَسْأَلْ ذَاتُ ثِقْلٍ مِنَ الذُّنُوبِ مَنْ يَحْمِلُ عَنْهَا ذُنُوبَهَا وَتَطْلُبُ ذَلِكَ لَمْ تَجِدْ مَنْ

يَحْمِلُ عَنْهَا شَيْئًا مِنْهَا وَلَوْ كَانَ الَّذِي سَأَلَتْهُ ذَا قَرَابَةٍ مِنْ أَبٍ أَوْ أَخٍ ، أَيْ لَا يُحَمِّلُ اللهُ نَفْسًا حِمْلًا جَعَلَهُ لِنَفْسٍ أُخْرَىٰ عَدْلًا مِنْهُ تَعَالَىٰ لِأَنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَدْلَ وَقَدْ نَفَىٰ عَنْ شَأْنِهِ الظُّلْمَ ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون، ﴿رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ وَلَمْ يَرَوْهُ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: تَأْوِيلُهُ أَيْ إِنْذَارُكَ إِنَّمَا يَنْفَعُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ﴾ أصلح وعَمِلَ خَيْرًا، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ لَهَا ثَوَابُهُ، ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يَعْنِي الْجَاهِلَ وَالْعَالِمَ. وَقِيلَ: الْأَعْمَىٰ عَنِ الْهُدَىٰ وَالْبَصِيرُ بِالْهُدَىٰ، أَيِ الْمُؤْمِنُ وَالْمُشْرِكُ. قال ابن عباس: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، يَقُولُ: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالظُّلُمَاتُ وَالْحَرُورُ، وَلَا الْأَمْوَاتُ فَهُوَ مَثَلُ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَلَا يَسْتَوِي الْبَصِيرُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَالْأَحْيَاءُ فَهُوَ مَثَلُ أَهْلِ الطَّاعَةِ، وَعَنْ قَتَادَةَ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ خَلْقًا، فَضَّلَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَعَبْدٌ حَيُّ الْأَثَرِ حَيُّ الْبَصَرِ، حَيُّ النِّيَّةِ، حَيُّ الْعَمَلِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَعَبْدٌ مَيِّتٌ، مَيِّتُ الْبَصَرِ مَيِّتُ الْقَلْبِ مَيِّتُ الْعَمَلِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ يَعْنِي الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ. قَالَ السَّعْدِيُّ: فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ يُسْتَفَادُ مِنْهُ أُمُورٌ: التَّذْكِيرُ، وَالْوَعْظُ، وَالْحَثُّ، وَالزَّجْرُ، وَالِاعْتِبَارُ، وَالتَّقْرِيرُ، وَتَقْرِيبُ الْمُرَادِ لِلْعَقْلِ، وَتَصْوِيرُهُ فِي صُورَةِ الْمَحْسُوسِ، بِحَيْثُ يَكُونُ نِسْبَتُهُ لِلْعَقْلِ، كَنِسْبَةِ الْمَحْسُوسِ إِلَى الْحِسِّ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَرُورُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ بِاللَّيْلِ والسموم بِالنَّهَارِ، وَقِيلَ: الْحَرُورُ يَكُونُ بِالنَّهَارِ مَعَ الشَّمْسِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: السَّمُومُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَالْحَرُورِ يَكُونُ فِيهِمَا، قَال النَّحَّاسُ: وَهَذَا أَصَحُّ، فِفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **قَالَتِ النَّارُ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأْذَنْ لِي أَتَنَفَّسُ فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٌ فِي الصَّيْفِ فَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ بَرْدٍ أَوْ زَمْهَرِيرٍ فَمِنْ نَفَسِ جَهَنَّمَ وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرٍّ أَوْ حَرُورٍ فَمِنْ نَفَسِ جَهَنَّمَ** »[(١)] .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارَ، وَقِيلَ: الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ ، ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ حَتَّىٰ يَتَّعِظَ وَيُجِيبَ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْأَحْيَاءُ الْعُقَلَاءُ، وَالْأَمْوَاتُ الْجُهَّالُ، قَالَ قَتَادَةُ: هَذِهِ كُلُّهَا أَمْثَالٌ، أَيْ كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يَعْنِي الْكَفَّارَ شَبَّهَهُمْ بِالْأَمْوَاتِ فِي الْقُبُورِ حِينَ لَمَّ يُجِيبُوا، قَالَ قَتَادَةُ: كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا مُنْذِرٌ تَخَوِّفُهُمْ بِالنَّارِ، قال القرطبي : أَيْ رَسُولٌ مُنْذِرٌ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الهدي شي إنما الهدىٰ بيد الله تبارك وتعالىٰ.

---

(١) البخاري (٥٣٧) ومسلم (٦١٧) .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ مَا مِنْ أُمَّةٍ فِيمَا مَضَىٰ، قال قتادة: كل أمة كان لها رسول ﴿إِلَّا خَلَا﴾ أَيْ سَلَفَ فِيهَا نَبِيٌّ. وَخَلَا الشيءُ خُلُوّاً: مَضَىٰ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إلا العرب، وفِي الْحَدِيثِ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيءُ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيءُ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ، وَالنَّبِيءُ يَمُرُّ وَحْدَهُ**»(١) ، ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نَبِيٌّ مُنْذِرٌ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَنْبِيَاءَهُمْ، يُسَلِّي رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ وَالشَّرَائِعِ الْوَاضِحَاتِ ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ﴾ أَيِ الْكُتُبِ الْمَكْتُوبَةِ ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح، وكرر الزبر والكتاب وَهُمَا وَاحِدٌ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظَيْنِ ، وَقِيلَ: يَرْجِعُ الْبَيِّنَاتِ والزبر والكتاب إِلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَهُوَ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكُتُبِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيْ كَيْفَ كَانَتْ عُقُوبَتِي لَهُمْ، قَالَ القرطبيُّ : اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّغْيِيرِ، أَيْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ تَغْيِيرِي مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، فَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِالْمُكَذِّبِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: النَّكِيرُ وَالْإِنْكَارُ تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ، وَالْمُنْكَرُ واحد المناكير.

---

(١) البخاري (٦٤٧٢) ومسلم (٢٢٠) .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هَذِهِ الرُّؤْيَةُ رُؤْيَةُ الْقَلْبِ وَالْعِلْمِ، أَيْ أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ وَرَأَيْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ الآية ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طُرُقٌ وَخُطَطٌ وَاحِدَتُهَا جُدَّةٌ مِثْل مُدَّةٍ وَمُدَدٍ، الْجُدَدُ جَمْعُ جُدَّةٍ، وَهِيَ الطَّرَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانَ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ حَجَرًا أَوْ تُرَابًا، قَالَ الْأَخْفَشُ: وَلَوْ كَانَ جَمْعُ جَدِيدٍ لَقَالَ: جُدُدٌ وَقِيلَ: إِنَّ الْجُدَدَ الْقِطَعُ، مَأْخُوذٌ مِنْ جَدَدْتُ الشَّيْءَ إِذَا قَطَعْتُهُ، ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ يَعْنِي سُودٌ غَرَابِيبُ عَلَىٰ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، يُقَالُ: أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ أَيْ شَدِيدُ السَّوَادِ تَشْبِيهًا بِلَوْنِ الْغُرَابِ، أَيْ طَرَائِقُ سُودٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلشَّدِيدِ السَّوَادِ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْغُرَابِ: أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَتَقُولُ هَذَا أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ، أَيْ شَدِيدُ السَّوَادِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ذَكَرَ الْكِنَايَةَ لِأَجْلِ مِنْ، وَقِيلَ: رَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَىٰ مَا فِي الْإِضْمَارِ، مَجَازُهُ: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مَا هُوَ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، وَ﴿دَابَّةٌ﴾ تَقَعُ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا دَبَّ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ فِيهِمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ صَانِعٍ مُخْتَارٍ ، ﴿كَذَلِكَ﴾ يَعْنِي كَمَا اخْتَلَفَ أَلْوَانُ الثِّمَارِ وَالْجِبَالِ،وَتَمَّ الْكَلَامُ هَاهُنَا ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ خَلْقِي مَنْ عَلِمَ جبروتي وعزتي وسلطاني قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[1] ، وَقَالَ مَسْرُوقٌ: كَفَىٰ بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْمًا وكفىٰ بالاغترار بالله جهلا ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْعَالِمُ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَرَغِبَ فِيمَا رَغِبَ اللهُ فِيهِ، وَزَهِدَ فِيمَا سَخِطَ اللهُ فِيهِ، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ وَقَالَ السَّعْدِيُّ : فَكُلُّ مَنْ كَانَ بِاللهِ أَعْلَمَ كَانَ أَكْثَرَ لَهُ خَشْيَةً، وَأَوْجَبَتْ لَهُ خَشْيَةُ اللهِ الِانْكِفَاف عَنِ الْمَعَاصِي، وَالِاسْتِعْدَادَ لِلِقَاءِ مَنْ يَخْشَاهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَىٰ خَشْيَةِ اللهِ، وَأَهْلُ خَشْيَتِهِ هُمْ أَهْلُ كَرَامَتِهِ ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أَيْ عَزِيزٌ فِي مُلْكِهِ غَفُورٌ لذنوب عباده.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾ يَعْنِي قَرَأُوا الْقُرْآنَ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ لَنْ تَفْسَدَ وَلَنْ تَهْلَكَ، وَالْمُرَادُ مِنَ التِّجَارَةِ مَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الثَّوَابِ، وَالْبَوَارُ: الْهَلَاكُ، وَهَلَاكُ التِّجَارَةِ: خَسَارَةُ التَّاجِرِ، فَمَعْنَىٰ لَنْ تَبُورَ أَنَّهَا رَابِحَةٌ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: قَوْلُهُ يَرْجُونَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾ قال قَتَادَةُ: كَانَ مُطَرِّفُ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَقُولُ: هَذِهِ آيَةُ الْقُرَّاءِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ لَنْ تَكْسُدَ وَتَفْسُدَ، بَلْ تِجَارَةٌ، هِيَ أَجَلُّ التِّجَارَاتِ وَأَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا، أَلَا وَهِيَ رِضَا رَبِّهِمْ،

---

(١) البخاري (٦٤٨٥) ومسلم (٢٣٥٩) .

وَالْفَوْزُ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَالنَّجَاةُ مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّهُمْ يُخْلِصُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ بِهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ السَّيِّئَةِ وَالنِّيَّاتِ الْفَاسِدَةِ شَيْئًا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ بِالثَّوَابِ، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ: لِيُوَفِّيَهُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ مَعَ مُضَاعَفَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَهَا أَوْزَانٌ مُخْتَلِفَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي سِوَىٰ الثَّوَابِ مِمَّا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَغْفِرُ الْعَظِيمَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيَشْكُرُ الْيَسِيرَ مِنْ أعمالهم.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ، ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ يعني الكتاب الذي أنزلنا إِلَيْكَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَاهُ يَنْتَهِي إِلَىٰ : ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أَيِ اخْتَرْنَا، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الصَّفْوِ، وَهُوَ الْخُلُوصُ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدَرِ،﴿ثُمَّ﴾ بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ، أَيْ وَأَوْرَثْنَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] أَيْ وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَمَعْنَىٰ أَوْرَثْنَا أَعْطَيْنَا لِأَنَّ الْمِيرَاث عَطَاءٌ، وَقِيلَ: أَوْرَثْنَا أَيْ أَخَّرْنَا، وَمِنْهُ الْمِيرَاثُ لِأَنَّهُ أُخِّرَ عَنِ الْمَيِّتِ، وَمَعْنَاهُ أَخَّرْنَا الْقُرْآنَ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ واعطيناه لكم ، وأهلنا لَهُ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَسَّمَهُمْ وَرَتَّبَهُمْ فَقَالَ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ اختلف الْمُفَسِّرُونَ فِي

مَعْنَىٰ الظَّالِمِ وَالْمُقْتَصِدِ والسابق، فقال أبو الدرداء: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول حين قرأ هذه الآية: «**أَمَّا السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَيُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَيُحْبَسُ فِي الْمَقَامِ حَتَّىٰ يَدْخُلَهُ الْهَمُّ، ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**» ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1] ، وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ صُهْبَانَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الْآيَةَ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَمَّا السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ فَمَنْ مَضَىٰ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنِ اتَّبَعَ أَثَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّىٰ لَحِقَ بِهِ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَمِثْلِي وَمِثْلُكُمْ، فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا مَعَنَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَهُمْ أصحاب المشأمة، ومنهم مقتصد هم أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ هُمُ السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: السَّابِقُ: الْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ، وَالْمُقْتَصِدُ: الْمُرَائِي، وَالظَّالِمُ: الْكَافِرُ نِعْمَةَ اللهِ غَيْرَ الْجَاحِدِ لَهَا، لِأَنَّهُ حَكَمَ لِلثَّلَاثَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَذْكُرُ ذَلِكَ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: السَّابِقُ مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنِ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، وَالظَّالِمُ

---

(١) أحمد (٢٧٤٨٣) .

مَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ، وَقِيلَ: الظَّالِمُ مَنْ كَانَ ظَاهِرُهُ خَيْرًا مِنْ بَاطِنِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يَسْتَوِي ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، وَالسَّابِقُ الَّذِي بَاطِنُهُ خَيْرٌ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَقِيلَ: الظَّالِمُ مَنْ وَحَّدَ اللهِ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُوَافِقْ فِعْلُهُ قَوْلَهُ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ وَحَّدَ اللهِ بِلِسَانِهِ وَأَطَاعَهُ بِجَوَارِحِهِ، وَالسَّابِقُ مَنْ وَحَّدَ اللهَ بِلِسَانِهِ وَأَطَاعَهُ بِجَوَارِحِهِ وَأَخْلَصَ لَهُ عَمَلَهُ، وَقِيلَ: الظَّالِمُ التَّالِي لِلْقُرْآنِ، وَالْمُقْتَصِدُ الْقَارِئُ لَهُ الْعَالِمُ بِهِ، وَالسَّابِقُ الْقَارِئُ لَهُ الْعَالِمُ بِهِ الْعَامِلُ بِمَا فِيهِ، وَقِيلَ: الظَّالِمُ أَصْحَابُ الْكَبَائِرِ وَالْمُقْتَصِدُ أَصْحَابُ الصَّغَائِرِ، وَالسَّابِقُ الَّذِي لَمْ يَرْتَكِبْ كَبِيرَةً وَلَا صَغِيرَةً، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: السَّابِقُ الْعَالِمُ، وَالْمُقْتَصِدُ الْمُتَعَلِّمُ، والظالم الجاهل وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِالظَّالِمِ الْكَافِرُ، وَقَالَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ: الظَّالِمُ الذَّاكِرُ اللهَ بِلِسَانِهِ فَقَطْ، وَالْمُقْتَصِدُ الذَّاكِرُ بِقَلْبِهِ، وَالسَّابِقُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ، وقيل: المراد مِنْهُ الْمُنَافِقُ، فَعَلَىٰ هَذَا لَا يَدْخُلُ الظَّالِمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ وَحَمَلَ هَذَا الْقَائِلُ الِاصْطِفَاءَ عَلَىٰ الِاصْطِفَاءِ فِي الْخِلْقَةِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إليهم وإنزال الكتب ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ جَمِيعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَعَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ. قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سابق إلىٰ الجنة وإلىٰ رَحْمَةِ اللهِ بِالْخَيْرَاتِ أَيْ بِالْأَعْمَالِ الصالحات، ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ أَيْ أَمْرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني إيراثهم الكتاب، ثُمَّ أَخْبَرَ بِثَوَابِهِمْ فَقَالَ:

[٣٣] : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يَعْنِي الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ، أَيْ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، و(عَدْنٍ) مَأْخُوذٌ مِنْ عَدَنَ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: إِذَا

سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وَهُوَ جَمْعُ سِوَارٍ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ**»(١)، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلَعَلَّ اللهَ إِنَّمَا خَصَّ الْحَرِيرَ، لِأَنَّهُ لِبَاسُهُمُ الظَّاهِرُ، الدَّالُّ عَلَىٰ حَالِ صَاحِبِهِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ أَيْ وَيَقُولُونَ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وَالْحُزْنُ وَاحِدٌ كَالْبَخَلِ وَالْبُخْلِ، قَالَ ابن عباس: حَزَنَ النَّارِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: حَزَنَ الموت، وقَالَ مقاتل: حزنوا لأنهما كَانُوا لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُ اللهُ بِهِمْ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: حَزَنُ الذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ وَخَوْفُ رَدِّ الطَّاعَاتِ. وَقَالَ الْقَاسِمُ: حَزَنُ زَوَالِ النِّعَمِ وَتَقْلِيبِ الْقَلْبِ، وَخَوْفِ الْعَاقِبَةِ، وَقِيلَ: حَزَنُ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مَا كَانَ يُحْزِنُهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَمْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَذْهَبَ اللهُ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلَّ الْأَحْزَانِ مَا كَانَ مِنْهَا لِمَعَاشٍ أَوْ لِمَعَادٍ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَفَرَ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَشَكَرَ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ.

---

(١) مسلم (٢٥٠).

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ أنزلنا، ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أَيِ الْإِقَامَةِ، قال قتادة: ﴿ أقاموا فلا يتحولون﴾ فحمدوه سبحانه أن سلّمهم إلىٰ دار المقامة جنة الخلد والنعيم، وَالْعَاقِبَةُ: هِيَ الْحَالَةُ الْعَاقِبَةُ، أَيِ الَّتِي تَعْقُبُ، أَيْ تَجِيءُ عَقِبَ غَيْرِهَا، ﴿مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها عياء ولا مشقة، وَالنَّصَبُ: التَّعَبُ مِنْ نَحْوِ شِدَّةِ حَرٍّ وَشِدَّةِ بَرْدٍ ، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ عياء مِنَ التَّعَبِ، وَاللُّغُوبُ: الْإِعْيَاءُ مِنْ جَرَّاءِ عَمَلٍ أَوْ جَرْيٍ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أَيْ لَا يُهْلَكُونَ فَيَسْتَرِيحُوا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] أَيْ قَتَلَهُ، وَقِيلَ: لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ فَيَمُوتُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٧٧] أَيْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا الْمَوْتَ فَنَسْتَرِيحَ، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أَيْ كَافِرٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالْكَفُورُ: الشَّدِيدُ الْكُفْرِ، وَهُوَ الْمُشْرِكُ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ يستغيثون ويصيحون، ﴿فِيهَا﴾ ويَصْطَرِخُونَ مُبَالَغَةٌ فِي ﴿ يَصْرُخُونَ﴾ لِأَنَّهُ افْتِعَالٌ مِنَ الصُّرَاخِ وَهُوَ الصِّيَاحُ بِشِدَّةٍ وَجُهْدٍ، فَالِاصْطِرَاخُ مُبَالَغَةٌ فِيهِ، أَيْ يَصِيحُونَ مِنْ شِدَّةِ مَا نَابَهُمْ. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ مِنْهَا مِنَ النَّارِ، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ تَوْبِيخًا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ قِيلَ: هُوَ الْبُلُوغُ، وَقَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ: ثَمَانِ عَشَرَةَ سَنَةً، وَقَالَ الْحَسَنُ:

أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سِتُّونَ سَنَةً، يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَهُوَ الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ ابْنِ آدَمَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَعْذَرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّىٰ بلَّغه سِتِّينَ سنة**»(١) ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: « أَعْذَرَ إِلَيْهِ» أَيْ بَلَغَ بِهِ أَقْصَىٰ الْعُذْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: قد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ، أَيْ أَقَامَ عُذْرَ نَفْسِهِ فِي تَقْدِيمِ نِذَارَتِهِ ، ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقِيلَ: الْقُرْآنُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَوَكِيعٌ: هُوَ الشَّيْبُ، معناه: أولم نُعَمِّرْكُمْ حَتَّىٰ شِبْتُمْ، وَيُقَالُ: الشَّيْبُ نَذِيرُ الْمَوْتِ ، والنذير بمعنىٰ الإنذار، وَفِي الْأَثَرِ: مَا مِنْ شَعَرَةٍ تَبْيَضُّ إِلَّا قَالَتْ لِأُخْتِهَا: اسْتَعِدِّي فَقَدْ قَرُبَ الْمَوْتُ، قوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ جَزَاءَ أَهْلِ الدَّارَيْنِ، وَذَكَرَ أَعْمَالَ الْفَرِيقَيْنِ، أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ تعَالَىٰ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَىٰ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الَّتِي غَابَتْ عَنْ أَبْصَارِ الْخَلْقِ وَعَنْ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّدُورُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالزَّكَاءِ وَغَيْرِهِ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَيُنْزِلُ كُلَّ أَحَدٍ مَنْزِلَتَهُ.

(١) البخاري (٦٤١٩) .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَقِيلَ: جَعَلَكُمْ أُمَّةً خَلَفَتْ مَنْ قَبْلَهَا. وَرَأَتْ فِيمَنْ قَبْلَهَا، مَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْتَبِرَ بِهِ، قَالَ قَتَادَةُ: خَلَفًا بَعْدَ خَلَفٍ، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ. وَالْخَلَائِفُ: جَمْعُ خَلِيفَةٍ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُفُ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ كَانَ لِذَلِكَ الْغَيْرِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا خَلِيفَةَ اللهِ، فَقَالَ: لَسْتُ بِخَلِيفَةِ اللهِ، وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا رَاضٍ بِذَلِكَ. ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَيْ جَزَاءُ كُفْرِهِ وَهُوَ الْعِقَابُ وَالْعَذَابُ. وَالْمَقْتُ: الْبُغْضُ مَعَ خِزْيٍ وَصَغَارٍ، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أَيْ بُغْضًا وَغَضَبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: يَخْسَرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَالْكَافِرُ لَا يَزَالُ فِي زِيَادَةٍ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخُسْرَانِ، وَالْخِزْيِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ وَالْحِرْمَانِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أَيْ: أَخْبِرُونِي عَنْ شُرَكَائِكُمُ ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ هَلْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ، فَـ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هَلْ خَلَقُوا بَحْرًا أَمْ خَلَقُوا جِبَالًا أَوْ خَلَقُوا حَيَوَانًا، أَوْ خَلَقُوا جَمَادًا؟ سَيُقِرُّونَ أَنَّ الْخَالِقَ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، أَمْ لِشُرَكَائِكُمْ شِرْكٌ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ فِي خَلْقِهَا وَتَدْبِيرِهَا؟ سَيَقُولُونَ: لَيْسَ لَهُمْ شِرْكَةٌ، فَإِذَا لَمْ يَخْلُقُوا شَيْئًا، وَلَمْ يُشَارِكُوا الْخَالِقَ فِي خَلْقِهِ، فَلِمَ عَبَدْتُمُوهُمْ وَدَعَوْتُمُوهُمْ مَعَ إِقْرَارِكُمْ بِعَجْزِهِمْ؟ فَانْتَفَىٰ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَىٰ صِحَّةِ عِبَادَتِهِمْ، وَدَلَّ عَلَىٰ بُطْلَانِهَا. ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ السَّمْعِيَّ، وَأَنَّهُ أَيْضًا مُنْتَفٍ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ

آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ يتكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ، يَأْمُرُهُمْ بِالشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. قَالَ مُقَاتِلٌ: هَلْ أَعْطَيْنَا كُفَّارَ مَكَّةَ كِتَابًا ، وَالْمَعْنَىٰ: أَلَهُمْ شِرْكٌ مَعَ اللهِ فِي ملك السَّمَوَات وتصريف أحوالها كَسَيْرِ الْكَوَاكِبِ وَتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَسْخِيرِ الرِّيَاحِ وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ ، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ والمعنىٰ : أَنَّ الْمُرَادَ كَوْنُ الْكِتَابِ الْمَفْرُوض إيتاؤه إيَّاهُم مُشْتَمِلة عَلَىٰ حُجَّةٍ لَهُمْ تُثْبِتُ إِلَهِيَّةَ الْأَصْنَامِ ، ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ﴾ أَيْ مَا يَعِدُ، ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ الغرور مَا يَغُرُّ الْإِنْسَانَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي مَا يَعِدُ الشَّيْطَانُ كَفَّارَ بَنِي آدَمَ مِنْ شَفَاعَةِ الْآلِهَةِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ ، قال القرطبي : أَيْ أَبَاطِيلَ تَغُرُّ، وَهُوَ قَوْلُ السَّادَةِ لِلسِّفْلَةِ: إِنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ تَنْفَعُكُمْ وَتُقَرِّبُكُمْ، وَقِيلَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ الْمُشْرِكِينَ ذلك. وقيل: وعدهم بأنهم ينصرون عليهم.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أَيْ: كَيْلَا تَزُولَا، لَمَّا بَيَّنَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ خلق شي مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيَّنَ أَنَّ خَالِقَهُمَا وَمُمْسِكَهُمَا هُوَ اللهُ، فَلَا يُوجَدُ حَادِثٌ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، وَلَا يَبْقَىٰ إِلَّا بِبَقَائِهِ ، ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيْ مَا يُمْسِكُهُمَا أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ، أَيْ أَحَدٌ سِوَاهُ،قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ وَلَوْ زَالَتَا مَا أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ ، وقيل: المراد زوالهما يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله تعالىٰ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ،**

وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَىٰ ذِكْرِ الحلم ههنا؟ قِيلَ: لِأَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض هَمَّتْ بِمَا هَمَّتْ بِهِ مِنْ عُقُوبَةِ الْكُفَّارِ فَأَمْسَكَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الزوال لحلمه وَغُفْرَانِهِ أَنْ يُعَاجِلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ لَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ قَالُوا: لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَتَتْهُمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبُوهُمْ، وَأَقْسَمُوا بِاللهِ وقالوا: لو أتىٰ رسول الله لنكونن أَهْدَىٰ دِينًا مِنْهُمْ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ كَذَّبُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رَسُولٌ، وَالْقَسَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَكْثَرُهُ بِاللهِ، وَقَدْ يُقْسِمُونَ بِالْأَصْنَامِ وَبِآبَائِهِمْ وَعَمْرِهِمْ، وَالْغَالِبُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقُولُوا: بِاللات وَالْعُزَّىٰ، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[2]، وَجَهْدُ الْيَمِينِ: أَبْلَغُهَا وَأَقْوَاهَا، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجَهْدِ وَهُوَ التَّعَبُ، يُقَالُ: بَلَغَ كَذَا مِنِّي الْجَهْدُ، أَيْ عَمِلْتُهُ حَتَّىٰ بَلَغَ عَمَلُهُ مِنِّي تَعَبِي، كِنَايَةً عَنْ شِدَّةِ عَزْمِهِ فِي الْعَمَلِ، فَجَهْدُ الْأَيْمَانِ هُنَا

---

(١) البخاري (٧٤١١) ومسلم (١٧٩).

(٢) البخاري (٤٨٦٠) ومسلم (١٦٤٧).

كِنَايَةٌ عَنْ تَأْكِيدِهَا، وَتَقَدَّمَ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ [المائدة : ٥٣] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَىٰ الْأُمَمِ﴾ يَعْنِي مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ رَسُولٌ كَمَا كَانَتِ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا تَمَنَّوْهُ وَهُوَ النَّذِيرُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، نَفَرُوا عَنْهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّذِيرُ: الْمُنْذِرُ بِكَلَامِهِ، فَالْمَعْنَىٰ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ قَبْلَهُ ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أَيْ مَا زَادَهُمْ مَجِيئُهُ إِلَّا تَبَاعُدًا عَنِ الْهُدَىٰ ، وفي لسان العرب : النُّفُورِ: الهرب ، يُقَالُ: نَفَرَ يَنْفِر نُفُوراً ونِفاراً إذا فَرَّ وَذَهَبَ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: « **إِنْ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ** »[1] أَي مَنْ يَلْقىٰ الناسَ بالغِلْظَةِ والشِّدَّةِ فَيَنْفِرُونَ مِنَ الإِسلام والدِّين.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ وَالِاسْتِكْبَارُ: شِدَّةُ التَّكَبُّرِ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ اسْتَجَابَ، ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ يَعْنِي الْعَمَلَ الْقَبِيحَ، أُضِيفَ الْمَكْرُ إِلَىٰ صِفَتِهِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَرَأَ حمزة ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أَيْ مَكْرَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَخَدْعُ الضُّعَفَاءِ، وَصَدُّهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ لِيَكْثُرَ أَتْبَاعُهُمْ ، وَالْمَكْرُ: إِخْفَاءُ الْأَذَىٰ وَهُوَ سيِّء لِأَنَّهُ مِنَ الْغَدْرِ وَهُوَ مُنَافٍ لِلْخُلُقِ الْكَرِيمِ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ

(١) البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦) .

السَّيِّئُ﴾ أَيْ لَا يَحِلُّ وَلَا يُحِيطُ المكر السيئ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: ﴿يَحِيقُ﴾ بِمَعْنَىٰ يُحِيطُ ، وَالْحَوْقُ الْإِحَاطَةُ، يُقَالُ: حَاقَ بِهِ كَذَا أَيْ أَحَاطَ بِهِ، ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فَقُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَاقِبَةُ الشِّرْكِ لَا تَحِلُّ إلا بمن أشرك ، والمعنىٰ: إن وَبَالُ مَكْرِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ كَعْبًا قَالَ لَهُ: إِنِّي أَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي أُوجِدُكَ فِي الْقُرْآنِ ذَلِكَ. قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فَاقْرَأْ ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ الَّذِي نَزَلَ بالكفار ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ إِلَّا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابُ كَمَا نَزَلَ بِمَنْ مَضَىٰ مِنَ الكفار، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ أَيْ أَجْرَىٰ اللهُ الْعَذَابَ عَلَىٰ الكفار، ويجعل ذَلِكَ سُنَّةً فِيهِمْ، فَهُوَ يُعَذِّبُ بِمِثْلِهِ مَنِ اسْتَحَقَّهُ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ ذَلِكَ، وَلَا أَنْ يُحَوِّلَ الْعَذَابَ عَنْ نَفْسِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَالسُّنَّةُ الطَّرِيقَةُ، وَالْجَمْعُ سُنَنٌ، وَالتَّبْدِيلُ: تَغْيِيرُ شَيْءٍ وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [التوبة: ١٠٧] وَالتَّحْوِيلُ: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَكَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَوْلِ وَهُوَ الْجَانِبُ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْكَرَامَةُ فِي مَوْقِعِ الْعِقَابِ، وَلَا يُتْرَكُ عِقَابُ الْجَانِي.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ يَعْنِي لِيَفُوتَ عَنْهُ ﴿مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ يَقُولُ تعالىٰ: قل يا محد لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ، بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، سِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ فخلت مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ، وَسُلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النعيم، بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَمَا أَغْنَىٰ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، لأنه تعالىٰ لا يعجزه شيء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، قَدِيرٌ عَلَىٰ مَجْمُوعِهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أَيْ لَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ جَمِيعُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابَّ وَأَرْزَاقٍ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أَيْ لَمَا سَقَاهُمُ الْمَطَرُ فَمَاتَتْ جَمِيعُ الدَّوَابِّ ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ وَلَكِنْ يُنْظِرُهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَيُجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ، وَبِالْعِقَابِ أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بصيراً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُرِيدُ أَهْلَ طَاعَتِهِ وَأَهْلَ معصيته.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ يس

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ يس بِمُسَمَّىٰ الْحَرْفَيْنِ الْوَاقِعَيْنِ فِي أَوَّلِهَا فِي رَسْمِ الْمُصْحَفِ لِأَنَّهَا انْفَرَدت بهما فَكَانَا مُمَيِّزَيْنِ لَهَا عَنْ بَقِيَّةِ السُّوَرِ، فَصَارَ مَنْطُوقُهُمَا عَلَمًا عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ وَرَدَ اسْمُهَا عَنِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأوا يس عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ**»[1]، وَبِهَذَا الِاسْمِ عَنْوَنَ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابَيِ التَّفْسِيرِ، وَدَعَاهَا بَعْضُ السَّلَفِ «قَلْبَ الْقُرْآنِ» لِوَصْفِهَا.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يس﴾ الْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْوَاقِعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَأَنَّ الرَّأْيَ الرَّجِيحَ فِيهَا أَنَّهَا حُرُوفُ تَنْبِيهٍ نَحْوُ :(أَلَا) وَ(يَا)، وَيُنْطَقُ بِأَسْمَائِهَا.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ أَيِ الْمُحْكَمِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خلفه، قَالَ القرطبي : أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِاسْمِهِ وَكِتَابِهِ إِنَّهُ لَمِنَ

---

(١) أبو داود (١٤٤٨) .

الْمُرْسَلِينَ بِوَحْيِهِ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَعَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ مِنْ إِيمَانِهِ، أَيْ طَرِيقٍ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا عُدُولَ عَنِ الْحَقِّ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أقسم الله بالقرآن بأن مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ رَدٌّ عَلَىٰ الْكُفَّارِ حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قَالَ النَّقَّاشُ: لَمْ يُقْسِمِ اللهُ تَعَالَىٰ لِأَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ بِالرِّسَالَةِ فِي كِتَابِهِ إِلَّا لَهُ، وَفِيهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَتَمْجِيدِهِ عَلَىٰ تَأْوِيلِ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَا سَيِّدُ مَا فِيهِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**»(١).

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو خبر بعد خبر، أي إنك لمن المرسلين وإنك عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَىٰ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوكَ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أَيْ هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنْهَجُ والدين الذي جئت به، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعِزَّةِ الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ قِيلَ: ﴿ مَا﴾ لِلنَّفْيِ أَيْ لَمْ يُنْذَرْ آبَاؤُهُمْ لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمْ يَأْتِهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقِيلَ ﴿مَا﴾ بِمَعْنَىٰ الَّذِي أَيْ لِتُنْذِرَ قَوْمًا بِالَّذِي أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ، ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرُّشْدِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُمُ الْعَرَبُ الْأُمِّيُّونَ، الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا خَالِينَ

---

(١) مسلم (٢٢٧٨) .

مِنَ الْكُتُبِ، عادِمِينَ الرُّسُلَ، قَدْ عَمَّتْهُمُ الْجَهَالَةُ، وَغَمَرَتْهُمُ الضَّلَالَةُ، وَأَضْحَكُوا عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ سَفَهِهِمْ عُقُولَ الْعَالَمِينَ، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَيُنْذِرُ الْعَرَبَ الْأُمِّيِّينَ، وَمَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ أُمِّيٍّ، وَيُذَكِّرُ أَهْلَ الْكُتُبِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ، فَنِعْمَةُ اللهِ بِهِ عَلَىٰ الْعَرَبِ خُصُوصًا، وَعَلَىٰ غَيْرِهِمْ عُمُومًا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ وَجَبَ الْعَذَابُ، ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾، قَالَ الطبري: لَقَدْ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ، بِأَنَّ الله تعالىٰ قَدْ حَتَّمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَثَلِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غِلٌّ، أَرَادَ: مَنَعْنَاهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَوَانِعَ، فَجَعَلَ الْأَغْلَالَ مَثَلًا لِذَلِكَ، قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ إِنَّا حَبَسْنَاهُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٢٩] مَعْنَاهُ لَا تُمْسِكْهَا عَنِ النَّفَقَةِ. ﴿فَهِيَ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ﴾ وهي كِنَايَةٌ عَنِ الْأَيْدِي وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ لِأَنَّ الْغِلَّ يَجْمَعُ الْيَدَ إِلَىٰ الْعُنُقِ، مَعْنَاهُ: إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ وَأَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ، ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ الْمُقْمح الَّذِي رُفِعَ رَأْسُهُ وَغُضَّ بَصَرُهُ، يُقَالُ: بَعِيرٌ قَامِحٌ إِذَا رَوَىٰ مِنَ الْمَاءِ فَأَقْمَحَ إِذَا رَفَعَ رأسه وغض بصره، وَالْإِقْمَاحُ: رَفْعُ الرَّأْسِ وَغَضُّ الْبَصَرِ، يُقَالُ: أَقْمَحَهُ الْغُلُّ إِذَا تَرَكَ رَأْسَهُ مرفوعا

من ضيق قال الْأَزْهَرِيُّ: أَرَادَ أَنَّ أَيْدِيَهُمْ لَمَّا غُلَّتْ إِلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ رَفَعَتِ الْأَغْلَالُ أذقانهم ورءوسهم، فهم مرفوعوا الرءوس بِرَفْعِ الْأَغْلَالِ إِيَّاهَا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ السَّدُّ هُوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، فَهُمْ قَوْمٌ قَدْ زَيَّنَ اللهُ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَتَرَكَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ وَيَتَرَدَّدُونَ، فَهُمْ يَعْمَهُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَمْتَثِلُونَ حَقًّا ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فَأَعْمَيْنَاهُمْ مِنَ التَّغْشِيَةِ وَهِيَ التَّغْطِيَةُ، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ سَبِيلَ الْهُدَىٰ، وروىٰ ابن إسحاق عنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَهُمْ جُلُوسٌ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّكُمْ إِنْ تَابَعْتُمُوهُ كُنْتُمْ مُلُوكًا فَإِذَا مُتُّمْ بُعِثْتُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَكَانَتْ لَكُمْ جِنَانٌ خَيْرٌ مِنْ جِنَانِ الْأُرْدُنِّ، وَأَنَّكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ كَانَ لَكُمْ مِنْهُ ذَبْحٌ ثُمَّ بُعِثْتُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَكَانَتْ لكم ناراً تُعَذَّبُونَ بِهَا، وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ وَفِي يَدِهِ حفنة من تراب، وقد أخذ الله تعالىٰ علىٰ أعينهم دونه، فجعل يذرها علىٰ رؤوسهم وَيَقْرَأُ: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾، وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ وَبَاتُوا رُصَدَاءَ عَلَىٰ بَابِهِ حَتَّىٰ خَرَجَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ خَارِجٌ مِنَ الدَّارِ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: نَنْتَظِرُ مُحَمَّدًا، قَالَ: قَدْ خَرَجَ عَلَيْكُمْ، فما بقي منكم من رجل إلا وَضَعَ عَلَىٰ رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ ذَهَبَ لِحَاجَتِهِ، فَجَعَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَنْفُضُ مَا عَلَىٰ رَأْسِهِ مِنَ التُّرَابِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ قَدْ خَتَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالَةِ، فَمَا يُفِيدُ فِيهِمُ الْإِنْذَارُ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ يَعْنِي الْقُرْآنَ فَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حَسَنٍ وَهُوَ الْجَنَّةُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ، وَقَالَ الحسن البصري: أَيْ نُحْيِيهِمْ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْجَهْلِ، قال القرطبي : وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ أَيْ نُحْيِيهِمْ بِالْبَعْثِ لِلْجَزَاءِ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِذِكْرِهِ كَتْبَ الْآثَارِ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ أَيْ مَا سَنُّوا مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فله أجرها وأجر مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا**»(١) ، وَقَالَ قَوْمٌ: قَوْلُهُ: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ أَيْ: خُطَاهُمْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: شَكَتْ بَنُو سَلَمَةَ بُعْدَ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ يَعْنِي مَا أَثَرُوا، يَقُولُ: مَا سَنُّوا مِنْ سُنَّةٍ فَعَمِلَ بِهَا قَوْمٌ مِنْ بَعْدِ

---

(١) مسلم (١٠١٧) .

موتهم، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ الْبَغَوِيِّ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ حَفِظْنَاهُ وَعَدَدْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ، ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ، وَالْإِمَامُ: مَا يُؤْتَمُّ بِهِ فِي الِاقْتِدَاء وَيعْمل عَلَىٰ حَسَبِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، قال ابن كثير : أَيْ وجميع الْكَائِنَاتِ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ مَضْبُوطٍ فِي لوح محفوظ، ﴿والإمام المبين﴾ ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتادة وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿يوم ندعو كل ناس بِإِمَامِهِمْ﴾ أَيْ بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ من خير أو شر.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يَعْنِي اذْكُرْ لَهُمْ شَبَهًا مِثْلَ حَالِهِمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ قيل هي أَنْطَاكِيَةُ، وَالْمَعْنَىٰ: اجْعَلْ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ مثلاً لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَتَعْيِينُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ، لَوْ كَانَ فِيهِ فَائِدَةٌ، لَعَيَّنَهَا اللهُ، فَالتَّعَرُّضُ لِذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ بَابِ التَّكَلُّفِ وَالتَّكَلُّمِ بِلَا عِلْمٍ، وَلِهَذَا إِذَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي مِثْلِ هَذَا تَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ الْخَبْطِ وَالْخَلْطِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ، مَا تَعْرِفُ بِهِ أَنَّ طَرِيقَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، الْوُقُوفُ مَعَ الْحَقَائِقِ، وَتَرْكُ التَّعَرُّضِ لِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَبِذَلِكَ تَزْكُو النَّفْسُ، وَيَزِيدُ الْعِلْمُ، مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ زِيَادَتَهُ بِذِكْرِ الْأَقْوَالِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا، وَلَا حُجَّةَ عَلَيْهَا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهَا مِنَ الْفَائِدَةِ إِلَّا تَشْوِيشُ الذِّهْنِ وَاعْتِيَادُ الْأُمُورِ الْمَشْكُوكِ فِيهَا ، ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ يَأْمُرُونَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ

وَالْمَعَاصِي.قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ بَعَثَهُمْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ ذَلِكَ حِينَ رُفِعَ عِيسَىٰ عليه السلام ، قَالَ ابنُ عاشور : وَتَحْقِيقُ الْقِصَّةِ: أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَدْعُ إِلَىٰ دِينِهِ غَيْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَكُنِ الدِّينُ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ إلّا تكلمة لِمَا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِكْمَالَهُ من شَرِيعَة التَّوْرَاة، وَلَكِنَّ عِيسَىٰ أَوْصَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ لَا يَغْفُلُوا عَنْ نَهْيِ النَّاسِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، فَكَانُوا إِذَا رَأَوْا رُؤْيَا أَوْ خَطَرَ لَهُمْ خَاطِرٌ بِالتَّوَجُّهِ إِلَىٰ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ إِسْرَائِيلَ أَوْ مِمَّا جَاوَرَهَا، أَوْ خَطَرَ فِي نُفُوسِهِمْ إِلْهَامٌ بِالتَّوَجُّهِ إِلَىٰ بَلَدٍ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ لِتَحْقِيقِ وَصِيَّةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي حُدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ بَعْدَ مَوْلِدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ قَالَ وَهْبٌ: اسْمُهُمَا يُوحَنَّا وَبُولِسُ، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ يعني فقوينا وَالتَّعْزِيزُ: التَّقْوِيَةُ، ﴿بِثَالِثٍ﴾ بِرَسُولٍ ثَالِثٍ وَإِنَّمَا أَضَافَ اللهُ الْإِرْسَالَ إِلَيْهِ لأن عيسىٰ إِنَّمَا بَعَثَهُمْ بِأَمْرِهِ تَعَالَىٰ، ﴿فَقَالُوا﴾ جَمِيعًا لِأَهْلِ أَنْطَاكِيَةَ، ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل: فـ قوله تعالىٰ :

[١٥] : ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أَيْ: تَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَتَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ. فَمَا الَّذِي فَضَّلَكُمْ عَلَيْنَا وَخَصَّكُمْ مِنْ دُونِنَا؟ ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ: أَنْكَرُوا عُمُومَ الرِّسَالَةِ، ثُمَّ أَنْكَرُوا أَيْضًا الْمُخَاطَبِينَ لَهُمْ، فَقَالُوا: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فِي دَعْوَاكُمُ الرِّسَالَةَ، فَقَالَتِ الرُّسُلُ:

[١٦] : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فَلَوْ كُنَّا كَاذِبِينَ، لَأَظْهَرَ اللهُ خِزْيَنَا، وَلَبَادَرَنَا بِالْعُقُوبَةِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَأَمَّا الهداية فهي إلىٰ الله تعالىٰ ، أَيِ الْبَلَاغِ الْوَاضِحِ دَلَالَةً وَهُوَ الَّذِي لَا إِيهَامَ فِيهِ وَلَا مواربة.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تَشَاءَمْنَا بِكُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطَرَ حبس عنهم حين قدم الرسل عليهم، فَقَالُوا: أَصَابَنَا هَذَا بِشُؤْمِكُمْ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا مِنَ الطِّيَرَةِ وَزَجْرِ الطَّيْرِ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ حتىٰ قيل لكل مَنْ تَشَاءَمَ: تَطَيَّرَ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَتَيَمَّنُ بِالسَّانِحِ: وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ. وَتَتَشَاءَمُ بِالْبَارِحِ: وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الشِّمَالِ ، رَوَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **مَنْ رَجَّعَتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ** » ، قِيلَ: وَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ثُمَّ يَمْضِي لِحَاجَتِهِ**»[١] ، ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لَنَقْتُلَنَّكُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِالْحِجَارَةِ ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَلَيَنَالَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ مُوجِعٌ، فَأَجَابَهُمُ الرُّسُلُ :

---

(١) أحمد (٧٠٤٥) .

[١٩] : ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ يَعْنِي شُؤْمُكُمْ مَعَكُمْ بِكُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ يَعْنِي أَصَابَكُمِ الشُّؤْمُ مِنْ قِبَلِكُمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: حَظُّكُمْ من الخير والشر، ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ يَعْنِي وُعِظْتُمْ بِاللهِ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ محذوف، الجواب: إِنْ ذُكِّرْتُمْ وَوُعِظْتُمْ بِاللهِ تَطَيَّرْتُمْ بِنَا، و﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ مُشْرِكُونَ مُجَاوِزُونَ الْحَدَّ، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: مُسْرِفُونَ فِي كُفْرِكُمْ، وَقَالَ ابْنُ بَحْرٍ: السَّرَفُ هَاهُنَا الْفَسَادُ، وَمَعْنَاهُ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وَهُوَ حَبِيبٌ النَّجَّارُ، وَقَالَ وَهْبٌ: كَانَ رَجُلًا يَعْمَلُ الْحَرِيرَ وَكَانَ سَقِيمًا قد أَسْرَعَ فِيهِ الْجُذَامُ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ عِنْدَ أَقْصَىٰ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا ذَا صَدَقَةٍ يَجْمَعُ كَسْبَهُ إِذَا أَمْسَىٰ فَيَقْسِمُهُ نِصْفَيْنِ، فَيُطْعِمُ نِصْفًا لِعِيَالِهِ وَيَتَصَدَّقُ بنصفه، فلما بلغه أن قومه قد قَصَدُوا قَتْلَ الرُّسُلِ جَاءَهُمْ، حِرْصًا عَلَىٰ نُصْحِ قَوْمِهِ حِينَ سَمِعَ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ وَآمَنَ بِهِ، وَعَلِمَ مَا رَدَّ بِهِ قَوْمُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: مَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ وَنَصَحَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَشَهِدَ لَهُمْ بِالرِّسَالَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَأْيِيدًا لِمَا شَهِدَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أَيْ: اتَّبِعُوا مَنْ نَصَحَكُمْ نُصْحًا يَعُودُ إِلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ، وَلَيْسَ يُرِيدُ مِنْكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَجْرًا عَلَىٰ نُصْحِهِ لَكُمْ وَإِرْشَادِهِ إِيَّاكُمْ، فَهَذَا مُوجِبٌ لِاتِّبَاعِ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَلَعَلَّهُ يَدْعُو وَلَا يَأْخُذُ أُجْرَةً، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ الْحَقِّ، فَدَفَعَ هَذَا الِاحْتِرَازَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ

مُهْتَدُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ إِلَّا لِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِحُسْنِهِ، وَلَا يَنْهَوْنَ إِلَّا بِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِقُبْحِهِ ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ قَالُوا لَهُ: وَأَنْتَ مُخَالِفٌ لِدِينِنَا وَمُتَابِعٌ دِينَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَمُؤْمِنٌ بِإِلَهِهِمْ؟.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أَيْ وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ يَوْمَ الْمَعَادِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، قِيلَ. أَضَافَ الْفِطْرَةَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ الْفِطْرَةَ أَثَرُ النِّعْمَةِ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ أَظْهَرَ، وَفِي الرُّجُوعِ مَعْنَىٰ الزَّجْرِ وكان بهم أليق وقيل: إنهم - لَمَّا قَالَ: اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ- أَخَذُوهُ فَرَفَعُوهُ إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَفَأَنْتَ تَتْبَعُهُمْ؟ فَقَالَ: ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، يعني وأي شيء فِي إِذَا لَمْ أَعْبُدِ الْخَالِقَ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تُرَدُّونَ عِنْدَ الْبَعْثِ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ، أَيْ لَا أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ بِسُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي﴾ لَا تَدْفَعُ عَنِّي، ﴿شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا شَفَاعَةَ لَهَا أَصْلًا فتغني ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ يُخَلِّصُونِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَقِيلَ: لَا يُنْقِذُونِ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ عَذَّبَنِي اللهُ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ خَطَأٍ ظَاهِرٍ ، أَيْ إِنِ اتَّخَذْتُهَا آلهة من دون الله.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يَعْنِي فَاسْمَعُوا مِنِّي، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ وَثَبَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ وَثْبَةَ رجل واحد فقتلوه ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعُوا قَوْلِي لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، قَالَ ابنٌ كثير : وهذا القول أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَىٰ وَاللهُ أَعْلَمُ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فَلَمَّا أَفْضَىٰ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، ﴿قَالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ يَعْنِي بِغُفْرَانِ رَبِّي لِي، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تَمَنَّىٰ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ أَنَّ اللهَ غَفَرَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ، لِيَرْغَبُوا فِي دِينِ الرُّسُلِ، فَلَمَّا قُتِلَ حَبِيبٌ غَضِبَ اللهُ لَهُ وَعَجَّلَ لهم النقمة، فأمر جبريل فَصَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَمَاتُوا عن آخرهم.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْد مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾، هذا رُجُوعٌ إِلَىٰ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ بَعْدَ أَنِ انْقَطَعَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ بِذِكْرِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ نَاصِحًا لَهُمْ وَكَانَ هَذَا الرُّجُوعُ بِمُنَاسَبَةِ أَنَّ الْقَوْمَ قَوْمُ ذَلِكَ الرَّجُلِ، فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، وَقِيلَ: الْجُنْدُ الْعَسَاكِرُ، أَيْ لَمْ أَحْتَجْ فِي هَلَاكِهِمْ إِلَىٰ إِرْسَالِ جُنُودٍ وَلَا جُيُوشٍ وَلَا عَسَاكِرَ بَلْ أُهْلِكُهُمْ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ ،﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وَمَا كُنَّا نَفْعَلُ هَذَا بَلِ الْأَمْرُ فِي إِهْلَاكِهِمْ كَانَ أَيْسَرَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي علىٰ قوم حبيب

مِنْ بَعْدِ قَتْلِهِ مِنْ جُنْدٍ وما كما منزلين، تَصْغِيرٌ لِأَمْرِهِمْ، أَيْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، أَوْ مِنْ بَعْدِ رَفْعِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ. وَقِيلَ: ﴿وما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: أَخَذَ جِبْرِيلُ بِعِضَادَتَيْ بَابِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً، ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون. وَالْخُمُودُ: انْطِفَاءُ النَّارِ، اسْتُعِيرَ لِلْمَوْتِ بَعْدَ الْحَيَاةِ الْمَلِيئَةِ بِالْقُوَّةِ وَالطُّغْيَانِ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَىٰ حَدَثٍ عَظِيمٍ حَدَثَ بِأَهْلِ أَنْطَاكِيَةَ عَقِبَ دَعْوَةِ الْمُرْسَلِينَ وَهُوَ كَرَامَةٌ لِشُهَدَاءِ أَتْبَاعِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ كَانَتِ الصَّيْحَةُ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ كَانَ الَّذِينَ خَمَدُوا بِهَا جَمِيعَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَلَعَلَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا كُلُّهُمْ بَعْدَ مَوْتِ الرَّجُلِ الَّذِي وَعَظَهُمْ وَبَعْدَ مُغَادَرَةِ الرُّسُلِ الْقَرْيَةَ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا حَسْرَةً عَلَىٰ الْعِبَادِ﴾ قَالَ ابنُ عباس : حَلَّ هَؤُلَاءِ مَحَلَّ مَنْ يُتَحَسَّرُ عَلَيْهِمْ، وقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي يَا حَسْرَتَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَالْحَسْرَةُ شِدَّةُ النَّدَامَةِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا حَسْرَةً﴾ وَنَدَامَةً وَكَآبَةً عَلَىٰ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالرُّسُلِ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْهَالِكِينَ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ قَالُوا: يَا حَسْرَةً أَيْ نَدَامَةً عَلَىٰ العباد يعني علىٰ العباد يعني الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ، فَتَمَنَّوُا الْإِيمَانَ حِينَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الْحَسْرَةُ لَا تُدْعَىٰ وَدُعَاؤُهَا تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِينَ، وَقِيلَ

العرب تقول: يا حسرتي وَيَا عَجَبًا عَلَىٰ طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ وَالنِّدَاءُ عِنْدَهُمْ بِمَعْنَىٰ التَّنْبِيهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَيُّهَا الْعَجَبُ هَذَا وَقْتُكَ؟ وَأَيَّتُهَا الْحَسْرَةُ هَذَا أَوَانُكِ؟ حَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ أَنَّ هَذَا زَمَانُ الْحَسْرَةِ وَالتَّعَجُّبِ، وَالْحَسْرَةُ: شِدَّةُ النَّدَمِ مَشُوبًا بِتَلَهُّفٍ عَلَىٰ نَفْعٍ فَائِتٍ. ثُمَّ بَيَّنَ سَبَبَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ، فَقَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:

[٣١] : ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أَلَمْ يُخْبَرُوا يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ وَالْقَرْنُ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ، سُمُّوا بِذَلِكَ لِاقْتِرَانِهِمْ فِي الْوُجُودِ، ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ لَا يَعُودُونَ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أَيْ وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، سَتَحْضُرُ لِلْحِسَابِ يوم القيامة بين يدي الله جلَّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر، قال القرطبي: نَبَّهَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذَا عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، وَذَكَّرَهُمْ تَوْحِيدَهُ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَاهَا بِالنَّبَاتِ وَإِخْرَاجِ الْحَبِّ مِنْهَا، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ يَعْنِي الْحِنْطَةَ وَالشَّعِيرَ وَمَا أَشْبَهَهُمَا، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أَيْ مِنَ الْحَبِّ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ، ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض، ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أَيْ جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَةٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أَيْ مِنَ الثَّمَرِ الْحَاصِلِ بِالْمَاءِ، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ أَيْ يَأْكُلُونَ مِنَ الذي عملته، ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من الزرع والغرس، والهاء عائدة إلىٰ (ما) التي هي بِمَعْنَىٰ الَّذِي، وَقِيلَ: مَا لِلنَّفْيِ في قوله ما عملته أيديهم أي وجدوها معمولة ولم تعمله أَيْدِيهِمْ، وَلَا صُنْعَ لَهُمْ فِيهَا، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ الضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ، وَقِيلَ: أَرَادَ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ الَّتِي لَمْ تَعْمَلْهَا يَدُ خَلْقٍ مِثْلَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَالنِّيلِ وَنَحْوِهَا، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ صُنْعٌ، وَلَا عَمَلٌ، إِنْ هُوَ إِلَّا صَنْعَةُ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَخَيْرِ الرَّازِقِينَ، وَأَيْضًا فَلَمْ تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ بِطَبْخٍ وَلَا غَيْرِهِ، بَلْ أَوْجَدَ اللهُ هَذِهِ الثِّمَارَ، غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ لِطَبْخٍ وَلَا شَيٍّ، تُؤْخَذُ مِنْ أَشْجَارِهَا، فَتُؤْكَلُ فِي الْحَالِ، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعْمَةَ اللهِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: إِنَّ النِّعْمَةَ مَوْصُولَةٌ بِالشُّكْرِ، وَالشُّكْرُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَزِيدِ، وَهُمَا مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ، فَلَنْ يَنْقَطِعَ الْمَزِيدُ مِنَ اللهِ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: أَسْأَلُكَ تَمَامَ النِّعْمَةِ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَالشُّكْرَ لَكَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَرْضَىٰ وَبَعْدَ الرِّضَا، وَالْخِيَرَةَ فِي جَمِيعِ مَا تَكُونُ فِيهِ الْخِيَرَةُ بِجَمِيعِ مَيْسُورِ الْأُمُورِ كُلِّهَا لَا مَعْسُورِهَا يَا كَرِيمُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي الأصناف كلها، وَالْأَزْوَاجُ الْأَنْوَاعُ وَالْأَصْنَافُ، فَكُلُّ زَوْجٍ صِنْفٌ، لِأَنَّهُ مُخْتَلِفٌ فِي الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالْأَشْكَالِ وَالصِّغَرِ وَالْكِبَرِ، فَاخْتِلَافُهَا هُوَ ازْدِوَاجُهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الثمار والحبوب، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ تَدَلُّ عَلَىٰ قُدْرَتِنَا، ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ نَنْزِعُ وَنَكْشِطُ، وَالسَّلْخُ: الْكَشْطُ وَالنَّزْعُ، يُقَالُ: سَلَخَهُ اللهُ مِنْ دِينِهِ، ثُمَّ تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ الْإِخْرَاجِ، وَقَدْ جَعَلَ ذَهَابَ الضَّوْءِ وَمَجِيءَ الظُّلْمَةِ كَالسَّلْخِ مِنَ الشَّيْءِ وَظُهُورِ الْمَسْلُوخِ فَهِيَ اسْتِعَارَةٌ ، ﴿مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ دَاخِلُونَ فِي الظُّلْمَةِ، وَمَعْنَاهُ نُذْهِبُ النَّهَارَ وَنَجِيءُ بِاللَّيْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ هِيَ الظُّلْمَةُ وَالنَّهَارُ دَاخِلٌ عَلَيْهَا، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ سُلِخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي إلىٰ مستقر لها. قيل: إِلَىٰ انْتِهَاءِ سَيْرِهَا عِنْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا وَقِيَامِ السَّاعَةِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَسِيرُ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ أَبْعَدِ مَغَارِبِهَا، ثُمَّ تَرْجِعُ فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا لِأَنَّهَا لَا تُجَاوِزُهُ، وَقِيلَ: مُسْتَقَرُّهَا نِهَايَةُ ارْتِفَاعِهَا فِي السَّمَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَنِهَايَةُ هُبُوطِهَا فِي الشِّتَاءِ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الَّذِي بِعِزَّتِهِ

دَبَّرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، بِأَكْمَلِ تَدْبِيرٍ، وَأَحْسَنِ نِظَامٍ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي بِعِلْمِهِ، جَعَلَهَا مَصَالِحَ لِعِبَادِهِ، وَمَنَافِعَ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي قدرنا له، التقدير: وقدرنا القمر منازل كما فعلنا بالشمس ﴿مَنَازِلَ﴾ فَإِذَا صَارَ الْقَمَرُ إِلَىٰ آخِرِ الْمَنَازِلِ دَقَّ وَالْمَعْنَىٰ: وَجَعَلْنَا الْقَمَرَ يَسِيرُ فِي مَنَازِلَ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالزَّمَانِ، كَمَا يُعْرَفُ بِالشَّمْسِ تَعَاقُبُ اللَّيْلِ مِنَ النَّهَارِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والعرجون عود العذق الَّذِي عَلَيْهِ الشَّمَارِيخُ فَإِذَا قَدُمَ عتق ويبس وَتَقَوَّسَ وَاصْفَرَّ، فَشُبِّهَ الْقَمَرُ فِي دِقَّتِهِ وَصُفْرَتِهِ فِي آخِرِ الْمَنَازِلِ بِهِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أَيْ لَا يَدْخُلُ النَّهَارُ عَلَىٰ اللَّيْلِ قَبْلَ انْقِضَائِهِ، وَلَا يَدْخُلُ اللَّيْلُ عَلَىٰ النَّهَارِ قَبْلَ انْقِضَائِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أَيْ هُمَا يَتَعَاقَبَانِ بِحِسَابٍ مَعْلُومٍ لَا يَجِيءُ أَحَدُهُمَا قَبْلَ وَقْتِهِ، وَقِيلَ: لَا يَدْخُلُ أَحَدُهُمَا فِي سلطان الآخر، لا يطلع الشَّمْسُ بِاللَّيْلِ وَلَا يَطْلُعُ الْقَمَرُ بالنهار وله ضوء، وإذا اجْتَمَعَا وَأَدْرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ قَامَتِ الْقِيَامَةُ ، وَقِيلَ: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القمر﴾ أي تَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي فَلَكٍ وَاحِدٍ ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أَيْ لَا يَتَّصِلُ لَيْلٌ بِلَيْلٍ لَا يكون بينهما فَاصِلٌ، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ جْرُونَ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ فِي فَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ غَيْرُ مُلْصَقَةٍ، وَلَوْ كَانَتْ مُلْصَقَةً مَا جَرَتْ .

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ قال القرطبي : يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا عِبْرَةٌ لَهُمْ، لِأَنَّ فِي الْآيَاتِ اعْتِبَارًا.

الثَّانِي نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ فِي الْآيَاتِ إِنْعَامًا.

الثَّالِثُ إِنْذَارٌ لَهُمْ، لِأَنَّ فِي الْآيَاتِ إنذاراً .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وَالْمُرَادُ بِالذُّرِّيَّةِ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ، وَاسْمُ الذُّرِّيَّةِ يَقَعُ عَلَىٰ الْآبَاءِ كَمَا يَقَعُ عَلَىٰ الْأَوْلَادِ، قال أَبُو عُثْمَانَ. وَسُمِّيَ الْآبَاءُ ذُرِّيَّةً، لِأَنَّ مِنْهُمْ ذَرْأَ الْأَبْنَاءِ ، ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أَيْ الْمَمْلُوءِ، وَالشَّحْنُ مَلْءُ السَّفِينَةِ بِالنَّاسِ وَالدَّوَابِّ وغيرهم ، والفلك السفينة ، وَمِنْهُ: فَلَكُ السَّمَاءِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهِ النُّجُومُ ، وَفَلَّكَتِ الْجَارِيَةُ اسْتَدَارَ ثَدْيُهَا، وَمِنْهُ فَلْكَةُ الْمِغْزَلِ، وَسُمِّيَتِ السَّفِينَةُ فُلْكًا لِأَنَّهَا تَدُورُ بِالْمَاءِ أَسْهَلَ دَوْرٍ، وَأَرَادَ سَفِينَةَ نُوحٍ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ نَسْلِ مَنْ حُمِلَ مَعَ نُوحٍ، وَكَانُوا فِي أَصْلَابِهِمْ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قيل: أراد به السفن الَّتِي عُمِلَتْ بَعْدَ سَفِينَةِ نُوحٍ علىٰ هيئتها. وقيل: أراد بالسفن الَّتِي تَجْرِي فِي الْأَنْهَارِ فَهِيَ فِي الْأَنْهَارِ كَالْفُلْكِ الْكِبَارِ فِي البحار، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ قَالَ: وَخَلَقْنَا لَهُم مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، يَعْنِي الْإِبِلَ؛ فَالْإِبِلُ فِي الْبَرِّ كَالسُّفُنِ فِي الْبَحْرِ، وَانْتَصَرَ السَّعْدِيُّ لِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: فَإِنْ أُرِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الْإِبِلُ، الَّتِي هِيَ سُفُنُ الْبَرِّ، اسْتَقَامَ الْمَعْنَىٰ وَاتَّضَحَ، فَإِنَّهُ لَا يَظْهَرُ الْمَعْنَىٰ، إِلَّا أَنْ يُقَالُ: الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الذُّرِّيَّةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أَيْ لَا مُغِيثَ، وَالصَّرِيخُ: الصَّارِخُ وَهُوَ الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَنْجِدُ تَقُولُ الْعَرَبُ: جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ، أَيِ الْمَنْكُوبُ الْمُسْتَنْجِدُ لِيُنْقِذُوهُ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا يَجِدُونَ مَنْ يَسْتَصْرِخُونَ بِهِ وَهُمْ فِي لُجُجِ الْبَحْرِ وَلَا يُنْقِذُهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْغَرَقِ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ينجون من الغرق، وَقِيلَ: مِنَ العذاب، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا أَحَدَ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِي، وَالْإِنْقَاذُ في اللغة: الِانْتِشَالُ مِنَ الْمَاءِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ إِلَىٰ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ، حَيْثُ لَمْ نُغْرِقْهُمْ، لُطْفًا بِهِمْ، وَتَمْتِيعًا لَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، أَوْ يَسْتَدْرِكُونَ مَا فَرَّطَ مِنْهُمْ، يَعْنِي إِلَّا أن يرحمهم ويمتعهم إلىٰ حين آجَالِهِمْ، قال يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: إِلَىٰ الْقِيَامَةِ أَيْ إِلَّا أَنْ نَرْحَمَهُمْ وَنُمَتِّعَهُمْ إِلَىٰ آجَالِهِمْ، وَأَنَّ اللهَ عَجَّلَ عَذَابَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَخَّرَ عَذَابَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وان كذبوه إلىٰ الموت والقيامة.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ يَعْنِي الْآخِرَةَ، فَاعْمَلُوا لَهَا وما خلفكم يعني من الدُّنْيَا فَاحْذَرُوهَا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِهَا، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَقَائِعُ اللهِ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا خَلْفَكُمْ عَذَابُ الْآخِرَةِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَيْ لَعَلَّ اللهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وَالْجَوَابُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِذَا قِيلَ لَهُمْ هَذَا أَعْرَضُوا عَنْهُ، دَلِيلُهُ مَا بَعْدَهُ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ دَلَالَةٌ عَلَىٰ صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أَيْ وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ وَالمحتاجين مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ﴾ أَنَرْزُقُ، ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا لِكُفَّارِ مَكَّةَ: أَنْفِقُوا عَلَىٰ الْمَسَاكِينِ مِمَّا زَعَمْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَنَّهُ لِلَّهِ، وَهُوَ ما جعلوه لِلَّهِ مِنْ حُرُوثِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، قَالُوا: أَنُطْعِمُ أَنَرْزُقُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ الله أطعمه رَزَقَهُ، ثُمَّ لَمْ يَرْزُقْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، فَنَحْنُ نُوَافِقُ مَشِيئَةَ اللهِ فَلَا نُطْعِمُ مَنْ لَمْ يُطْعِمْهُ اللهُ، وَهَذَا مِمَّا يَتَمَسَّكُ بِهِ الْبُخَلَاءُ، يَقُولُونَ: لَا نُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ اللهُ، وَهَذَا الَّذِي يَزْعُمُونَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ اللهَ أَغْنَىٰ بَعْضَ الْخَلْقِ وَأَفْقَرَ بَعْضَهُمُ ابْتِلَاءً، فَمَنَعَ الدُّنْيَا مِنَ الْفَقِيرِ لَا بُخْلًا وَأَمَرَ الْغَنِيَّ بِالْإِنْفَاقِ لَا حَاجَةً إِلَىٰ مَالِهِ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ الغني بالفقير فيما أمر وفرض لَهُ فِي مَالِ الْغَنِيِّ، وَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ وَحُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يَقُولُ الْكُفَّارُ لِلْمُؤْمِنِينَ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا فِي خَطَأٍ بَيِّنٍ فِي اتباعكم محمدا وَتَرْكِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أَيِ الْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ، وَكَانَ هَذَا اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ أَيْضًا أَيْ لَا تَحْقِيقَ لِهَذَا الْوَعِيدِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالىٰ: لا يستبعدوا ذلك، فإنه عن قريب: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أَيْ مَا يَنْتَظِرُونَ، ﴿إِلَّا

صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ النَّفْخَةَ الأولىٰ، وَهِيَ نَفْخَةُ إِسْرَافِيلَ ، وَالصَّيْحَةُ: الصَّوْتُ الشَّدِيدُ الْخَارِجُ مِنْ حَلْقِ الْإِنْسَانِ لِزَجْرٍ، أَوِ اسْتِغَاثَةٍ. وَأُطْلِقَتِ الصَّيْحَةُ فِي مَوَاضِعَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ صَوْتِ الصَّاعِقَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ ثَمُودٍ: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ [الْحجر: ٧٣] ، قوله : ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يَعْنِي يَخْتَصِمُونَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَيَتَكَلَّمُونَ فِي الْمَجَالِسِ وَالْأَسْوَاقِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: وَهُمْ لَاهُونَ عَنْهَا، لَمْ تَخْطُرْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فِي حَالِ خُصُومَتِهِمْ، وَتَشَاجُرِهِمْ بَيْنَهُمْ، الَّذِي لَا يُوجَدُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا وَقْتَ الْغَفْلَةِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيْ لَا يَسْتَطِيعُ بَعْضُهُمْ أن يوصىٰ تعضا لِمَا فِي يَدِهِ مِنْ حَقٍّ ، وَقِيلَ: لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالتَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ بَلْ يَمُوتُونَ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَوَاضِعِهِمْ. وَقِيلَ: لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالتَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ بَلْ يَمُوتُونَ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَوَاضِعِهِمْ. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَنْقَلِبُونَ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ السَّاعَةَ لَا تُمْهِلُهُمْ لِشَيْءٍ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهي الْأَخِيرَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، وهذه هي نفخة البعث والقيام لرب العالمين ، قال القرطبي : هَذِهِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ لِلنَّشْأَةِ. ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يَعْنِي الْقُبُورُ، وَاحِدُهَا: جَدَثٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يَخْرُجُونَ مِنَ الْقُبُورِ أَحْيَاءً، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْوَلَدِ: نَسْلٌ لِخُرُوجِهِ مِنْ بطن

أمه ، وَقِيلَ: يُسْرِعُونَ ، وَالنَّسَلَانُ وَالْعَسَلَانُ الْإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ، وَمِنْهُ مِشْيَةُ الذِّئْبِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يعنون قُبُورِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا، فَلَمَّا عَايَنُوا مَا كذبوا به فِي مَحْشَرِهِمْ وَالْمَرْقَدُ: مَكَانُ الرُّقَادِ، وَحَقِيقَةُ الرُّقَادِ: النَّوْمُ، وَأَطْلَقُوا الرُّقَادَ عَلَىٰ الْمَوْتِ وَالِاضْطِجَاعِ فِي الْقُبُورِ تَشْبِيهًا بِحَالَةِ الرَّاقِدِ ، قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرْفَعُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، فَيَرْقُدُونَ فَإِذَا بُعِثُوا بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأَخِيرَةِ وَعَايَنُوا الْقِيَامَةَ دَعَوْا بِالْوَيْلِ ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: إِنَّ الْكُفَّارَ إِذَا عَايَنُوا جَهَنَّمَ وَأَنْوَاعَ عَذَابِهَا صَارَ عَذَابُ الْقَبْرِ فِي جَنْبِهَا كَالنَّوْمِ، فَقَالُوا: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ ثُمَّ قَالُوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَقَرُّوا حِينَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ الْإِقْرَارُ، وَقِيلَ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُ الْكُفَّارُ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي وَعَدَكُمُ اللهُ بِهِ، وَوَعَدَتْكُمْ بِهِ الرُّسُلُ، فَظَهَرَ صِدْقُهُمْ رَأْيَ عَيْنٍ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يُنْفَخُ فِيهَا إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فَتَحْيَا الْأَجْسَادُ، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ، لِيُحَاسَبُوا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهَا، وَلَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهَا، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي افْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ، وَقَالَ وَكِيعُ بْنُ الْجِرَاحِ: فِي السَّمَاعِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: فِي شُغُلٍ عَنْ أَهْلِ النَّارِ وَعَمَّا هُمْ فِيهِ لَا يُهِمُّهُمْ أَمْرُهُمْ وَلَا يَذْكُرُونَهُمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: شُغِلُوا بِمَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: فِي زِيَارَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَقِيلَ: فِي ضِيَافَةِ اللهِ تعالىٰ، ﴿فَاكِهُونَ﴾ أَيْ نَاعِمُونَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مُعْجَبُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فَرِحُونَ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ، وَالْفُكَاهَةُ الْمِزَاحُ وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ، وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: يُقَالُ رَجُلٌ فَكِهٌ إِذَا كَانَ طَيِّبَ النَّفْسِ ضَحُوكًا.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ أي حلائلهم، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جَمْعِ ظل، أَيْ فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يَعْنِي السُّرَرَ فِي الْحِجَالِ وَاحِدَتُهَا أَرِيكَةٌ. قَالَ ثَعْلَبٌ: لَا تَكُونُ أَرِيكَةً حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَيْهَا حَجْلَةٌ، ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ ذَوُو اتِّكَاءٍ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين ورمان، وغيرها، ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّ مَنِ ادَّعَىٰ مِنْهُمْ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ،

لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ طَبَعَهُمْ عَلَىٰ أَلَّا يَدَّعِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَا يَجْمُلُ وَيَحْسُنُ أَنْ يَدَّعِيَهُ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ أَيْ يَقُولُ اللهُ لَهُمْ قَوْلًا، وقيل: يسلم عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ. وَقِيلَ: تُسَلِّمُ عليهم الملائكة من ربهم ، وقال مُقَاتِلٌ: تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ كُلِّ بَابٍ يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ رَبِّكُمُ الرَّحِيمِ ، وَقِيلَ: يُعْطِيهُمُ السَّلَامَةَ يَقُولُ: اسْلَمُوا السَّلَامَةَ الْأَبَدِيَّةَ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَقْبَلَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيُسَلِّمُ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، قَالَ الْقُرَظِيُّ: وَهَذَا فِي كِتَابِ اللهِ:﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ، وقوله: ﴿مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ أَيْ رَحِيمٌ بِهِمْ، إِذْ تَجَاوَزَ عَمَّا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ، وَتَدَارَكَهُمْ بِرَحْمَتِهِ .

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ قال مقاتل: اعتزلوا اليوم الصَّالِحِينَ ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: تَمَيَّزُوا ، فَيَتَمَيَّزُ النَّاسُ وَيَجْثُونَ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْوُقُوفِ لِلسُّؤَالِ حِينَ يُؤْمَرُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، أَيِ اخْرُجُوا مِنْ جُمْلَتِهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: عُزِلُوا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كُونُوا عَلَىٰ حِدَةٍ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: انْفَرِدُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: إِنَّ لِكُلِّ كَافِرٍ فِي النَّارِ بَيْتًا يُدْخَلُ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَيُرْدَمُ بَابُهُ بِالنَّارِ فَيَكُونُ فِيهِ أَبَدَ الْآبِدِينَ، لَا يَرَىٰ وَلَا يُرَىٰ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ﴾ أَلَمْ آمُرْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ، قال القرطبي : الْعَهْدُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْوَصِيَّةِ، أَيْ أَلَمْ أُوصِكُمْ وَأُبَلِّغْكُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ أَيْ لَا تُطِيعُوهُ فِي مَعْصِيَتِي ، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أَيْ لَا تُطِيعُوا الشَّيْطَانَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرَ الْعَدَاوَةِ، فَحَذَّرْتُكُمْ مِنْهُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، وَأَنْذَرْتُكُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ أَطِيعُونِي وَوَحِّدُونِي، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِعِصْيَانِ الشَّيْطَانِ وَأَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِي، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قال عزَّ وجلَّ:

[٦٢] : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ معناه: الْخَلْقُ وَالْجَمَاعَةُ أَيْ خَلْقًا كَثِيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ مَا أَتَاكُمْ مِنْ هَلَاكِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ بِطَاعَةِ إِبْلِيسَ، وَيُقَالُ لَهُمْ لَمَّا دَنَوْا مِنَ النَّارِ، فيُقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَيْ هَذِهِ الَّتِي حَذَّرَتْكُمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبْتُمُوهُمْ بها في الدنيا، أَيْ هَذِهِ الَّتِي حَذَّرَتْكُمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبْتُمُوهُمْ :

[٦٤] : ﴿اصْلَوْهَا﴾ ادْخُلُوهَا ، واصْلَوْهَا أَمْرٌ مِنْ صَلِيَ يَصْلَىٰ، إِذَا اسْتَدْفَأَ بِحَرِّ النَّارِ، وَإِطْلَاقُ الصَّلْيِ عَلَىٰ الْإِحْرَاقِ تَهَكُّمٌ ، ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

أَيْ: ادْخُلُوهَا عَلَىٰ وَجْهٍ تَصْلَاكُمْ، وَيُحِيطُ بِكُمْ حَرُّهَا، وَيَبْلُغُ مِنْكُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَتَكْذِيبِكُمْ لِرُسُلِ اللهِ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُنْكِرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا وَيَحْلِفُونَ مَا فَعَلُوهُ، فَيَخْتِمُ اللهُ علىٰ أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عليَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لكنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[١] .

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ أَيْ أَذْهَبْنَا أَعْيُنَهُمُ الظَّاهِرَةَ بِحَيْثُ لَا يَبْدُو لَهَا جَفْنٌ وَلَا شِقٌّ، وَهُوَ مَعْنَىٰ الطَّمْسِ كَمَا قال الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠] يَقُولُ: كَمَا أَعْمَيْنَا قُلُوبَهُمْ

---

(١) مسلم (٢٩٦٩) .

لَوْ شِئْنَا أَعْمَيْنَا أَبْصَارَهُمُ الظاهرة، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فتبَادَرُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فَكَيْفَ يُبْصِرُونَ وَقَدْ أَعْمَيْنَا أَعْيُنَهُمْ؟ يعني: لو تشاء لَأَضْلَلْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَىٰ، وَتَرَكْنَاهُمْ عُمْيًا يَتَرَدَّدُونَ، فَكَيْفَ يُبْصِرُونَ الطَّرِيقَ حِينَئِذٍ؟ هَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَعَطَاءٌ: مَعْنَاهُ لَوْ نَشَاءُ لَفَقَأْنَا أَعْيُنَ ضَلَالَتِهِمْ، فَأَعْمَيْنَاهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ، وَحَوَّلْنَا أَبْصَارَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، فَأَبْصَرُوا رُشْدَهُمْ، ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وَلَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ؟.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يعني مكانتهم، يُرِيدُ: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَقِيلَ: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً، وَهُمْ قُعُودٌ فِي مَنَازِلِهِمْ لَا أَرْوَاحَ لَهُمْ ، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني إلىٰ ما كانوا عليه علىٰ وَقِيلَ: لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَهَابٍ وَلَا رُجُوعٍ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أَيْ نَرُدُّهُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ شِبْهَ الصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ الْخَلْقِ ، مِنْ نَكَسْتُ الشَّيْءَ أَنْكُسُهُ نَكْسًا قَلَبْتُهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَانْتَكَسَ، وَقِيلَ: نُنَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ أَيْ نُضْعِفُ جَوَارِحَهُ بَعْدَ قُوَّتِهَا وَنَرُدُّهَا إِلَىٰ نُقْصَانِهَا بَعْدَ زِيَادَتِهَا ، وَقَالَ سُفْيَانُ فِي قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ إِذَا بَلَغَ ثَمَانِينَ سَنَةً تَغَيَّرَ جِسْمُهُ وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

فَيَعْتَبِرُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَىٰ تَصْرِيفِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ، وَمَا يَقُولُهُ شِعْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أَيْ: مَا يَتَسَهَّلُ لَهُ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ يَتَّزِنُ لَهُ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ، حَتَّىٰ إِذَا تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ مُنْكَسِرًا، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: هَذَا مِنْ جِنْسِ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا؛ لِأَنَّهُ رَشِيدٌ مُهْتَدٍ، وَالشُّعَرَاءُ غَاوُونَ يَتْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَسَمَ جَمِيعَ الشُّبَه الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الضَّالُّونَ عَلَىٰ رَسُولِهِ، فَحَسَمَ أَنْ يَكُونَ يَكْتُبُ أَوْ يَقْرَأُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مُوعظةٌ، ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ فِيهِ الْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالْأَحْكَامُ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أَيْ لِيُنْذِرَ الْقُرْآنُ، ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يَعْنِي مُؤْمِنًا حَيَّ الْقَلْبِ لِأَنَّ الْكَافِرَ كَالْمَيِّتِ فِي أَنَّهُ لَا يَتَدَبَّرُ وَلَا يَتَفَكَّرُ، ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ وَيَجِبُ حُجَّةُ الْعَذَابِ ﴿عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ .

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الْمُرَادُ رُؤْيَةُ الْقَلْبِ، فَهُمْ يُبْصِرُونَهَا فِي حَيَاتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ ، ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ تَوَلَّيْنَا خَلْقَهُ بِإِبْدَاعِنَا مِنْ غَيْرِ إِعَانَةِ أَحَدٍ، ﴿أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضَابِطُونَ قَاهِرُونَ، أَيْ لَمْ يَخْلُقِ الْأَنْعَامَ وَحْشِيَّةً نَافِرَةً مَنْ بَنِي آدَمَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ضَبْطِهَا

بَلْ هِيَ مُسَخَّرَةٌ لَهُمْ، وقَالَ قَتَادَةُ: مُطِيقُونَ أَيْ جَعَلَهُمْ يَقْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ، لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ بَلْ لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَىٰ بَعِيرٍ لَأَنَاخَهُ، وَالْأَنْعَامُ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ وَالْمَعْزُ، وَهِيَ قوله تعالىٰ :

[٧٢] : ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ سخرناها لهم، وَالتَّذْلِيلُ: جَعْلُ الشَّيْءِ ذَلِيلًا، حَتَّىٰ يَقُودَ الصَّبِيُّ الْجَمَلَ الْعَظِيمَ وَيَضْرِبَهُ وَيَصْرِفَهُ كَيْفَ شَاءَ لَا يَخْرُجُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَمَعْنَىٰ تَذْلِيلِ الْأَنْعَامِ خَلْقُ مَهَانَتِهَا لِلْإِنْسَانِ فِي جِبِلَّتِهَا بِحَيْثُ لَا تُقْدِمُ عَلَىٰ مُدَافَعَةِ مَا يُرِيدُ مِنْهَا فَإِنَّهَا ذَاتُ قُوَاتٍ يَدْفَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا عَنْ نَفْسِهِ بِهَا ، فَإِذَا زَجَرَهَا الْإِنْسَانُ أَوْ أَمَرَهَا ذَلَّتْ لَهُ وَطَاعَتْ مَعَ كَرَاهِيَتِهَا مَا يُرِيدُهُ مِنْهَا، مِنْ سَيْرٍ أَوْ حَمْلٍ أَوْ حَلْبٍ أَوْ أَخْذِ نَسْلٍ أَوْ ذَبْحٍ ، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أَيْ مَا يَرْكَبُونَ وَهِيَ الْإِبِلُ، وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ إِلَىٰ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: الرَّكُوبَةُ تَكُونُ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالرَّكُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْجَمَاعَةِ. فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ لِتَذْكِيرِ الْجَمْعِ ، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مِنْ لحومها.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أَيْ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أَيْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا لِمَنْ يَتَدَاوَىٰ وَنَحْوِ ذَلِكَ، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أَيْ أَفَلَا يُوَحِّدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ وَمُسَخِّرَهُ رَبَّ هَذِهِ النِّعَمِ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ؟ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهِ** »[1] .

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ يَعْنِي: لِتَمْنَعَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ قَطُّ، قَالَ السَّعْدِيُّ: هَذَا بَيَانٌ لِبُطْلَانِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ، الَّتِي اتَّخَذُوهَا مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرَجَوْا نَصْرَهَا وَشَفْعَهَا، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْعَجْزِ ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ قَالَ ابن جريج : يمْنَعُونَ .

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَقْدِرُ الْأَصْنَامُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أَيْ الْكُفَّارُ جُنْدٌ لِلْأَصْنَامِ يَغْضَبُونَ لَهَا وَيُحْضِرُونَهَا فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ خَيْرًا وَلَا تَسْتَطِيعُ لَهُمْ نَصْرًا،قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مَحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ عَابِدِيهَا، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وَأَدُلَّ عَلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: هَذَا فِي الْآخِرَةِ يُؤْتَىٰ بِكُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمَعَهُ أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ عَبَدُوهُ كَأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ فِي النَّارِ، قال ابن عاشور : وَالْمُحْضَرُ الَّذِي جِيءَ بِهِ لِيَحْضُرَ مَشْهَدًا، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّصْرَ مَعَ حُضُورِهِمْ فِي مَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) مسلم (٢٧٣٤) .

لِمُشَاهَدَةِ تَعْذِيبِهِمْ وَمَعَ كَوْنِهِمْ عَدَدًا كَثِيرًا وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ نَصْرِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهِمْ، أَيْ هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا تَأْيِيسٌ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ نَفْعِ أَصْنَامِهِمْ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَعْنِي قَوْلَ كُفَّارِ مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِكَ، وَالْمُرَادُ تَسْلِيَةُ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ لَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ: شَاعِرٌ سَاحِرٌ، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ أَوْ مَا يُعْلِنُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْأَذَىٰ، والمعنىٰ: أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم، يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، وَلَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ﴾ قال الحسن البصري: «نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيِّ خَاصَمَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَأَتَاهُ بِعَظْمٍ قَدْ بَلِيَ ففتته بيده، فقال: أَتُرَىٰ يُحْيِي اللهُ هَذَا بَعْدَمَا رَمَّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَمْ وَيَبْعَثُكَ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ**» فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾(١)، وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَاءِ، نَطِفَ إِذَا قَطَرَ، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ مُجَادِلٌ فِي الْخُصُومَةِ مُبِينٌ لِلْحُجَّةِ، يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ صَارَ بِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا خَصِيمًا مُبِينًا، ﴿مُبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْخُصُومَةِ، يَعْنِي أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يُخَاصِمُ، فَكَيْفَ لَا يَتَفَكَّرُ فِي بَدْءِ خَلْقِهِ حَتَّىٰ يَدَعَ الْخُصُومَةَ، عَنْ

---

(١) الحاكم (٣٧٥٨).

بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: « قَالَ اللهُ: **بَنِي آدَمَ، أَنَّىٰ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّىٰ إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ**[1]، **فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّىٰ أَوَانُ الصَّدَقَةِ..؟!**»[2] .

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أَيْ وَنَسِيَ أَنَّا أَنْشَأْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ مَيِّتَةٍ فَرَكَّبْنَا فيه الحياة ، أي جوابه مِنْ نَفْسِهِ حَاضِرٌ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْكَافِرَ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ إِنْ سَحَقْتُهَا وَأَذْرَيْتُهَا فِي الرِّيحِ أَيُعِيدُهَا اللهُ! فَنَزَلَتْ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهَا فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بَالِيَةٌ، يُقَالُ: رَمَّ الْعَظْمُ وَأَرَمَّ، إِذَا بَلِيَ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ خَلَقَهَا، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم العظام فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا، أَيْنَ ذَهَبَتْ وأين تفرقت وتمزقت.

---

(١) أي: مشيت متكبراً، وتركت النظر في أصلك وفي أمر خالقك.

(٢) أحمد (١٧٨٤٣) .

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّارَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ قَادِرٌ أَنْ يَبْعَثَهُ، فَدَلَّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ بِمَا يُعَايِنُهُ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ إِخْرَاجِ الْعُودِ الْيَابِسِ الْقَابِلِ لِلِاحْتِرَاقِ مِنَ الْعُودِ النَّدِيِّ الرَّطْبِ ، ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تَقْدَحُونَ وَتُوقِدُونَ النَّارَ مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: أن يعيدهم بأعيانهم ﴿بَلَىٰ﴾ قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ خامِسٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ الْخَلَّاقُ، الَّذِي جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، مُتَقَدِّمُهَا وَمُتَأَخِّرُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، كُلُّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ أَرَادَ خَلْقَهُ ، فَإِعَادَتُهُ لِلْأَمْوَاتِ، فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ آثَارِ خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٨٢] : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء ، ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: في الحال من غير تمانع.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هَذَا دَلِيلٌ سَادِسٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي جَمِيعُ مَا سَكَنَ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مُلْكٌ لَهُ، وَعَبِيدٌ مُسَخَّرُونَ وَمُدَبَّرُونَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِأَقْدَارِهِ الْحِكَمِيَّةِ، وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَحْكَامِهِ الْجَزَائِيَّةِ، فَإِعَادَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ

مَوْتِهِمْ، لِيُنَفِّذَ فِيهِمْ حُكْمَ الْجَزَاءِ، مِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مِنْ غَيْرِ امْتِرَاءٍ وَلَا شَكٍّ، لِتَوَاتُرِ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَدِلَّةِ السَّاطِعَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ. فَتَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي كَلَامِهِ الْهُدَىٰ وَالشِّفَاءَ وَالنُّورَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ يس بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ وَهِيَ السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُونَ فِي تَعْدَادِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَقَبْلَ سُورَةِ لُقْمَانَ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما: هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ يَصُفُّونَ كَصُفُوفِ الْخَلْقِ فِي الدنيا للصلاة، وَقِيلَ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ تَصُفُّ أَجْنِحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ وَاقِفَةً حَتَّىٰ يَأْمُرَهَا الله تعالىٰ بما يريده. وَقِيلَ: هِيَ الطُّيُورُ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: ﴿ صَفًّا﴾ لِصُفُوفِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ ، روىٰ مسلم عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟**» قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**»(١).

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ يعني تَزْجُرُ السَّحَابَ وَتَسُوقُهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ زَوَاجِرُ الْقُرْآنِ تَنْهَىٰ وَتَزْجُرُ عن القبائح.

---

(١) مسلم (٤٣٠).

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هم الملائكة يتلون ذكر، قَالَ السُّدِّيُّ: الْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بِالْكِتَابِ والقرآن من عند الله إلىٰ الناس، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمُرَادُ كُلُّ مَنْ تَلَا ذِكْرَ اللهِ تَعَالَىٰ وَكُتُبَهُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ ، أَيْ وَرَبِّ الصَّافَّاتِ وَالزَّاجِرَاتِ وَالتَّالِيَاتِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ بِمَكَّةَ قَالُوا أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهـًا واحِداً، وَكَيْفَ يَسَعُ هَذَا الْخَلْقَ فَرْدُ إِلَهٍ! فَأَقْسَمَ اللهُ بِهَؤُلَاءِ تشريفا.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أَيْ مَطَالِعَ الشَّمْسِ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْأَرْضَ كُرَوِيَّةً، فَنِصْفُ الْكُرَةِ الْمُوَاجِهُ لِلشَّمْسِ يَكُونُ فِيهِ الْيَوْمُ نَهَارًا، وَالنِّصْفُ الْخَلْفِيُّ لَيْلًا، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَرْضُ أَوِ الشَّمْسُ تَدُورُ بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَىٰ الْغَرْبِ، فَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَتَكَوَّنُ شُرُوقٌ وَغُرُوبٌ لَا يَفْتَرَانِ أَبَدًا، ثُمَّ إِنَّ شُرُوقَ الشَّمْسِ فِي الصَّيْفِ مِنَ الْمَشْرِقِ مَعَ مَيْلٍ إِلَىٰ الشَّمَالِ، وَغُرُوبَهَا مِنَ الْغَرْبِ مَعَ مَيْلٍ نَحْوَ الشَّمالِ، وَالْقَمَرَ فِي الصَّيْفِ يُشْرِقُ مِنَ الشَّرْقِ مَعَ مَيْلٍ نَحْوَ الْجَنُوبِ، وَيَغْرُبُ مِنَ الْغَرْبِ مَعَ مَيْلٍ نَحْوَ الْجَنُوبِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِضَوْءِ الْكَوَاكِبِ ، قَالَ قَتَادَةُ: خُلِقَتِ النُّجُومُ ثَلَاثًا، رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَنُورًا يُهْتَدَىٰ بِهَا، وَزِينَةً لِسَمَاءِ الدُّنْيَا .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحِفْظًا﴾ أَيْ وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا ، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ مُتَمَرِّدٍ يُرْمَوْنَ بِهَا، وَالْمَارِدُ: الْعَاتِي مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّيهِ شَيْطَانًا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَتَسَمَّعُونَ وَلَكِنْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَالتَّسَمُّعُ: تَطَلُّبُ السَّمْعِ وَتَكَلُّفُهُ، ﴿إِلَىٰ الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ الْمَلَأُ: الْجَمَاعَةُ أَهْلُ الشَّأْنِ وَالْقَدْر، وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا الْمَلَائِكَةُ، وَالْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ هُمُ الْمَلَائِكَةُ لِأَنَّهُمْ فِي السَّمَاءِ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الِاسْتِمَاعَ إِلَىٰ الملأ الأعلىٰ، عَن عَائِشَة قَالَت: « سَأَلَ أنَاس النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن الْكُهَّان فَقَالَ : **إِنَّهُم لَيْسُوا بِشَيْء** ، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله إِنَّهُم يحدثوننا أَحْيَانًا بالشَّيْء يكون حَقًّا ؟ قَالَ: **تِلْكَ الْكَلِمَة من الْحق يَخْطفهَا الجني فيقذفها فِي أذن وليه فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكثر من مائَة كذبة** »[١] ، ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرمون، وَالْقَذْفُ: الرَّجْمُ، ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من كل آفاق السماء بالشهب ، وَالْجَانِبُ: الْجِهَةُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿دُحُورًا﴾ يُبْعِدُونَهُمْ عَنْ مَجَالِسِ الْمَلَائِكَةِ، وَالدُّحُورُ: الطَّرْدُ ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دَائِمٌ، قَالَ مُقَاتِلٌ: دَائِمٌ إِلَىٰ النَّفْخَةِ الْأُولَىٰ لِأَنَّهُمْ يُحْرَقُونَ وَيَتَخَبَّلُونَ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ يُطْرَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَيُحَقَّرُونَ وَلَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ فِي الْآخِرَةِ.

---

(١) البخاري (٥٧٦٢) ومسلم (٢٢٢٨) .

[١٠] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ اخْتَلَسَ الْكَلِمَةَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ مسارقة، وَالْخَطْفُ: أَخْذُ الشَّيْءِ بِسُرْعَةٍ، ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه، ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ قَوِيٌّ لَا يُخْطِئُهُ يَقْتُلُهُ، أَوْ يَحْرِقُهُ أَوْ يُخْبِلُهُ، وَإِنَّمَا يَعُودُونَ إِلَىٰ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ طَمَعًا فِي السَّلَامَةِ وَنَيْلِ المراد، كراكب السفينة، قَالَ عَطَاءٌ: سُمِّيَ النَّجْمُ الَّذِي يُرْمَىٰ بِهِ الشَّيَاطِينُ ثَاقِبًا لِأَنَّهُ يثقبهم ، وَالثَّاقِبُ: الْخَارِقُ، أَيِ الَّذِي يَتْرُكُ ثُقْبًا فِي الْجِسْمِ الَّذِي يُصِيبُهُ، أَيْ ثَاقِبٌ لَهُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعين أسأل أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يَعْنِي مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّقْرِيرِ، أَيْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا كَمَا قَالَ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غَافِرٍ: ٥٧]، وَقَالَ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧] ، وَقِيلَ: ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يَعْنِي مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، لِأَنَّ ﴿ مَنْ﴾ يُذْكَرُ فِيمَنْ يَعْقِلُ، يَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِأَحْكَمَ خَلْقًا مَنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَمَا الَّذِي يُؤَمِّنُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَذَابِ؟! ثُمَّ ذَكَرَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ يَعْنِي جِيدٌ حُرٌّ لَاصِقٌ يَعْلَقُ باليد، قَالَ مجاهد: هُوَ الْجَيِّدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ وَالْعَجَبُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ كَالتَّعَجُّبِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ كَمَا قَالَ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] أن قال

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ، والعجب مِنَ الْآدَمِيِّينَ إِنْكَارُهُ وَتَعْظِيمُهُ، وَالْعَجَبُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ وَالذَّمِّ، وَقَدْ يَكُونُ بمعنىٰ الاستحسان والرضا، قَالَ قَتَادَةُ: عَجِبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ حِينَ أُنْزِلَ وَضَلَالِ بَنِي آدَمَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ يُؤْمِنُ بِهِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ الْقُرْآنَ سَخِرُوا مِنْهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قَالَ مجاهد: يَسْتَهْزِئُونَ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ يعني إِذَا وُعِظُوا بِالْقُرْآنِ لَا يَتَّعِظُونَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي انشقاق القمر، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يسخرون ويستهزئون، وَقِيلَ: يَسْتَدْعِي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ السُّخْرِيَةَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أَيْ وَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون، ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صَاغِرُونَ، وَالدُّخُورُ أَشَدُّ الصَّغَارِ، وَالدَّاخِرُ: الصَّاغِرُ الذَّلِيلُ، أَيْ تُبْعَثُونَ بَعْثَ إِهَانَةٍ مُؤْذِنَةٍ بِتَرَقُّبِ الْعِقَابِ لَا بَعْثَ كَرَامَةٍ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أَيْ قِصَّةُ الْبَعْثِ أَوِ الْقِيَامَةِ، ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي صيحة، ﴿وَاحِدَةٌ﴾ يَعْنِي نَفْخَةَ الْبَعْثِ، وَسُمِّيَتِ الصَّيْحَةُ زَجْرَةً، لِأَنَّ مَقْصُودَهَا الزَّجْرُ أَيْ يُزْجَرُ بِهَا كَزَجْرِ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ عِنْدَ السَّوْقِ، ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإنما هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، يدعوهم أَن يَخْرُجُواْ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا يا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أَيْ يَوْمُ الْحِسَابِ وَيَوْمُ الْجَزَاءِ ، نَادَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ، لِأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَعْلَمُونَ مَا حَلَّ بِهِمْ .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يَوْمُ الْقَضَاءِ، وَقِيلَ: يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، قِيلَ: هُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَقِيلَ: مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، أَيْ هَذَا يَوْمُ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ فَيَبِينُ الْمُحِقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ، ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هُوَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، أَيْ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَذَّبْنَا بِهِ، وَقِيلَ: مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، أَيْ هَذَا يَوْمُ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ فَيَبِينُ الْمُحِقُّ مِنَ الْمُبْطِلِ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيْ أَشْرَكُوا، اجْمَعُوهُمْ إِلَىٰ الْمَوْقِفِ للحساب والجزاء، ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أشياعهم وَأَتْبَاعَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ: كل من عَمَلٍ مِثْلِ عَمَلِهِمْ فَأَهْلُ الْخَمْرِ مَعَ أَهْلِ الْخَمْرِ وَأَهْلُ الزِّنَا

مَعَ أَهْلِ الزِّنَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ ومقاتل: وقرناءهم مِنَ الشَّيَاطِينِ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي سِلْسِلَةٍ، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالشَّيَاطِينِ وَإِبْلِيسَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فِي الدُّنْيَا، يَعْنِي الْأَوْثَانَ وَالطَّوَاغِيتَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ، ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ سُوقُوهُمْ إِلَىٰ النَّارِ، وَقِيلَ: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أَيْ دُلُّوهُمْ، يُقَالُ: هَدَيْتُهُ إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وَهَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ، أَيْ دَلَلْتُهُ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: دُلُّوهُمْ إِلَىٰ طَرِيقِ النَّارِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واحبسوهم، يُقَالُ: وَقَفْتُهُ وَقْفًا فَوَقَفَ وُقُوفًا، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمَّا سِيقُوا إِلَىٰ النَّارِ حُبِسُوا عِنْدَ الصِّرَاطِ لِأَنَّ السُّؤَالَ عِنْدَ الصِّرَاطِ، فَقِيلَ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَنْ جَمِيعِ أقوالهم وأفعالهم، قال الضَّحَّاكُ: عَنْ خَطَايَاهُمْ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أَيْ لَا تَتَنَاصَرُونَ، عَلَىٰ جِهَةِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيَمْنَعُهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ: مَا لَكُمَ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ هَذَا جَوَابٌ لِأَبِي جَهْلٍ حيث قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٢٦]: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَاضِعُونَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مُنْقَادُونَ؟ يُقَالُ اسْتَسْلَمَ لِلشَّيْءِ إِذَا انْقَادَ لَهُ وَخَضَعَ لَهُ، قَالَ قَتَادَةُ: مُسْتَسْلِمُونَ فِي عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالْمَعْنَىٰ: هُمُ الْيَوْمَ أَذِلَّاءُ مُنْقَادُونَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يَتَخَاصَمُونَ ، يَعْنِي الرُّؤَسَاءَ وَالْأَتْبَاعَ يَتَخَاصَمُونَ، يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُوَبِّخُهُ فِي أَنَّهُ أَضَلَّهُ أَوْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَقِيلَ: بَلْ هُوَ التَّخَاصُمُ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَمَا يَتَخَاصَمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ أَيِ الْأَتْبَاعُ لِلرُّؤَسَاءِ، ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أَيْ مِنْ قِبَلِ الدِّينِ فَتُضِلُّونَنَا عَنْهُ وَتُرُونَنَا أَنَّ الدِّينَ مَا تُضِلُّونَنَا بِهِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَنِ الصِّرَاطِ الْحَقِّ، وَالْيَمِينُ عِبَارَةٌ عن الدين والحق، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ الرُّؤَسَاءُ يَحْلِفُونَ لَهُمْ أَنَّ مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، فَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أَيْ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَيْمَانِ الَّتِي كُنْتُمْ تَحْلِفُونَهَا فَوَثِقْنَا بِهَا ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ قَوْلُ الْكُفَّارِ لِلشَّيَاطِينِ، قال قَتَادَةُ: أَيْ تَأْتُونَنَا عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَتَصُدُّونَنَا عَنْهَا، قِيلَ: تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ الَّتِي نُحِبُّهَا وَنَتَفَاءَلُ بِهَا لِتَغُرُّونَا بِذَلِكَ مِنْ جِهَةِ النُّصْحِ، وَالْعَرَبُ تَتَفَاءَلُ بِمَا جَاءَ عَنِ الْيَمِينِ وَتُسَمِّيهِ السَّانِحَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الرُّؤَسَاءَ لِلْأَتْبَاعِ، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا قَوْلُ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لَمْ تَكُونُوا عَلَىٰ الْحَقِّ فَنُضِلَّكُمْ عَنْهُ، أَيْ إِنَّمَا كان الكفر من اختياركم .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ مِنْ قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ فَنَقْهَرَكُمْ عَلَىٰ مُتَابَعَتِنَا، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ بَلْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ قَوْمًا طَاغِينَ عَلَىٰ اللهِ، مُتَعَدِّينَ إِلَىٰ مَا لَيْسَ لَكُمُ التَّعَدِّي إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَخِلَافِ أَمْرِهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَحَقَّ علينا﴾ أَيْ وَجَبَ علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو الْعَذَابَ، كَمَا كَتَبَ اللهُ وَأَخْبَرَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] جميعًا، ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ يَعْنِي كَلِمَةُ الْعَذَابِ، ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ الْعَذَابَ، أَيْ أَنَّ الضَّالَّ وَالْمُضِلَّ جَمِيعًا فِي النَّارِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: حَقَّ عَلَيْنَا قَدَرُ رَبِّنَا وَقَضَاؤُهُ، أَنَّا وَإِيَّاكُمْ سَنَذُوقُ الْعَذَابَ، وَنَشْتَرِكُ فِي الْعِقَابِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ فَأَضْلَلْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ مَا كُنَّا عَلَيْهِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ زَيَّنَّا لَكُمْ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِالْوَسْوَسَةِ وَالِاسْتِدْعَاءِ الْإِغْوَاءُ إِيقَاعُ الْغَيِّ فِي الْقَلْبِ، و﴿الْغَيِّ﴾ مَصْدَرٌ مِنْ غَوَىٰ يَغْوِي إِذَا ضَلَّ فِي مُعْتَقَدٍ أَوْ رَأْيٍ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ ضالين.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَتْبَاعُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَإِنْ تَفَاوَتَتْ مَقَادِيرُ عَذَابِهِمْ بِحَسَبِ جُرْمِهِمْ، كَمَا اشْتَرَكُوا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ الْكُفْرِ، اشْتَرَكُوا فِي الْآخِرَةِ بِجَزَائِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٣٤] : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَيَمْتَنِعُونَ مِنْهَا، قال أبو هريرة : هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، اسْتَكْبَرَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ يَوْمَ كَاتَبَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ قَضِيَّةِ الْمُدَّةِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ردا عليهم:

[٣٧] : ﴿بَلْ جَاءَ بالحقِّ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالتَّوْحِيدَ ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيْ أَنَّهُ أَتَىٰ بِمَا أَتَىٰ به الرسل قَبْلَهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَلَوْلَا مَجِيئُهُ وَإِرْسَالُهُ لَمْ يَكُنِ الرُّسُلُ صَادِقِينَ، فَهُوَ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ لِكُلِّ رَسُولٍ قَبْلَهُ، لِأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا بِهِ وَبَشَّرُوا، وَأَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، لَئِنْ جَاءَهُمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَخَذُوا ذَلِكَ عَلَىٰ أُمَمِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ ظَهَرَ صِدْقُ الرُّسُلِ الَّذِينَ قَبْلَهُ، وَتَبَيَّنَ كِذْبُ مَنْ خَالَفَهُمْ، فَلَوْ قُدِّرَ عَدَمُ مَجِيئِهِ، وَهُمْ قَدْ أَخْبَرُوا بِهِ، لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِي صِدْقِهِمْ. وَصَدَّقَ أَيْضًا الْمُرْسَلِينَ، بِأَنْ جَاءَ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَىٰ مَا دَعَوْا إِلَيْهِ، وَآمَنَ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ بِصِحَّةِ رِسَالَتِهِمْ وَنُبُوَّتِهِمْ وَشَرْعِهِمْ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ وَالْأَصْلُ: لَذَائِقُونَ، حُذِفَتِ النُّونُ لِلْإِضَافَةِ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: هَذَا مِنْ كَلَامِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُوَجَّهِ

إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ عَقِبَ تَسَاؤُلِهِمْ وَتَحَاوُرِهِمْ فَيَكُونُ مَا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مُحَاوَرَتِهِمُ الْمُنْتَهِيَةِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢] اعْتِرَاضًا، أيْ فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ تَحَاوُرِهِمْ خُوطِبُوا بِمَا يَقْطَعُ طَمَعَهُمْ فِي قَبُولِ تَنَصُّلِ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مِنْ تَبِعَاتِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ لِيَزْدَادُوا تَحَقُّقًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَلِمُوهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الموحدين، الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ الْعِبَادَةَ، وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ذَائِقُو الْعَذَابِ لَكِنْ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ لَا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أَيْ لَهُمْ عَطِيَّةٌ مَعْلُومَةٌ لَا تَنْقَطِعُ. قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الْجَنَّةَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي رِزْقَ الْجَنَّةِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَاكِهُ﴾ جَمْعُ الْفَاكِهَةِ وَهِيَ الثِّمَارُ كُلُّهَا رَطْبُهَا وَيَابِسُهَا، وَهِيَ كُلُّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ لَا لِلْقُوتِ، ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أَيْ وَلَهُمْ إِكْرَامٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ بِرَفْعِ الدَّرَجَاتِ وَسَمَاعِ كَلَامِهِ وَلِقَائِهِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يَعْنِي: فِي بَسَاتِينَ النَّعِيمِ .

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ لَا يَرَىٰ بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾ إِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ وَلَا يَكُونُ كَأْسًا حَتَّىٰ يَكُونَ فِيهِ شَرَابٌ، وَإِلَّا فَهُوَ إِنَاءٌ، قال السُّدِّيُّ: كُلُّ كَأْسٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ

الْخَمْرُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْإِنَاءِ إِذَا كَانَ فِيهِ خَمْرٌ كَأْسٌ ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ خَمْرٍ جَارِيَةٍ فِي الْأَنْهَارِ ظَاهِرَةٍ تراها العيون.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَيْضَاءَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بياضا من اللبن، ﴿لَذَّةٍ﴾ أي لذيذة، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ ذَاتِ لَذَّةٍ فَحُذِفَ الْمُضَافُ، ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ: لَا تَغْتَالُ عُقُولَهُمْ فَتَذْهَبَ بِهَا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: إِثْمٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَجِعُ الْبَطْنِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: صُدَاعٌ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: الْغَوْلُ فَسَادٌ يَلْحَقُ فِي خَفَاءٍ، يُقَالُ: اغْتَالَهُ اغْتِيَالًا إِذَا أَفْسَدَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ فِي خُفْيَةٍ، وَخَمْرَةُ الدُّنْيَا يَحْصُلُ مِنْهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْفَسَادِ، مِنْهَا السُّكْرُ وَذَهَابُ الْعَقْلِ وَوَجَعُ الْبَطْنِ وَالصُّدَاعُ وَالْقَيْءُ وَالْبَوْلُ، وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي خَمْرِ الْجَنَّةِ، ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أَيْ لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ بِشُرْبِهَا، وَلَا يَسْكَرُونَ، يُقَالُ: نَزَفَ الرَّجُلُ إِذَا سَكِرَ، فَنَفَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ خَمْرِ الْجَنَّةِ الْآفَاتِ الَّتِي تَلْحَقُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَمْرِهَا مِنَ الصُّدَاعِ وَالسُّكْرِ، وَإِنَّمَا صَرَفَ اللهُ تَعَالَىٰ السُّكْرَ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِئَلَّا يَنْقَطِعُ الِالْتِذَاذُ عَنْهُمْ بِنَعِيمِهِمْ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ حَابِسَاتُ الْأَعْيُنِ أَيْ نِسَاءٌ قَدْ قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَنْظُرْنَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، ﴿عِينٌ﴾ أَيْ حَسَّانُ الْأَعْيُنِ، يُقَالُ: رَجُلٌ أَعْيَنُ وَامْرَأَةٌ عَيْنَاءُ وَنِسَاءٌ عِينٌ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ جمع البيضة، ﴿مَكْنُونٌ﴾ أَيْ مَصُونٌ مَسْتُورٌ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمَكْنُونَ وَالْبَيْضَ جمع لِأَنَّهُ رَدَّهُ إِلَىٰ اللَّفْظِ ، قَالَ الْحَسَنُ:

شَبَّهَهُنَّ بِبَيْضِ النَّعَامَةِ تُكِنُّهَا بالريش من الريح والغبار حين خروجها، فَلَوْنُهَا أَبْيَضُ فِي صُفْرَةٍ ، وَيُقَالُ: هَذَا أَحْسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ ﴿ بَيْضَاءَ﴾ مُشْرَبَةً صُفْرَةً، وَالْعَرَبُ تُشَبِّهُهَا بِبَيْضَةِ النَّعَامَةِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يَعْنِي أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا. وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْأُنْسِ فِي الْجَنَّةِ. وَ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ مَعْنَىٰ ﴿ يُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ الْمَعْنَىٰ يَشْرَبُونَ فَيَتَحَادَثُونَ عَلَىٰ الشَّرَابِ كَعَادَةِ الشُّرَّابِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أَيْ صديق ملازم فِي الدُّنْيَا يُنْكِرُ الْبَعْثَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ شَيْطَانًا ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: كَانَ مِنَ الْإِنْسِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ الصَّاحِبُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَيَقُولُ لَهُ الْمُشْرِكُ: إِنَّكَ لَتُصَدِّقُ بِأَنَّكَ مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ، ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ فَلَمَّا أَنْ صَارُوا إِلَىٰ الْآخِرَةِ وَأُدْخِلَ الْمُؤْمِنُ الْجَنَّةَ وَأُدْخِلَ الْمُشْرِكُ النَّارَ، فَاطَّلَعَ الْمُؤْمِنُ فَرَأَىٰ صَاحِبَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْقَرِينِ قَرِينَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ كَانَ يوسوس إليه بإنكار البعث، يَعْنِي يَقُولُ ذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ، وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾، أي بالبعث وَالْجَزَاءِ ، يَعْنِي يَقُولُ ذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ، وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ .

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مَجْزِيُّونَ وَمُحَاسَبُونَ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: كَيْفَ تُصَدِّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْبَعِيدِ، الَّذِي فِي غَايَةِ الِاسْتِغْرَابِ، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا تَمَزَّقْنَا، فَصِرْنَا تُرَابًا وَعِظَامًا، أَنَّنَا نُبْعَثُ وَنُعَادُ، ثُمَّ نُحَاسَبُ وَنُجَازَىٰ بِأَعْمَالِنَا؟ أَيْ: يَقُولُ صَاحِبُ الْجَنَّةِ لِإِخْوَانِهِ: هَذِهِ قِصَّتِي، وَهَذَا خَبَرِي، أَنَا وَقَرِينِي، مَا زِلْتُ أَنَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَهُوَ مَا زَالَ مُكَذِّبًا مُنْكِرًا لِلْبَعْثِ، حَتَّىٰ مُتْنَا، ثُمَّ بُعِثْنَا، فَوَصَلْتُ أَنَا إِلَىٰ مَا تَرَوْنَ، مِنَ النَّعِيمِ، الَّذِي أَخْبَرَتْنَا بِهِ الرُّسُلُ، وَهُوَ لَا شَكَّ، أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ الْعَذَابِ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ اللهُ تَعَالَىٰ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ إِلَىٰ النَّارِ، وَقِيلَ: يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لإخوانه أَهْلِ الْجَنَّةِ: هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إِلَىٰ النَّارِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ مَنْزِلَةُ أَخِي فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: أَنْتَ أعرف به منا، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ ابن الأعرابي: وَلَيْسَ ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ بِاسْتِفْهَامٍ، إِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ، أَيِ اطَّلِعُوا.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاطَّلَعَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوًىٰ يَنْظُرُ أَهْلُهَا مِنْهَا إِلَىٰ النَّارِ، فَاطَّلَعَ هَذَا الْمُؤْمِنُ، ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ فَرَأَىٰ قَرِينَهُ فِي وَسَطِ النَّارِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي وَسَطِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَقَدَّمُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ أَنَّهُ اطَّلَعَ فَرَأَىٰ جَمَاجِمَ الْقَوْمِ تَغْلِي، وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: فِي الْجَنَّةِ كُوًىٰ، إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يَنْظُرَ إِلَىٰ عَدُوِّهِ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ وَسَطُ

الشَّيْءِ سَوَاءً لاستواء الجوانب منه ، وَيُقَالُ: تَعِبْتُ حَتَّىٰ انْقَطَعَ سَوَائِي: أَيْ وَسَطِي.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُ، ﴿تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ وَاللهِ لَقَدْ كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنِي، وَالرَّدَىٰ الْهَلَاكُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَاللهِ لَقَدْ كِدْتَ أَنْ تُغْوِيَنِي، وَمَنْ أَغْوَىٰ إِنْسَانًا فَقَدْ أَهْلَكَهُ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ رَحْمَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيَّ بِالْإِسْلَامِ ، ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ مَعَكَ فِي النَّارِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ لَكُنْتُ مَعَكَ فِي النَّارِ مُحْضَرًا ، وَأَحْضَرَ لَا يُسْتَعْمَلُ مُطْلَقًا إِلَّا فِي الشَّرِّ،

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانت فِي الدُّنْيَا.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُ هَذَا أَهْلُ الْجَنَّةِ لِلْمَلَائِكَةِ حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ: أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ؟ فَتَقُولُ لَهُمُ الملائكة: لا، مَعْنَاهُ أَنَحْنُ مُخَلَّدُونَ مُنَعَّمُونَ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ وَلَا مُعَذَّبِينَ ، قَالَ القرطبي : وَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْمَلَائِكَةِ حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، فَيَقُولُونَ:

[٦٠] : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَقِيلَ: إِنَّمَا يَقُولُونَهُ عَلَىٰ جِهَةِ الْحَدِيثِ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يُعَذَّبُونَ، وَقِيلَ: يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُ لِقَرِينِهِ عَلَىٰ جِهَةِ التَّوْبِيخِ بِمَا كَانَ يُنْكِرُهُ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أَيْ لِمِثْلِ هَذَا الْمَنْزِلِ وَلِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ، إِلَىٰ ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال النَّحَّاسُ: وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ- وَاللهُ أَعْلَمُ- فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ لِمِثْلِ هَذَا ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْفَاءُ فِي الْعَرَبِيَّةِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الثَّانِي بعد الأول.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَذَلِكَ﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، ﴿خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ الَّتِي هِيَ نُزُلُ أَهْلِ النَّارِ ، والزقوم: شَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ مُرَّةٍ كَرِيهَةِ الطَّعْمِ، يُكْرَهُ أَهْلُ النَّارِ عَلَىٰ تَنَاوُلِهَا، فَهُمْ يَتَزَقَّمُونَهُ عَلَىٰ أَشَدِّ كَرَاهِيَةٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَزَقَّمَ الطَّعَامَ إِذَا تَنَاوَلَهُ عَلَىٰ كُرْهٍ وَمَشَقَّةٍ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ فِي النَّارِ شَجَرَةٌ وَالنَّارُ تَحْرِقُ الشجر؟ . فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ قعر النار، وقال الْحَسَنُ البصري: أَصْلُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَىٰ دَرَكَاتِهَا.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿طَلْعُهَا﴾ ثَمَرُهَا سُمِّيَ طَلْعًا لِطُلُوعِهِ، ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هُمُ الشَّيَاطِينُ بِأَعْيَانِهِمْ شُبِّهَ بِهَا لِقُبْحِهَا، لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا وَصَفُوا شَيْئًا بِغَايَةِ الْقُبْحِ قَالُوا: كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ - وَإِنْ كَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تُرَىٰ- لِأَنَّ قُبْحَ صُورَتِهَا مُتَصَوَّرٌ فِي النَّفْسِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُرْوَىٰ عَنِ الْجَاحِظِ أَنَّهُ كَانَ وَاقِفًا أَمَامَ بَيْتِهِ، فَمَرَّتْ قُرْبَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ، فَابْتَسَمَتْ لَهُ،

وَقَالَتْ: لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، فَقَالَ الْجَاحِظُ: وَمَا حَاجَتُكِ؟، قَالَتْ: أُرِيدُكَ أَنْ تَذْهَبَ مَعِي، قَالَ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ قَالَتْ: اتْبَعْنِي دُونَ سُؤَالٍ، فَتَبِعَهَا الْجَاحِظُ، إِلَىٰ أَنْ وَصَلَا إِلَىٰ دُكَّانِ صَائِغٍ، وَهُنَاكَ قَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلصَّائِغِ: مِثْلَ هَذَا! ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ ، عِنْدَئِذٍ سَأَلَ الْجَاحِظُ الصَّائِغَ عَنْ مَعْنَىٰ مَا قَالَتْهُ الْمَرْأَةُ، فَقَالَ لَهُ: لَا مُؤَاخَذَةَ يَا سَيِّدِي! لَقَدْ أَتَتْنِي الْمَرْأَةُ بِخَاتَمٍ، وَطَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أَنْقُشَ عَلَيْهِ صُورَةَ شَيْطَانٍ، فَقُلْتُ لَهَا: مَا رَأَيْتُ شَيْطَانًا قَطُّ فِي حَيَاتِي، فَأَتَتْ بِكَ إِلَىٰ هُنَا لِظَنِّهَا أَنَّكَ تُشْبِهُهُ! ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : أَرَادَ بِالشَّيَاطِينِ الْحَيَّاتِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْحَيَّةَ الْقَبِيحَةَ الْمَنْظَرِ شَيْطَانًا، وَقِيلَ: هِيَ شَجَرَةٌ قَبِيحَةٌ مُرَّةٌ مُنْتِنَةٌ تَكُونُ فِي الْبَادِيَةِ تُسَمِّيهَا الْعَرَبُ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ والملء حشو الوعاء بما لَا يَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ، قال ابن كثير : ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، الَّتِي لَا أَبْشَعَ مِنْهَا وَلَا أَقْبَحَ مِنْ مَنْظَرِهَا، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ وَالطَّبْعِ، فَإِنَّهُمْ لَيَضْطَرُّونَ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِنْهَا، لأنهم لَا يَجِدُونَ إِلَّا إياها وما هو فِي مَعْنَاهَا.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾ خلطا ومزاجا، وَالشَّوْبُ: أَصْلُهُ مَصْدَرٌ شَابَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إِذَا خَلَطَهُ بِهِ، ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ مِنْ مَاءٍ حَارٍّ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، يقال: إنهم إذا أكلوا الزقوم شربوا عَلَيْهِ الْحَمِيمَ فَيَشُوبُ الْحَمِيمُ فِي بطونهم الزقوم فيصير شوبا له. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ، وَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، فَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فكيف بمن يكون طعامه؟**»[1].

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بَعْدَ شُرْبِ الْحَمِيمِ، ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أَيْ ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْفَصْلِ لَإِلَىٰ نَارٍ تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُورَدُونَ الْحَمِيمَ لِشُرْبِهِ وهو خارج من الجحيم كما يورد الْإِبِلُ الْمَاءَ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ الْجَحِيمِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ وَجَدُوا، أَيْ صَادَفُوهُمْ كَذَلِكَ فَاقْتَدَوْا بِهِمْ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ يُسْرِعُونَ، قال مجاهد: شبَّهة بِالْهَرْوَلَةِ، وقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْمَلُونَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يَسْتَحِثُّونَ مَنْ خَلْفَهُمْ، قَالُ: جَاءَ فُلَانٌ يهرع إِلَىٰ النَّارِ إِذَا اسْتَحَثَّهُ الْبَرْدُ إِلَيْهَا.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ.

[٧٢] : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم .

---

(١) الترمذي (٢٥٨٥) وابن ماجه (٤٣٢٥) .

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ الْكَافِرِينَ أَيْ كَانَ عَاقِبَتُهُمُ الْعَذَابَ، كَانَتْ عَاقِبَتُهُمُ الْهَلَاكَ، وَالْخِزْيَ، وَالْفَضِيحَةَ، فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ، فَيُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ. وَلَمَّا كَانَ الْمُنْذَرُونَ لَيْسُوا كُلُّهُمْ ضَالِّينَ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَأَخْلَصَ الدِّينَ لِلَّهِ، اسْتَثْنَاهُ اللهُ مِنَ الْهَلَاكِ فَقَالَ:

[٧٤] : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللهُ، وَخَصَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ لِإِخْلَاصِهِمْ، فَإِنَّ عَوَاقِبَهُمْ صَارَتْ حَمِيدَةً. ثُمَّ ذَكَرَ أُنْمُوذَجًا مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ ، فَقَالَ:

[٧٥] : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ دَعَا رَبَّهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ النِّدَاءِ الَّذِي هُوَ الِاسْتِغَاثَةُ، وَدَعَا قِيلَ بِمَسْأَلَةِ هَلَاكِ قَوْمِهِ فَقَالَ:﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح : ٢٦] ، ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ نَحْنُ يَعْنِي أَجَبْنَا دُعَاءَهُ وَأَهْلَكْنَا قَوْمَهُ. قَالَ الْكِسَائِيُّ: أَيْ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ لَهُ كُنَّا.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الْغَمِّ الْعَظِيمِ الَّذِي لَحِقَ قَوْمَهُ وهو الغرق.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وَأَرَادَ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا خَرَجَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَلَدَهُ وَنِسَاءَهُمْ، وعن قتادة قال: فالناس كلهم من ذرية نوح، قال ابن عاشور : ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ سِتّ قصَص من قَصَصَ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ لِأَنَّ فِي كُلِّ قِصَّةٍ مِنْهَا خَاصِّيَّةً لَهَا شَبَهٌ بِحَال الرَّسُول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ مَعَ قَوْمِهِ وَبِحَالِهِ الْأَكْمَلِ فِي دَعْوَتِهِ، فَفِي الْقَصَصِ كُلِّهَا عِبْرَةٌ وَأُسْوَةٌ وَتَحْذِيرٌ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ عِنْدَ كُلِّ قِصَّةٍ مِنْهَا، وَيَجْمَعُهَا كُلَّهَا مُقَاوَمَةُ الشِّرْكِ وَمُقَاوَمَةُ أَهْلِهَا.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيْ أَبْقَيْنَا لَهُ ثَنَاءً حَسَنًا وَذِكْرًا جَمِيلًا فِيمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُذْكَرُ بِخَيْرٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي لِسَانَ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، قَالَ الضَّحَّاكُ: السَّلَامُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ سَلَامٌ عَلَيْهِ مِنَّا فِي الْعَالَمِينَ، وَقِيلَ: أَيُّ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخَرِينَ أَنْ يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾أَيْ هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ من العباد في طاعة الله تعالىٰ، نَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذَكَرُ بِهِ بَعْدَهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: جَزَاهُ اللهُ بِإِحْسَانِهِ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي الْعَالَمِينَ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: إِنَّ الْإِيمَانَ أَرْفَعُ مَنَازِلِ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ جَمِيعِ شَرَائِعِ الدِّينِ وَأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، لِأَنَّ اللهَ مَدَحَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أَيْ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر وَلَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ، وَلَا يُعرَفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي من أهل دينه وملته وَسُنَّتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الشِّيعَةُ الْأَعْوَانُ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الشِّيَاعِ، وَهُوَ الْحَطَبُ الصِّغَارُ الَّذِي يوقد مع الكبا ر حَتَّىٰ يُسْتَوْقَدَ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مُخْلَصٍ مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَعن عوف قال: قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ :مَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ؟ قَالَ: يَعْلَمُ أَنَّ الله حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَّن فِي القبور.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ، أَنْكَرَ عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال عزَّ وجلَّ:

[٨٦] : ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ يَعْنِي أَتَأْفِكُونَ إِفْكًا وَهُوَ أَسْوَأُ الْكَذِبِ، وَتَعْبُدُونَ آلِهَةً سِوَىٰ اللهِ ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: وَالْإِفْكُ أَسْوَأُ الْكَذِبِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَثْبُتُ وَيَضْطَرِبُ، وَمِنْهُ ائْتَفَكَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذا لَقَيْتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ أَنَّهُ يَصْنَعُ بِكُمْ ، وَهَذَا تَرْهِيبٌ لَهُمْ بِالْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ عَلَىٰ الْإِقَامَةِ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ، يَعْنِي قَتَادَةُ أنه نظر إلىٰ السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ قَوْمُهُ يَتَعَاطَوْنَ عِلْمَ النُّجُومِ فَعَامَلَهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا لِئَلَّا يُنْكِرُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكَايِدَهُمْ فِي أَصْنَامِهِمْ لِيُلْزِمَهُمُ الْحُجَّةَ فِي أَنَّهَا غَيْرُ مَعْبُودَةٍ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْغَدِ عِيدٌ وَمَجْمَعٌ وَكَانُوا يدخلون علىٰ أصنامهم ويفرشون لهم الفراش، وَيَصْنَعُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الطَّعَامَ قَبْلَ خروجهم إلىٰ عيدهم، زعموا التبرك عَلَيْهِ فَإِذَا انْصَرَفُوا مِنْ عِيدِهِمْ أَكَلُوهُ، فَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: أَلَا تَخْرُجُ غَدًا مَعَنَا إِلَىٰ عِيدِنَا، فَنَظَرَ إِلَىٰ النُّجُومِ فَقَالَ: إِنِّي سَقِيمٌ، أَيْ مَرِيضُ الْقَلْبِ من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالىٰ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ إِلَىٰ عِيدِهِمْ فَدَخَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَىٰ الْأَصْنَامِ فَكَسَرَهَا. كَمَا قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: ذَهَبَ إِلَيْهِمْ ، وَقِيلَ: عَدَلَ، وَفِعْلُ «رَاغَ» مَعْنَاهُ: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ، وَمَصْدَرُهُ الرَّوْغُ وَالرَّوَغَانُ، وَإِطْلَاقُ الْآلِهَةِ عَلَىٰ الْأَصْنَامِ مُرَاعًىٰ فِيهِ اعْتِقَادُ عَبَدَتِهَا بِقَرِينَةِ إِضَافَتِهَا إِلَىٰ ضَمِيرِهِمْ، أَيْ إِلَىٰ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ لَهُمْ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء بها، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يَعْنِي الطَّعَامَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ. فَخَاطَبَهَا كَمَا يُخَاطِبُ مَنْ يَعْقِلُ، لِأَنَّهُمْ أَنْزَلُوهَا بتلك المنزلة .

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ قِيلَ: كَانَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَصْنَامِ طَعَامٌ تَرَكُوهُ لِيَأْكُلُوهُ إِذَا رَجَعُوا مِنَ الْعِيدِ، وَإِنَّمَا تَرَكُوهُ لِتُصِيبَهُ بَرَكَةُ أَصْنَامِهِمْ بِزَعْمِهِمْ.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أَيْ كَانَ يَضْرِبُهُمْ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ لأنها أقوىٰ الْعَمَلِ مِنَ الشِّمَالِوَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ القسم أي بالقسم الَّذِي سَبَقَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

[٩٤]: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ يعني إلىٰ إبراهيم، ﴿يَزِفُّونَ﴾ يُسْرِعُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أُخْبِرُوا بِصَنِيعِ إِبْرَاهِيمَ بِآلِهَتِهِمْ فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ لِيَأْخُذُوهُ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يَتَسَلَّلُونَ تَسَلُّلًا بَيْنَ الْمَشْيِ وَالْعَدْوِ، وَمِنْهُ زَفِيفُ النَّعَامَةِ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَىٰ وَجْهِ الْحِجَاجِ، ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يَعْنِي مَا تَنْحِتُونَ بِأَيْدِيكُمْ.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ بأيديكم من الأصنام.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزاء علىٰ ما فعل، من تكسير آلهتهم.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ شَرًّا وَهُوَ أَنْ يَحْرُقُوهُ، ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أَيْ الْمَقْهُورِينَ حَيْثُ سَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ﴾ يَعْنِي إِبْرَاهِيمُ، عليه السلام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أَيْ مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي، وَالْمَعْنَىٰ: أَهْجُرُ دَارَ الْكُفْرِ وَأَذْهَبُ إِلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّي، قَالَهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَنِي بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَهُوَ الشَّامُ. قَالَ مُقَاتِلٌ: فَلَمَّا قَدِمَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ. فَقَالَ:

[١٠٠] : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يَعْنِي هَبْ لِي وَلَدًا صَالِحًا مِنَ الصَّالِحِينَ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ قيل بغلام فِي صِغَرِهِ حَلِيمٌ فِي كِبَرِهِ، ففيه بشارة أنه نبي وَأَنَّهُ يَعِيشُ فَيَنْتَهِي فِي السِّنِّ حَتَّىٰ يُوصَفَ بِالْحِلْمِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أَيْ كَبِرَ وَتَرَعْرَعَ وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا شَبَّ حَتَّىٰ بَلَغَ سَعْيُهُ سَعْيَ إِبْرَاهِيمَ، وَالْمَعْنَىٰ: بَلَغَ أَنْ يَتَصَرَّفَ مَعَهُ وَيُعِينَهُ فِي عَمَلِهِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْعَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وقَالُوا: هُوَ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ ، قال ابن عاشور : أَيْ بَلَغَ أَنْ يَسْعَىٰ مَعَ أَبِيهِ، أَيْ بَلَغَ سِنَّ مَنْ يَمْشِي مَعَ إِبْرَاهِيم فِي شؤونه، قِيلَ: كَانَ ابْنَ ثَلَاث عَشْرَةَ سَنَةً، قال ابن الجوزي : وَهَذَا الزَّمَانُ أَحَبُّ ما يكون الولد إلىٰ والده ؛ لأَنَّهُ وَقْتٌ يَسْتَغْنِي فِيهِ عَنْ مَشَقَّةِ الْحَضَانَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِ وَقْتَ الأَذَىٰ وَالْعُقُوقِ، فَكَانَتِ الْبَلْوَىٰ أَشَدَّ، قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أَيْ: قَدْ رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ وَالرُّؤْيَا، أَنَّ اللهَ يَأْمُرُنِي بِذَبْحِكَ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، قَالَ مُقَاتِلٌ: رَأَىٰ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَتَابِعَاتٍ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ – فِي الْإِسْرَاءِ – : «**وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ**»[١]،

---

(١) البخاري (٣٥٦٩) .

﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وَإِنَّمَا أَمَرَهُ لِيَعْلَمَ صَبْرَهُ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَزِيمَتَهُ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، فإن أمر الله تعالىٰ، لا بد من تنفيذه، قَالَ لَهُ ابْنُهُ: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أَيِ امض لِمَا أَمَرَكَ اللهُ مِنْ ذَبْحِي، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَلِكَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ خُذِ الْحَبْلَ وَالْمُدْيَةَ نَنْطَلِقْ إِلَىٰ هَذَا الشِّعْبِ نَحْتَطِبُ، فَلَمَّا خَلَا إِبْرَاهِيمُ بِابْنِهِ فِي شِعْبِ ثَبِيرٍ أَخْبَرَهُ بِمَا أُمِرَ، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ سَأَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَصَدَقَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِيمَا وَعَدَ.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انْقَادَا وَخَضَعَا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ قَتَادَةُ: أَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ وَأَسْلَمَ الِابْنُ نَفْسَهُ، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ قَالَ ابن عباس: أضجعه عَلَىٰ الْأَرْضِ وَالْجَبْهَةُ بَيْنَ الْجَبِينَيْنِ، أَيْ صَرَعَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، كَمَا تَقُولُ: كَبَّهُ لِوَجْهِهِ. قال الْهَرَوِيُّ: وَالتَّلُّ الدَّفْعُ وَالصَّرْعُ، يُقَالُ: تَلَلْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَلْقَيْتَهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ** ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللهِ، لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ : فَتَلَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِهِ، يُرِيدُ جَعَلَهُ فِي يده»[١]، قال بعض أهل المعاني : إن إِبْرَاهِيمَ ادَّعَىٰ مَحَبَّةَ اللهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ الْوَلَدِ بِالْمَحَبَّةِ،

(١) البخاري (٣٥٦٩) ومسلم (١١٤٧) .

فَلَمْ يَرْضَ حَبِيبُهُ مَحَبَّةً مُشْتَرَكَةً، فَقِيلَ لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ اذْبَحْ وَلَدَكَ فِي مَرْضَاتِي، فَشَمَّرَ وَأَخَذَ السِّكِّينَ وَأَضْجَعَ وَلَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ تَقَبَّلْهُ مِنِّي فِي مَرْضَاتِكَ ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ ذَبْحَ الْوَلَدِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ تَرُدَّ قَلْبَكَ إِلَيْنَا، فَلَمَّا رَدَدْتَ قَلْبَكَ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَيْنَا رَدَدْنَا وَلَدَكَ إِلَيْكَ.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ وَمُنَادَاةُ اللهِ إِبْرَاهِيمَ بِطَرِيقِ الْوَحْيِ بِإِرْسَالِ الْمَلَكِ، أُسْنِدَتِ الْمُنَادَاةُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهُ الْآمِرُ بِهَا.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أَيْ قَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ بِإِضْجَاعِكَ وَلَدَكَ لِلذَّبْحِ، ، فَمَعْنَىٰ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا قَدْ فَعَلْتَ مِثْلَ صُورَةِ مَا رَأَيْتَ فِي النَّوْمِ أَنَّكَ تَفْعَلُهُ. وَهَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِمُبَادَرَتِهِ لِامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَلَمْ يَتَأَخَّرْ وَلَا سَأَلَ مِنَ اللهِ نَسْخَ ذَلِكَ. تَمَّ الْكَلَامُ هَاهُنَا ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنىٰ: إنا كما عفونا عن إبراهيم عند ذَبْحِ وَلَدِهِ نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ فِي طَاعَتِنَا، قَالَ مُقَاتِلٌ: جَزَاهُ اللهُ بِإِحْسَانِهِ فِي طَاعَتِهِ الْعَفْوَ عَنْ ذَبْحِ ابْنِهِ.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أَيِ الِاخْتِبَارُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ حَيْثُ أُمِرَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ فَسَارَعَ إِلَىٰ ذَلِكَ، مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِ اللهِ تعالىٰ مُنْقَادًا لِطَاعَتِهِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفىٰ﴾، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْبَلَاءُ هَاهُنَا النِّعْمَةُ، وَهِيَ أَنْ فُدِيَ ابْنُهُ بِالْكَبْشِ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا وَكَانَ قَدْ

رَأَىٰ الذَّبْحَ وَلَمْ يَذْبَحْ؟ قِيلَ: جَعَلَهُ مُصَدِّقًا لِأَنَّهُ قَدْ أَتَىٰ بِمَا أَمْكَنَهُ، وَالْمَطْلُوبُ إِسْلَامُهُمَا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ وقد فعلا.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فَنَظَرَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا هُوَ بِجِبْرِيل وَمَعَهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ أَقْرَنُ، فَقَالَ: هَذَا فِدَاءٌ لِابْنِكَ فَاذْبَحْهُ دُونَهُ، فَكَبَّرَ جِبْرِيلُ وكبر الكبش وكبر إبراهيم وَكَبَّرَ ابْنُهُ، فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ الْكَبْشَ فَأَتَىٰ بِهِ الْمَنْحَرَ مِنْ مِنًىٰ فذبحه، قَالَ مُجَاهِدٌ: سَمَّاهُ عَظِيمًا لِأَنَّهُ مُتَقَبَّلٌ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَقِيلَ: عَظِيمٌ فِي الشَّخْصِ، وَقِيلَ: فِي الثَّوَابِ، وَأَصْلُ الْفِدْيَةِ الْجَزَاءُ، وَالذِّبْحُ اسْمُ الْمَذْبُوحِ ، وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي أَسْلَمَ مِنْ عُلَمَاءِ يَهُودَ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ: أَيُّ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ أُمِرَ بِذَبْحِهِ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ، وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ يَهُودَ لَتَعْلَمُ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَبَاكُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ فِيهِ وَالْفَضْلِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْهُ لِصَبْرِهِ لِمَا أُمِرَ بِهِ، فَهُمْ يَجْحَدُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ لِأَنَّ إِسْحَاقَ أَبُوهُمْ،

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ثَنَاءً جَمِيلًا فِي الْأُمَمِ بَعْدَهُ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا تُصَلِّي عَلَيْهِ وتحبه ، وَقِيلَ: هُوَ دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء. ٨٤].

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ السَّلَامُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَيْ سَلَامًا مِنَّا ، وَقِيلَ: سَلَامَةٌ لَهُ مِنَ الْآفَاتِ .

[١١٠] : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ، أَنْ نُفَرِّجَ عَنْهُمُ الشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ، وَالثَّنَاءَ الْحَسَنَ.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ مِنَ الَّذِينَ أَعْطَوُا الْعُبُودِيَّةَ حَقَّهَا حَتَّىٰ اسْتَحَقُّوا الْإِضَافَةَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ: إِنَّ الْكَلَامَ الْأَوَّلَ كَانَ عَنِ إِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ جَاءَ ذِكْرُ إِسْحَاقَ، قَالَ: ابْنِ عَبَّاس: بُشِّرَ بِهِ مَرَّتَيْنِ حِينَ وُلِدَ وَحِينَ نُبِّئَ.

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوْلَادِهِ، ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ يكون أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَسْلِهِ، قَالَ السعدي : أَيْ: أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمَا الْبَرَكَةَ، الَّتِي هِيَ النُّمُوُّ وَالزِّيَادَةُ فِي عِلْمِهِمَا وَعَمَلِهِمَا وَذُرِّيَّتِهِمَا، فَنَشَرَ اللهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا ثَلَاثَ أُمَمٍ عَظِيمَةٍ: أُمَّةَ الْعَرَبِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَأُمَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأُمَّةَ الرُّومِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْحَاقَ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ أي مؤمن، ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي كافر، ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفر ، قَالَ القرطبي : لَمَّا ذَكَرَ الْبَرَكَةَ فِي الذُّرِّيَّةِ وَالْكَثْرَةَ قَالَ: منهم محسن ومنهم مسي، وَإِنَّ الْمُسِيءَ لَا تَنْفَعُهُ بُنُوَّةِ النُّبُوَّةِ، فَالْيَهُودُ والنصارىٰ وَإِنْ كَانُوا مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ، وَالْعَرَبُ وَإِنْ كَانُوا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ،

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أنعمنا عليهم بالنبوة.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أَيِ الْغَمِّ الْعَظِيمِ وَهُوَ الَّذِي كَانُوا فِيهِ مِنِ اسْتِعْبَادِ فِرْعَوْنَ إِيَّاهُمْ، وَقِيلَ: مِنَ الْغَرَقِ.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ يَعْنِي مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَقَوْمَهُمَا، ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ عَلَىٰ الْقِبْطِ.

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أَيْ الْمُسْتَنِيرَ وَهُوَ التَّوْرَاةُ. يُقَالُ اسْتَبَانَ كَذَا أَيْ صَارَ بَيِّنًا، وَاسْتَبَانَهُ فُلَانٌ مِثْلَ تبين الشيء بنفسه وتبينه فلان.

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّينَ الْقَوِيمَ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ.

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيْ أَبْقَيْنَا لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا، وثناء حسنًا، ثم فسره بقوله تعالىٰ:

[١٢٠]: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أَيْ: أَبْقَيْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأُمَمِ الْمُتَأَخِّرَةِ الثَّنَاءَ الْجَمِيلَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي السَّلَامِ وَفِي وَجْهِ إِعْرَابِهِ بِالرَّفْعِ.

[١٢١]: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وَفِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عِبْرَةٌ للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِسَالَتِهِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ وَهِدَايَتِهِ وَانْتِشَارِ دِينِهِ وَسُلْطَانِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ديار الْمُشْركين.

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي إِنَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ لَنَا الْإِيمَانَ .

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ ، وَفِي مُصْحَفِهِ: (وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وَهَذَا قَوْلُ عِكْرِمَةَ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: هُوَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ الْيَسَعَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ إِلْيَاسَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَالْمُرَادُ بِقَوْمِهِ: بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا صنماً اسمه ﴿ بعل﴾ وهو مَعْبُودَ الْكَنْعَانِيِّينَ بِسَبَبِ مُصَاهَرَةِ بَعْضِ مُلُوكِ يَهُوذَا لِلْكَنْعَانِيِّينَ وَلِذَلِكَ قَامَ إِلْيَاسُ دَاعِيًا قَوْمَهَ إِلَىٰ نَبْذِ عِبَادَةِ بَعْلِ الصَّنَمِ وَإِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ.

[١٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون الله عزَّ وجلَّ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ.

[١٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون، ﴿بَعْلًا﴾ وَهُوَ اسْمُ صَنَمٍ لَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ مَدِينَتُهُمْ بَعْلَبَكَّ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: الْبَعْلُ الرَّبُّ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، قَالَ النَّحَّاسُ: وَالْقَوْلَانِ صَحِيحَانِ: أَيْ أَتَدْعُونَ صَنَمًا عَمِلْتُمُوهُ رَبًّا؟ يُقَالُ: هَذَا بَعْلُ الدَّارِ أَيْ رَبُّهَا، فَالْمَعْنَىٰ أَتَدْعُونَ رَبًّا اخْتَلَقْتُمُوهُ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أَيْ أَحْسَنَ الصَّانِعِينَ، أَحْسَنَ مَنْ يُقَالُ لَهُ خَالِقٌ ، أَمَّا النَّاسُ فَيَصْنَعُونَ وَلَا يَخْلُقُونَ، فَيُقَالُ لِمُبْدِعِهِمْ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الصِّنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ أَوْ بَعْضِ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ صَانِعٌ، وَلَا يُقَالُ لَهُ خَالِقٌ، وَإِنْ

كَانَ النَّاسُ يَتَجَاوَزُونَ، فَالْخَلْقُ وَهُوَ الإِبْدَاعُ مِنْ عَدَمٍ لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[١٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: بِمَعْنَىٰ هُوَ اللهُ رَبُّكُمْ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: ذَلِكَ مَعْبُودُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْكُمُ الْعِبَادَةَ، رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، لَا الصَّنَمُ الَّذِي لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

[١٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيْ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ .

[١٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مِنْ قَوْمِهِ فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنَ الْعَذَابِ ، أي الذين اتبعوه من قومه وصدقوا منهاجه فأخلصهم الله النجاة.

[١٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيْ ثَنَاءً جَمِيلًا .

[١٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ وَالْمُرَادُ إِلْيَاسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَيْهِ وَقَعَ التَّسْلِيمُ وَلَكِنَّهُ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ ، وَقِيلَ: إِلْيَاسِينَ لُغَةٌ فِي إِلْيَاسَ مِثْلَ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْمَاعِينَ وَمِيكَائِيلَ وَمِيكَائِينَ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ جمع أراد إلياس وأصحابه وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ ابْنُ جِنِّي: الْعَرَبُ تَتَلَاعَبُ بِالْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ تلاعبا، فياسين وإلياس وإلياسين شي وَاحِدٌ ، وَقِيلَ: إِنَّ يَاسِينَ هُوَ أَبُو إِلْيَاسَ، فَالْمُرَادُ: سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسَ وَذَوِيهِ مِنْ آلِ أَبِيهِ ، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَىٰ آلِهِ، أَيْ أَهْلِ دِينِهِ وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ، وَعُلِمَ أَنَّهُ إِذَا سَلَّمَ عَلَىٰ آلِهِ مِنْ أَجْلِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ

فِي السَّلَامِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**»(١).

[١٣١-١٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَأَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

[١٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَهَذَا ثَنَاءٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، لُوطٍ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَدَعْوَتِهِ إِلَىٰ اللهِ قَوْمَهُ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَفِعْلِ الْفَاحِشَةِ. فَلَمَّا لَمْ يَنْتَهُوا، نَجَّاهُ اللهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، فَسَرَوْا لَيْلًا فَنَجَوْا .

[١٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُولُ: إِذْ نَجَّيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَحْلَلْنَاهُ بِقَوْمِهِ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِهِ.

[١٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أَيِ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ، وهي امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا،

[١٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ وَالتَّدْمِيرُ الْإِهْلَاكُ.

[١٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ آثارهم ومنازلهم، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح .

---

(١) مسلم (٦٣٥٩) .

[١٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ يُرِيدُ تَمُرُّونَ بِالنَّهَارِ وَبِاللَّيْلِ عَلَيْهِمْ إِذَا ذَهَبْتُمْ إِلَىٰ أَسْفَارِكُمْ وَرَجَعْتُمْ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي تعتبرون وتتدبرون ، قَالَ ابن عاشور : وَالْمُصْبِحُ: الدَّاخِلُ فِي وَقت الصَّباح، أَي تمرّون عَلَىٰ مَنَازِلِهِمْ فِي الصَّبَاحِ تَارَةً وَفِي اللَّيْلِ تَارَةً بِحَسَبِ تَقْدِيرِ السَّيْرِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، لِأَنَّ رِحْلَةَ قُرَيْشٍ إِلَىٰ الشَّامِ تَكُونُ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَيَكُونُ السَّيْرُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

[١٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي مِنْ جُمْلَةِ رُسُلِ اللهِ، يُونُسُ هُوَ ابْنُ مَتَّىٰ، قيل هُوَ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ، وَهُوَ من أَنْبياء بني إِسْرَائِيلَ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ نِينَوَىٰ.

[١٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يَعْنِي هَرَبَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَوَهْبٌ: كَانَ يُونُسُ وَعَدَ قَوْمَهُ الْعَذَابَ فَلَمَّا تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور مِنْهُمْ، فَقَصَدَ الْبَحْرَ فَرَكِبَ السَّفِينَةَ، فَاحْتَبَسَتِ السَّفِينَةُ فَقَالَ الْمَلَّاحُونَ: هَاهُنَا عَبْدٌ آبِقٌ مِنْ سَيِّدِهِ، فَاقْتَرَعُوا فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ يُونُسَ، فَاقْتَرَعُوا ثَلَاثًا فَوَقَعَتْ عَلَىٰ يُونُسَ، فَقَالَ يُونُسُ: أَنَا الْآبِقُ، وَزَجَّ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ.فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[١٤١] : ﴿فَسَاهَمَ﴾ وَسَاهَمَ: قَارَعَ ، وَأَصْلُهُ مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمِ السَّهْمِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِعُونَ بِالسِّهَامِ وَهِيَ أَعْوَادُ النِّبَالِ وَتُسَمَّىٰ الْأَزْلَامَ، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المقروعين ، وَالْإِدْحَاضُ: جَعْلُ الْمَرْءِ دَاحِضًا، أَيْ زَالِقًا غَيْرَ ثَابِتِ الرِّجْلَيْنِ وَهُوَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ لِلْخُسْرَانِ وَالْمَغْلُوبِيَّةِ.

[١٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ ابتلعه، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ. إِذَا فَعَلَ مَا يَلُومُهُ عَلَيْهِ النَّاسُ.

[١٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله قَبْلَ ذَلِكَ وَكَانَ كَثِيرَ الذِّكْرِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَ الْمَصَلِّيْنَ ، وَقَالَ وَهْبٌ: مِنَ الْعَابِدِينَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَا كَانَتْ لَهُ صَلَاةٌ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ عَمَلًا صَالِحًا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: شَكَرَ اللهَ تَعَالَىٰ لَهُ طَاعَتَهُ الْقَدِيمَةَ، وَقِيلَ : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

[١٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قِيلَ: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي الرَّخَاءِ، لَصَارَ بَطْنُ الْحُوتِ لَهُ قَبْرًا إلىٰ يوم القيامة ، وفي الحديث: «**تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ ، يَعْرِفْكَ فِي الشدة**»[١].

[١٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ طرحناه، ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ السُّدِّيُّ: بِالسَّاحِلِ، وَالْعَرَاءُ: الْأَرْضُ الْخَالِيَةُ عَنِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عَلِيلٌ ضَعِيفُ الْبَدَنِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَهَيْئَةِ الْفَرْخِ لَيْسَ عَلَيْهِ رِيشٌ، وَقِيلَ: كَانَ قَدْ بَلِيَ لَحْمُهُ وَرَقَّ عَظْمُهُ ولم يبق له قوة.

---

(١) أحمد (٢٨٠٣) .

[١٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أَيْ لَهُ، وَقِيلَ: عِنْدَهُ، ﴿شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ يَعْنِي الْقَرْعَ عَلَىٰ قَوْلِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: كُلُّ نَبْتٍ يَمْتَدُّ وَيَنْبَسِطُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ لَيْسَ لَهُ سَاقٌ وَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ الشِّتَاءِ نَحْوَ الْقَرْعِ وَالْقِثَّاءِ وَالْبِطِّيخِ فَهُوَ يَقْطِينٌ، قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: فَكَانَ يُونُسُ يَسْتَظِلُّ بِالشَّجَرَةِ وَكَانَتْ وَعْلَةٌ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ فَيَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا بُكْرَةً وَعَشِيَّةً حَتَّىٰ اشْتَدَّ لَحْمُهُ وَنَبَتَ شعره وقوي، فَإِنْ قِيلَ: قَالَ هَاهُنَا: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعراء﴾ ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [الْقَلَم: ٤٩] فهل ما يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يُنْبَذْ؟ قِيلَ: لَوْلَا هُنَاكَ يَرْجِعُ إِلَىٰ الذَّمِّ، مَعْنَاهُ: لَوْلَا نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، وَلَكِنْ تَدَارَكَهُ النِّعْمَةُ فَنُبِذَ وَهُوَ غير مذموم.

[١٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَرْسَلَ إِلَىٰ أَهْلِ نِينَوَىٰ مِنْ أَرْضِ الْمُوصِلِ قَبْلَ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ أَيْ وَقَدْ أَرْسَلْنَاهُ، وَقِيلَ. كَانَ إِرْسَالُهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بعد بَطْنِ الْحُوتِ إِلَيْهِمْ، قال ابن كثير : وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهم أولاً أمر بالعودة إِلَيْهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْحُوتِ، فَصَدَّقُوهُ كُلُّهُمْ وَآمَنُوا بِهِ، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: مَعْنَاهُ بَلْ يَزِيدُونَ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: ﴿ أَوْ﴾ هَاهُنَا عَلَىٰ أصلها، ومعناه أو يزيدون علىٰ تدبركم وَظَنِّكُمْ، كَالرَّجُلِ يَرَىٰ قَوْمًا فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَلْفٌ أَوْ يَزِيدُونَ فَالشَّكُّ عَلَىٰ تَقْدِيرِ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَاهُ وَيَزِيدُونَ.

[١٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَآمَنُوا﴾ يَعْنِي الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُونُسُ بَعْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ، ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: حِينَ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ. وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ حِينَ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ بِالْعَيْشِ الْهَنِيِّ وَالْمَقَامِ الْأَمِينِ، بِبَرَكَةِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

[١٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدُ أَهْلَ مَكَّةَ وَهُوَ سُؤَالُ تَوْبِيخٍ، ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنْ جُهَيْنَةَ وَبَنِي سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الدَّارِ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عما يقول الظالمون علوا كبيرا، يَقُولُ: جَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتَ وَلِأَنْفُسِهِم الْبَنِينَ.

[١٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾ مَعْنَاهُ: أَخَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ حَاضِرُونَ خَلْقَنَا إِيَّاهُمْ، أَيْ كَيْفَ حَكَمُوا عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ وَمَا شاهدوا خلقهم.

[١٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ مِنْ كَذِبِهِمْ، وَالْإِفْكُ: الْكَذِبُ أَيْ قَوْلُهُمْ هَذَا بَعْضٌ مِنْ أُكْذُوبَاتِهِمْ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ .

[١٥٢] : ﴿ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ لِأَنَّهُمُ افْتَرَوْا عَلَىٰ اللهِ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ:

أَوَّلًا: جَعَلُوهُمْ بَنَاتٍ لِلَّهِ فَجَعَلُوا لِلَّهِ وَلَدًا تَعَالَىٰ اللهُ وَتَقَدَّسَ.

ثَانِيًا: وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أُنْثَىٰ.

ثَالِثًا: ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ.

وَكُلٌّ مِنْهَا كَافٍ فِي التَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ:

[١٥٣] : ﴿أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَنِينَ﴾ ، ﴿أَصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار، وَالْمَعْنَىٰ: أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ؟.

[١٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لِلَّهِ بِالْبَنَاتِ وَلَكُمْ بِالْبَنِينَ. فَأَيْ مَا لَكُمْ عُقُولٌ تَتَدَبَّرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ .

[١٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَفَلَا تَتَّعِظُونَ ، تُمَيِّزُونَ هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ الْجَائِرَ، فَإِنَّكُمْ لَوْ تَذَكَّرْتُمْ لَمْ تَقُولُوا هَذَا الْقَوْلَ.

[١٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ قَوْلِكُمْ مِنْ كِتَابٍ أَوْ رَسُولٍ عَلَىٰ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا.

[١٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الَّذِي لَكَمَ فِيهِ حُجَّةٌ، أَيْ: فَأْتُوا بِحُجَجِكُمْ وَإِثْبَاتَاتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ حَقًّا فِي قَوْلِكُمْ وَزَعْمِكُمْ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ.

[١٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْجِنَّةَ هَا هُنَا الْمَلَائِكَةُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: وَأَرَادَ بِالْجِنَّةِ الْمَلَائِكَةَ سُمُّوا جِنَّةً لِاجْتِنَانِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَيٌّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ، وَمِنْهُمْ إِبْلِيسُ، قَالُوا: هُمْ بَنَاتُ اللهِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: قَالُوا : بَلْ تَزَوَّجَ مِنَ الْجِنِّ فَخَرَجَ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ زَعَمَ بَعْضُ قُرَيْشٍ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بنات الله، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ: فَمَنْ أُمَّهَاتُهُمْ؟ قَالُوا: سَرَوَاتُ الْجِنِّ،

قال ابن عباس: زَعَمَ أَعْدَاءُ اللهِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ وإبليس أخوان، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : مَعْنَىٰ النَّسَبِ أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا الشَّيَاطِينَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا، حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وَأَنَّ أُمَّهَاتِهِمْ سَرَوَاتُ الْجِنِّ، وَالْحَالُ أَنَّ الْجِنَّةَ قَدْ عَلِمَتْ أَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ بَيْنَ يَدَي اللهِ، لِيُجَازِيَهُمْ عِبَادًا أَذِلَّاءَ، فَلَوْ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ نَسَبٌ، لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ يَعْنِي قَائِلِي هَذَا الْقَوْلِ، ﴿إنهم لَمُحْضَرُونَ﴾ فِي النَّارِ ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا قَالُوا فَقَالَ:

[١٥٩] : ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، الْكَامِلُ الْحَلِيمُ، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ أَوْجَبَهُ كُفْرُهُمْ وَشِرْكُهُمْ.

[١٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ النَّارِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَإِنَّهُ لَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصِفُوهُ إِلَّا بِمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَبِذَلِكَ كَانُوا مُخْلَصِينَ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمُحْضَرِينَ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُحْضَرُونَ.

[١٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يَقُولُ لِأَهْلِ مَكَّةَ، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ، أَيْ فَإِنَّكُمْ وَعِبَادَتَكُمْ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ ، وَقِيلَ: أَيْ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

[١٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ علىٰ ما تعبدون، ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ بِمُضِلِّينَ أَحَدًا، قال النَّحَّاسُ: أَهْلُ التَّفْسِيرِ مُجْمِعُونَ فِيمَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَعْنَىٰ: مَا أَنْتُمْ

بِمُضِلِّينَ أَحَدًا إِلَّا مَنْ قَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ أَنْ يَضِلَّ ، قال القرطبي : وَفِيهَا مِنَ الْمَعَانِي أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَصِلُونَ إِلَىٰ إِضْلَالِ أَحَدٍ إِلَّا مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَهْتَدِي، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنَّهُ يَهْتَدِي لَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَعَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي لست تصل منهم إلىٰ شي إِلَّا إِلَىٰ مَا فِي عِلْمِي.

[١٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ إِلَّا مَنْ قَدَّرَ اللهُ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ النَّارَ أَيْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِ اللهِ الشَّقَاوَةُ ، أَيْ: إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ، مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذُرِئَ لِلنَّارِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمُضِلِّينَ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ سَيَصْلَىٰ الْجَحِيمَ.

[١٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ أَيْ مَا مِنَّا مَلَكٌ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ فِي السَّمَاوَاتِ يَعْبُدُ اللهَ فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ يُصَلِّي أو يسبح، وَقِيلَ: أَيْ مِنَّا مَنْ لَهُ مَقَامُ الْخَوْفِ، وَمِنَّا مَنْ لَهُ مَقَامُ الرَّجَاءِ، وَمِنَّا مَنْ لَهُ مَقَامُ الإخلاص، ومنا من قه مَقَامُ الشُّكْرِ، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:« **إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا**

وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ »(١) .

[١٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْمَلَائِكَةُ صَفُّوا أَقْدَامَهُمْ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: صُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ لِلْعِبَادَةِ كَصُفُوفِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

[١٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أَيْ الْمُصَلُّونَ الْمُنَزِّهُونَ اللهَ عَنِ السُّوءِ، يُخْبِرُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَعْبُودِينَ، كَمَا زَعَمَتِ الْكُفَّارُ، ثُمَّ أَعَادَ الْكَلَامَ إِلَىٰ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ:

[١٦٧] : ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أي وَقَدْ كَانُوا يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿لَيَقُولُونَ﴾ لَامُ التَّأْكِيدِ.

[١٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ كِتَابًا مِثْلَ كِتَابِ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، يُظْهِرُونَ التَّمَنِّيَ، وَيَقُولُونَ: لَوْ جَاءَنَا مِنَ الذِّكْرِ وَالْكُتُبِ، مَا جَاءَ الْأَوَّلِينَ.

[١٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لَأَخْلَصْنَا لِلَّهِ الْعِبَادَةَ، بَلْ لَكُنَّا الْمُخْلَصِينَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ ، وَهُمْ كَذَبَةٌ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ جَاءَهُمْ أَفْضَلُ الْكُتُبِ

---

(١) الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) .

فَكَفَرُوا بِهِ، فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مُتَمَرِّدُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ، أَيْ لَوْ جَاءَنَا ذِكْرٌ كَمَا جَاءَ الْأَوَّلِينَ لَأَخْلَصْنَا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ.

[١٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أَيْ بِالذِّكْرِ، أَيْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ كفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، قَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْلَمُونَ مَغَبَّةَ كُفْرِهِمْ.

[١٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ بِالسَّعَادَةِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْكَلِمَةِ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يُقْتَلْ مِنْ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ قَطُّ أَحَدٌ.

[١٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أَيْ سَبَقَ الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة.

[١٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أَيْ حِزْبُ اللهِ لَهُمُ الْغَلَبَةُ بِالْحُجَّةِ وَالنُّصْرَةِ فِي الْعَاقِبَةِ.

[١٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمَوْتَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَالَ السدي: حتىٰ يأمرك بِالْقِتَالِ، وَقِيلَ: إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ اللهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْقَتْلَ بِبَدْرٍ، وَقِيلَ يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ، قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

[١٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذَلِكَ ، قَالَ قَتَادَةُ: سَوْفَ يُبْصِرُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِبْصَارُ، وَعَسَىٰ مِنَ اللهِ لِلْوُجُوبِ ، وَعَبَّرَ بِالْإِبْصَارِ عَنْ تَقْرِيبِ الْأَمْرِ، أَيْ عن قريب يبصرون، فَقَالُوا مَتَىٰ هَذَا الْعَذَابُ؟ فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[١٧٦] : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كَانُوا يَقُولُونَ مِنْ فَرْطِ تَكْذِيبِهِمْ مَتَىٰ هَذَا الْعَذَابُ، أَيْ لَا تَسْتَعْجِلُوهُ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ بِكُمْ.

[١٧٧] : ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ يعني العذاب، ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ قَالَ مُقَاتِلُ: بِحَضْرَتِهِمْ، وَمَعْنَىٰ﴿بِساحَتِهِمْ﴾ أَيْ بِدَارِهِمْ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْعَرَبُ تَكْتَفِي بِذِكْرِ السَّاحَةِ عَنِ الْقَوْمِ ، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فَبِئْسَ صَبَاحُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ أُنْذِرُوا بالعذاب، وَفِيهِ إِضْمَارٌ أَيْ فَسَاءَ الصَّبَاحُ صَبَاحُهُمْ ، وَخُصَّ الصَّبَاحُ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ الْعَذَابَ كَانَ يَأْتِيهِمْ فِيهِ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « لَمَّا أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ - وَكَانُوا خَارِجِينَ إِلَىٰ مَزَارِعِهِمْ وَمَعَهُمُ الْمَسَاحِي - فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ ، وَرَجَعُوا إِلَىٰ حِصْنِهِمْ، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»(١) ، ثُمَّ كَرَّرَ مَا ذَكَرْنَا تَأْكِيدًا لِوَعِيدِ الْعَذَابِ فَقَالَ:

---

(١) البخاري (٣٧١) ومسلم (١٣٦٥) .

[١٧٨] : ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: أَعْرِضْ عَنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ بَدْرٍ أَوْ إِلَىٰ فَتْحِ مَكَّةَ .

[١٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَبْصِرْ﴾ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ:

[١٨٠] : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الغلبة والقوة، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾مِنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ.

[١٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذِينَ بَلَّغُوا عَنِ اللهِ التَّوْحِيدَ وَالشَّرَائِعَ.

[١٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَىٰ هَلَاكِ الْأَعْدَاءِ وَنُصْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام ، فَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْحَمْدِ، مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي رَبَّىٰ بِهَا الْعَالَمِينَ، وَأَدَرَّ عَلَيْهِمْ فِيهَا النِّعَمَ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ بِهَا النِّقَمَ، وَدَبَّرَهُمْ تَعَالَىٰ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسُكُونِهِمْ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ الْمُقَدَّسُ عَنِ النَّقْصِ، الْمَحْمُودُ بِكُلِّ كَمَالٍ، الْمَحْبُوبُ الْمُعَظَّمُ، وَرُسُلُهُ سَالِمُونَ مُسَلَّمٌ عَلَيْهِمْ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ لَهُ السَّلَامَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَعْدَاؤُهُ لَهُمُ الْهَلَاكُ وَالْعَطَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ ص

سُورَةُ ص مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ، وَهِيَ سِتٌّ وَثَمَانُونَ آيَةً.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ، ﴿ص﴾ هو اسم للسورة ، وَالْقَوْلُ فِيهَا كَالْقَوْلِ الَّذِي مَرَّ فِي سَائِرِ حُرُوفِ التَّهَجِّي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي البيان، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ذِي الشَّرَفِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ والذِّكْرِ: التَّذْكِيرُ، أَيْ تَذْكِيرُ النَّاسِ بِمَا هُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ، وَهُوَ قَسَمٌ، وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَابِ الْقِسْمِ، قِيلَ جَوَابُهُ قَدْ تَقَدَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ص﴾ أقسم الله بِالْقُرْآنِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ صَدَقَ ، وقال الفراء: هي جواب قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ كَمَا تَقُولُ: نَزَلَ وَاللهِ، قال البغوي : وَقِيلَ : جَوَابُ الْقِسْمِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ الْكُفَّارُ، وَدَلَّ عَلَىٰ هَذَا الْمَحْذُوفِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ إن هذا القرآن لذكرىٰ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أَيِ استكباراً عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي ومخالفة لَهُ وَمُعَانَدَةٍ وَمُفَارَقَةٍ، ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ

به الأمم المكذبة قبلهم ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿ بَلْ﴾ لِتَدَارُكِ كَلَامٍ وَنَفْيِ آخَرَ، وَمَجَازُ الْآيَةِ: إِنَّ اللهَ أَقْسَمَ بِـ ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي عِزَّةٍ حَمِيَّةٍ وجاهلية وتكبر عن الحق وشقاقٍ وَعَدَاوَةٍ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالشِّقَاقُ: الْعِنَادُ وَالْخِصَامُ ، وَالْمُرَادُ: وَشِقَاقٌ لِلَّهِ بالشرك وَلِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّكْذِيبِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يَعْنِي مِنَ الْأُمَمِ الماضية، وَالْقَرْنُ: الْأُمَّةُ ﴿فَنَادَوْا﴾ استغاثوا عند نزول العذاب وهول النقمة، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس حين نزول العذاب بهم حين فِرَارٍ، وَلَاتَ بِمَعْنَىٰ لَيْسَ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَجُمْلَةُ وَلاتَ حِينَ مَناصٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَالْوَاوُ وَاوُ الْحَالِ، أَيْ نَادَوْا فِي حَالٍ لَا حِينَ مَنَاصٍ لَهُمْ. ولاتَ حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَىٰ ﴿ لَا﴾ الْمُشَبَّهَةِ بِـ ﴿ لَيْسَ﴾ ولاتَ حَرْفٌ مُخْتَصٌّ بِنَفْيِ أَسْمَاءِ الْأَزْمَانِ وَمَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الزَّمَانِ مِنْ إِشَارَةٍ وَنَحْوِهَا، وَهِيَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ ﴿ لَا﴾ النَّافِيَةِ وُصِلَتْ بِهَا تَاءٌ زَائِدَةٌ لَا تُفِيدُ تَأْنِيثًا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ هَاءً وَإِنَّمَا هِيَ كَزِيَادَةِ التَّاءِ فِي قَوْلِهِمْ: رُبَّتْ وَثُمَّتْ، قال قَتَادَة ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قَالَ: نَادَىٰ الْقَوْم علىٰ غير حِين نِدَاء وَأَرَادُوا التَّوْبَة حِين عاينوا عَذَاب الله فَلم يَنْفَعهُمْ وَلم يقبل مِنْهُم ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: فَعَجُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَضَجُّوا وَاسْتَغَاثُوا بِالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ حِينَ نَزَلَ بِهِمْ بَأْسُ اللهِ وَعَايَنُوا بِهِ عَذَابَهُ فِرَارًا مِنْ عِقَابِهِ وَهَرَبًا مِنْ أَلِيمِ عَذَابِهِ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: وَالْمَعْنَىٰ:

وَلَيْسَ الْوَقْتُ، وَقْتَ خَلاصٍ مِمَّا وَقَعُوا فِيهِ، وَلَا فَرَجٍ لِمَا أَصَابَهُمْ، فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَدُومُوا عَلَىٰ عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَعَجِبُوا﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ الَّذِينَ ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يُنْذِرُهُمْ، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ، قَالَ القرطبي : أي يجئ بِالْكَلَامِ الْمُمَوَّهِ الَّذِي يُخْدَعُ بِهِ النَّاسَ، وَقِيلَ: يُفَرِّقُ بِسِحْرِهِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ وَالرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ، ﴿كَذَّابٌ﴾ أَيْ فِي دَعْوَىٰ النُّبُوَّةِ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ كَيْفَ يَسَعُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أَيْ عَجِيبٌ، وَالْعَجَبُ وَالْعُجَابُ وَاحِدٌ، كَقَوْلِهِمْ رَجُلٌ كَرِيمٌ وَكُرَامٌ وَكَبِيرٌ وَكُبَارٌ وَطَوِيلٌ وَطُوَالٌ وَعَرِيضٌ وَعُرَاضٌ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ أَزَعَمُ أم الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ لَاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟ أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ باللهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَقَّوْا عن آبائهم عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمَّا دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ الْمَلَأُ الْأَشْرَافُ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: قَائِلُ ذَلِكَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَالِانْطِلَاقُ الذَّهَابُ بِسُرْعَةٍ، أَيِ انْطَلَقَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أَيِ امْضُوا علىٰ ما كنتم عليه وما لا تَدْخُلُوا فِي دِينِهِ، ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أَيْ: اسْتَمِرُّوا عَلَيْهَا، وَجَاهِدُوا نُفُوسَكُمْ فِي الصَّبْرِ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ

عِبَادَتِهَا، وَلَا يَرُدَّكُمْ عَنْهَا رَادٌّ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ عَنْ عِبَادَتِهَا صَادٌّ ،﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي الأمر يُرَادُ بِنَا، قال الطبري : إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٌ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أَيْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الْمِلَّةِ: الدِّينُ، قَالَ ابْنُ عباس : يعنون فِي النَّصْرَانِيَّةَ لِأَنَّهَا آخِرُ الْمَلَلِ وَهُمْ لَا يُوَحِّدُونَ، بَلْ يَقُولُونَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ: مِلَّةَ قُرَيْشٍ وَدِينَهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ كَذِبٌ وَافْتِعَالٌ، يُقَالُ: خَلَقَ وَاخْتَلَقَ أَيِ ابْتَدَعَ، وَخَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ مِنْ هَذَا، أَيِ ابْتَدَعَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ القرآن، ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ وَلَيْسَ بِأَكْبَرِنَا وَلَا أَشْرَفِنَا، يَقُولُهُ أَهْلُ مَكَّةَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أَيْ وَحْيِي وَمَا أَنْزَلْتُ، ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أَيْ: لَمْ يَذُوقُوا عَذَابِي ، وَلَوْ ذَاقُوهُ لَمَا قَالُوا هَذَا القول.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ يعني أعندهم؟ ﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني نعمة ربك مَفَاتِيحَ النُّبُوَّةِ يُعْطُونَهَا مَنْ شَاءُوا، ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ الْعَزِيزِ فِي مُلْكِهِ الْوَهَّابِ وَهَبَ النُّبُوَّةَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ، ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أَيْ إِنِ ادَّعَوْا شَيْئًا مِنْ ذَلِك فَلْيَصْعَدُوا فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي توصلهم إلىٰ السماء فليأتوا مِنْهَا بِالْوَحْيِ إِلَىٰ مَنْ يَخْتَارُونَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَرَادَ بِالْأَسْبَابِ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَطُرُقَهَا مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، وَكُلُّ مَا يُوَصِّلُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ بَابٍ أَوْ طَرِيقٍ فَهُوَ سَبَبُهُ، وَهَذَا أَمْرُ تَوْبِيخٍ وَتَعْجِيزٍ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا القول جند ما هنالك، و(ما) صلة، ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أَيْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَجْنَادِ يَعْنِي قُرَيْشًا، قَالَ قَتَادَةُ: أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ أَنَّهُ سَيَهْزِمُ جُنْدُ الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ، فَجَاءَ تَأْوِيلُهَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُنَالِكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ بَدْرٍ وَمَصَارِعِهِمْ، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أَيْ: مِنْ جُمْلَةِ الْأَحْزَابِ، أَيْ: هُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا وَتَجَمَّعُوا عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ بِالتَّكْذِيبِ، فَقُهِرُوا وَأُهْلِكُوا، ثُمَّ قَالَ مُعَزِّيًا لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذُو الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ، وَقِيلَ: أَرَادَ ذُو الْمُلْكِ الشَّدِيدِ الثَّابِتِ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: تَقُولُ الْعَرَبُ هُمْ فِي عِزٍّ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ دائم شديد، وأصل هَذَا أَنَّ بُيُوتَهُمْ كَانَتْ تُثَبَّتُ بِالْأَوْتَادِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ذُو الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ، وَقَالَ عَطِيَّةُ: ذُو الْجُنُودِ وَالْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَوُّونَ أَمْرَهُ، وَيَشُدُّونَ مُلْكَهُ، كَمَا يُقَوِّي الْوَتَدُ الشَّيْءَ، وَسُمِّيَتِ الْأَجْنَادُ أَوْتَادًا لِكَثْرَةِ الْمَضَارِبِ الَّتِي

كَانُوا يَضْرِبُونَهَا وَيُوَتِّدُونَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ، وَهُوَ رِوَايَةُ عَطِيَّةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: ﴿الْأَوْتَادُ﴾ جَمْعُ الْوَتَدِ وَكَانَتْ لَهُ أَوْتَادٌ يُعَذِّبُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَضِبَ عَلَىٰ أَحَدٍ مَدَّهُ مُسْتَلْقِيًا بَيْنَ أربعة أوتاد يشد كُلَّ يَدٍ وَرِجْلٍ مِنْهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ وَيَتْرُكُهُ كَذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّىٰ يَمُوتَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: كَانَ يَمُدُّ الرَّجُلَ مُسْتَلْقِيًا عَلَىٰ الأرض ثم يَشُدُّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَرَأْسَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ بِالْأَوْتَادِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَثَمُودُ﴾ قَوْمُ صَالِحٍ، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أَيْ: الْأَشْجَارِ وَالْبَسَاتِينِ الْمُلْتَفَّةِ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ، ﴿أُولَئِكَ الأحْزَابُ﴾ الذي تَحَزَّبُوا عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَعْلَمَ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حِزْبٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الأحزاب.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وَجَبَ عَلَيْهِمْ وَنَزَلَ بِهِمْ عَذَابِي، وَهَؤُلَاءِ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، مَا الَّذِي يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ، أَنْ لَا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ؟.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنْظُرُ﴾ ينتظر، ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي: كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وَهِيَ نَفْخَةُ الصُّورِ، ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ رُجُوعٍ، أَيْ: مَا يُرَدُّ ذَلِكَ الصَّوْتُ فَيَكُونَ لَهُ رُجُوعٌ، قَالَ البغوي: وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ تِلْكَ الصَّيْحَةَ الَّتِي هِيَ مِيعَادُ عَذَابِهِمْ إِذَا جَاءَتْ لَمْ تُرَدَّ وَلَمْ تُصْرَفْ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وعَنِ ابن عباس قَالَ: يعني كتابنا، والقط الصَّحِيفَةُ الَّتِي أَحْصَتْ كُلَّ شَيْءٍ، قَالُوا

اسْتِهْزَاءً: عَجِّلْ لَنَا كِتَابَنَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنُونَ حَظَّنَا وَنَصِيبَنَا مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي تَقُولُ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : يَعْنِي عُقُوبَتَنَا وَنَصِيبَنَا مِنَ الْعَذَابِ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قِطَّنَا حِسَابَنَا، وَيُقَالُ لِكِتَابِ الْحِسَابِ قِطٌّ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْكِسَائِيُّ: الْقِطُّ الْكِتَابُ بالجوائز، وَقَالَ ابن عاشور : وَالْقِطُّ: هُوَ الْقِسْطُ مِنَ الشَّيْءِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ قِطْعَةٍ مِنَ الْوَرَقِ أَوِ الرَّقِّ أَوِ الثَّوْبِ الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا الْعَطَاءُ لِأَحَدٍ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ مِنْ تَكْذِيبِكَ، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الْقُوَّةِ في العبادة، وَقِيلَ: ذُو الْقُوَّةِ فِي الْمُلْكِ ، والْأَيْدِ في اللغة : الْقُوَّةُ وَالشِّدَّةُ، مَصْدَرُ: آدَ يَئِيدُ، إِذَا اشْتَدَّ وَقَوِيَ، وَمِنْهُ التَّأْيِيدُ التقوية، قَالَ تَعَالَىٰ: فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ ، وَكَانَ دَاوُدُ قَدْ أُعْطِيَ قُوَّةً نَادِرَةً وَشَجَاعَةً وَإِقْدَامًا عَجِيبَيْنِ وَكَانَ يَرْمِي الْحَجَرَ بالمقلاع فَلَا يخطيء الرَّمْيَةَ، وَكَانَ يَلْوِي الْحَدِيدَ لِيَصْنَعَهُ سَرْدًا لِلدُّرُوعِ بِأَصَابِعِهِ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ مَحْمُودَةٌ لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَهَا فِي نَصْرِ دِينِ التَّوْحِيدِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**أَحَبُّ الصلاة إلىٰ الله تعالىٰ صلاة داود، وأحب الصيام إلىٰ الله عزَّ وجلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ**

ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ولا يفر إذا لاقى»[1] ، ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رَجَّاعٌ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُطِيعٌ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ فَسَخَّرَ لَهُ سُبْحَانَهُ الْجِبَالَ الشَّامِخَاتِ تُجِيبُهُ وَتُرَجِّعُ مَعَهُ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّعْظِيمَ فَرَحًا مِنْهَا بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه، ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: غُدْوَةً وَعَشِيَّةً وَالْإِشْرَاقُ هُوَ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ وَيَتَنَاهَىٰ ضوؤها، وَالْعَشِيُّ: مَا بَعْدَ الْعَصْرِ، والْإِشْراقِ: وَقْتُ ظُهُورِ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَاضِحًا عَلَىٰ الْأَرْضِ وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَىٰ وَفَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِصَلَاةِ الضُّحَىٰ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أَيْ وَسَخَّرْنَا لَهُ الطَّيْرَ، ﴿مَحْشُورَةً﴾ مَجْمُوعَةً إِلَيْهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ، وَالْمَحْشُورَةُ: الْمُجْتَمِعَةُ حَوْلَهُ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ الزَّبُورَ ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ مُطِيعٌ رَجَّاعٌ إِلَىٰ طَاعَتِهِ بِالتَّسْبِيحِ، أَيْ يَأْتِيهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَقِيلَ: أَوَّابٌ مَعَهُ أَيْ مُسَبِّحٌ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أَيْ قَوَّيْنَاهُ بِالْحَرَسِ وَالْجُنُودِ، وَالشَّدُّ: الْإِمْسَاكُ وَتَمَكُّنُ الْيَدِ مِمَّا تَمْسِكُهُ، فَيَكُونُ لِقَصْدِ النَّفْعِ كَمَا هُنَا، وَيَكُونُ لِقَصْدِ الضُّرِّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاشْدُدْ علىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَشَدَّ مُلُوكِ الْأَرْضِ سُلْطَانًا كَانَ يَحْرُسُ مِحْرَابَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ رجل ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾

---

(١) البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩) .

يَعْنِي النُّبُوَّةَ وَالْإِصَابَةَ فِي الْأُمُورِ، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَانَ الْكَلَامِ ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عُلِّمَ الْحُكْمَ وَالتَّبَصُّرَ فِي الْقَضَاءِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هُوَ أَنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَىٰ الْمُدَّعِي وَالْيَمِينَ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ، لِأَنَّ كَلَامَ الْخُصُومِ يَنْقَطِعُ وَيَنْفَصِلُ بِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ دَاوُدَ أُوتِيَ مِنْ أَصَالَةِ الرَّأْيِ وَفَصَاحَةِ الْقَوْلِ مَا إِذَا تَكَلَّمَ جَاءَ بِكَلَامٍ فَاصِلٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ شَأْنُ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فَمَا شَعَرَ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَّا وَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ جَالِسَيْنِ، يُقَالُ: كَانَا جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ خَبَرُ الْخَصْمِ، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ صَعَدُوا وَعَلَوْا، والْمِحْرابَ: الْبَيْتُ الْمُتَّخَذُ لِلْعِبَادَةِ، يُقَالُ: تَسَوَّرْتُ الْحَائِطَ وَالسُّورَ إِذَا عَلَوْتَهُ، وَإِنَّمَا جَمَعَ الْفِعْلَ وَهُمَا اثْنَانِ ؛ لِأَنَّ الْخَصْمَ اسْمٌ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُؤَنَّثِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ خَافَ مِنْهُمَا حِينَ هَجَمَا عَلَيْهِ فِي مِحْرَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَقَالَ: مَا أَدْخَلَكُمَا عَلَيَّ، قال ابن عاشور : وَالْفَزَعُ أَعَمُّ مِنَ الْخَوْفِ إِذْ هُوَ اضْطِرَابٌ يحصل من الْإِحْسَان بِشَيْءٍ شَأْنُهُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ خُسُوفِ الشَّمْسِ «أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ فَزِعًا، أَيْ مُسْرِعًا مُبَادِرًا لِلصَّلَاةِ تَوَقُّعًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْخُسُوفُ نَذِيرَ

عَذَابٍ»(١) ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْقُرْآنُ فَفَزِعَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَقُلْ: خَافَ ، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أَيْ نَحْنُ خَصْمَانِ ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جِئْنَاكَ لِتَقْضِيَ بَيْنَنَا، وَمَعْنَىٰ بَغَىٰ بَعْضُنا : اعْتَدَىٰ وَظَلَمَ ، وَالْبَغْيُ: الظُّلْمُ، فَإِنْ قِيلَ: كيف قال: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وَهُمَا مَلَكَانِ لَا يَبْغِيَانِ؟ قِيلَ: معناه رأيت خَصْمَيْنِ بَغَىٰ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ، وَهَذَا مِنْ مَعَارِيضِ الْكَلَامِ لَا عَلَىٰ تَحْقِيقِ الْبَغْيِ مِنْ أَحَدِهِمَا ، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أَيْ لَا تَجُرْ، يُقَالُ: شَطَّ الرَّجُلُ إِذَا جَارَ فِي حُكْمِهِ، وَمَعْنَاهُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنْ شَطَّتِ الدَّارُ وَأَشَطَّتْ إِذَا بَعُدَتْ ، ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أَرْشِدْنَا إِلَىٰ طَرِيقِ الصَّوَابِ وَالْعَدْلِ، فَقَالَ دَاوُدُ لَهُمَا: تَكَلَّمَا،فقَالَ أحدهما:

[٢٣] : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أَيْ عَلَىٰ دِينِي وَطَرِيقَتِي، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وَهِيَ أُنْثَىٰ الْخَرُوفِ، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ مِنْ تِلْكَ النِّعَاجِ وَمَثِيلَاتِهَا ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْطِنِيهَا ، قال ابن زيد: ﴿ أعطنيها﴾ لِيُصْبِحَ لِي مِنْهَا مِئَةٌ كَامِلَةٌ، ﴿وَعَزَّنِي﴾ وَغَلَبَنِي، ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ أَيْ فِي الْقَوْلِ ، وَقِيلَ: قَهَرَنِي لِقُوَّةِ مُلْكِهِ، قَالَ وَهْبٌ: أَيْ قَهَرَنِي فِي الْخِطَابِ وَكَانَ أَقْوَىٰ مِنِّي، فَحَازَ نَعْجَتِي إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَتَرَكَنِي لَا شَيْءَ لِي، وَقَالَ: الضَّحَّاكُ: يَقُولُ إِنْ تَكَلَّمَ كَانَ

(١) البخاري (١٠٥٩) ومسلم (٩١٢) .

أَفْصَحَ مِنِّي وَإِنْ حَارَبَ كَانَ أَبْطَشَ مِنِّي، وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْغَلَبَةَ كَانَتْ لَهُ لِضَعْفِي فِي يَدِهِ، وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ مَعِي .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ﴾ أي قَالَ دَاوُدُ عليه السلام ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ أَيْ بِسُؤَالِهِ نَعْجَتَكَ لِيَضُمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ، أَيْ: مَا أَنْصَفَكَ بِهَذَا الطَّلَبِ ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ طَلَبَ نَعْجَتَكَ الَّتِي أَنْتَ أَحْوَجُ إِلَيْهَا لِيَضُمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ وَلَمْ يَكُنْ سَمِعَ قَوْلَ صَاحِبِهِ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ فَقَدْ ظَلَمَكَ، وَقِيلَ: قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ اعْتِرَافِ صَاحِبِهِ بِمَا يَقُولُ ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشُّرَكَاءِ قال القرطبي : وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُمَا الْأَصْحَابُ، الثَّانِي أَنَّهُمَا الشُّرَكَاءُ ، وَقَالَ طَاوُسٌ وَعَطَاءٌ: لَا يَكُونُ الْخُلَطَاءُ إِلَّا الشُّرَكَاءَ، ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يَظْلِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَظْلِمُونَ أَحَدًا، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أَيْ قَلِيلٌ هُمْ ، و(ما) صِلَةٌ، يَعْنِي: الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ قَلِيلٌ، قَالُوا: فَلَمَّا قَضَىٰ بَيْنَهُمَا دَاوُدُ نَظَرَ أَحَدُهُمَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فَضَحِكَ وَصَعِدَ إِلَىٰ السَّمَاءِ،وَقِيلَ: بِمَعْنَىٰ الَّذِينَ وَتَقْدِيرُهُ وَقَلِيلٌ الَّذِينَ هُمْ ، وَسَمِعَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ عِبَادِكَ الْقَلِيلِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه : مَا هَذَا الدُّعَاءُ؟ فَقَالَ أَرَدْتُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فَقَالَ عُمَرُ: كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْكَ يَا عُمَرُ ، فَعَلِمَ دَاوُدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ابْتَلَاهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أيقن وعلم، ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاهُ، وَاخْتَبَرْنَاهُ

وَدَبَّرْنَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لِيَتَنَبَّهَ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أَيْ سَاجِدًا، عَبَّرَ بِالرُّكُوعِ عَنِ السجود لأن كل واحد منهما فِيهِ انْحِنَاءٌ، قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: سَأَلَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ هَلْ يُقَالُ لِلرَّاكِعِ خَرَّ؟ قُلْتُ: لَا، وَمَعْنَاهُ فَخَرَّ بَعْدَمَا كَانَ راكعـًا أي سجد ، ﴿وَأَنَابَ﴾ أَيْ رَجَعَ وَتَابَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: ﴿ص﴾ لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْجُدُ فِيهَا[1] ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَاخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ هَلْ هَذِهِ السَّجْدَةُ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَبَرَهَا كَذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَدَّهَا سَجْدَةَ شُكْرٍ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الذَّنْبَ، ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ، ﴿عِنْدَنَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُرْبَةً وَمَكَانَةً، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أَيْ حُسْنَ مَرْجِعٍ وَمُنْقَلَبٍ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ يَوْمَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فِي الْجَنَّةِ لِتَوْبَتِهِ وَعَدْلِهِ التَّامِّ فِي مُلْكِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ يوم القيامة وأشدهم عذابـًا إمام جائر**»[2].

---

(١) البخاري (١٠٦٩) ومسلم (١٤٠٩) .

(٢) الترمذي (١٣٢٩) .

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تُدَبِّرُ أُمُورَ الْعِبَادِ بِأَمْرِنَا، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بِالْعَدْلِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أَيْ بِأَنْ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ بِمَا نَسُوا، أَيْ تَرَكُوا الْقَضَاءَ بالعدل ، عن أبي زُرْعَةَ - وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ - أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ: أَيُحَاسَبُ الْخَلِيفَةُ فَإِنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَفَقِهْتَ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقُولُ؟ قَالَ: قل في أمان الله، قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَىٰ الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالىٰ جَمَعَ لَهُ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كتابه فقَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا لِثَوَابٍ وَلَا لِعِقَابٍ، يُشْبِهُ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَإِنَّمَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِلْحَقِّ، فَخَلَقَهُمَا لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ كَمَالُ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، دُونَ مَنْ لَمْ يَخْلُقْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، وَسَيَفْصِلُ اللهُ بَيْنَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،

أَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **خَلَقَ اللهُ آدَمَ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَىٰ، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ اللَّبَنُ، ثُمَّ ضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَىٰ، فَخَرَجَ ذُرِّيَّةٌ سَوْدَاءُ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي** »(١) ، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ هُمُ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِغَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ، وَلَفْظُ: «وَيْلٌ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَشَدِّ السُّوءِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ لِلْمُؤْمِنِينَ: إِنَّا نُعْطَىٰ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُعْطَوْنَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ كَالْكُفَّارِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْمُتَّقِينَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ لَا نَجْعَلُ ذلك، وَالْفُجَّارُ: الَّذِينَ شِعَارُهُمُ الْفُجُورُ، وَهُوَ أَشَدُّ الْمَعْصِيَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْكُفْرُ وَأَعْمَالُهُ الَّتِي لَا تُرَاقِبُ أَصْحَابُهَا التَّقْوَىٰ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٢] ، قال ابن كثير : فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَىٰ يُثَابُ فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وتدل الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ وَالْفِطَرَ الْمُسْتَقِيمَةَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ، فَإِنَّا نَرَىٰ الظَّالِمَ الْبَاغِيَ يَزْدَادُ مَالُهُ

(١) أحمد (٢١٧٦٥) .

وَوَلَدُهُ وَنَعِيمُهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ، وَنَرَىٰ الْمُطِيعَ الْمَظْلُومَ يَمُوتُ بِكَمَدِهِ، فَلَا بُدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ، الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِنْصَافِ هَذَا مِنْ هَذَا، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَىٰ، لِهَذَا الْجَزَاءِ وَالْمُوَاسَاةِ، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَىٰ الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَآخِذِ الْعَقْلِيَّةِ الصَّرِيحَةِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ هَذَا الْكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، وهو القرآن الكريم ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير خيره ونفعه، ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ أي ليتدبروا، وَأَصْلُ «يَدَّبَّرُوا» يَتَدَبَّرُوا، فَقُلِبَتِ التَّاءُ دَالًا لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا لِيَتَأَتَّىٰ الْإِدْغَامُ لِتَخْفِيفِهِ وَهُوَ صِيغَةُ تَكَلُّفٍ ﴿آيَاتِهِ﴾ وليتفكروا فيها، قَالَ الْحَسَنُ: تَدَبُّرُ آيَاتِهِ اتِّبَاعُهُ، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ليتعظ، ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ ذَوُو الْعُقُولِ، وَهِيَ ﴿الْأَلْبَابُ﴾ جَمْعُ لُبٍّ وَهُوَ الْعَقْلُ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللهِ مَا تَدَبَّرَهُ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ، وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مَا يُرَىٰ لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لداود ﴿ سليمان﴾ أي نبيـًا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أَيْ فِي النُّبُوَّةِ، وَإِلَّا فَقَدَ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ قَدْ كان عنده مائة امرأة حرائر، وقوله تعالىٰ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ ثَنَاءٌ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ،﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَيْ: رَجَّاعٌ إِلَىٰ اللهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، بِالتَّأَلُّهِ وَالْإِنَابَةِ،

وَالْمَحَبَّةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي مَرْضَاةِ اللهِ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ وَالصَّافِنَاتُ هِيَ الْخَيْلُ الْقَائِمَةُ عَلَىٰ ثَلَاثِ قَوَائِمَ وَأَقَامَتْ وَاحِدَةً عَلَىٰ طَرَفِ الْحَافِرِ مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ، يُقَالُ: صَفَنَ الْفَرَسُ يَصْفِنُ صُفُونًا إِذَا قَامَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ قَوَائِمَ، وَقَلَبَ أَحَدَ حَوَافِرِهِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: الصَّافِنُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْوَاقِفُ مِنَ الْخَيْلِ أَوْ غَيْرِهَا، وَقِيلَ: الصَّافِنُ فِي اللُّغَةِ الْقَائِمُ،وَالْجِيَادُ الْخِيَارُ السِّرَاعُ، وَاحِدُهَا جَوَادٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُمَا: يُرِيدُ الْخَيْلَ السَّوَابِقَ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أَيْ آثَرْتُ حُبَّ الْخَيْرِ وَأَرَادَ بِالْخَيْرِ الْخَيْلَ، وَالْعَرَبُ تُعَاقِبُ بَيْنَ الرَّاءِ وَاللَّامِ، فَتَقُولُ: خَتَلْتُ الرَّجُلَ وَخَتَرْتُهُ، أَيْ خَدَعْتُهُ، وَسُمِّيَتِ الْخَيْلُ خَيْرًا لِأَنَّهُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ، الأجر والمغنم، قال مقاتل: يَعْنِي الْمَالَ فَهِيَ الْخَيْلُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيْهِ ، ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يَعْنِي عَنِ الصَّلَاةِ وَهِيَ صَلَاةُ العصر ، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أَيْ: تَوَارَتِ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ، أَيِ اسْتَتَرَتْ بِمَا يَحْجُبُهَا عَنِ الْأَبْصَارِ. أَصْلُ التَّوَارِي الِاسْتِتَارُ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَالْحِجَابُ هُوَ اللَّيْلُ؛ سُمِّيَ حِجَابًا لِأَنَّهُ يَسْتُرُ مَا فِيهِ. وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ خَاصَّةَ الْخَيْلِ وَأَجْوَدَهَا وَأَرْوَعَهَا كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمًا فَلَهِيَ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ فَاتَتْهُ نِسْيَانًا وَانْشِغَالًا بِهَا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أَيْ رُدُّوا الْخَيْلَ عَلَيَّ فَرَدُّوهَا، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: طَفِقَ يَفْعَلُ مِثْلُ: مَا زَالَ يَفْعَلُ، وَالْمُرَادُ بِالْمَسْحِ الْقَطْعُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ سُوقَهَا وَأَعْنَاقَهَا بِالسَّيْفِ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلٍ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ مُبَاحًا لَهُ لِأَنَّ نَبِيَّ اللهِ لَمْ يَكُنْ يَقْدَمُ عَلَىٰ مُحَرَّمٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَتُوبُ عَنْ ذَنْبٍ بِذَنْبٍ آخَرَ. الْقَوْلُ الثَّانِي: قِيلَ بَلْ جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَهَا وَعَرَاقِيبَهَا بِيَدِهِ حُبًّا لَهَا. فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَقُولُ: جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا حُبًّا لَهَا، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ فَقَالَ: يَقُولُ: فَجَعَلَ يَمْسَحُ مِنْهَا السُّوقَ، وَهِيَ جَمْعُ السَّاقِ، وَالْأَعْنَاقَ ؛ لِأَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ إِنْ شَاءَ اللهُ لِيُعَذِّبَ حَيَوَانًا بِالْعَرْقَبَةِ وَيُهْلِكَ مَالًا مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ سِوَىٰ أَنَّهُ اشْتَغَلَ عَنْ صَلَاتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، وَلَا ذَنْبَ لَهَا بِاشْتِغَالِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ اخْتَبَرْنَاهُ وَابْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ إِخْبَارٌ عَنِ ابْتِلَاءِ اللهِ سُلَيْمَانَ فَابْتَلَاهُ اللهُ بِجِنِّيٍّ عَلَىٰ شَكْلِ إِنْسَانٍ جَلَسَ عَلَىٰ عَرْشِهِ بُرْهَةً فَسُلِبَ بِذَلِكَ الْمُلْكَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ سُلْطَانُهُ وَأُبَّهَتُهُ وَمُلْكُهُ بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَنِ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ: جَسَدًا: يَعْنِي شَيْطَانًا، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَيْ رَجَعَ إِلَىٰ مُلْكِهِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَلَمَّا رَجَعَ، وَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ الْجِنِّيُّ يُشْبِهُ سُلَيْمَانَ. وَقِيلَ: ثُمَّ أَنَابَ أَيْ اسْتَغْفَرَ وَرَجَعَ إِلَىٰ اللهِ مُنِيبًا تَائِبًا ، وَيَبْدُو أَنَّ أَمْرَ سِحْرٍ ابْتَلَاهُ اللهُ بِهِ ، ثُمَّ كَشَفَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ وَابْنُ كَيْسَانَ: لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: يُرِيدُ هَبْ لِي مُلْكًا لَا تَسْلُبْنِيهِ فِي آخِرِ عمري، وتعطيه غَيْرِي كَمَا اسْتَلَبْتَهُ فِيمَا مَضَىٰ مِنْ عُمُرِي ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ قِيلَ: سَأَلَ ذَلِكَ لِيَكُونَ آيَةً لِنُبُوَّتِهِ وَدَلَالَةً عَلَىٰ رِسَالَتِهِ، وَمُعْجِزَةً، وَقِيلَ: سَأَلَ ذَلِكَ لِيَكُونَ عَلَمًا عَلَىٰ قَبُولِ تَوْبَتِهِ حَيْثُ أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَرَدَّ إِلَيْهِ مُلْكَهُ، وزاده فِيهِ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: كَانَ لِسُلَيْمَانَ مُلْكًا وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِ: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ تَسْخِيرَ الرِّيَاحِ وَالطَّيْرِ وَالشَّيَاطِينِ، بِدَلِيلِ ما بعده، قال ابن كثير : وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وبذلك وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ الْبُخَارِيُّ عند تفسير هذه الآية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « **إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عليَّ الْبَارِحَةَ** - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ **فَأَمْكَنَنِي اللهُ تبارك وتعالىٰ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:** ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ قَالَ رَوْحٌ: فَرَدَّهُ خاسئًا »(١) .

---

(١) البخاري (٤٨٩) ومسلم (٥٤١) .

[٣٦] قَوْلُهُ تَعالَىٰ : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ لَيِّنَةً لَيْسَتْ بِعَاصِفَةٍ، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حَيْثُ أَرَادَ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَصَابَ الصَّوَابَ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ تُرِيدُ أَرَادَ الصواب .

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي سخرنا له الشياطين، ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ يَبْنُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ محاريب وتماثيل، ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يَسْتَخْرِجُونَ لَهُ اللَّآلِئَ مِنَ الْبَحْرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَخْرَجَ اللُّؤْلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ مَشْدُودِينَ فِي الْقُيُودِ، أَيْ وَسَخَّرْنَا لَهُ آخَرِينَ يَعْنِي مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ سُخِّرُوا لَهُ حَتَّىٰ قَرَّنَهُمْ فِي الأصفاد.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ أَيْ قُلْنَا لَهُ هَذَا عَطَاؤُنَا، ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ الْمَنُّ هُوَ الْإِحْسَانُ إِلَىٰ مَنْ تشاؤه ومن لا تشاؤه، مَعْنَاهُ: أَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَأَمْسِكْ عمن شئت، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَفِيمَا أَمْسَكْتَ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ أَحَدٍ نِعْمَةً إِلَّا عَلَيْهِ تَبِعَةٌ، إِلَّا سُلَيْمَانَ فإن أَعْطَىٰ أُجر، وَإِنْ لَمْ يُعْطِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ تَبِعَةٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هَذَا فِي أَمْرِ الشَّيَاطِينِ، يَعْنِي: خَلِّ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَأَمْسِكْ مَنْ شِئْتَ فِي وِثَاقِكَ لَا تَبِعَةَ عَلَيْكَ فِيمَا تَتَعَاطَاهُ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أَيْ إِنْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَلَهُ عِنْدَنَا فِي الْآخِرَةِ قُرْبَةٌ وَحُسْنُ مَرْجِعٍ، وَالزُّلْفَىٰ: الْقُرْبَىٰ اسْمٌ لِلْقُرْبِ مِثْلَ الرُّجْعَىٰ وهو الدرجات العالية فِي الْجَنَّةِ لِتَوْبَتِهِ وَعَدْلِهِ التَّامِّ فِي مُلْكِهِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ بِمَشَقَّةٍ وَضُرٍّ، قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: بِنُصْبٍ فِي الْجَسَدِ، وَكَانَ سُلِّطَ عَلَىٰ جَسَدِهِ فَنَفَخَ فِيهِ حَتَّىٰ تَقَرَّحَ، ثُمَّ تَقَيَّحَ بَعْدَ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ بِهِ الْأَمْرُ، وَكَذَلِكَ هَلَكَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، ﴿وَعَذَابٍ﴾ فِي مَالِي وَوَلَدِي، فَلَمَّا انْقَضَتْ مُدَّةُ بَلَائِهِ قِيلَ له:

[٤٢] : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ فَفَعَلَ فَنَبَعَتْ عين ماء، ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ﴾ فأمره الله يَغْتَسِلَ مِنْهَا فَفَعَلَ فَذَهَبَ كُلُّ دَاءٍ كَانَ بِظَاهِرِهِ، ثُمَّ مَشَىٰ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً فَرَكَضَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ الْأُخْرَىٰ فَنَبَعَتْ عَيْنٌ أُخْرَىٰ مَاءٌ عذب بارد، فَشَرِبَ مِنْهَا فَذَهَبَ كُلُّ دَاءٍ كَانَ بِبَاطِنِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ يعني الذي اغتسل منه بارد، ﴿وَشَرَابٌ﴾ أراد الذي شرب منه.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ قِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَحْيَاهُمْ لَهُ، وَهُنَا تَكْمِلَةٌ لِقِصَّةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، وَأَغْنَاهُ اللهُ، وَأَعْطَاهُ مَالًا عَظِيمًا ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ بِعَبْدِنَا أَيُّوبَ، حَيْثُ صَبَرَ فَأَثَبْنَاهُ مِنْ رَحْمَتِنَا ثَوَابًا عَاجِلًا وَآجِلًا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ: وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْعُقُولِ بِحَالَةِ أَيُّوبَ وَيَعْتَبِرُوا، فَيَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ الضُّرِّ، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُثِيبُهُ ثَوَابًا عَاجِلًا وَآجِلًا وَيَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُ إِذَا دَعَاهُ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وَهُوَ مِلْءُ الْكَفِّ مِنَ الشَّجَرِ أَوِ الْحَشِيشِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: وَكَانَ فِي مَرَضِهِ وَضُرِّهِ، قَدْ غَضِبَ عَلَىٰ زَوْجَتِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، فَحَلَفَ: لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ لَيَضْرِبَنَّهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمَّا شَفَاهُ اللهُ، وَكَانَتِ

امْرَأَتُهُ صَالِحَةً مُحْسِنَةً إِلَيْهِ، رَحِمَهَا اللهُ وَرَحِمَهُ، فَأَفْتَاهُ أَنْ يَضْرِبَهَا بِضِغْثٍ فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، فَيَبَرَّ فِي يَمِينِهِ، ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ فِي يَمِينِكَ فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مِائَةِ عُودٍ صِغَارٍ ويضربها ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَيْ تَوَّابٌ رَجَّاعٌ مُطِيعٌ ، وسيل سُفْيَانُ عَنْ عَبْدَيْنِ ابْتُلِيَ أَحَدُهُمَا فَصَبَرَ، وَأُنْعِمَ عَلَىٰ الْآخَرِ فَشَكَرَ، فَقَالَ: كِلَاهُمَا سَوَاءٌ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَثْنَىٰ عَلَىٰ عَبْدَيْنِ، أَحَدُهُمَا صَابِرٌ وَالْآخَرُ شَاكِرٌ ثَنَاءً وَاحِدًا، فَقَالَ فِي وَصْفِ أَيُّوبَ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وَقَالَ فِي وَصْفِ سُلَيْمَانَ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُولِي الْقُوَّةِ في طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ فِي الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ أَيِ الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ، قَالَ قَتَادَةُ: أُعْطَوْا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا في الدين. قَالَ النَّحَّاسُ: أَمَّا ﴿ الْأَبْصارِ﴾ فَمُتَّفَقٌ عَلَىٰ تَأْوِيلِهَا أَنَّهَا الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ. وَأَمَّا ﴿الْأَيْدِي﴾ فَمُخْتَلَفٌ فِي تَأْوِيلِهَا، فَأَهْلُ التَّفْسِيرِ يَقُولُونَ: إِنَّهَا الْقُوَّةُ فِي الدِّينِ ، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ: ﴿ الْأَيْدِي﴾ جَمْعُ يَدٍ وَهِيَ النِّعْمَةُ، أَيْ هُمْ أَصْحَابُ النِّعَمِ، أَيِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ النعَمِ وَالْإِحْسَانِ، لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْسَنُوا وَقَدَّمُوا خَيْرًا ، وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ .

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ اصطفيناهم، ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فَمَعْنَاهُ بِخُلَّةٍ خَالِصَةٍ، وَهِيَ ذِكْرَىٰ الدَّارِ، فَيَكُونُ ذِكْرَىٰ الدَّارِ بَدَلًا

عَنِ الْخَالِصَةِ، وَقِيلَ: أَخْلَصْنَاهُمْ: جَعَلْنَاهُمْ مُخْلَصِينَ، بِمَا أَخْبَرْنَا عَنْهُمْ مِنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ ، قَالَ القرطبي : وَالدَّارُ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الدُّنْيَا، أَيْ لِيَتَذَكَّرُوا الدُّنْيَا وَيَزْهَدُوا فِيهَا، وَلِتَخْلُصَ لَهُمْ بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهَا الدَّارُ الْآخِرَةُ وَتَذْكِيرُ الْخَلْقِ بِهَا .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ، ﴿الْأَخْيَارِ﴾ الَّذِينَ لَهُمْ كُلُّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَعَمَلٍ مُسْتَقِيمٍ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ وَالْيَسَعُ خَلِيفَةُ إِلْيَاسَ، وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ: أَلِيشَعُ، كَمَا يُسَمُّونَ إِلْيَاسَ: إِيلِيَّا: ذُو الْكِفْلِ ، فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ، قال مجاهد رَجُلٌ صالح غير نبي تكفل لبني قَوْمِهِ أَنْ يَكْفِيَهُ أَمْرَ قَوْمِهِ، وَيُقِيمَهُمْ لَهُ، وَيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَسُمِّيَ ذَا الكفل ، أَيْ: وَاذْكُرْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَثْنِ عَلَيْهِمِ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَاخْتَارَ لَهُمْ أَكْمَلَ الْأَحْوَالِ، مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْخِصَالِ السَّدِيدَةِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ذكر، وقيل ذِكْرٌ أَيْ شَرَفٌ وَذِكْرٌ جَمِيلٌ تُذْكَرُونَ بِهِ قال السدي: يعني القرآن العظيم، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وَهُوَ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، ثُمَّ فسره بقوله تعالىٰ:

[٥٠] : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أَيْ جَنَّاتِ إِقَامَةٍ ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب﴾ والألف واللام ههنا بِمَعْنَىٰ الْإِضَافَةِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ مُفَتَّحَةً لَهُمْ أَبْوَابُهَا، أَيْ: إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قِيلَ: مُتَرَبِّعِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ تَحْتَ الْحِجَالِ، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَأُحْضِرَ كَمَا أَرَادُوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أَيْ مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِهِ شاءوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وأبارق وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨] .

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف﴾ أي من غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَلْتَفِتْنَ إِلَىٰ غَيْرِ بُعُولَتِهِنَّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ أَيْ مُتَسَاوِيَاتٌ فِي السِّنِّ وَالْعُمُرِ، بنات ثلاث وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَاحِدُهَا تِرْبٌ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: مُتَوَاخِيَاتٌ لَا يَتَبَاغَضْنَ وَلَا يَتَغَايَرْنَ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أَيْ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَذَا مَا توعدون، ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي ذكرنا من صفة الجنة هي الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النار، ثم أخبر تبارك وتعالىٰ عَنِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالىٰ:

[٥٤] : ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ مَا لَهُ فَنَاءٌ وَانْقِطَاعٌ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿هَذَا﴾ أَيِ الْأَمْرُ هَذَا ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ لَمَّا ذَكَرَ مَا لِلْمُتَّقِينَ ذَكَرَ مَا لِلطَّاغِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أَيْ مُنْقَلَبٌ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

[٥٦] : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أَيْ بِئْسَ مَا مَهَّدُوا لِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ بِئْسَ الْفِرَاشُ لَهُمْ ، وَمِنْهُ مَهْدُ الصَّبِيِّ ، وَقِيلَ: فِيهِ حَذْفٌ أَيْ بِئْسَ مَوْضِعُ الْمِهَادِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا﴾ أَيْ هَذَا الْعَذَابُ، ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ هَذَا حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ فَلْيَذُوقُوهُ، وَالْحَمِيمُ الْمَاءُ الْحَارُّ الَّذِي انْتَهَىٰ حَرُّهُ وَغَسَّاقٌ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْغَسَّاقِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الزَّمْهَرِيرُ يَحْرُقُهُمْ بِبَرْدِهِ، كَمَا تَحْرُقُهُمُ النَّارُ بحرها ، قال مُقَاتِلٌ وَمُجَاهِدٌ: هُوَ الَّذِي انْتَهَىٰ بَرْدُهُ، وَقِيلَ: هُوَ الْمُنْتِنُ بِلُغَةِ التُّرْكِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مَا يَغْسِقُ أَيْ مَا يَسِيلُ مِنَ الْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ وَلُحُومِهِمْ وَفُرُوجِ الزُّنَاةِ، مِنْ قولهم غَسَقَتْ عَيْنُهُ إِذَا انْصَبَّتْ، وَالْغَسَقَانُ : الانصباب.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَآخَرُ﴾ أَيْ وَعَذَابٌ آخَرُ سِوَىٰ الْحَمِيمِ وَالْغَسَّاقِ ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ مِثْلِهِ أَيْ مِثْلُ الْحَمِيمِ وَالْغَسَّاقِ ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أَيْ أَصْنَافٌ أُخَرُ مِنَ الْعَذَابِ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا هُوَ أَنَّ الْقَادَةَ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ ثُمَّ دَخَلَ بَعْدَهُمُ الْأَتْبَاعُ ، قَالَتِ الخزنة للكفار: هَذَا يَعْنِي الْأَتْبَاعُ فَوْجٌ: جَمَاعَةٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمُ النَّارَ، أَيْ دَاخِلُوهَا كَمَا أَنْتُمْ دَخَلْتُمُوهَا،

وَالْفَوْجُ الْقَطِيعُ مِنَ النَّاسِ وَجَمْعُهُ أَفْوَاجٌ، وَالِاقْتِحَامُ الدُّخُولُ فِي الشَّيْءِ رَمْيًا بِنَفْسِهِ فِيهِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنَّهُمْ يُضْرَبُونَ بِالْمَقَامِعِ حَتَّىٰ يُوقِعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي النَّارِ خَوْفًا مِنْ تِلْكَ الْمَقَامِعِ، فَقَالَتِ الْقَادَةُ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ يعني بالأتباع، ﴿إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾ أَيْ دَاخِلُوهَا كَمَا صَلَيْنَا، أَيْ إنهم صالوا النَّارِ كَمَا صَلَيْنَاهَا.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ فَقَالَ الْأَتْبَاعُ لِلْقَادَةِ، ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أَيْ لَا اتَّسَعَتْ مَنَازِلُهُمْ فِي النَّارِ، وَالْمَرْحَبُ وَالرَّحْبُ: السَّعَةُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا: أَيْ أَتَيْتَ رَحْبًا وَسِعَةً، وَتَقُولُ: لَا مَرْحَبًا بِكَ أَيْ لَا رَحُبَتْ عَلَيْكَ الأرض، ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يَقُولُ الْأَتْبَاعُ لِلْقَادَةِ: أَنْتُمْ بَدَأْتُم بِالْكُفْرِ قَبْلَنَا وَشَرَعْتُمْ وَسَنَنْتُمُوهُ لَنَا وَقِيلَ: أَنْتُمْ قَدَّمْتُمْ هَذَا الْعَذَابَ لَنَا بِدُعَائِكُمْ إِيَّانَا إِلَىٰ الْكُفْرِ، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أَيْ فَبِئْسَ دَارُ الْقَرَارِ جَهَنَّمُ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الْأَتْبَاعُ، ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ أَيْ شَرَعَهُ وَسَنَّهُ لَنَا، وقيل: مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا الْعَذَابَ بِدُعَائِهِ إِيَّانَا إِلَىٰ الْمَعَاصِي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أَيْ ضَعِّفْ عَلَيْهِ الْعَذَابَ فِي النَّارِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَعْنِي حيات وأفاعي.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي صَنَادِيدَ قُرَيْشٍ وَهُمْ فِي النَّارِ، ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ في الدنيا، ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يَعْنُونَ فُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ: عَمَّارًا وَخَبَّابًا وَصُهَيْبًا وَبِلَالًا وَسَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالُوا:

[٦٣] : ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي في الدار الدُّنْيَا ، وَالسُّخْرِيُّ: اسْمُ مَصْدَرِ سَخِرَ مِنْهُ، إِذَا اسْتَهْزَأَ بِهِ، فَالسُّخْرِيُّ الِاسْتِهْزَاءُ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَىٰ شَدَّةِ الِاسْتِهْزَاءِ لِأَنَّ يَاءَهُ فِي الْأَصْلِ يَاءُ نَسَبٍ وَيَاءُ النَّسَبِ تَأْتِي لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : كُلُّ ذَلِكَ قَدْ فَعَلُوا، اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيًّا، وَزَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُهُمْ فِي الدُّنْيَا مُحَقِّرَةً لَهُمْ ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: هَذَا مِنَ الِاسْتِفْهَامِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّوْبِيخُ وَالتَّعَجُّبُ، ﴿أَمْ زاغَت﴾ أي مالت ، وَالزَّيْغُ: الْمَيلُ عَنِ الْجِهَةِ، أَيْ مَالَتْ أَبْصَارُنَا عَنْ جِهَتِهِمْ فَلَمْ تَنْظُرْهُمْ. ﴿عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾، قَال البغوي : وَمَجَازُ الْآيَةِ: مَا لَنَا لَا نَرَىٰ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا لَمْ يَدْخُلُوا مَعَنَا النَّارَ؟ أَمْ دَخَلُوهَا فَزَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا فَلَمْ نرهم حين دخلوا؟ وَقِيلَ: أَمْ هُمْ فِي النَّارِ ولكن احتجبوا عن أبصارنا؟ فقال ابن كيسان: يعني أَمْ كَانُوا خَيْرًا مَنَّا وَلَكِنْ نحن لا نعلم، وكانت أَبْصَارُنَا تَزِيغُ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَلَا نَعُدُّهُمْ شَيْئًا.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾، أَيْ إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَلَعْنِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، لحقٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ولا شك.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أَيْ: عَلَيَّ الْإِنْذَارُ، أَنْذِرُهُمْ بَأْسَ اللهِ وَعَذَابَهُ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ إِنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ كِبْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ هَذَا نِهَايَةُ مَا عِنْدِي، وَأَمَّا الْأَمْرُ فَلِلَّهِ

تَعَالَىٰ، وَلَكِنِّي آمُرُكُمْ، وَأَنْهَاكُمْ، وَأَحُثُّكُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَأَزْجُرُكُمْ عَنِ الشَّرِّ. فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا، وَمُرَبِّيهِمَا، وَمُدَبِّرُهُمَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّدَابِيرِ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ، الَّتِي بِهَا خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ ، ﴿الْغَفَّارُ﴾ لِجَمِيعِ الذُّنُوبِ، صَغِيرِهَا، وَكَبِيرِهَا، لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَقْلَعَ مِنْهَا، فَهَذَا الَّذِي يُحَبُّ وَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، دُونَ مَنْ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَمْلِكُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُ قُوَّةُ الِاقْتِدَارِ، وَلَا بِيَدِهِ مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ خَبَرٌ عَظِيمٌ وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالىٰ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : هو الْقُرْآنَ، وقيل: هو يعني القيامة لقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ : ١-٢]، قال القرطبي : أَيْ مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ خَبَرٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَخَفَّ بِهِ، وقال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ بِالنَّبَأِ: خَبَرُ الْحَشْرِ وَمَا أُعِدَّ فِيهِ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ حُسْنِ مَآبٍ، وَلِلطَّاغِينَ مِنْ شَرِّ مَآبٍ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أَيْ غَافِلُونَ، تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَتَحْمِيقٌ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني الملائكة، ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة : ٣٠] ،

وَذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا بِتَأْيِيدٍ إِلَهِيٍّ، فَقَدْ قَامَتِ الْمُعْجِزَةُ عَلَىٰ صِدْقِهِ، فَمَا بَالُهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ لِيَعْرِفُوا صِدْقَهُ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ : إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ ﴿أَنَّمَا﴾ [فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ أَيْ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا الْإِنْذَارُ، وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ الْمَعْنَىٰ: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنِّي نَذِيرٌ مُبِينٌ ، قَالَ السعدي : أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَفِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ الْحِجْرِ، وَسُبْحَانَ، وَالْكَهْفِ، وَهَهُنَا، وَهِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ بَشَراً يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أَتْمَمْتُ خَلْقَهُ، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: مِنْ قُدْرَتِي، وَقِيلَ: أَيْ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي أَمْلِكُهُ وَلَا يَمْلِكُهُ غَيْرِي، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء : ١٧١] ، فَالْمُرَادُ إِذَا عَدَّلْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ الرُّوحَ ، فَأَحْيَيْتُهُ بِهَا وَجَعَلْتُهُ حَسَّاسًا مُتَنَفِّسًا.﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وَهَذَا سُجُودُ تَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أَيِ امْتَثَلُوا الْأَمْرَ وَسَجَدُوا لَهُ خُضُوعًا لَهُ وَتَعْظِيمًا لِلَّهِ بِتَعْظِيمِهِ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أَنِفَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ جَهْلًا بِأَنَّ السُّجُودَ لَهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ، وَالْأَنَفَةُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ اسْتِكْبَارًا كُفْرٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِاسْتِكْبَارِهِ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أَيْ صَرَفَكَ وَصَدَّكَ ﴿ أَنْ تَسْجُدَ﴾ أَيْ عَنْ أَنْ تَسْجُدَ﴿ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أَضَافَ خَلْقَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ تَكْرِيمًا لَهُ، وَإِنْ كان خالق كل شي وَهَذَا كَمَا أَضَافَ إِلَىٰ نَفْسِهِ الرُّوحَ وَالْبَيْتَ وَالنَّاقَةَ وَالْمَسَاجِدَ، ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أَيْ عَنِ السُّجُودِ ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ أَيِ الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رَبِّكَ .

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال الشوكاني : وَفِي زَعْمِهِ أَنَّ عُنْصُرَ النَّارِ أَشْرَفُ مِنْ عُنْصُرِ الطِّينِ، وَذَهَبَ عَنْهُ أَنَّ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْخَادِمِ لِعُنْصُرِ الطِّينِ إِنِ احْتِيجَ إِلَيْهَا اسْتُدْعِيَتْ كَمَا يُسْتَدْعَىٰ الْخَادِمُ وَإِنِ اسْتُغْنِيَ عَنْهَا طُرِدَتْ، وَأَيْضًا فَالطِّينُ يَسْتَوْلِي عَلَىٰ النَّارِ فَيُطْفِئُهَا.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أَيْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: أَيْ مِنَ الْخِلْقَةِ الَّتِي أَنْتِ فيها، قال الحسن

بْنُ الْفَضْلِ: هَذَا تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ تَجَبَّرَ وَافْتَخَرَ بِالْخِلْقَةِ، فَغَيَّرَ اللهُ خِلْقَتَهُ فَاسْوَدَّ وَقَبُحَ بعد حسنه، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مَطْرُودٌ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وإبعادي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أَيْ: دَائِمًا أَبَدًا .

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ إِغْوَاءِ مَنْ قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُغْوِيَهُ .

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ اللهُ مُجِيبًا لِدَعْوَتِهِ، حَيْثُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ .

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ حِينَ تَسْتَكْمِلُ الذُّرِّيَّةُ، وَيَتِمُّ الِامْتِحَانُ ، وَهُوَ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنَّ الْبَاءَ لِلْقَسَمِ، وَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِعِزَّةِ اللهِ لَيُغْوِيَنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْبَاءَ لِلِاسْتِعَانَةِ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَاجِزٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَّهُ لَا يُضِلُّ أَحَدًا إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَاسْتَعَانَ بِعِزَّةِ اللهِ عَلَىٰ إِغْوَاءِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ هَذَا، وَهُوَ عَدُوُّ اللهِ حَقًّا، ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لَأَسْتَدْعِيَنَّهُمْ إِلَىٰ الْمَعَاصِي وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَّا إِلَىٰ الْوَسْوَسَةِ، وَلَا يُفْسِدُ إِلَّا مَنْ كَانَ لَا يَصْلُحُ لَوْ لَمْ يُوَسْوِسْهُ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٨٣] : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذي أَخْلَصْتَهُمْ لِعِبَادَتِكَ، وَعَصَمْتَهُمْ مِنِّي.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ بِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُ اللهُ: أَنَا الْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ: مِنْ نَفْسِكَ وَذُرِّيَّتِكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَسَارَ عَلَىٰ طَرِيقِكَ، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أَيْ مِنْ نفسك وذريتك ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ﴾ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ وَكَنَّىٰ بِهِ عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ ، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ الْمُتَقَوِّلِينَ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، وَكُلُّ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ تلقاء نفسه فقد تكلفه، قال عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ سُئِلَ عَمَّا لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ لَا أَعْلَمُ وَلَا يَتَكَلَّفْ، فَإِنَّ قَوْلَهُ لَا أَعْلَمُ عِلْمٌ، وَقَدْ قَالَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا هُوَ يَعْنِي : الْقُرْآنَ، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظةٌ، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للخلق أجمعين.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أَنْتُمْ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿نَبَأَهُ﴾ خبر صدقه، ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مَنْ بَقِيَ عَلِمَ ذَلِكَ إِذَا ظَهَرَ أَمْرُهُ وَعَلَا، وَمَنْ مَاتَ عَلِمَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: ابْنَ آدَمَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ ص بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الزُّمَرِ

سُمِّيَتْ «سُورَةَ الزُّمَرِ» مِنْ عَهْدِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرَأَ الزُّمَرَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ»[1]، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ سُورَةَ الزُّمَرِ لِوُقُوعِ هَذَا اللَّفْظِ فِيهَا دُونَ غَيْرِهَا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ، وَفِي «تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ» عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ سَمَّاهَا «سُورَةَ الْغُرَفِ»، قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْرِفَ قَضَاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في خلقه لفليقرأ سُورَةَ الْغُرَفِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَهِيَ السُّورَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُونَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ عَلَىٰ الْمُخْتَارِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ سَبَأٍ وَقَبْلَ سُورَةِ غَافِرٍ. وَعُدَّتْ آيَاتُهَا عِنْدَ الْمَدَنِيِّينَ وَالْمَكِّيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أَيْ: هَذَا تَنْزِيلُ الْكِتَابِ، وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: الَّذِي نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الْحَكِيمِ فِي تَدْبِيرِهِ خَلْقَهُ، لَا مِنْ غَيْرِهِ، فَلَا تَكُونَنَّ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ، ﴿مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ﴾ أَيِ: الْمَنِيعِ الْجَنَابِ، ﴿الْحَكِيمِ﴾

---

(١) أحمد (٢٤٨٧٥) والترمذي (٢٩٢٠).

أَيْ: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، أَيْ: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ لَا مِنْ غَيْرِهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَجَلَالَةِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَنَزَلَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، أَيِ: الَّذِي وَصْفُهُ الْأُلُوهِيَّةُ لِلْخَلْقِ، وَذَلِكَ لِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ، وَالْعِزَّةِ الَّتِي قَهَرَ بِهَا كُلَّ مَخْلُوقٍ، وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَالْحِكْمَةِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ قال مقاتل: لم ينزله بَاطِلًا لِغَيْرِ شَيْءٍ، وَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ، أَيْ بِالصِّدْقِ وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ وَهَزْلٍ، ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ الطَّاعَةَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقِيلَ: لَا يَسْتَحِقُّ الدِّينَ الْخَالِصَ إِلَّا اللهُ، وَقِيلَ: الدِّينُ الْخَالِصُ مِنَ الشِّرْكِ هُوَ لِلَّهِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ النِّيَّةِ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَأَعْظَمُهُ الْوُضُوءُ الَّذِي هُوَ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »(١) ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أَيْ قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ، ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ

(١) مسلم (٢٩٨٥) .

لَهُمْ: مَنْ رَبُّكُمْ وَمَنْ خَلَقَكُمْ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ قَالُوا: اللهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فَمَا مَعْنَىٰ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ؟ قَالُوا: لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ أَيْ قُرْبَىٰ، وَهُوَ اسْمٌ أُقِيمَ فِي مَقَامِ الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ تَقْرِيبًا وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَ اللهِ، قال قتادة: قالوا ما نعبدُ هؤلاء إلا ليقربونا، إلا ليشفعوا لنا عند الله؛ وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ في تلبيتهم إِذَا حَجُّوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ» ، وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ هِيَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بِرَدِّهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ هَذَا شَيْءٌ اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لَمْ يَأْذَنِ اللهُ فِيهِ، وَلَا رَضِيَ بِهِ، بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَىٰ عَنْهُ ، ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ بَيْنَ أَهْلِ الْأَدْيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ لَا يُرْشِدُ لِدِينِهِ مَنْ كَذَبَ فقال: إن الآلهة لتشفع، وَكَفَىٰ بِاتِّخَاذِ الْآلِهَةِ دُونَهُ كَذِبًا وَكُفْرًا، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: فَهَؤُلَاءِ، قَدْ تَرَكُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَتَجَرَّأُوا عَلَىٰ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ الشِّرْكُ، وَقَاسُوا الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، الْمَلِكَ الْعَظِيمَ، بِالْمُلُوكِ، وَزَعَمُوا بِعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَرَأْيِهِمُ السَّقِيمِ، أَنَّ الْمُلُوكَ كَمَا أَنَّهُ لَا يُوصَلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوُجَهَاءَ، وَشُفَعَاءَ، وَوُزَرَاءَ يَرْفَعُونَ إِلَيْهِمْ حَوَائِجَ رَعَايَاهُمْ، وَيَسْتَعْطِفُونَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُمَهِّدُونَ لَهُمُ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَذَلِكَ، وَهَذَا الْقِيَاسُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْيِسَةِ، وَهُوَ

يَتَضَمَّنُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، مَعَ ثُبُوتِ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ، عَقْلًا وَنَقْلًا وَفِطْرَةً، فَإِنَّ الْمُلُوكَ، إِنَّمَا احْتَاجُوا لِلْوَسَاطَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَعَايَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَحْوَالَهُمْ. فَيَحْتَاجُ مَنْ يُعْلِمُهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ، وَرُبَّمَا لَا يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ رَحْمَةٌ لِصَاحِبِ الْحَاجَةِ، فَيَحْتَاجُ مَنْ يُعْطِفُهُمْ عَلَيْهِ وَيَسْتَرْحِمُهُ لَهُمْ، وَيَحْتَاجُونَ إِلَىٰ الشُّفَعَاءِ وَالْوُزَرَاءِ، وَيَخَافُونَ مِنْهُمْ، فَيَقْضُونَ حَوَائِجَ مَنْ تَوَسَّطُوا لَهُمْ، مُرَاعَاةً لَهُمْ، وَمُدَارَاةً لِخَوَاطِرِهِمْ، وَهُمْ أَيْضًا فُقَرَاءُ، قَدْ يَمْنَعُونَ لِمَا يَخْشَوْنَ مِنَ الْفَقْرِ. وَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَىٰ، فَهُوَ الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا، الَّذِي لَا يَحْتَاجُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِأَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ وَعِبَادِهِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ يَجْعَلُهُ رَاحِمًا لِعِبَادِهِ، بَلْ هُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَوَالِدَيْهِمْ، وَهُوَ الَّذِي يَحُثُّهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا رَحْمَتَهُ، وَهُوَ يُرِيدُ مِنْ مَصَالِحِهِمْ مَا لَا يُرِيدُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُوَ الْغَنِيُّ، الَّذِي لَهُ الْغِنَىٰ التَّامُّ الْمُطْلَقُ، الَّذِي لَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ مِنْ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوهُ، فَأَعْطَىٰ كُلًّا مِنْهُمْ مَا سَأَلَ وَتَمَنَّىٰ، لَمْ يَنْقُصُوا مِنْ غِنَاهُ شَيْئًا، وَلَمْ يَنْقُصُوا مِمَّا عِنْدَهُ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ إِذَا غُمِسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ. وَجَمِيعُ الشُّفَعَاءِ يَخَافُونَهُ، فَلَا يَشْفَعُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا. فَبِهَذِهِ الْفُرُوقِ يُعْلَمُ جَهْلُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، وَسَفَهُهُمُ الْعَظِيمُ، وَشِدَّةُ جَرَاءَتِهِمْ عَلَيْهِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ﴾ لَاخْتَارَ، قال القرطبي : أي لَوْ أَرَادَ أَنْ يُسَمِّيَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بِهَذَا مَا جَعَلَهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِم ،

قال الزمخشري : كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهَذِهِ الْأَصْنَامَ - يَعْنِي هَذِهِ الثَّلَاثَةَ- بَنَاتُ اللهِ ، وَذَكَرَ الْبَغَوِيُّ عَنِ الْكَلْبِيِّ كَانَ الْمُشْرِكُونَ بِمَكَّةَ يَقُولُونَ: الْأَصْنَامُ وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ، فَخُصَّ الِاعْتِقَادُ بِأَهْلِ مَكَّةَ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَوْ كَانَ اللهُ مُتَّخِذًا وَلَدًا لَاخْتَارَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مَا يَشَاءُ اخْتِيَارَهُ، أَيْ لَاخْتَارَ مَا هُوَ أَجْدَرُ بِالِاخْتِيَارِ وَلَا يَخْتَارُ لِبُنُوَّتِهِ حِجَارَةً كَمَا زَعَمْتُمْ لِأَنَّ شَأْنَ الِاخْتِيَارِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْأَحْسَنِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَارِ مِنْهَا فَبَطَلَ أَنْ تَكُونَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاة بَنَات لله تَعَالَىٰ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني الملائكة، كما قالوا: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتخذناه من لدنا، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِطَهَارَتِهِ، أَيْ تَعَالَىٰ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي قَهَرَ الْأَشْيَاءَ، فَدَانَتْ لَهُ وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ الْكَمَالِ الْمُسْتَغْنِي عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَحَقُّهُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ لَا أَنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ ، وَنَبَّهَ بِهَذَا عَلَىٰ أَنْ يَتَعَبَّدَ الْعِبَادَ بِمَا شَاءَ وَقَدْ فَعَلَ. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَىٰ النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَىٰ اللَّيْلِ﴾ ، قَالَ الضَّحَّاكُ: أَيْ يُلْقِي هَذَا عَلَىٰ هَذَا وَهَذَا عَلَىٰ هَذَا، وَهَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ التَّكْوِيرِ فِي اللُّغَةِ وَهُوَ طَرْحُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ قَتَادَةُ: يُغْشِي هَذَا هَذَا، كَمَا قَالَ: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ

النَّهَارَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤] وَقِيلَ: يُدْخِلُ أَحَدَهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ كَمَا قَالَ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الْحَجِّ: ٦١] وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : يُنْقِصُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَزِيدُ فِي النَّهَارِ، وَيُنْقِصُ مِنَ النَّهَارِ فَيَزِيدُ فِي اللَّيْلِ، فَمَا نَقَصَ مِنَ اللَّيْلِ دَخَلَ فِي النَّهَارِ وَمَا نَقَصَ مِنَ النَّهَارِ دَخَلَ فِي اللَّيْلِ، وَمُنْتَهَىٰ النُّقْصَانِ تِسْعُ سَاعَاتٍ وَمُنْتَهَىٰ الزِّيَادَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أَيْ بِالطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ ، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ فِي فَلَكِهِ إِلَىٰ أَنْ تَنْصَرِمَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ تَنْفَطِرُ السَّمَاءُ وَتَنْتَثِرُ الْكَوَاكِبُ، وَقِيلَ: الْأَجَلُ الْمُسَمَّىٰ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ سَيْرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِلَىٰ الْمَنَازِلِ الْمُرَتَّبَةِ لِغُرُوبِهَا وَطُلُوعِهَا ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَسِيرَانِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَنَازِلِهِمَا، ثُمَّ يَرْجِعَانِ إِلَىٰ أَدْنَىٰ مَنَازِلِهِمَا لَا يُجَاوِزَانِهِ، ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (أَلَا) تَنْبِيهٌ أَيْ تَنَبَّهُوا فَإِنِّي أَنَا ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ (الْغَفَّارُ) السَّاتِرُ لِذُنُوبِ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يَعْنِي آدَمَ، أَيْ خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يَعْنِي حَوَّاءَ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ معنىٰ الإنزال ههنا: الْإِحْدَاثُ وَالْإِنْشَاءُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي﴾ [الْأَعْرَافِ: ٢٦] ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَنْزَلَ الْمَاءَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ نَبَاتِ الْقُطْنِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ اللِّبَاسُ، وَسَبَبُ النَّبَاتِ الَّذِي تَبْقَىٰ بِهِ الْأَنْعَامُ، وَقِيلَ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ جَعَلَهَا لَكُمْ نُزُلًا وَرِزْقًا، ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ، مَرَّ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ آيَةَ (١٤٣) :

﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يَكُونُ أَحَدُكُمْ أَوَّلًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً، ثُمَّ يُخْلَقُ فَيَكُونُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَصِيرُ خلقاً آخر ، ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ظُلْمَةُ الْبَطْنِ وَظُلْمَةُ الرَّحِمِ وَظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ أي الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، ﴿ذلكم الله رَبُّكُمْ﴾ أي هذا الذي خلقكم وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ، هُوَ الرَّبُّ لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أَيِ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ أَيْ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وأين يذهب بعقولكم؟.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْكُفْرَ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ:﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، فَيَكُونُ عَامًّا فِي اللَّفْظِ خَاصًّا فِي الْمَعْنَىٰ، وَقَالُوا: لَا يَرْضَىٰ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكفر أن يكفروا به، ويروىٰ ذَلِكَ عَنْ قَتَادَةَ، وَهُوَ قَوْلُ السَّلَفِ، قَالُوا: كُفْرُ الْكَافِرِ غَيْرُ مَرْضِيٍّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ كان بإرادته، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ تُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَتُطِيعُوهُ، ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فَيُثِيبُكُمْ عَلَيْهِ، قال قَتَادَة : وَاللهِ مَا رَضِيَ اللهُ لعَبْدِهِ ضَلَالَة وَلَا أمره بهَا وَلَا دَعَا إِلَيْهَا وَلَكِن رَضِي لكم طَاعَته وأمركم بهَا ونهاكم عَن مَعْصِيَته ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَقِيلَ لَا يَرْضَىٰ الْكُفْرَ وَإِنْ أَرَادَهُ، فَاللهُ تَعَالَىٰ

يُرِيدُ الْكُفْرَ مِنَ الْكَافِرِ وَبِإِرَادَتِهِ كَفَرَ لَا يَرْضَاهُ وَلَا يُحِبُّهُ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَ مَا لَا يَرْضَاهُ، وَقَدْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَ إِبْلِيسَ وَهُوَ لَا يَرْضَاهُ، فَالْإِرَادَةُ غَيْرُ الرِّضَا، وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ يَرْضَىٰ الشُّكْرَ لَكُمْ، لِرَحْمَتِهِ بِكُمْ، وَمَحَبَّتِهِ لِلْإِحْسَانِ عَلَيْكُمْ، وَلِفِعْلِكُمْ مَا خَلَقَكُمْ لِأَجْلِهِ. وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَتَضَرَّرُ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يَنْتَفِعُ بِأَعْمَالِكُمْ وَتَوْحِيدِكُمْ، كَذَلِكَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْكُمْ لَهُ عَمَلُهُ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾ أَيْ لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا، بَلْ كلُّ مُطَالَبٌ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿لَا يُؤْخَذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ﴾، وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ لَا تَحْمِلُ حَامِلَةٌ حِمْلَ أُخْرَىٰ، أَيْ مَا عَلَيْهَا مِنَ الذُّنُوبِ، أَوْ لَا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِذَنْبِ أُخْرَىٰ، بَلْ كُلٌّ مَأْخُوذٌ بِذَنْبِهِ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، قَالَ الطَّبَرِيُّ: ثُمَّ بَعْدَ اجْتِرَاحِكُمْ فِي الدُّنْيَا مَا اجْتَرَحْتُمْ مِنْ صَالِحٍ وَسَيِّءٍ وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَصِيرُكُمْ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِكُمْ، قَالَ: فَاتَّقُوا أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ وَقَدْ عَمِلْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا لَا يَرْضَاهُ مِنْكُمْ فَتَهْلَكُوا، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ: بِنَفْسِ الصُّدُورِ، وَمَا فِيهَا مِنْ وَصْفِ بِرٍّ أَوْ فُجُورٍ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: الْإِخْبَارُ بِالْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ التَّامِّ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ ﴿ضُرٌّ﴾ أَيْ شِدَّةٌ مِنَ الْفَقْرِ وَالْبَلَاءِ ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ رَاجِعًا إِلَيْهِ مُسْتَغِيثًا بِهِ، عند الحاجة يتضرع وَيَسْتَغِيثُ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ أعطاه نعمة منه،

يُقَالُ: خَوَّلَكَ اللهُ الشَّيْءَ أَيْ مَلَّكَكَ إِيَّاهُ، ﴿نَسِيَ﴾ تَرَكَ، ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ نَسِيَ الضُّرَّ الَّذِي كَانَ يَدْعُو اللهَ إِلَىٰ كَشْفِهِ، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ يَعْنِي الْأَوْثَانَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي أَنْدَادًا مِنَ الرِّجَالِ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، والنِّدُّ وَالنَّدِيدُ: الْمِثْلُ وَالنَّظِيرُ، ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لِيَزِلَّ عَنْ دِينِ اللهِ، أَيْ: لِيَضِلَّ بِنَفْسِهِ، وَيُضِلَّ غَيْرَهُ، لِأَنَّ الْإِضْلَالَ فَرْعٌ عَنِ الضَّلَالِ، فَأَتَىٰ بِالْمَلْزُومِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ اللَّازِمِ، ﴿قُلْ﴾ لِهَذَا الْكَافِرِ، الَّذِي بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ أَجَلِكَ، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فَلَا يُغْنِيكَ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ إِذَا كَانَ الْمَآلُ النَّارَ.قِيلَ: نَزَلَتْ فِي عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَقِيلَ: عَامٌّ فِي كُلِّ كَافِرٍ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ أي: أَمَّنَ هُوَ قَانِتٌ كَمَنْ هُوَ غَيْرُ قَانِتٍ؟ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يَعْنِي كَمَنْ لَمْ يَشْرَحْ صَدْرَهُ. وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّهُ عَطَفَ عَلَىٰ الِاسْتِفْهَامِ، مَجَازُهُ: الَّذِي جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا خَيْرٌ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ؟ وَقِيلَ: الْأَلِفُ فِي ﴿أَمَنْ﴾ بِمَعْنَىٰ حَرْفِ النِّدَاءِ، تَقْدِيرُهُ: يَا مَنْ هُوَ قَانِتٌ، وَفِي قَانِتٍ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْمُطِيعُ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ.

الثَّانِي: أَنَّهُ الْخَاشِعُ فِي صَلَاتِهِ، قَالَهُ ابْنُ شِهَابٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْقَائِمُ فِي صلاته، قاله يحيىٰ ابن سَلَّامٍ.

الرَّابِعُ : أَنَّهُ الدَّاعِي لِرَبِّهِ، فَيَكُونُ مَعْنَىٰ الْآيَةِ: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار.

ويا مَنْ هُوَ قَانِتٌ ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : الْقُنُوتُ قِرَاءَةُ القرآن وَطُولُ الْقِيَامِ، وَآنَاءَ اللَّيْلِ: جَوْفُ اللَّيْلِ ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:﴿آناءَ اللَّيْلِ﴾ سَاعَاتُهُ، أَوَّلُهُ وَأَوْسَطُهُ وَآخِرُهُ ، ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ يَعْنِي فِي الصَّلَاةِ، ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ يَخَافُ الْآخِرَةَ، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يَعْنِي كَمَنْ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُهَوِّنَ اللهُ عَلَيْهِ الْوُقُوفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَرَهُ اللهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قِيلَ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ عَمَّارٌ، وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: أَبُو حُذَيْفَةَ الْمَخْزُومِيُّ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ كَمَا لَا يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي ، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ أَصْحَابُ الْعُقُولِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ**»؟ فَقَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ**»[1].

---

(١) الترمذي (٩٨٣) وابن ماجه (٤٢٦١) .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بطاعته واجتناب معاصيه، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أَيْ آمَنُوا وَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ، حَسَنَةٌ يَعْنِي الْجَنَّةَ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ يَعْنِي الصِّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ، ﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي ارْتَحِلُوا مِنْ مَكَّةَ. وَفِيهِ حَثٌّ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ الْمَعَاصِي، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي مُهَاجِرِي الْحَبَشَةِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جبير: من أمر بالمعاصي ببلد فليهرب منها إلىٰ غيرها، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الذي صَبَرُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ لِلْأَذَىٰ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ، حَيْثُ لَمْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ لَمَّا اشْتَدَّ بِهِمُ الْبَلَاءُ،وَصَبَرُوا وَهَاجَرُوا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُلُّ مُطِيعٍ يُكَالُ لَهُ كَيْلًا وَيُوزَنُ له وزنا إلا الصابرين، فإنه يحثىٰ لهم حثيا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حَتَّىٰ يَتَمَنَّىٰ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ مِمَّا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ من الفضل ، قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ، إِنَّمَا يُغْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: بَلَغَنِي أَنَّهُ لَا يَحْسِبُ عَلَيْهِمْ ثَوَابَ عَمَلِهِمْ قَطُّ، ولكن يزادون علىٰ ذلك.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ مُخْلِصًا لَهُ التَّوْحِيدَ لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لله وحده، قَالَ

قَتَادَةُ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ** »(١) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قال القرطبي : وَكَذَلِكَ كَانَ فَإِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَخلَعَ الْأَصْنَامَ وَحَطَّمَهَا، وَأَسْلَمَ لِلَّهِ وَآمَنَ بِهِ، وَدَعَا إِلَيْهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ السَّعْدِيُّ: لِأَنِّي الدَّاعِي الْهَادِي لِلْخَلْقِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ، فَيَقْتَضِي أَنِّي أَوَّلُ مَنِ ائْتَمَرَ بِمَا آمُرُ بِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا بُدَّ مِنْ إِيقَاعِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ كَبَّرَ ثُمَّ قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام ، وَعَبَدْتُ غَيْرَهُ، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَمَعْنَاهُ التَّعْرِيضُ بِغَيْرِهِ، بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ، وَذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لَهُ

---

(١) الطبراني (الكبير ، رقم ١٣٥) .

عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَا تَنْظُرُ إِلَىٰ أَبِيكَ وَجَدِّكَ وَسَادَاتِ قَوْمِكَ يَعْبُدُونَ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ؟ فَنَزَلَتْ رَدًّا عَلَيْهِمْ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ طَاعَتِي وَعِبَادَتِي.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ وَتَوْبِيخٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت : ٤٠] .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيْ إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلَّ الْخُسْرَانِ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ تَفَارَقُوا فَلَا الْتِقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، وسواء ذهب أهلوهم إلىٰ الجنة، وذهبوا هُمْ إِلَىٰ النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أُسْكِنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُرُورَ ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ هَذَا هُوَ الخسران المبين، الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلًا، فَمَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ كَانَ ذَلِكَ الْمَنْزِلُ وَالْأَهْلُ لَهُ، وَمَنْ عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ دَخَلَ النَّارَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَنْزِلُ وَالْأَهْلُ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ. وَقِيلَ: خُسْرَانُ النَّفْسِ بِدُخُولِ النَّارِ، وَخُسْرَانُ الْأَهْلِ بِأَنْ يفرق بينه وبين أهله، وذلك هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ خُسْرَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ: أَنَّهُمْ تَسَبَّبُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْعَذَابِ فِي حِينِ حَسِبُوا أَنَّهُمْ سَعَوْا لَهَا فِي النَّعِيمِ وَالنَّجَاحِ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِحَالِهِمْ فِي إِيقَاعِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْعَذَابِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُلْقُونَهَا فِي النَّعِيمِ، بِحَالِ التَّاجِرِ الَّذِي عَرَّضَ مَالَهُ لِلنَّمَاءِ وَالرِّبْحِ فَأُصِيبَ بِالتَّلَفِ، فَأُطْلِقَ عَلَىٰ هَذِهِ الْهَيْئَةِ تَرْكِيبُ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أَطْبَاقُ سُرَادِقَاتٍ مِنَ النَّارِ وَدُخَّانِهَا، وَالظُّلَلُ: اسْمُ جَمْعِ ظُلَّةٍ، وَهِيَ شَيْءٌ مُرْتَفِعٌ مِنْ بِنَاءٍ أَوْ أَعْوَادٍ مِثْلُ الصُّفَّةِ يَسْتَظِلُّ بِهِ الْجَالِسُ تَحْتَهُ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الظِّلِّ لِأَنَّهَا يَكُونُ لَهَا ظِلٌّ فِي الشَّمْسِ، ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فِرَاشٌ وَمِهَادٌ مِنْ نَارٍ إِلَىٰ أن ينتهي إلىٰ القعر، سمي الْأَسْفَلَ ظُلَلًا لِأَنَّهَا ظُلَلٌ لِمَنْ تَحْتِهُمْ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٤١]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أَيْ إِنَّمَا يقص هذا لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ، لِيَنْزَجِرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ، وقوله تعالىٰ: ﴿يَا عبادِ فَاتَّقُونِ﴾ أَيِ اخْشَوْا بَأْسِي وَسَطْوَتِي وعذابي ونقمتي. قال ابن عاشور: وَالْعِبَادُ الْمُضَافُ إِلَىٰ ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ هُنَا يَعُمُّ كُلَّ عَبْدٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ إِذِ الْجَمِيعُ يَخَافُونَ الْعَذَابَ عَلَىٰ الْعِصْيَانِ، وَالْعَذَابُ مُتَفَاوِتٌ وَأَقْصَاهُ الْخُلُودُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ، وَلَيْسَ الْعِبَادُ هُنَا مُرَادًا بِهِ أَهلُ الْقُرْبِ لِأَنَّهُ لَا يُنَاسِبُ مَقَامَ التَّخْوِيفِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الْأَوْثَانَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَالْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ، فَاجْتَنَبُوهَا فِي عِبَادَتِهَا، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاحْتِرَازِ مِنَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، لِأَنَّ الْمَدْحَ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْمُجْتَنِبَ لَهَا فِي عِبَادَتِهَا، ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَىٰ اللهِ﴾ رَجَعُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ في الدنيا بالجنة وفي العقبىٰ بالمغفرة، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

[١٨] : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ القرآن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أَحْسَنُ مَا يُؤْمَرُونَ به فيعملونه، وَقِيلَ: هُوَ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الِانْتِصَارَ مِنَ الظَّالِمِ وَذَكَرَ الْعفْوَ، وَالْعَفْوُ أَحْسَنُ الْأَمْرَيْنِ، وَقِيلَ: ذَكَرَ الْعَزَائِمَ وَالرُّخَصَ فَيَتَّبِعُونَ الْأَحْسَنَ وَهُوَ الْعَزَائِمُ، وَقِيلَ: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَغَيْرَ الْقُرْآنِ فَيَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: آمَنَ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ عُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، فَسَأَلُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِإِيمَانِهِ فَآمَنُوا، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وَكُلُّهُ حَسَنٌ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: وَمِنْ لُبِّهِمْ وَحَزْمِهِمْ، أَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَسَنَ مِنْ غَيْرِهِ، وَآثَرُوا مَا يَنْبَغِي إِيثَارُهُ، عَلَىٰ مَا سِوَاهُ، وَهَذَا عَلَامَةُ الْعَقْلِ، بَلْ لَا عَلَامَةَ لِلْعَقْلِ سِوَىٰ ذَلِكَ، فَإِنَّ الَّذِي لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ، حَسَنِهَا، وَقَبِيحِهَا، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، أَوِ الَّذِي يُمَيِّزُ، لَكِنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ، فَبَقِيَ عَقْلُهُ تَابِعًا لِشَهْوَتِهِ فَلَمْ يُؤْثِرِ الْأَحْسَنَ، كَانَ نَاقِصَ الْعَقْلِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَيْ: أَفَمَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَىٰ غَيِّهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ لَكَ فِي هِدَايَتِهِ، وَلَا تَقْدِرُ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ لَا مَحَالَةَ، ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أَيْ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَبَا لَهَبٍ وَوَلَدَهُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ أَيْ مَنَازِلُ فِي الْجَنَّةِ رَفِيعَةٌ وَفَوْقَهَا مَنَازِلُ أَرْفَعُ مِنْهَا، وَالْغُرَفُ: جَمْعُ غُرْفَةٍ، وَهِيَ الْبَيْتُ الْمُرْتَكِزُ عَلَىٰ بَيْتٍ آخَرَ، وَيُقَالُ لَهَا الْعُلِّيَّةُ، قال القرطبي: لَمَّا بَيَّنَ أن للكفار ظلا مِنَ النَّارِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِهِمْ بَيَّنَ أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ غُرَفًا فَوْقَهَا غُرَفٌ، لِأَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٌ يَعْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ أَيْ وَعَدَهُمُ اللهُ تِلْكَ الْغُرَفَ وَالْمَنَازِلَ، وَعْدًا لَا يُخْلِفُهُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَيْ: مِنَ السَّحَابِ مَاءً؛ أَيِ: الْمَطَرَ، ﴿فَسَلَكَهُ﴾ أدخل ذلك الماء، ﴿يَنَابِيعَ﴾ عيونـًا وَالْيَنْبُوعُ عَيْنُ الْمَاءِ وَالْجَمْعُ الْيَنَابِيعُ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ: كُلُّ مَاءٍ فِي الْأَرْضِ فَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلَ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَخْضَرُ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ هَاجَتِ الْأَرْضُ تَهِيجُ إِذَا أَدْبَرَ نَبْتُهَا وَوَلَّىٰ، قَالَ: كَذَلِكَ هَاجَ النَّبْتُ، ﴿فَتَرَاهُ﴾ بُعْدَ خُضْرَتِهِ وَنَضْرَتِهِ، ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فُتَاتًا مُتَكَسِّرًا، وَقِيلَ: هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلدُّنْيَا، أَيْ كَمَا يَتَغَيَّرُ النَّبْتُ الْأَخْضَرُ فَيَصْفَرُّ كَذَلِكَ الدُّنْيَا بَعْدَ بَهْجَتِهَا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قَالَ ابن كثير: أَيِ: الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَىٰ أَنَّ الدُّنْيَا هَكَذَا، تَكُونُ خَضرةً نَضِرَةً حَسْنَاءَ، ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزا شَوْهَاءَ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِما كَبِيرًا ضَعِيفًا.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وَسَّعَهُ لِقَبُولِ الْحَقِّ، الَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَسَّعَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ حَتَّىٰ ثَبَتَ فِيهِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: بِالْإِسْلَامِ لِلْفَرَحِ بِهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِ ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كَمَنْ طَبَعَ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَأَقْسَاهُ. قَالَ الْمُبَرِّدُ: يُقَالُ قَسَا الْقَلْبُ إِذَا صَلُبَ، وَقَلْبٌ قَاسٍ أَيْ صُلْبٌ لَا يَرِقُّ وَلَا يَلِينُ، ومن هنا كان رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله من ثلاث -كما أخرج الإمام أحمد من حديث أنس- عنه ويقول: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ** »[1] ، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ. مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبٍ، وَمَا غَضِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ قَوْمٍ إِلَّا نزع منهم الرحمة.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْحُسْنِ، وَيُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَيْسَ فِيهِ تناقض ولا اختلاف بَيَّنَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا يُسْمَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَإِذَا كَانَ هُوَ الْأَحْسَنَ، عُلِمَ أَنَّ أَلْفَاظَهُ أَفْصَحُ الْأَلْفَاظِ وَأَوْضَحُهَا، وَأَنَّ مَعَانِيَهُ أَجَلُّ الْمَعَانِي، لِأَنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، مُتَشَابِهًا فِي الْحُسْنِ وَالِائْتِلَافِ وَعَدَمِ الِاخْتِلَافِ، بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ كُلَّمَا تَدَبَّرَهُ الْمُتَدَبِّرُ، وَتَفَكَّرَ فِيهِ الْمُتَفَكِّرُ، رَأَىٰ مِنَ

---

(١) أحمد (١٤٢١٦) .

اتِّفَاقِهِ، حَتَّىٰ فِي مَعَانِيهِ الْغَامِضَةِ، مَا يَبْهَرُ النَّاظِرِينَ، وَيَجْزِمُ بِأَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، هَذَا الْمُرَادُ بِالتَّشَابُهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، ﴿مَثَانِيَ﴾ يُثَنَّىٰ فِيهِ ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ، قال ابن عباس: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي الْقُرْآنُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ويُرَدُّ بَعْضُهُ عَلَىٰ بعض، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْآيَةُ تُشْبِهُ الْآيَةَ، وَالْحَرْفُ يُشْبِهُ الْحَرْفَ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: تُثَنَّىٰ فِيهِ الْقَصَصُ وَالْأَحْكَامُ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَصِفَاتُ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَصِفَاتُ أَهْلِ الشَّرِّ، وَتُثَنَّىٰ فِيهِ أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ، وَهَذَا مِنْ جَلَالَتِهِ، وَحُسْنِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ، لَمَّا عَلِمَ احْتِيَاجَ الْخَلْقِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْقُلُوبِ، الْمُكَمِّلَةِ لِلْأَخْلَاقِ، وَأَنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ لِلْقُلُوبِ، بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ لِسَقْيِ الْأَشْجَارِ، فَكَمَا أَنَّ الْأَشْجَارَ كُلَّمَا بَعُدَ عَهْدُهَا بِسَقْيِ الْمَاءِ نَقَصَتْ، بَلْ رُبَّمَا تَلِفَتْ، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ سَقْيُهَا حَسُنَتْ وَأَثْمَرَتْ أَنْوَاعَ الثِّمَارِ النَّافِعَةِ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ يَحْتَاجُ دَائِمًا إِلَىٰ تَكَرُّرِ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ تَكَرَّرَ عَلَيْهِ الْمَعْنَىٰ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ، لَمْ يَقَعْ مِنْهُ مَوْقِعًا، وَلَمْ تَحْصُلِ النَّتِيجَةُ مِنْهُ، وَلِهَذَا سَلَكْتُ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ هَذَا الْمَسْلَكَ الْكَرِيمَ، ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ تَضْطَرِبُ وَتَشْمَئِزُّ، ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وَالِاقْشِعْرَارُ تَغَيُّرٌ فِي جِلْدِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنَ الْجُلُودِ الْقُلُوبُ أَيْ قُلُوبُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أَيْ لِذِكْرِ اللهِ، أَيْ إِذَا ذُكِرَتْ آيَاتُ الْعَذَابِ اقْشَعَرَّتْ جُلُودُ الْخَائِفِينَ لِلَّهِ، وَإِذَا ذُكِرَتْ آيَاتُ الرَّحْمَةِ لَانَتْ وَسَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾ [الرَّعْدِ: ٢٨] وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ: أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَقْشَعِرُّ مِنَ الخوف وتلين عند الرجاء ، ﴿ذَلِكَ﴾ يَعْنِي أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، وَالْحَدِيثُ: الْخَبَرُ، سُمِّيَ حَدِيثًا لِأَنَّ شَأْنَ الْإِخْبَارِ أَنْ يَكُونَ عَنْ أَمْرٍ حَدَثَ وَجَدَّ، سُمِّيَ الْقُرْآنُ حَدِيثًا بِاسْمِ بَعْضِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَيْ هَذِهِ صِفَةُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ، فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أَيْ مَنْ خَذَلَهُ فَلَا مُرْشِدَ لَهُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيْ: الْعَذَابُ الَّذِي يَسُوءُ صَاحِبَهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ ، قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: وَالْمَعْنَىٰ: أَفَمَنْ يَقِي نَفْسَهُ بِوَجْهِهِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ أَعْضَائِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِكَوْنِ يَدِهِ قَدْ صَارَتْ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِهِ كَمَنْ هُوَ آمِنٌ لَا يَعْتَرِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ الِاتِّقَاءِ. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُجَرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي النَّارِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: يُرْمَىٰ بِهِ فِي النَّارِ مَنْكُوسًا فَأَوَّلُ شيء تَمَسُّهُ النَّارُ وَجْهُهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ أَنَّ الْكَافِرَ يُرْمَىٰ بِهِ فِي النَّارِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وَفِي عُنُقِهِ صَخْرَةٌ مِثْلُ جَبَلٍ عَظِيمٍ مِنَ الْكِبْرِيتِ فَتَشْتَعِلُ النَّارُ فِي الْحَجَرِ، وَهُوَ مُعَلَّقٌ في عنقه فحرها وَوَهَجُهَا عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَطِيقُ دَفْعَهَا عَنْ وَجْهِهِ، لِلْأَغْلَالِ الَّتِي فِي عُنُقِهِ وَيَدِهِ ، قال البغوي : وَمَجَازُ الْآيَةِ: أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ كَمَنْ هُوَ آمِنٌ مِنَ الْعَذَابِ؟ ﴿وَقِيلَ﴾ يَعْنِي تَقُولُ الْخَزَنَةُ ﴿لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ جَزَاءَ كَسْبِكُمْ مِنَ الْمَعَاصِي.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي وَهُمْ آمِنُونَ غَافِلُونَ مِنَ العذاب.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ﴾ الْعَذَابَ وَالْهَوَانَ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: يُقَالُ لِكُلِّ مَا نَالَ الْجَارِحَةَ مِنْ شي قَدْ ذَاقَتْهُ، أَيْ وَصَلَ إِلَيْهَا كَمَا تَصِلُ الْحَلَاوَةُ وَالْمَرَارَةُ إِلَىٰ الذَّائِقِ لَهُمَا ، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُقَامِ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ مِنَ التَّعْذِيبِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ ضَرَبَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جَمِيعِ الْأَمْثَالِ، أَمْثَالَ أَهْلِ الْخَيْرِ وَأَمْثَالَ أَهْلِ الشَّرِّ، وَأَمْثَالَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، وَكُلَّ مَثَلٍ يُقَرِّبُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، وَاضِحَ الْأَلْفَاظِ، سَهْلَ الْمَعَانِي، خُصُوصًا عَلَىٰ الْعَرَبِ، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرُ مُخْتَلِفٍ ، قَالَ مُجَاهِدٌ، غَيْرُ ذِي لَبْسٍ ، قَالَ السُّدِّيُّ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، قَالَ ابنُ كثير: أَيْ هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لَبْسَ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَوُضُوحٌ وبرهان، وإنما جعله الله تعالىٰ كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يحذورن مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ، ثُمَّ قَالَ:

[٢٩] : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ نُصِبَ رَجُلًا لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلْمَثَلِ، ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ مُتَنَازِعُونَ مُخْتَلِفُونَ سَيِّئَةٌ أَخْلَاقُهُمْ، يُقَالُ رَجُلٌ شَكِسٌ شَرِسٌ إِذَا كَانَ سَيِّئَ الْخُلُقِ مُخَالِفًا لِلنَّاسِ لَا يَرْضَىٰ بِالْإِنْصَافِ. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] قَرَأَ أَهْلُ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ ﴿ سَالِمًا﴾ بِالْأَلِفِ أَيْ خَالِصًا لَهُ لَا شَرِيكَ وَلَا مُنَازِعَ لَهُ فِيهِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿ سَلَمًا﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُنَازَعُ فِيهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: هُوَ لَكَ سَلَمٌ، أَيْ مُسَلَّمٌ لَا مُنَازِعَ لَكَ فِيهِ. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ قال البغوي : هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً شَتَّىٰ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ الْوَاحِدَ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ أَيْ لَا يَسْتَوِيَانِ، قال ابن عباس: هَذِهِ الْآيَةُ ضَرَبَتْ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِ وَالْمُخْلِصِ، ثُمَّ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيْ لِلَّهِ الْحَمْدُ كُلُّهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودِينَ ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ وَالْمُرَادُ بِالْأَكْثَرِ الكل.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَهُ بِمَوْتِهِ وَمَوْتِهِمْ، قَالَ قَتَادَةُ: نُعِيَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ، وَنُعِيَتْ إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ، ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أَيْ سَيَمُوتُونَ، يُرْوَىٰ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ أَبْصَرَ رَجُلًا فِي جِنَازَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: جِنَازَةُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: هَذَا أَنْتَ؛ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمُحِقَّ والمبطل والظالم والمظلوم ، وفي صحيح الْبُخَارِيِّ عَنْ

أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَحَدٍ من عرضه أو شي فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ** »[1].

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ﴾ فَزَعْمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَشَرِيكًا، ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ بِالْقُرْآنِ، قال ابن كثير: أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَي الْبَاطِلِ: كَكَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، وَكَذَّبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ الْبَاطِلَ، وَرَدَّ الْحَقَّ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ،رَضِي الله عَنهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ: ﷺ إِن الصدْق يهدي الىٰ الْبر وَإِن الْبر يهدي الىٰ الْجنَّة وَإِن الرجل ليصدق حَتَّىٰ يكْتب عِنْد الله صديقاً، وَإِن **الْكَذِب يهدي الىٰ الْفُجُور، وَإِن الْفُجُور يهدي الىٰ النَّار، وَإِن الرجل ليكذب حَتَّىٰ يكْتب عِنْد الله كذاباً** »[2]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًىٰ﴾ منزل ومقام، وهو مشتق من ثوىٰ يثوي ثواءً وثُوِيًا، يُقَالُ: ثَوَىٰ فُلَانٌ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ، فَإِنَّ جَهَنَّمَ دَارُ إِقَامَةٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ،﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّقْرِيرِ.

---

(١) البخاري (٢٤٤٩).

(٢) البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧).

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلا اللهُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الرَّسُولُ أَيْضًا بَلَّغَهُ إِلَىٰ الْخَلْقِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ جِبْرِيلُ جَاءَ بِالْقُرْآنِ، وَصَدَّقَ بِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَدَّقَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَدَّقَ بِهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، لِقَوْلِهِ عَزَّ وجل: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وَقَالَ عَطَاءٌ: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ الْأَنْبِيَاءُ وَصَدَّقَ بِهِ الْأَتْبَاعُ، وَحِينَئِذٍ يكون الذي بمعنىٰ الذين، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : هُمُ الْمُؤْمِنُونَ صَدَّقُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَجَاءُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: بِالصِّدْقِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجِيءُ الْإِنْسَانُ بِالصِّدْقِ، وَلَكِنْ قَدْ لَا يُصَدِّقُ بِهِ، بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِ، أَوْ احْتِقَارِهِ لِمَنْ قَالَهُ وَأَتَىٰ بِهِ، فَلَا بُدَّ فِي الْمَدْحِ مِنَ الصِّدْقِ وَالتَّصْدِيقِ، فَصِدْقُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَعَدْلِهِ، وَتَصْدِيقُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ تَوَاضُعِهِ وَعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِ ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: اتَّقَوُا الشِّرْكَ، وَالتَّقْوَىٰ مِنْ أَجَلِّ الرَّغَائِبِ، وَهِيَ طَرِيقُ النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ وَرَغَدِ الْعَيْشِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا يُقَالُ: لَكَ إِكْرَامٌ عِنْدِي، أَيْ يَنَالُكَ مِنِّي ذَلِكَ، ﴿ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّنَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابُ فِي الْآخِرَةِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يَسْتُرُهَا عَلَيْهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَجَزَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُحْسِنِينَ رَبُّهُمْ بِإِحْسَانِهِمْ كَيْ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِيهَا مِنْ تَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ مِمَّا اجْتَرَحُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ فِيهَا ، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ويثيبهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مما يرضي الله عنهم دون أسوئها، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَجْزِيهِمْ بِالْمَحَاسِنِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَا يَجْزِيهِمْ بِالْمَسَاوِئِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْفِيهِ اللهُ وَعِيدَ الْمُشْرِكِينَ وَكَيْدَهُمْ ، وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ: إِنَّ اللهَ كَافٍ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ وعبده الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَوَّفُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرة معاداة الْأَوْثَانِ، فَقَالُوا: أَتَسُبُّ آلِهَتَنَا؟ لَئِنْ لَمْ تَكُفَّ عَنْ ذِكْرِهَا لَتُخَبِّلَنَّكَ أَوْ تُصِيبَنَّكَ بِسُوءٍ ، أَوْ جُنُونٌ، قَالَ قَتَادَةُ: مَشَىٰ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَىٰ الْعُزَّىٰ لِيَكْسِرَهَا بِالْفَأْسِ. فَقَالَ لَهُ سَادِنُهَا: أُحَذِّرُكَهَا يَا خَالِدُ فَإِنَّ لَهَا شِدَّةً لَا يَقُومُ لها شي، فَعَمَدَ خَالِدٌ إِلَىٰ الْعُزَّىٰ فَهَشَّمَ أَنْفَهَا حَتَّىٰ كَسَرَهَا بِالْفَأْسِ ، وَتَخْوِيفُهُمْ لِخَالِدٍ تَخْوِيفٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُ الَّذِي وَجَّهَ خَالِدًا، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ يُوصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا تَوْفِيقُهُ، وَالتَّوْفِيقُ لِلْإِقْبَالِ عَلَىٰ كِتَابِهِ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ هَذَا، فَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَا هُوَ إِلَّا الضَّلَالُ الْمُبِينُ وَالشَّقَاءُ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ فَمَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ الْهِدَايَةَ -لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِحِرْصِهِ عَلَيْهَا وَخَوْفِهِ مِنْ مَغَبَّةِ التَّفْرِيطِ فِيهَا- فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَىٰ غَوَايَتِهِ مَا دَامَ هُوَ فِي حِمَايَةِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أَيْ مَنِيعِ الْجَنَابِ لَا يُضَامُ مَنِ اسْتَنَدَ إِلَىٰ جَنَابِهِ، وَلَجَأَ إِلَىٰ بَابِهِ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه، فمن كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ، وَعَانَدَ رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أَيْ ولين سَأَلْتَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ بَيَّنَ أَنَّهُمْ مَعَ عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ مُقِرُّونَ بِأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ اللهُ، وَإِذَا كَانَ اللهُ هُوَ الْخَالِقُ فَكَيْفَ يُخَوِّفُونَكَ بِآلِهَتِهِمُ الَّتِي هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ الذي خلقها وخلق السموات وَالْأَرْضَ، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ بَعْدَ اعْتِرَافِهِمْ بِهَذَا ﴿أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ بِشِدَّةٍ وَبَلَاءٍ ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ الْكَاشِفَاتُ: الْمُزِيلَاتُ، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بِنِعْمَةٍ وَبَرَكَةٍ، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَتَرَكَ الْجَوَابَ لِاسْتِغْنَاءِ السَّامِعِ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَىٰ: فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ: لَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ**

تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَرُفِعَتِ الصُّحُفُ»[1] ، قَالَ مُقَاتِلٌ: فَسَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَسَكَتُوا، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ ثِقَتِي بِهِ وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، أَيْ حَسْبِيَ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يَثِقُ بِهِ الْوَاثِقُونَ. قَالَ ابن عباس : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ الله تعالىٰ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَغْنَىٰ النَّاسِ فَلْيَكُنْ بما في يد الله عزَّ وجلَّ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَمِنْ أَحَبَّ أن يكون أكرم الناس فليتق الله عزَّ وجلَّ» .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَتِكُمْ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ: اعْمَلُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ عَلَىٰ تَمَكُّنِكُمْ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي تَعْمَلُونَ وَمَنَازِلِكُمْ ، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ سَتَعْلَمُونَ غَبَّ ذَلِكَ وَوَبَالِهِ.

---

(١) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) .

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا، فَيَظْهَرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُبْطِلُ وَخَصْمَهُ الْمُحِقُّ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْعَذَابِ عَذَابُ الدُّنْيَا وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ وَالذِّلَّةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَذَابَ الْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أَيْ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، لَا مَحِيدَ لَهُ عنه، وذلكَ يومَ القيامةِ، أعاذنا اللهُ منها ، وقد فُصِّل هذا الموقفُ في مسندِ الإمامِ أحمد، يرويه عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: « أمَرَ رسولُ اللهِ صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلّمَ بالقَتلىٰ أنْ يُطْرَحوا في القليبِ، فطُرِحوا فيه، إلّا ما كانَ من أُميّةَ بنِ خلفٍ؛ فإنَّهُ انتفخَ في درعِهِ فملأها، فذهبوا يُحرِّكوهُ فتزايلَ، فأقرّوهُ وألقَوا عليهِ ما غيَّبَهُ من التُّرابِ والحجارةِ ، فلما ألقاهم في القليبِ، وقفَ عليهم رسولُ اللهِ صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلّمَ، فقال: «**يا أهلَ القليبِ! هل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقًّا؟ فإنّي قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقًّا**، فقال له أصحابُه: يا رسولَ اللهِ، أتُكلِّمُ قومًا موتىٰ؟ فقال لهم: **لقد علموا أنَّ ما وعدتُهم حقٌّ** »[١].

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ بأن علم الحق وتفهمه، وآثره علىٰ غيره فلِنَفْسِهِ والله تعالىٰ غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم ، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ﴾ أَيْ تَرَكَ الرَّسُولَ وَالْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ ، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وَبَالُ ضَلَالَتِهِ عَلَيْهِ، وَلَا

---

(١) البخاري (٣٩٧٦) .

يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا، فَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ فَأَحْفَظُ أَعْمَالَكُمْ وَأُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، وَاللهُ عَلَيْكُمْ وَكِيلٌ. فَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ، مَا دُمْتُمْ فِي مُدَّةِ الْإِمْهَالِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ أَيِ الْأَرْوَاحَ، ﴿ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فَيَقْبِضُهَا عِنْدَ فَنَاءِ أُكُلِهَا وَانْقِضَاءِ آجَالِهَا، وَقَوْلُهُ :﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ يُرِيدُ مَوْتَ أَجْسَادِهَا، وَهَذِهِ الْوَفَاةُ الْكُبْرَىٰ، وَفَاةُ الْمَوْتِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَإِخْبَارُهُ أَنَّهُ يَتَوَفَّىٰ الْأَنْفُسَ وَإِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَىٰ نَفْسِهِ، لَا يُنَافِي أَنَّهُ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ مَلَكَ الْمَوْتِ وَأَعْوَانَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [الجمعة: ١١] ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ يُضِيفُ الْأَشْيَاءَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، وَيُضِيفُهَا إِلَىٰ أَسْبَابِهَا، بِاعْتِبَارِ أَنَّ مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَىٰ وَحِكْمَتِهِ أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ سَبَبًا، ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ يُرِيدُ يَتَوَفَّىٰ الْأَنْفُسَ الَّتِي لَمْ تمت، ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ وَالَّتِي تُتَوَفَّىٰ عِنْدَ النَّوْمِ هِيَ النَّفْسُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسَانِ إِحْدَاهُمَا نَفْسُ الْحَيَاةِ وَهِيَ الَّتِي تُفَارِقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ فَتَزُولُ بِزَوَالِهَا النَّفْسُ، وَالْأُخْرَىٰ نَفْسُ التَّمْيِيزِ وَهِيَ الَّتِي تُفَارِقُهُ إِذَا نَامَ، وَهُوَ بَعْدَ النَّوْمِ يَتَنَفَّسُ. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ فَلَا يَرُدُّهَا إِلَىٰ الْجَسَدِ، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ وَيَرُدُّ الْأُخْرَىٰ، وَهِيَ الَّتِي لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا الْمَوْتَ، إِلَىٰ الْجَسَدِ، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ وَقْتُ مَوْتِهِ، وَيُقَالُ لِلْإِنْسَانِ نَفْسٌ وَرُوحٌ، فَعِنْدَ النوم يخرج النفس ويبقىٰ الرُّوحُ ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَمَا رَأَتْهُ نَفْسُ النَّائِمِ وَهِيَ

فِي السَّمَاءِ قَبْلَ إِرْسَالِهَا إِلَىٰ جَسَدِهَا فَهِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَمَا رَأَتْهُ بَعْدَ إِرْسَالِهَا وَقَبْلَ اسْتِقْرَارِهَا فِي جَسَدِهَا تُلْقِيهَا الشَّيَاطِينُ، وَتُخَيِّلُ إِلَيْهَا الْأَبَاطِيلَ فَهِيَ الرؤيا الكاذبة ، قَالَ ابن كثير : فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ، كما ورد فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفه عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[1] ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لَدَلَالَاتٍ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ حَيْثُ لَمْ يَغْلَطْ فِي إِمْسَاكِ مَا يُمْسِكُ مِنَ الْأَرْوَاحِ وَإِرْسَالِ مَا يُرْسِلُ مِنْهَا. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَعَلَامَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ، يَعْنِي إِنَّ تَوَفِّيَ نَفْسِ النَّائِمِ وَإِرْسَالَهَا بَعْدَ التَّوَفِّي دَلِيلٌ عَلَىٰ الْبَعْثِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾ يَقُولُ تعَالَىٰ ذَامًّا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَهُمُ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ التي اتخذوها بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ، وَلَا سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ، وَلَا بَصَرٌ تُبْصِرُ بِهِ، بَلْ هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بِكَثِيرٍ، ثُمَّ قال : ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الزاعمين ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾

---

(١) البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤) .

وَإِنْ كَانُوا يَعْنِي الْآلِهَةَ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ مِنَ الشَّفَاعَةِ، أَيْ: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ، يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُمْدَحُوا بِهِ، لِأَنَّهَا جَمَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُوَرٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ لِمَنِ اتَّخَذَهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظُلْمًا؟، ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُمْ، وَجَوَابُ هَذِهِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَإِنْ كَانُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ تَتَّخِذُونَهُمْ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، أَيْ هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ بِالشَّفَاعَةِ لِمَنْ شَاءَ وَأَحَبَّ، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: جَمِيعُ مَا فِيهِمَا مِنَ الذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تُطْلَبَ الشَّفَاعَةُ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا، وَتُخْلِصَ لَهُ العِبَادَةَ. كَمَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**»[1]، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فَيُجَازِي الْمُخْلِصَ لَهُ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ نَفَرَتْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: انْقَبَضَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَكْبَرَتْ ، وَأَصْلُ

---

(١) البخاري (٧٣٨٢) ومسلم (٢٧٨٨) .

الِاشْمِئْزَازِ النُّفُورُ وَالِاسْتِكْبَارُ، وَالِاشْمِئْزَازُ: شِدَّةُ الْكَرَاهِيَةِ وَالنُّفُورِ، أَيْ كَرِهَتْ ذَلِكَ قُلُوبُهُمْ وَمَدَارِكُهُمْ ، ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني من كفار قريش ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أَيْ يَفْرَحُونَ وَيُسَرُّونَ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقَهُمَا وَمُدَبِّرَهُمَا. ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الَّذِي نُشَاهِدُهُ. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ فِي دُنْيَاهُمْ، سَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تشاء إلىٰ صراط مستقيم**»(١) .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أَيْ وَلَوْ أن جميع مَّا فِي الْأَرْضِ وَضِعْفِهُ مَعَهُ

---

(١) مسلم (٧٧٠) .

﴿لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوءِ العذاب﴾ أي الذي أوجبه الله تعالىٰ لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل مِنْهُمُ الْفِدَاءُ وَلَوْ كَانَ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر لَهُم مِّنَ الله الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ، مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أَيْ وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا اكْتَسَبُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا. قَالَ مُقَاتِلٌ: ظَهَرَ لَهُمْ حِينَ بُعِثُوا مَا لَمْ يَحْتَسِبُوا فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ السُّدِّيُّ: ظَنُّوا أَنَّهَا حَسَنَاتٌ فَبَدَتْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ اللهِ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَلَمَّا عُوقِبُوا عَلَيْهَا بَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لم يحتسبوا ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ هَذِهِ آيَتُهُمْ وَقِصَّتُهُمْ. وَقَالَ عكرمة ابن عَمَّارٍ: جَزِعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ جزعـًا شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أَخَافُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فَأَنَا أَخْشَىٰ أَنْ يَبْدُوَ لِي مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ مَسَاوِئُ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ بِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَنَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ مِنَ الْإِنْذَارِ الَّذِي كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ شِدَّةٌ، ﴿دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أَعْطَيْنَاهُ، ﴿نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أَيْ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: عَلَىٰ خَيْرٍ عَلِمَهُ اللهُ عِنْدِي، وَذَكَرَ الْكِنَايَةَ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ النِّعْمَةِ الْإِنْعَامُ، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يَعْنِي تِلْكَ النِّعْمَةُ فِتْنَةٌ اسْتِدْرَاجٍ من الله وامتحان وبلية. وقيل: بل الكلمة الَّتِي قَالَهَا فِتْنَةٌ، قَالَ ابنُ كثير: أَيْ لَيْسَ الأمر كما زعم، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنَخْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ أَيُطِيعُ أَمْ يَعْصِي؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِك فَهِيَ ﴿فِتْنَةٌ﴾ أَيِ اخْتِبَارٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ اسْتِدْرَاجٌ وَامْتِحَانٌ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ هَدْيِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الدُّعَاءُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ الشَّدَائِدِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ**»(١).

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ قَبْلَهُمْ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي قَارُونَ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [الْقَصَصِ: ٧٨] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (مَا) لِلْجَحْدِ أَيْ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا، وَقِيلَ بَلْ هِيَ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَالْمُرَادُ: أَيْ فَمَا الَّذِي أَغْنَىٰ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ؟، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَيْ جَزَاؤُهَا يَعْنِي الْعَذَابَ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْعُقُوبَاتُ، لِأَنَّهَا تَسُوءُ الْإِنْسَانَ وَتَحْزُنُهُ،

---

(١) الترمذي (٣٣٨٢).

ثُمَّ أَوْعَدَ كُفَّارَ مَكَّةَ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فَلَيْسُوا خَيْرًا مِنْ أُولَئِكَ، وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ لِأَنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمُعْجِزُ: الْغَالِبُ، أَيْ مَا هُمْ بغالبينا .

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُمْ اغْتَرُّوا بِالْمَالِ، وَزَعَمُوا - بِجَهْلِهِمْ- أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ حُسْنِ حَالِ صَاحِبِهِ، أَخْبَرَهُمْ تعَالَىٰ، أَنَّ رِزْقَهُ، لَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ، سَوَاءٌ كَانَ صَالِحًا أَوْ طَالِحًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرِّزْقَ، أَيْ: يُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، صَالِحًا أَوْ طَالِحًا، فَرِزْقُهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَخُصُّ بِهِ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: بَسْطُ الرِّزْقِ وَقَبْضُهُ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ مَرْجِعَ ذَلِكَ، عَائِدٌ إِلَىٰ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ عَبِيدِهِ، فَقَدْ يُضَيِّقُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ لُطْفًا بِهِمْ، لِأَنَّهُ لَوْ بَسَطَهُ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، فَيَكُونُ تَعَالَىٰ مُرَاعِيًا فِي ذَلِكَ صَلَاحَ دِينِهِمُ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ سَعَادَتِهِمْ وَفَلَاحِهِمْ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أراد بالإسراف ارتكاب الكبائر، وَالْإِسْرَافُ: الْإِكْثَارُ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْإِسْرَافُ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ أَيْ مِنَ الْآيِسِينَ وَالْقُنُوطُ: الْيَأْسُ، ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال ابن كثير : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكَفَرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ،

وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ الله تبارك وتعالىٰ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هذه عَلَىٰ غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِأَنَّ الشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ لمن لم يتب منه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةٌ، فَنَزَلَ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴾ وعن ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ الدُّنْيَا وما فيها بهذه الْآيَةَ** ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾»(١) ، وعن عمرو بن عنبسة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْخٌ كَبِيرٌ يُدَعِّمُ عَلَىٰ عَصًا لَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي غَدَرَاتٍ وَفَجَرَاتٍ، فَهَلْ يُغْفَرُ لي؟ فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**؟» قَالَ: بَلَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ**»(٢) ، فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ

---

(١) أحمد (٢٢٣٨٤) .

(٢) الطبراني (الكبير : ٧٢٣٥) .

أَنَّهُ يَغْفِرُ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ التَّوْبَةِ، وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَإِنْ عَظُمَتْ ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة وَاسِعٌ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أَقْبِلُوا وَارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، بَيَّنَ أَنَّ مَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ يُغْفَرُ لَهُ أَمَرَ بِالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَالْإِنَابَةُ الرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ بِالْإِخْلَاصِ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ يَعْلَىٰ: الْإِنَابَةُ الدُّعَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْإِنَابَةُ الرُّجُوعُ إِلَىٰ الطَّاعَةِ وَالنُّزُوعُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ :﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١] ، قوله : ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي استسلموا لأمره وأخلصوا لَهُ التَّوْحِيدَ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أَيْ بَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا هِيَ الْإِنَابَةُ وَالْإِسْلَامُ؟ وَمَا جُزْئِيَّاتُهَا وَأَعْمَالُهَا؟ فَأَجَابَ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ:

[٥٥] : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ حَسَنٌ، وَالْمَعْنَىٰ مَا قَالَ الْحَسَنُ: الْتَزِمُوا طَاعَتَهُ، وَاجْتَنِبُوا مَعْصِيَتَهُ. قَالَ السُّدِّيُّ: الْأَحْسَنُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي الْكِتَابِ، وَقِيلَ: هَذَا أَحْسَنُ لِأَنَّهُ نَاسِخٌ قَاضٍ عَلَىٰ جَمِيعِ الْكُتُبِ وَجَمِيعُ الْكُتُبِ مَنْسُوخَةٌ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُوَ أَحْسَنُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، فَالْمُتَّبِعُ لِأَوَامِرِ رَبِّهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَنَحْوِهَا هُوَ الْمُنِيبُ الْمُسْلِمُ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الْمُرَادُ عَذَابُ الدُّنْيَا يَفْجَؤُكُمْ اللهُ بِهِ فَيُهَدِّدُكُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ وَالْخَوْفِ وَالْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَنَقْصِ الْمِيَاهِ وَمَوْتِ الثَّمَرِ، وَالْفَقْرِ وَالْأَمْرَاضِ، وَعِنْدَئِذٍ لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني لئلا تقول نفس، قَالَ الْمُبَرِّدُ: أَيْ بَادِرُوا وَاحْذَرُوا أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: خَوْفَ أَنْ تَصِيرُوا إِلَىٰ حَالٍ تقولون هذا القول، ﴿يا حَسْرَتَا﴾ يَا نَدَامَتَا، وَالتَّحَسُّرُ الِاغْتِمَامُ عَلَىٰ مَا فَاتَ، وَأَرَادَ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ الْإِضَافَةِ، لَكِنَّ الْعَرَبَ تُحَوِّلُ ياء الْكِنَايَةِ أَلِفًا فِي الِاسْتِغَاثَةِ، فَتَقُولُ: يا ويلتا وَيَا نَدَامَتَا، وَرُبَّمَا أَلْحَقُوا بِهَا الْيَاءَ بَعْدَ الْأَلِفِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الْإِضَافَةِ وَقِيلَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ يا حسرتا يَا أَيَّتُهَا الْحَسْرَةُ هَذَا وَقْتُكَ، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: قَصَّرْتُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي أَمْرِ اللهِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فِي حَقِّ اللهِ، وَقِيلَ: ضَيَّعْتُ فِي ذَاتِ اللهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ قصرت في الجانب الذي يردني إِلَىٰ رِضَاءِ اللهِ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّبَبَ وَالطَّرِيقَ إِلَىٰ الشَّيْءِ جَنْبًا، تَقُولُ تَجَرَّعْتُ فِي جَنْبِكَ غُصَصًا، أَيْ لِأَجْلِكَ وَسَبَبِكَ وَلِأَجْلِ مَرْضَاتِكَ. وَقِيلَ: ﴿فِي جَنْبِ اللهِ﴾ أَيْ فِي الْجَانِبِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ رِضَا اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَثَوَابِهِ، وفي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا الله تعالىٰ فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة**»(١) ، ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِدِينِ اللهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَكْفِهِ أَنْ ضَيَّعَ طَاعَةَ اللهِ حَتَّىٰ جعل يسخر بأهل طاعته.

---

(١) أحمد (٩٦٠٧) .

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي﴾ أَيْ أَرْشَدَنِي إِلَىٰ دِينِهِ ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الشرك والمعاصي، وَهَذَا الْقَوْلُ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَاهْتَدَيْتُ قَوْلَ صِدْقٍ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ احْتِجَاجِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا أَخْبَرَ الرَّبُّ جَلَّ وَعَزَّ عَنْهُمْ فِي قَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا﴾ فَهِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَ(لَوْ) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِلتَّمَنِّي، أَيْ: لَيْتَ أَنَّ اللهَ هَدَانِي فَأَكُونَ مُتَّقِيًا لَهُ، فَأَسْلَمَ مِنَ الْعِقَابِ وَأَسْتَحِقَّ الثَّوَابَ، وَلَيْسَتْ (لَوْ) هُنَا شَرْطِيَّةً، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ شَرْطِيَّةً، لَكَانُوا مُحْتَجِّينَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ، وَهُوَ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَضْمَحِلُّ كُلُّ حُجَّةٍ بَاطِلَةٍ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ عِيَانًا، ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رَجْعَةً إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَالْكَرَّةُ: الرَّجْعَةُ، أَيْ تَوَدُّ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَىٰ الدُّنْيَا لِتُحْسِنَ الْعَمَلَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: « **كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ، قَالَ: وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانِي اللهُ﴾ قَالَ: فَيَكُونَ لَهُ الشُّكْرُ** »(١)، ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين، لَمَّا تَمَنَّىٰ أَهْلُ الْجَرَائِمِ الْعَوْدَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَتَحَسَّرُوا عَلَىٰ تَصْدِيقِ آيَاتِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) النسائي (الكبرى، رقم ١١٣٩٤).

[٥٩] : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ يعني القرآن، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وَقُلْتَ إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ اللهِ، ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ تَكَبَّرْتَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ هِيَ الْآيَاتُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَمَعْنَىٰ التَّكْذِيبِ بِهَا قَوْلُهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَتَكَبَّرَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِكْبَارِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِاللهِ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَلَكِنْ تَرَكْتَ ذَلِكَ وَضَيَّعْتَهُ وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهِ، وَآثَرْتَ الضَّلَالَةَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَاشْتَغَلْتَ بِضِدِّ مَا أُمِرْتَ بِهِ، فَإِنَّمَا جَاءَ التَّضْيِيعُ مِنْ قِبَلِكَ فَلَا عُذْرَ لَكَ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ﴾ فَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَشَرِيكًا، ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ لِمَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَشَاهَدُوهُ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَيْ: لَيْسَ فِيهَا مَقَامٌ لِلْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَالْكِبْرُ هُوَ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أَيْ يُنَجِّيهِمْ بِفَوْزِهِمْ مِنَ النَّارِ بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: الْمَفَازَةُ مَفْعَلَةٌ مِنَ الْفَوْزِ، قال ابن عاشور : وَالْمَفَازَةُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا مِيمِيًّا لِلْفَوْزِ وَهُوَ الْفَلَاحُ، مِثْلَ الْمَتَابِ وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْمَفَازَةُ اسْمًا لِلْفَلَاةِ، للصحراء سُمِّيَتْ مَفَازَةً بِاسْمِ مَكَانِ الْفَوْزِ، أَيِ النَّجَاةُ وَتَأْنِيثُهَا بِتَأْوِيلِ الْبُقْعَةِ، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أَيْ: الْعَذَابُ الَّذِي يَسُوؤُهُمْ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيْ وَلَا

يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، بل هو آمَنُونَ مِنْ كُلِّ فَزَعٍ، مُزَحْزَحُونَ عَنْ كُلِّ شر، نائلون كل خير.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هَذِهِ الْعِبَارَةُ وَمَا أَشْبَهَهَا، مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ -غَيْرَ اللهِ- مَخْلُوقَةٌ، فَفِيهَا رَدٌّ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ قَالَ بِقِدَمِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَالْفَلَاسِفَةِ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَكَالْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْأَرْوَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، الْمُتَضَمِّنَةِ تَعْطِيلَ الْخَالِقِ عَنْ خَلْقِهِ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَيِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مَوْكُولَةٌ إِلَيْهِ فَهُوَ الْقَائِمُ بِحِفْظِهَا، وكلٌّ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاحِدُهَا مِقْلَادٌ، مِثْلُ: مِفْتَاحٍ، مَفَاتِيحُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: مَفَاتِيحُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالرِّزْقِ وَالرَّحْمَةِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَخَزَائِنُ النَّبَاتِ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ أَيْ حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خَسِرُوا مَا بِهِ تَصْلُحُ الْقُلُوبُ مِنَ التَّأَلُّه والْإِخْلَاصِ للهِ، وَمَا بِهِ تَصْلُحُ الْأَلْسُنُ مِنْ إِشْغَالِهَا بِذِكْرِ اللهِ، وَمَا تَصْلُحُ بِهِ الْجَوَارِحُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، وَتَعَوَّضُوا عَنْ ذَلِكَ كُلَّ مُفْسِدٍ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، وَخَسِرُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَعَوَّضُوا عَنْهَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ دَعَوْكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أَيْ: هَذَا الْأَمْرُ

صَدَرَ مِنْ جَهْلِكُمْ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ الْكَامِلَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، مُسْدِي جَمِيعِ النِّعَمِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، دُونَ مَنْ كَانَ نَاقِصًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، لَمْ تَأْمُرُونِي بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ مُحْبِطٌ لِلْأَعْمَالِ، مُفْسِدٌ لِلْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ دَعَوْهُ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: أَيْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِكَ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي الَّذِي عَمِلْتَهُ قَبْلَ الشِّرْكِ وَهَذَا خطاب مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ غَيْرُهُ ، إِذْ قَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ لَا يُشْرِكُ وَلَا يَقَعُ مِنْهُ إِشْرَاكٌ، وإلا حباط الْإِبْطَالُ وَالْفَسَادُ، وَقِيلَ: هَذَا أَدَبٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ وَتَهْدِيدٌ لِغَيْرِهِ، لِأَنَّ اللهَ تعالىٰ عَصَمَهُ مِنَ الشرك ، ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاعْبُدْ: أَيْ فَوَحِّدْ، وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلِ اللهَ فَأَطِعْ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ الْجَاهِلِينَ يَأْمُرُونَهُ بِالشِّرْكِ، وَأَخْبَرَ عَنْ شَنَاعَتِهِ، أَمَرَهُ بِالْإِخْلَاصِ فَقَالَ: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ أَيْ: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لِإِنْعَامِهِ عَلَيْكَ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ حِينَ أشركوا به، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَظَمَتِهِ فَقَالَ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ ﴾ وَمَا قَدَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ رَبَّهُمْ حَقَّ

قَدْرِهِ، فَسَوَّوْا هَذَا الْمَخْلُوقَ النَّاقِصَ بِالْخَالِقِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ، الَّذِي مِنْ عَظَمَتِهِ الْبَاهِرَةِ، وَقُدْرَتِهِ الْقَاهِرَةِ، أَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبْضَةٌ لِلرَّحْمَنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ -عَلَىٰ سَعَتِهَا وَعِظَمِهَا- مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، فَلَا عَظَّمَهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ مَنْ سَوَّىٰ بِهِ غَيْرَهُ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ. ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْر مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخلق عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعـًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة﴾.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ مَاتُوا مِنَ الْفَزَعِ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الْأَوْلَىٰ، وَالصُّورُ: وَهُوَ قَرْنٌ عَظِيمٌ، لَا يَعْلَمُ عَظَمَتَهُ إِلَّا خَالِقُهُ، وَمَنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ مِنْ خَلْقِهِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَحَدُ حَمَلَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ اخْتَلَفُوا فِي الَّذِينَ اسْتَثْنَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ يَعْنِي اللهَ وَحْدَهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: مِمَّنْ ثَبَّتَهُ اللهُ عِنْدَ النَّفْخَةِ، فَلَمْ يَصْعَقْ، كَالشُّهَدَاءِ أَوْ بَعْضِهِمْ، وَغَيْرِهِمْ ، وَهَذِهِ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ، نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَنَفْخَةُ الْفَزَعِ. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور، ﴿أُخْرَىٰ﴾ أَيْ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وهي

النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْتَظِرُونَ أَمْرَ اللهِ فيهم. بَعْدَ مَا كَانُوا عِظَامًا وَرُفَاتًا صَارُوا أَحْيَاءً يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ أضاءت، يُقَالُ: أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا أَضَاءَتْ وَشَرَقَتْ إِذَا طَلَعَتْ، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بِنُورِ خَالِقِهَا، وَذَلِكَ حِينَ يَتَجَلَّىٰ الرَّبُّ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ فَمَا يَتَضَارُّونَ فِي نُورِهِ كَمَا لَا يَتَضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ فِي الْيَوْمِ الصَّحْوِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: بِعَدْلِ رَبِّهَا، وَأَرَادَ بِالْأَرْضِ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: عُلِمَ مِنْ هَذَا، أَنَّ الْأَنْوَارَ الْمَوْجُودَةَ تَذْهَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَضْمَحِلُّ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ تُكَوَّرُ، وَالْقَمَرَ يُخْسَفُ، وَالنُّجُومَ تَنْدَثِرُ، وَيَكُونُ النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ، فَتُشْرِقُ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا، عِنْدَمَا يَتَجَلَّىٰ وَيَنْزِلُ لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ الْيَوْمَ يَجْعَلُ اللهُ لِلْخَلْقِ قُوَّةً، وَيُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً يَقْوَوْنَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُحْرِقَهُمْ نُورُهُ، وَيَتَمَكَّنُونَ أَيْضًا مِنْ رُؤْيَتِهِ، وَإِلَّا فَنُورُهُ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ، لَوْ كَشَفَهُ، لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أَيْ كِتَابُ الْأَعْمَالِ، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَهُمْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ عَطَاءٌ: يَعْنِي الْحَفَظَةَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:٢١]، قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْعَدْلِ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَيْ لَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أَيْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ أَنِّي عَالِمٌ بِأَفْعَالِهِمْ لَا أَحْتَاجُ إِلَىٰ كَاتِبٍ وَلَا إِلَىٰ شَاهِدٍ ، أَيْ: فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ خَافِيَةٌ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَهُوَ الَّذِي مَعَهُمْ إِذْ كَانُوا يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَالْفَاحِشَةِ فِي الْأَرْضِ، كَمَا كَانَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ يَحْتَرِقُونَ شَوْقًا لِلِقَائِهِ وَيَبْذُلُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي رِضْوَانِهِ، وَفِي الِاسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ وَالْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقا عنيفا، وَالسَّوْقُ: أَنْ يَجْعَلَ الْمَاشِي مَاشِيًا آخَرَ يَسِيرُ أَمَامَهُ وَيُلَازِمُهُ، ﴿زُمَرًا﴾ أَفْوَاجًا بَعْضُهَا عَلَىٰ إِثْرِ بَعْضٍ، كُلُّ أُمَّةٍ عَلَىٰ حِدَةٍ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: زُمُرًا أَيْ جَمَاعَاتٍ فِي تَفْرِقَةٍ، وَالزُّمَرُ: جَمْعُ زُمْرَةٍ، وَهِيَ الْفَوْجُ مِنَ النَّاسِ الْمَتْبُوعِ بِفَوْجٍ آخَرَ ، فَلَا يُقَالُ: مَرَّتْ زُمْرَةٌ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَتْبُوعَةً بِأُخْرَىٰ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وَهِيَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ وَكَانَتْ مُغْلَقَةً قَبْلَ ذَلِكَ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ وَاحِدُهُمْ خَازِنٌ نَحْوَ سَدَنَةٌ وَسَادِنٌ، وَالْخَزَنَةُ: جَمْعُ خَازِنٍ ، وَهُوَ الْوَكِيلُ وَالْبَوَّابُ غَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ الْخَازِنِ ؛ لِأَنَّهُ يُقْصَدُ لِخَزْنِ الْمَالِ ، يَقُولُونَ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ، قال ابن كثير : أَيْ بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا لِتُعَجِّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ، الَّذِينَ هُمْ غِلَاظُ الْأَخْلَاقِ شِدَادُ الْقُوَىٰ، عَلَىٰ وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّنْكِيلِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾؟

أَيْ من جنسكم تتمكون مِنْ مُخَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ يُقِيمُونَ عَلَيْكُمُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَيْ وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ، فَيَقُولُ الْكُفَّارُ لَهُمْ: ﴿بَلَىٰ﴾ أَيْ قَدْ جَاءُونَا وَأَنْذَرُونَا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ، فأقروا والحسرة تأكل قلوبهم، ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ كَذَّبْنَاهُمْ وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كُلٌّ بِطَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِهَا، عَلَىٰ قَدْرِ عَمَلِهِ ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَثْوًىٰ يُخْزَوْنَ فِيهِ، وَيُهَانُونَ، وَيُحْبَسُونَ، وَيُعَذَّبُونَ، وَيَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ حَرِّهَا وَزَمْهَرِيرِهَاوالْمَثْوَىٰ: مَحَلُّ الثَّوَاءِ وَهُوَ الْإِقَامَةُ، وَالتَّقْدِيرُ: بِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ جَهَنَّمُ وَوُصِفُوا بِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ قَبُولِ الْإِسْلَامِ تَكَبُّرًا عَنْ أَنْ يَتْبَعُوا وَاحِدًا مِنْهُم.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بِتَوْحِيدِهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، سَوْقَ إِكْرَامٍ وَإِعْزَازٍ، يُحْشَرُونَ وَفْدًا عَلَىٰ النَّجَائِبِ ، ﴿إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ، كُلُّ زُمْرَةٍ مَعَ الزُّمْرَةِ، الَّتِي تُنَاسِبُ عَمَلَهَا وَتُشَاكِلُهُ ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أَيْ: وَصَلُوا لِتِلْكَ الرِّحَابِ الرَّحِيبَةِ وَالْمَنَازِلِ الْأَنِيقَةِ، وَهَبَّ عَلَيْهِمْ رِيحُهَا وَنَسِيمُهَا، وَآنَ خُلُودُهَا وَنَعِيمُهَا ، ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لَهُمْ ﴿أَبْوَابُهَا﴾ فَتْحَ إِكْرَامٍ، لِكِرَامِ الْخَلْقِ، لِيُكْرَمُوا فِيهَا ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تَهْنِئَةً لَهُمْ وَتَرْحِيبًا : ﴿سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: سَلَامٌ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَشَرٍّ حَالٌّ عَلَيْكُمْ، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ ،قَالَ: فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ** »[1] ، قَوْلُهُ: ﴿طِبْتُمْ﴾ أَيْ: طَابَتْ قُلُوبُكُمْ بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَشْيَتِهِ، وَأَلْسِنَتُكُمْ بِذِكْرِهِ، وَجَوَارِحُكُمْ بِطَاعَتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَابَ لَكُمُ الْمَقَامُ. قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ إِذَا قَطَعُوا النَّارَ حُبِسُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْتَصُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَطُيِّبُوا أُدْخِلُوا الجنة.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أَيْ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا عَايَنُوا فِي الْجَنَّةِ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْوَافِرَ، وَالْعَطَاءَ الْعَظِيمَ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ وَالْمُلْكَ الْكَبِيرَ ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ قَالَ أبو العالية وقتادة والسدي: أي أرض الجنة وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، قَوْلُهُ ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نَنْزِلُ، ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أَيْ أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا فَنِعْمَ الْأَجْرُ أَجْرُنَا علىٰ عملنا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ثَوَابُ الْمُطِيعِينَ ، الَّذِينَ اجْتَهَدُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ، فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ مُنْقَطِعٍ، فَنَالُوا بِذَلِكَ خَيْرًا عَظِيمًا بَاقِيًا مُسْتَمِرًّا، وَهَذِهِ الدَّارُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، الَّتِي يُكْرِمُ اللهُ فِيهَا خَوَاصَّ خَلْقِهِ، وَرَضِيَهَا الْجَوَادُ

---

(١) مسلم (١٩٧) .

الْكَرِيمُ لَهُمْ نُزُلًا وَبَنَىٰ أَعْلَاهَا وَأَحْسَنَهَا، وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، وَحَشَاهَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ مَا بِبَعْضِهِ يَفْرَحُ الْحَزِينُ، وَيَزُولُ الْكَدَرُ، وَيَتِمُّ الصَّفَاءُ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي محدقين محيطين بالعرش، المحيطين بحوافه أَيْ بِجَوَانِبِهِ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن كثير: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُ نَزَّلَ كُلًّا فِي الْمَحِلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيَصْلُحُ لَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُحْدِقُونَ مِنْ حَوْلِ العرش الْمَجِيدِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُمَجِّدُونَهُ، وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيُنَزِّهُونَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجَوْرِ، وَقَدْ فَصَلَ الْقَضِيَّةَ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَحُكِمَ بِالْعَدْلِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ قُضِيَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِالْعَدْلِ، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول أهل الجنة: شكرا حِينَ تَمَّ وَعْدُ اللهِ لَهُمْ، قَالَ قَتَادَةُ: افْتَتَحَ الْخَلْقَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وَاخْتُتِمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ غَافِرٍ

وَتُسَمَّىٰ أَيْضًا بِسُورَةِ الْمُؤْمِنِ ، وَجْهُ التَّسْمِيَةِ أَنَّهَا ذُكِرَتْ فِيهَا قِصَّةُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ وَلَمْ تُذْكَرْ فِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ بِوَجْهٍ صَرِيحٍ ، وَتُسَمَّىٰ سُورَةُ الطَّوْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: آلُ حم دِيبَاجُ الْقُرْآنِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حم﴾ قَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي حُرُوفِ التَّهَجِّي ، وَأَجْمَلُ مَا قِيلَ فِيهِ: إِنَّهُ إِعْجَازٌ لِلْعَرَبِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي رُكِّبَتْ كَلِمَاتُهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ الْمُقَطَّعَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ، أَيْ تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ الذَّر وَإِنْ تَكَاثَفَ حِجَابُهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ ساتر الذنب و ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أَيْ يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جلَّ وعلا ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَغَىٰ، وَآثَرَ الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالىٰ وبغىٰ، وَقِيلَ: التَّوْبُ جَمْعُ تَوْبَةٍ مِثْلُ دَوْمَةٍ وَدَوْمٍ

وَحَوْمَةٍ وَحَوْمٍ. وقال ابْنُ عَبَّاسٍ. غَافِرُ الذَّنْبِ لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَابِلُ التَّوْبِ مِمَّنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ لَا يَقُولُ لَا إِلَهَ إلا الله، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذِي الْغِنَىٰ عَمَّنْ لَا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ، ذِي الطَّوْلِ: ذِي السَّعَةِ وَالْغِنَىٰ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: ذُو الْفَضْلِ، قال قتادة: ذو النعم: ذُو الْقُدْرَةِ وَأَصْلُ الطَّوْلِ الْإِنْعَامُ الَّذِي تَطُولُ مُدَّتُهُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ الْمَرْجِعُ والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ افْتَقَدَ رَجُلًا ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقِيلَ لَهُ: تَتَابَعَ فِي هَذَا الشَّرَابِ، فَقَالَ عُمَرُ لِكَاتِبِهِ: اكْتُبْ مِنْ عُمَرَ إِلَىٰ فُلَانٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: ﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ وَقَالَ لِرَسُولِهِ: لَا تَدْفَعْهُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَجِدَهُ صَاحِيًا، ثُمَّ أَمَرَ مَنْ عِنْدَهُ بِالدُّعَاءِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ، فَلَمَّا أَتَتْهُ الصَّحِيفَةُ جَعَلَ يقرؤها وَيَقُولُ: قَدْ وَعَدَنِي اللهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، وَحَذَّرَنِي عِقَابَهُ، فَلَمْ يَبْرَحْ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ بَكَىٰ ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْعَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ﴾ في دفع آيات الله بالتعذيب والإنكار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: آيَتَانِ مَا أَشَدَّهُمَا عَلَىٰ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ

تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ تَصَرُّفُهُمْ فِي الْبِلَادِ لِلتِّجَارَاتِ وَسَلَامَتُهُمْ فِيهَا مَعَ كُفْرِهِمْ، فَإِنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمُ الْعَذَابُ، مثل قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران : ١٩٦] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ تِجَارَتَهُمْ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الشَّامِ وإلىٰ اليمن ، وقيل:﴿فَلا يَغْرُرْكَ﴾ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا، وقال الزجاج: ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ﴾ سَلَامَتُهُمْ بَعْدَ كُفْرِهِمْ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُمُ الْهَلَاكُ ، قال القرطبي : سَجَّلَ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْكُفْرِ، وَالْمُرَادُ الْجِدَالُ بِالْبَاطِلِ، مِنَ الطَّعْنِ فِيهَا، وَالْقَصْدِ إِلَىٰ إِدْحَاضِ الْحَقِّ، وَإِطْفَاءِ نُورِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيَقْتُلُوهُ وَيُهْلِكُوهُ، وَقِيلَ: لِيَأْسِرُوهُ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْأَسِيرَ أخيذاً ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ؛ الرُّسُلُ الَّذِينَ هُمْ قَادَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ، الَّذِينَ مَعَهُمُ الْحَقُّ الصِّرْفُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ، هَمُّوا بِقَتْلِهِمْ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ إِلَّا الْعَذَابُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ؟، قوله : ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أَيْ لِيُزِيلُوا، وَمِنْهُ مَكَانٌ دَحْضٌ أَيْ مَزْلَقَةٌ، وَالْبَاطِلُ دَاحِضٌ، لِأَنَّهُ يَزْلَقُ وَيَزِلُّ فَلَا يَسْتَقِرُّ، قَالَ يَحْيَىٰ ابْنُ سَلَّامٍ: جَادَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِالشِّرْكِ لِيُبْطِلُوا بِهِ الْإِيمَانَ، الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ ، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أَيْ أَهْلَكْتُهُمْ عَلَىٰ مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعِظَامِ،

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أَيْ فَكَيْفَ بَلَغَكَ عَذَابِي لَهُمْ وَنَكَالِي بِهِمْ لقد كَانَ شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا؟ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ شديداً والله.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ وحَقَّتْ أَيْ وَجَبَتْ وَلَزِمَتْ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحَقِّ لِأَنَّهُ اللَّازِمُ ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ قَوْمِكَ، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أَيْ كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَىٰ الْمُكَذِّبِينَ مَن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كذبوك وخالفوك يا محمد، بطريق الأولىٰ، لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وُثُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غيرك.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أَيْ: عَرْشُ الرَّحْمَنِ، الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْظَمُهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَحْسَنُهَا، وَأَقْرَبُهَا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، الَّذِي وَسِعَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْكُرْسِيَّ، وَهَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ، قَدْ وَكَّلَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِحَمْلِ عَرْشِهِ الْعَظِيمِ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِنْ أَكْبَرِ الْمَلَائِكَةِ وَأَعْظَمِهِمْ وَأَقْوَاهُمْ، وَاخْتِيَارُ اللهِ لَهُمْ لِحَمْلِ عَرْشِهِ، وَتَقْدِيمُهُمْ فِي الذِّكْرِ، وَقُرْبُهُمْ مِنْهُ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ أَجْنَاسِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْفَضِيلَةِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: يَقْرِنُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالِّ عَلَىٰ نَفْيِ النَّقَائِصِ، وَالتَّحْمِيدِ الْمُقْتَضِي لِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ ، هَذَا مَدْحٌ لَهُمْ بِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ للهِ تَعَالَىٰ، وَخُصُوصًا التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، وَسَائِرُ الْعِبَادَاتِ

تَدْخُلُ فِي تَسْبِيحِ اللهِ وَتَحْمِيدِهِ؛ لِأَنَّهَا تَنْزِيهٌ لَهُ عَنْ كَوْنِ الْعَبْدِ يَصْرِفُهَا لِغَيْرِهِ، وَحَمْدٌ لَهُ تَعَالَىٰ، بَلِ الْحَمْدُ هُوَ الْعِبَادَةُ للهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا قَوْلُ الْعَبْدِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» فَهُوَ دَاخِلٌ فِي ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْعِبَادَاتِ، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ وَفَضَائِلِهِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا، أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ لَا ذُنُوبَ عَلَيْهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، فَالْمُؤْمِنُ بِإِيمَانِهِ تَسَبَّبَ لِهَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، ثُمَّ وَلَمَّا كَانَتِ الْمَغْفِرَةُ لَهَا لَوَازِمُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا - غَيْرَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْأَذْهَانِ، أَنَّ سُؤَالَهَا وَطَلَبَهَا غَايَتُهُ مُجَرَّدُ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ - ذَكَرَ تَعَالَىٰ صِفَةَ دُعَائِهِمْ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ، بِذِكْرِ مَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا يؤمِّنون عَلَىٰ دُعَاءِ الْمُؤْمِنِ لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في الصحيح: «**إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الملك آمين ولك بمثله**»[1] ، قَالَ خَلَفُ بْنُ هشام البزاز القاري : كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَىٰ سُلَيْمِ بْنِ عِيسَىٰ فَلَمَّا بَلَغْتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بَكَىٰ ثُمَّ قَالَ: يَا خَلَفُ مَا أَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ عَلَىٰ اللهِ نَائِمًا عَلَىٰ فِرَاشِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فَعِلْمُكَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ خَافِيَةٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِكَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَرَحْمَتُكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَالْكَوْنُ عُلْوِيُّهُ وَسُفْلِيُّهُ قَدِ امْتَلَأَ

---

(١) مسلم (٢٧٣٢) .

بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَوَسِعَتْهُمْ، وَوَصَلَ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ خَلْقُهُ ، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ بِاتِّبَاعِ رُسُلِكَ، بِتَوْحِيدِكَ وَطَاعَتِكَ، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ: قِهِمُ الْعَذَابَ نَفْسَهُ، وَقِهِمْ أَسْبَابَ الْعَذَابِ، قَالَ مُطَرِّفٌ: أَنْصَحُ عِبَادِ اللهِ للمؤمنين الْمَلَائِكَةُ وَأَغَشُّ الْخَلْقِ لِلْمُؤْمِنِينَ هُمُ الشياطين.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أَيْ: صَلَحَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ زَوْجَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِنَّ وَأَصْحَابِهِمْ وَرُفَقَائِهِمْ ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الذُّرِّيَّةُ نَسْلُ الرَّجُلِ وَمَا تَوَالَدَ مِنْهُ وَمِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ إِمَّا مِنَ الذَّرِّ اسْمًا وَهُوَ صِغَارُ النَّمْلِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ فِي دَرَجَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ، لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «**وَمَا نَقَصْنَا الْآبَاءَ بِمَا أَعْطَيْنَا الْبَنِينَ**»(١)، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَبِعِزَّتِكَ تَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَتَكْشِفُ عَنْهُمُ الْمَحْذُورَ، وَتُوصِلُهُمْ بِهَا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فَلَا نَسْأَلُكَ يَا رَبَّنَا أَمْرًا تَقْتَضِي حِكْمَتُكَ خِلَافَهُ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَدْخُلُ الْمُؤْمِنُ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: أَيْنَ أَبِي أَيْنَ أُمِّي أَيْنَ وَلَدِي

(١) مسند البزار (٢٣٠٨).

أَيْنَ زوجتي؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا مِثْلَ عَمَلِكَ، فَيَقُولُ: إِنِّي كُنْتُ أَعْمَلُ لي ولهم، فيقال: أدخلوهم .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات، قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ وَقِهِمْ مَا يَسُوءُهُمْ، وَقِيلَ: التَّقْدِيرُ وَقِهِمْ عَذَابَ السَّيِّئَاتِ ، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيْ وَمَنْ تَقِهِ السَّيِّئَاتِ يَعْنِي الْعُقُوبَاتِ، وَقِيلَ: جَزَاءَ السَّيِّئَاتِ، ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قَالَ ابن عاشور : وَالْمُرَادُ: إِبْلَاغُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الرِّضَىٰ وَالْقَبُولِ يَوْمَ الْجَزَاءِ بِحَيْثُ لَا يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ ، وَيَكُونُونَ فِي بُحْبُوحَةِ النَّعِيمِ وَلَا يَعْتَرِيهِمْ مَا يُكَدِّرُهُمْ مِنْ نَحْوِ التَّوْبِيخِ وَالْفَضِيحَةِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ ﴾ [الْإِنْسَان: ١١].

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي النَّارِ وَقَدْ مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ، وَعَايَنُوا الْعَذَابَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَمَقْتُ اللهِ أَهْلَ الضَّلَالَةِ حِينَ يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فِي الدُّنْيَا ، فَتَرَكُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا أَكْبَرُ مِمَّا مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ ذَرٌّ الْهَمْدَانِيُّ: مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ مَقَتُّوا أَنْفُسَهُمُ الْآنَ حِينَ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَأَصْلُ الْمَقْتِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الْبُغْضُ، يُقَالُ: مَقَتَ فُلَانٌ فُلَانًا أَيْ أَبْغَضَهُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْكُفَّارَ أَبْغَضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي

أَوْصَلَتْهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ، فَنَادَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَنَّ مَقْتَ اللهِ لَهُمْ وَهُمْ يَرُدُّونَ أَمْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ طَاعَتِهِ كَانَ أَكْبَرَ، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يَعْنِي لَمَقْتُ اللهِ إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمُ الْيَوْمَ أَنْفُسَكُمْ عِنْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِكُمْ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْآيَةُ، كقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ الله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ ترجعون﴾ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ والمقصود أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ وُقُوفٌ بَيْنَ يَدَي اللهِ عزَّ وجلَّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ: كَانُوا أَمْوَاتًا فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فَأَحْيَاهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ أَمَاتَهُمُ الْمَوْتَةَ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهُمَا مَوْتَتَانِ وَحَيَاتَانِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وَقَالَ السُّدِّيُّ: أُمِيتُوا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ أُحْيَوْا فِي قُبُورِهِمْ لِلسُّؤَالِ، ثُمَّ أُمِيتُوا فِي قُبُورِهِمْ ثُمَّ أُحْيَوْا فِي الْآخِرَةِ، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَيْ مِنْ خُرُوجٍ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَنُصْلِحَ أَعْمَالَنَا وَنَعْمَلَ بِطَاعَتِكَ ،وَالسَّبِيلُ: الطَّرِيقُ وَاسْتُعِيرَ إِلَىٰ الْوَسِيلَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْأَمْرُ الْمَرْغُوبُ، وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ قَالَ فِي «الْكَشَّافِ» : وَهَذَا كَلَامُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: لِأَهْلِ النَّارِ خَمْسُ دَعَوَاتٍ،

يُكَلَّمُونَ فِي أَرْبَعٍ مِنْهَا، وَيُسْكَتُ عَنْهُمْ فِي الْخَامِسَةِ، فَلَا يُكَلَّمُونَ، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ وَفِي الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ تَقْدِيرُهُ: فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَهَذَا الْعَذَابُ وَالْخُلُودُ فِي النَّارِ بِأَنَّكُمْ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ أي إِذَا قِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أنكرتم، وَقُلْتُمْ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ غيره، ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تُصَدِّقُوا ذَلِكَ الشِّرْكَ، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ الْعَلِيُّ: الَّذِي لَهُ الْعُلُوُّ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، عُلُوُّ الذَّاتِ، وَعُلُوُّ الْقَدْرِ، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ، وَمِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ، كَمَالُ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَلَا يُسَاوِي بَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْفُجَّارِ، ﴿الْكَبِيرُ﴾ الَّذِي لَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَالْعَظَمَةُ وَالْمَجْدُ، فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، الْمُتَنَزِّهُ عَنْ كُلِّ آفَةٍ وَعَيْبٍ وَنَقْصٍ، فَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ للهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ حَكَمَ عَلَيْكُمْ بِالْخُلُودِ الدَّائِمِ، فَحُكْمُهُ لَا يُغَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فَهُوَ الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، فَيَهْدِي من يشاء ويضل مَن يَشَآءُ، وَيَرْحَمُ من يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يشاء.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَيْ يُظْهِرُ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي خَلْقِهِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمَالِ خَالِقِهَا ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ بِالْحِسِّ مِنِ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَطَعُومِهِ

وَرَوَائِحِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ وَهُوَ مَاءٌ وَاحِدٌ، فَبِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَاوَتَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أَيْ يَعْتَبِرُ وَيَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَىٰ عَظَمَةِ خَالِقِهَا ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أَيْ مَنْ هُوَ بَصِيرٌ مُنِيبٌ إِلَىٰ اللهِ تبارك وتعالىٰ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أَيْ فَأَخْلِصُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ وَالدُّعَاءَ وَخَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ فِي مَسْلَكِهِمْ وَمَذْهَبِهِمْ، قَالَ الْإِمَامُ أحمد: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شيء قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** » قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهل بهن دُبُر كل صلاة[(١)].

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أَيْ: الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، الَّذِي اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَاخْتَصَّ بِهِ، وَارْتَفَعَتْ دَرَجَاتُهُ ارْتِفَاعًا بَايَنَ بِهِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَارْتَفَعَ بِهِ قَدْرُهُ، وَجَلَّتْ أَوْصَافُهُ، وَتَعَالَتْ ذَاتُهُ، ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ يُنَزِّلُ الْوَحْيَ، سَمَّاهُ رُوحًا لِأَنَّهُ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ كَمَا تَحْيَا الأبدان بالأرواح، ﴿مِنْ

---

(١) مسلم (٥٩٤).

أَمْرِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ قَضَائِهِ، وَقِيلَ: مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِأَمْرِهِ، ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ﴾ أَيْ لِيُنْذِرَ النَّبِيُّ بِالْوَحْيِ، ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يَوْمَ يَلْتَقِي أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الأرض، وقال قَتَادَةُ: وَمُقَاتِلٌ: يَلْتَقِي فِيهِ الْخَلْقُ وَالْخَالِقُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَتَلَاقَىٰ الْعِبَادُ، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: يَلْتَقِي الظَّالِمُ وَالْمَظْلُومُ وَالْخُصُومُ، وَقِيلَ: يَلْتَقِي الْعَابِدُونَ وَالْمَعْبُودُونَ، وَقِيلَ: يَلْتَقِي فِيهِ الْمَرْءُ مَعَ عَمَلِهِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خَارِجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ظَاهِرُونَ لَا يَسْتُرُهُمْ شَيْءٌ، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللهِ مِنْهُمْ﴾ من أعمالهم وأحوالهم، ﴿شَيْءٌ﴾ ويقول اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فَلَا أَحَدَ يُجِيبُهُ فَيُجِيبُ بِنَفْسِهِ فَيَقُولُ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الَّذِي قَهَرَ الْخَلْقَ بِالْمَوْتِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يُجْزَىٰ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ إِذْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، مثل قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أَيْ قَرُبَتِ الْقِيَامَةُ، وَيَوْمُ الْآزِفَةِ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاقْتِرَابِهَا، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ، إِذْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَأَزِفَ فُلَانٌ أَيْ قَرُبَ يَأْزَفُ أَزَفًا، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْخَوْفِ حَتَّىٰ تَصِيرَ إِلَىٰ الحناجر، فهي لا تعود إلىٰ أماكنها ولا تَخْرُجُ مِنْ

أَفْوَاهِهِمْ فَيَمُوتُوا وَيَسْتَرِيحُوا، ﴿كَاظِمِينَ﴾ مَكْرُوبِينَ مُمْتَلِئِينَ خَوْفًا وَحُزْنًا، وَالْكَظْمُ تَرَدُّدُ الْغَيْظِ وَالْخَوْفِ وَالْحُزْنِ فِي الْقَلْبِ حَتَّىٰ يَضِيقَ بِهِ. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قَرِيبٌ يَنْفَعُهُمْ، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فَيَشْفَعُ فِيهِمْ. بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَالْحَمِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَهْتَمُّ لِأَمْرِهِ. وَالْمَقْصُودُ: مَا لِلْكَافِرِينَ بِاللهِ يَوْمَ الْآزِفَةِ مِنْ حَمِيمٍ يَحُمُّ لَهُمْ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ هَوْلَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَيُطَاعُ وَيُجَابُ لِمَا سَأَلَ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَزِفَتْ وَاللهِ عُقُولُهُمْ، وَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ، فَتَرَدَّدَتْ فِي أَجْوَافِهِمْ بِالْغُصَصِ إِلَىٰ حَنَاجِرِهِمْ لَمَّا أُمِرَ بِهِمْ مَلَكٌ يَسُوقُهُمْ إِلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ، فَيُنَادَوْنَ ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أَيْ خِيَانَتَهَا وَهِيَ مُسَارَقَةُ النَّظَرِ إِلَىٰ مَا لَا يَحِلُّ ، قَالَ مجاهد: نَظَرُ الْأَعْيُنِ إِلَىٰ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ ابنُ عاشور : وَمَعْنَىٰ: خائِنَةَ الْأَعْيُنِ خِيانَةَ النَّظَرِ، أَيْ مُسَارَقَةَ النَّظَرِ لِشَيْءٍ بِحَضْرَةِ مَنْ لَا يُحِبُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَإِضَافَةُ خائِنَةَ إِلَىٰ الْأَعْيُنِ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ آلَتِهِ كَقَوْلِهِمْ: ضَرَبَ السَّيْفَ، عَن سعد رَضِي الله عَنهُ قَالَ: لما كَانَ يَوْم فتح مَكَّة أَمن رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة نفر وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ: أقتلوهم وَإِن وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلقين بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة مِنْهُم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فَاخْتَبَأَ عِنْد عُثْمَان بن عَفَّان رَضِي الله عَنهُ فَلَمَّا دَعَا رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس إِلَىٰ الْبيعَة

جَاءَ بِهِ فَقَالَ: يَا رَسُول الله بَايع عبد الله، فَرفع رَأسه فَنظر إِلَيْهِ ثَلَاثًا كل ذَلِك يَأْبَىٰ يبايعه ثمَّ أقبل علىٰ أَصْحَابه فَقَالَ: أما كَانَ فِيكُم رجل رشيد يقوم إِلَىٰ هَذَا حِين رَآنِي كَفَفْت يَدي عَن بيعَته فيقتله فَقَالُوا: مَا يُدْرِينَا يَا رَسُول الله مَا فِي نَفسك هلا أَوْمَأت إِلَيْنَا بِعَيْنِك قَالَ: أَنه لَا يَنْبَغِي لنَبِيّ أَن يكون لَهُ خَائِنَة الْأَعْين ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أَيْ مِنَ الْوَسْوَسَةِ، مِمَّا لَمْ يُبَيِّنْهُ الْعَبْدُ لِغَيْرِهِ، فَاللهُ تَعَالَىٰ يَعْلَمُ ذَلِكَ الْخَفِيَّ، فَغَيْرُهُ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَيْ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ، وَحُكْمَهُ الشَّرْعِيَّ حَقٌّ، وَحُكْمَهُ الْجَزَائِيَّ حَقٌّ، وَهُوَ الْمُحِيطُ عِلْمًا وَكِتَابَةً وَحِفْظًا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالنَّقْصِ وَسَائِرِ الْعُيُوبِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْزِيَ بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يَعْنِي الْأَوْثَانَ، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ لِأَنَّهَا لَا تَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا تَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، لِعَجْزِهِمْ وَعَدَمِ إِرَادَتِهِمْ لِلْخَيْرِ وَاسْتِطَاعَتِهِمْ لِفِعْلِهِ، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَىٰ تَفَنُّنِ الْحَاجَاتِ، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا نُبْصِرُ وَمَا لَا نُبْصِرُ، وَمَا يَعْلَمُ الْعِبَادُ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِرِسَالَتِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ، مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً ﴿وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ أَثَّرُوا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبِنَايَاتِ والمعالم ما

لم يقدر هؤلاء عليه كما قال عزَّ وجلَّ، وَالْآثَارُ: جَمعُ أَثَرٍ، وَهُوَ شَيْء أَوْ شَكْلٌ يَرْسِمُهُ فِعْلُ شَيْءٍ آخَرَ، مِثْلُ أَثَرِ الْمَاشِي فِي الرَّمْلِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[طه: ٩٦] وَمِثْلُ الْعُشْبِ إِثْرَ الْمَطَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْظُرْ إِلىٰ آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ [الرّوم: ٥٠] ، ﴿وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عمروها﴾ مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وَهِيَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أَيْ وَمَا دفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ أَحَدٌ وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ، ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا وَاجْتَرَمُوهَا.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، ﴿فَكَفَرُواْ﴾ أَيْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ تعالىٰ أي أهلكهم ودمر عليهم، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ، وَهُوَ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ: عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ، أَعَاذَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ، أَعَاذَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ. قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ أَنْ تَسْلُكُوا سَبِيلَهُمْ فِي تَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجُحُودِ تَوْحِيدِ اللهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَيَسْلُكَ بِكُمْ فِي تَعْجِيلِ الْهَلَاكِ لَكُمْ مَسْلَكَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَ نَمُوذَجًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَقَالَ:

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلىٰ جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عمران، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الْعَظِيمَةِ، الدَّالَّةِ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً، عَلَىٰ حَقِّيَّةِ مَا أُرْسِلَ بِهِ، وَبُطْلَانِ مَا عَلَيْهِ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَمَا يَتْبَعُهُ، ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ: حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، تَتَسَلَّطُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ فَتَذْعَنُ لَهَا، كَالْحَيَّةِ وَالْعَصَا وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي أَيَّدَ اللهُ بِهَا مُوسَىٰ، وَمَكَّنَهُ مِمَّا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَالْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ الَّذِي كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ، فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ بِمَالِهِ، وَكُلُّهُمْ رَدُّوا عَلَيْهِ أَشَدَّ الرَّدِّ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ مَدَارَ التَّدْبِيرِ فِي عَدَاوَةِ مُوسَىٰ كَانَ عَلَيْهِمْ، فَفِرْعَوْنُ الْمَلِكُ وَهَامَانُ الْوَزِيرُ وَقَارُونُ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْكُنُوزِ فَجَمَعَهُ اللهُ مَعَهُمَا، لِأَنَّ عَمَلَهُ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ كَأَعْمَالِهِمَا ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ حملوا المعجزات علىٰ السحر.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا غَيْرُ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ أَمْسَكَ عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ، فَلَمَّا بُعِثَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعَادَ الْقَتْلَ عَلَيْهِمْ، فَمَعْنَاهُ أَعِيدُوا عَلَيْهِمُ القتل، ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ ليصدوهم بذلك عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَىٰ وَمُظَاهَرَتِهِ، وَلِئَلَّا يَكْثُرَ جَمْعُهُمْ فَيَعْتَضِدُوا بِالذُّكُورِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، فَشَغَلَهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، كَالضَّفَادِعِ وَالْقُمَّلِ وَالدَّمِ وَالطُّوفَانِ إِلَىٰ أَنْ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، فَأَغْرَقَهُمُ اللهُ، وَهَذَا مَعْنَىٰ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ وَمَا مَكَرُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَاحْتِيَالُهُمْ، وَهُوَ مَحَلُّ الِاعْتِبَارِ لِقُرَيْشٍ بِأَنَّ كَيْدَ أمثالهم كَانَ مضاعا فَكَذَلِكَ يَكُونُ كَيْدُهُمْ، ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أَيْ يَذْهَبُ كَيْدُهُمْ بَاطِلًا، وَيَحِيقُ بِهِمْ مَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّ وجل، وَإِنَّ النَّاسَ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنَ الْإِيمَانِ وَإِنْ فُعِلَ بِهِمْ مِثْلَ هَذَا فَكَيْدُهُ يَذْهَبُ بَاطِلًا، وَالضَّلَالُ: الضَّيَاعُ وَالِاضْمِحْلَالُ كَقَوْلِهِ: ﴿ قالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السَّجْدَة: ١٠] أَيْ هَذَا الْكَيْدُ الَّذِي دَبَّرُوهُ قَدْ أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمْ يَجِدُوا لِإِنْقَاذِهِ سَبِيلًا ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَمَا احْتِيَالُ أَهْلِ الْكُفْرِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللهِ إِلَّا فِي جَوْرٍ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَصَدٍّ عَنْ قَصْدِ الْمَحَجَّةِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمَلَئِهِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَهَذَا عَزْمٌ مِنْ فِرْعَوْنَ -لَعَنَهُ اللهُ- عَلَىٰ قَتْلِ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَيْ قَالَ لِقَوْمِهِ: دَعُونِي حَتَّىٰ أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ كَانَ فِي خَاصَّةِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مَنْ يَمْنَعُهُ مِنْ قَتْلِهِ خَوْفًا مِنَ الهلاك، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَيْ وَلْيَدْعُ مُوسَىٰ رَبَّهُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا فَيَمْنَعَهُ مِنَّا، أَيْ: لَا أُبَالِي مِنْهُ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجَهْرُمِ وَالْعِنَادِ ، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ﴾ أَنْ يُغَيِّرَ، ﴿دِينَكُمْ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أَرَادَ بِالْفَسَادِ تَبْدِيلَ الدِّينِ وَعِبَادَةَ غَيْرِهِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِنْ لَمْ يُبَدِّلْ دِينَكُمْ فَإِنَّهُ يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، أَيْ يَقَعَ بَيْنَ النَّاسِ بِسَبَبِهِ الْخِلَافُ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لَمَّا تَوَعَّدَهُ فِرْعَوْنُ بِالْقَتْلِ، ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أَيْ: امْتَنَعْتُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الَّتِي دَبَّرَ بِهَا جَمِيعَ الْأُمُورِ ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أَيْ: يَحْمِلُهُ تَكَبُّرُهُ وَعَدَمُ إِيمَانِهِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ عَلَىٰ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، فَمَنَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِلُطْفِهِ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَقَيَّضَ لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا انْدَفَعَ بِهِ عَنْهُ شَرُّ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: « **اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ**»[1] .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْمُؤْمِنِ قَالَ مُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَ قِبْطِيًّا ابْنَ عَمِّ فِرْعَوْنَ وَهُوَ الَّذِي حَكَىٰ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [الْقِصَصِ: ٢٠] وَقَالَ قَوْمٌ: كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا، وَمَجَازُ الْآيَةِ. وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَاخْتَارَهُ الطبري القول الأول، وَرَدَّ قَوْلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّهُ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ انْفَعَلَ لِكَلَامِهِ وَاسْتَمَعَهُ وَكَفَّ عَنْ قَتْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، ولو كان إسرائيليـًا لأوشك أن يعاجله بالعقوبة لأنه مِّنْهُمْ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ يُؤْمَنْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ سِوَىٰ هَذَا الرَّجُلِ وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ،وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ عَنْ قَوْمِهِ الْقِبْطِ، فَلَمْ يَظْهَرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ذَرُونِي

---

(١) أبو داود (١٥٣٧) .

أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فَأَخَذَتِ الرَّجُلَ غَضْبَةٌ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ [١]، وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِفناء الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ ﴿عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ﴾ فَأَخَذَ بمنكِب رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوَىٰ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [٢]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ لِأَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ، أَيْ: كَيْفَ تَسْتَحِلُّونَ قَتْلَهُ، وَهَذَا ذَنْبُهُ وَجُرْمُهُ، أَنَّهُ يَقُولُ رَبِّيَ اللهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَيْضًا قَوْلًا مُجَرَّدًا عَنِ الْبَيِّنَاتِ، ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِ، يَعْنِي الْآيَاتِ التِّسْعَ لِأَنَّ بَيِّنَتَهُ اشْتَهَرَتْ عِنْدَهُمْ اشْتِهَارًا عَلِمَ بِهِ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، أَيْ: فَهَذَا لَا يُوجِبُ قَتْلَهُ، ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لَا يَضُرُّكُمْ ذَلِكَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِشَكٍّ مِنْهُ فِي رِسَالَتِهِ وَصِدْقِهِ، وَلَكِنْ تَلَطُّفًا فِي الِاسْتِكْفَافِ وَاسْتِنْزَالًا عَنِ الْأَذَىٰ، ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ فَكَذَّبْتُمُوهُ وَهُوَ

---

(١) أبو داود (٤٣٤٤) والترمذي (٢١٧٤).

(٢) البخاري (٣٨٥٦).

صَادِقٌ، ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الْمُرَادُ بِالْبَعْضِ الْكُلُّ، أَيْ إِنْ قَتَلْتُمُوهُ وَهُوَ صادق أصابكم ما وعدكم مِنَ الْعَذَابِ، قَالَ اللَّيْثُ: ﴿بَعْضُ﴾ ههنا صِلَةٌ، يُرِيدُ: يُصِبْكُمُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: هَذَا عَلَىٰ الظَّاهِرِ فِي الْحِجَاجِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : أَقَلُّ مَا فِي صِدْقِهِ أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ هَلَاكُكُمْ، فَذَكَرَ الْبَعْضَ لِيُوجِبَ الْكُلَّ، وَقِيلَ أَيْضًا: قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ حَذَّرَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْعَذَابِ كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا مُهْلِكٌ فَكَأَنَّهُ حَذَّرَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ، وَقِيلَ وَعَدَهُمْ مُوسَىٰ بِعَذَابِ الدُّنْيَا أَوْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ إِنْ كَفَرُوا فَالْمَعْنَىٰ يُصِبْكُمْ أَحَدُ الْعَذَابَيْنِ، وَقِيلَ: أَيْ يُصِبْكُمْ هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي يَقُولُهُ فِي الدنيا وَهُوَ بَعْضُ الْوَعِيدِ، ثُمَّ يَتَرَادَفُ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي﴾ إِلَىٰ دِينِهِ، ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك، قال قتادة : الْمُشْرِك أسرف علىٰ نَفسه بالشرك، وَالْمُسْرِفُ: مُتَجَاوِزُ الْمَعْرُوفِ فِي شَيْءٍ، فَالْمُرَادُ هُنَا مُسْرِفٌ فِي الْكَذِبِ لِأَنَّ أَعْظَمَ الْكَذِبِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ اللهِ، ﴿كَذَّابٌ﴾ علىٰ الله.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ غَالِبِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، تَذْكِيرٌ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَتَمْهِيدٌ لِتَخْوِيفِهِمْ مِنْ غَضَبِ اللهِ، يَعْنِي: لَا تَغُرَّنَّكُمْ عَظَمَتُكُمْ وَمُلْكُكُمْ فَإِنَّهُمَا مُعَرَّضَانِ لِلزَّوَالِ إِنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ﴾ مَنْ يَمْنَعُنَا مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَذَكَّرَ وَحَذَّرَ فَعَلِمَ فِرْعَوْنُ ظُهُورَ حُجَّتِهِ ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ وَالْمَعْنَىٰ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَلَا تعرضوا لِعَذَابِ اللهِ بِالتَّكْذِيبِ وَقَتْلِ النَّبِيِّ، فَإِنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ حَلَّ بِكُمْ، ﴿قَالَ

فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ مِنَ الرَّأْيِ وَالنَّصِيحَةِ، ﴿إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ لِنَفْسِي، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَا أُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ لِنَفْسِي، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَا أُعْلِمُكُمْ إِلَّا مَا أَعْلَمُ، ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَىٰ طَرِيقِ الْهُدَىٰ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ﴿مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أَنَّهُ حَذَّرَ قَوْمَهُ بَأْسَ اللهِ تعالىٰ في الدنيا والآخرة، ﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أَيِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللهِ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ، وَالْمُرَادُ بِأَيَّامِ الْأَحْزَابِ أَيَّامَ إِهْلَاكِهِمْ وَالْعَرَبُ يُطْلِقُونَ الْيَوْمَ عَلَىٰ يَوْمِ الْغَالِبِ وَيَوْمِ الْمَغْلُوبِ، وَالْأَحْزَابُ الْأُمَمُ لِأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ حِزْبٌ تَجْمَعُهُمْ أَحْوَالٌ وَاحِدَةٌ وَتَنَاصُرٌ بَيْنَهُمْ فَلِذَلِكَ تُسَمَّىٰ الْأُمَّةُ حِزْبًا.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيْ مِثْلَ عَادَتِهِمْ فِي الْإِقَامَةِ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ حَتَّىٰ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ، وَالدَّأْبُ: الْعَادَةُ وَالْعَمَلُ الَّذِي يَدْأَبُ عَلَيْهِ عَامِلُهُ، أَيْ يُلَازِمُهُ وَيُكَرِّرُهُ، ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي لا يهلكهم قبل إيجاب الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُدْعَىٰ كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ وَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيُنَادِي أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ

النَّارِ، وَأَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، وَيُنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، وَيُنَادَىٰ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، أَلَا إن فلان ابن فُلَانٍ قَدْ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يشقىٰ بعدها أبدا، وفلان ابن فُلَانٍ قَدْ شَقِيَ شَقَاوَةً لَا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَيُنَادَىٰ حِينَ يُذْبَحُ الْمَوْتُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وقال الضَّحَّاكُ: وَكَذَلِكَ إِذَا سَمِعُوا زَفِيرَ النَّارِ نَدَّوْا هَرَبًا فَلَا يَأْتُونَ قُطْرًا مِنَ الْأَقْطَارِ إِلَّا وَجَدُوا الْمَلَائِكَةَ صُفُوفًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّنَادِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ يُنَادَىٰ فِيهِ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَالْحَسْرَةِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أَيْ: ذَاهِبِينَ هَارِبِينَ، قَدْ ذُهِبَ بِكُمْ إِلَىٰ النَّارِ، قَالَ قَتَادَةُ: فادِرِينَ غَيْرَ مُعْجِزِينَ. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أَيْ: مِنْ نَاصِرٍ، لَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ قُوَّةٌ تَدْفَعُونَ بِهَا عَذَابَ اللهِ، وَلَا يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَحَدٍ، ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق ٩-١٠] ، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: أَيْ: وَمَنْ يَخْذُلْهُ اللهُ فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لِرُشْدِهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُوَفِّقٍ يُوَفِّقُهُ لَهُ؛ لِأَنَّ الْهُدَىٰ بِيَدِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا مَنَعَ عَبْدَهُ الْهُدَىٰ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ غَيْرُ لَائِقٍ بِهِ، لِخُبْثِهِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ هِدَايَتِهِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ مِنْ قَبْلُ، أَيْ مِنْ قَبْلِ مُوسَىٰ، قِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ تَمَامِ وَعْظِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، ذَكَّرَهُمْ قَدِيمَ عُتُوِّهِمْ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] كَانَ

يوسف عَزِيزَ أَهْلِ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ، فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْوِزَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ ، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ عِبَادَةِ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ مَاتَ، ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَيْ أَقَمْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَظَنَنْتُمْ أن لَا يُجَدِّدُ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُرْتَابٌ﴾ شَاكٌّ فِي وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَالْمُسْرِفُ: الْمُفْرِطُ فِي فِعْلٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، والمرتاب: الشَّديد الرَّيْبِ، أَيِ الشَّكِّ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾ أيِ الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيُجَادِلُونَ الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ، فإن الله عزَّ وجلَّ يَمْقُتُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَقْتِ، قَالَ الزَّجَّاجُ. هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْمُسْرِفِ المرتاب يعني الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَيْ فِي إِبْطَالِهَا بِالتَّكْذِيبِ، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حجة، ﴿أَتَاهُمْ﴾ من الله، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ ﴾ أَيْ كَبُرَ ذَلِكَ الْجِدَالُ مَقْتًا، قال القرطبي : وَمَقْتُ اللهِ تَعَالَىٰ ذَمُّهُ لَهُمْ وَلَعْنُهُ إِيَّاهُمْ وَإِحْلَالُ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ ﴾ أَيْ يَخْتِمُ ، أَيْ: كَمَا طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ مُتَكَبِّرٍ فِي نَفْسِهِ عَلَىٰ الْحَقِّ بِرَدِّهِ وَعَلَىٰ الْخَلْقِ بِاحْتِقَارِهِمْ، جَبَّارٍ بِكَثْرَةِ ظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ ، وَمُتَكَبِّرٍ صِفَةٌ لِلْقَلْبِ ، فَكَنَّىٰ بِالْقَلْبِ عَنِ الْجُمْلَةِ ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ وَسَائِرَ الْأَعْضَاءِ تَبَعٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره، ﴿يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ هُوَ الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ الشَّاهِقُ ، وَالصَّرْحُ الْبِنَاءُ الظَّاهِرُ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ النَّاظِرِ ، وَإِنْ بَعُدَ وَأَصْلُهُ مِنَ التَّصْرِيحِ وَهُوَ الإِظْهَارُ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَحْسَبُ نَفْسَهُ أَهْلًا لِذَلِكَ لِزَعْمِهِ أَنَّهُ ابْنُ الْآلِهَةِ وَحَامِي الْكَهَنَةِ وَالْهَيَاكِلِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَشْغَلُهُ تَدْبِيرُ أَمْرِ الْمَمْلَكَةِ ، فَكَانَ يكل شؤون الدِّيَانَةِ إِلَىٰ الْكَهَنَةِ فِي مَعَابِدِهِمْ، قَالَ الْإِمَامُ الْجُوَيْنِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ وَالِدُ إِمَامِ الْحَرَمَيْنِ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ أَخْبَرَهُ بِأَنَّ رَبَّهُ تَعَالَىٰ فَوْقَ السَّمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ الْأَسْبَابُ: جَمْعُ سَبَبٍ، وَالسَّبَبُ مَا يُوصِّلُ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَيُطْلَقُ السَّبَبُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْحَبْلِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَصَّلُونَ بِهِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ النَّخِيلِ، قَالَ سعيد بن جبير: أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ، وَقِيلَ: طُرُقَ السَّمَاوَاتِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ يَعْنِي طُرُقَهَا وَأَبْوَابَهَا مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ الاطِّلَاعُ مُبَالَغَةٌ فِي الطُّلُوعِ، وَالطُّلُوعُ: الظُّهُورُ، وَالْأَكْثَرُ أَنْ يَكُونَ ظُهُورًا مِنِ ارْتِفَاعٍ، وكان فرعون يَدَّعِي الْأُلُوهِيَّةَ وَيَرَىٰ تَحْقِيقَهَا بِالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ مرتفع ﴿ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ أَي أَبْوَاب ، قال

---

(١) البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) .

الطبري مَعْنَاهُ: لَعَلِّي أَبْلُغُ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ أَسْبَابًا أَتَسَبَّبُ بِهَا إِلَىٰ رُؤْيَةِ إِلَهِ مُوسَىٰ، طُرُقًا كَانَتْ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مِنْهَا أَوْ أَبْوَابًا أَوْ مَنَازِلَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَقِيلَ: كَرَّرَ (أَسْبَابَ) لِلتَّفْخِيمِ ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا أُبْهِمَ ثُمَّ أُوضِحَ كَانَ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، وَالْمَقْصُودُ: أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُعَظِّمَ بِذَلِكَ شَأْنَهُ وَكُرْسِيَّهُ الَّذِي يَتَزَلْزَلُ، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ يعني موسىٰ، ﴿كَاذِبًا﴾ فيما يقولون إِنَّ لَهُ رِبًّا غَيْرِي، قال ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ: أَنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ لِيَظْهَرَ كَذِبُ مُوسَىٰ، وَالظَّنُّ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَىٰ الْيَقِينِ وَالْقَطْعِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فَزُيِّنَ لَهُ الْعَمَلُ السَّيِّئُ، فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُهُ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهِ وَيُحَسِّنُهُ، حَتَّىٰ رَآهُ حَسَنًا وَدَعَا إِلَيْهِ وَنَاظَرَ مُنَاظَرَةَ الْمُحِقِّينَ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُفْسِدِينَ، ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الْحَقِّ، بِسَبَبِ الْبَاطِلِ الَّذِي زُيِّنَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَّهُ اللهُ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَىٰ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ بِصَنِيعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ تَكْذِيبِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿ وما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾ التِّبَابُ: الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ ، وَمِنْهُ: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، أَيْ: وَمَا احْتِيَالُهُ الَّذِي يَحْتَالُ بِهِ لِيَطَّلِعَ عَلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ إِلَّا فِي خَسَارٍ وَذَهَابِ مَالٍ؛ لِأَنَّهَا نَفَقَةٌ تَذْهَبُ بَاطِلًا سُدًىٰ دُونَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا أَرَادَهُ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَىٰ دَعْوَةِ مُوسَىٰ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أَيْ طَرِيقَ الْهُدَىٰ وَهُوَ الْجَنَّةُ ، وَقِيلَ مِنْ قَوْلِ

مُوسَىٰ وَلَا تَسْتَمِعُوا لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا طَرِيقَ الْغَيِّ وَالْفَسَادِ ، وهَذَا مِنْ تَمَامِ مَا قَالَهُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، أَيِ اقْتَدُوا بِي فِي الدِّينِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتاعٌ﴾ أَيْ يُتَمَتَّعُ بِهَا قَلِيلًا ثُمَّ تَنْقَطِعُ وتَزُولُ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ: وَالْمَتَاعُ: هُوَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ بُرْهَةً ثُمَّ يَنْقَطِعُ وَيَفْنَىٰ، فَمَا عِيبَتِ الدُّنْيَا بِأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ فَنَائِهَا وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا، وَهُوَ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَىٰ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا، فَتَتَبَدَّلُ صِحَّتُهَا بِالسَّقَمِ، وَوُجُودُهَا بِالْعَدَمِ، وَشَبِيبَتُهَا بِالْهَرَمِ، وَنَعِيمُهَا بِالْبُؤْسِ، وَحَيَاتُهَا بِالْمَوْتِ، فَتُفَارِقُ الْأَجْسَامُ النُّفُوسَ، وَعِمَارَتُهَا بِالْخَرَابِ، وَاجْتِمَاعُهَا بِفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ: وَكُلُّ مَا فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ الَّتِي لَا تَزُولُ، وَالْقَرَارُ: الدَّوَامُ فِي الْمَكَانِ ، قال القرطبي : أَيْ يُتَمَتَّعُ بِهَا قَلِيلًا ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَتَزُولُ ، قَالَ قَتَادَةُ: اسْتَقَرَّتِ الْجَنَّةُ بِأَهْلِهَا، وَاسْتَقَرَّتِ النَّارُ بِأَهْلِهَا ، وَالْمَقْصُودُ: شَرَعَ يُزَهِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي عَكَفُوا عَلَىٰ مَحَارِيبِهَا فَصَدَّتْهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْعَاجِلَةَ مَتَاعٌ زَائِلٌ عَمَّا قَرِيبٍ، ثُمَّ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الِاسْتِقْرَارِ لَا زَوَالَ لَهَا، فَإِمَّا فِي نَعِيمٍ ، وَإِمَّا فِي جَحِيمٍ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ مِنْ شِرْكٍ أَوْ فُسُوقٍ أَوْ عِصْيَانٍ ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أَيْ: لَا يُجَازَىٰ إِلَّا بِمَا يَسُوؤُهُ وَيَحْزُنُهُ؛ لِأَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السُّوءُ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ، وَأَقْوَالِ اللِّسَانِ ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيْ: يُعْطَوْنَ

أَجْرَهُمْ بِلَا حَدٍّ وَلَا عَدٍّ، بَلْ يُعْطِيهِمُ اللهُ مَا لَا تَبْلُغُهُ أَعْمَالُهُمْ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا تبِعَةَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُعْطَوْنَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الخير.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجَاةِ﴾ أَيْ إِلَىٰ طَرِيقِ الْإِيمَانِ الْمُوَصِّلِ إِلَىٰ الْجِنَانِ ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَصْدِيقُ رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَهُ يعني مالكم كما تقول العرب: مالي أراك حزينـًا؟ أي مالك؟ يَقُولُ: أَخْبِرُونِي عَنْكُمْ كَيْفَ هَذِهِ الْحَالُ أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ بِالْإِيمَانِ باللهِ، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ﴾ إِلَىٰ الشِّرْكِ الَّذِي يُوجِبُ النَّارَ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هَذَا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، يَدْعُونَهُ إِلَىٰ دِينِهِمْ وَالْإِقَامَةِ مَعَهُمْ ثُمَّ فَسَّرَ فَقَالَ:

[٤٢] : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالْقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ وَأَقْبَحِهَا، ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ﴾ الْعَزِيزِ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ كَفَرَ، الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ كُلُّهَا، وَغَيْرُهُ لَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ،﴿الْغَفَّارُ﴾ الْغَفَّارُ لِذُنُوبِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، الَّذِي يُسْرِفُ الْعِبَادُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَيَتَجَرَّؤُونَ عَلَىٰ مَسَاخِطِهِ، ثُمَّ إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا إِلَيْهِ، كَفَّرَ عَنْهُمُ السَّيِّئَاتِ وَالذُّنُوبَ، وَدَفَعَ مُوجِبَاتِهَا مِنَ الْعُقُوباتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا، ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَىٰ الْوَثَنِ، ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ فقال السُّدِّيُّ: لَا يَسْتَجِيبُ لِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، يَعْنِي لَيْسَتْ لَهُ اسْتِجَابَةُ دَعْوَةٍ ، وَقِيلَ: ليست به دَعْوَةٌ إِلَىٰ

عِبَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ الْأَوْثَانَ لَا تَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَلَا تَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَتِهَا، وَفِي الْآخِرَةِ تَتَبَرَّأُ مِنْ عَابِدِيهَا ، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَىٰ اللهِ﴾ مَرْجِعُنَا إِلَىٰ اللهِ فَيُجَازِي كُلًّا بما يستحق، قال القرطبي : وَكَانَ فِرْعَوْنُ أَوَّلًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْبَقَرِ، فَكَانَتْ تُعْبَدُ مَا كَانَتْ شَابَّةً، فَإِذَا هَرِمَتْ أَمَرَ بِذَبْحِهَا، ثُمَّ دَعَا بِأُخْرَىٰ لِتُعْبَدَ، ثُمَّ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِ الزَّمَانُ قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ: هُمُ السُّفَهَاءُ وَالسَّفَّاكُونَ لِلدِّمَاءِ بغير حقها، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: وَهُمُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالتَّجَرُّؤِ عَلَىٰ رَبِّهِمْ بِمَعَاصِيهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، دُونَ غَيْرِهِمْ ، ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْمُتَعَدِّينَ حُدُودَهُ، الْقَتَلَةَ النُّفُوسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا، هُمْ أَصْحَابُ نَارِ جَهَنَّمَ عِنْدَ مَرْجِعِنَا إِلَىٰ اللهِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا عاينتم العذاب حين ألا يَنْفَعُكُمُ الذِّكْرُ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَنَصَحْتُكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ، وَتَتَذَكَّرُونَهُ وَتَنْدَمُونَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُكُمُ النَّدَمُ ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ﴾ أَيْ وَأَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُقَاطِعُكُمْ وَأُبَاعِدُكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَوَعَّدُوهُ لِمُخَالَفَتِهِ دِينَهُمْ، ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أَيْ هُوَ بَصِيرٌ بِهِمْ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ، فَيَهْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ، وَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَالْقَدَرُ النافذ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هَرَبَ هَذَا الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٤٥] : ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ الشَّرِّ، قَالَ قَتَادَةُ: نَجَا مَعَ مُوسَىٰ وَكَانَ قِبْطِيًّا، فَالْهَاءُ عَلَىٰ هَذَا لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَبِالْجَنَّةِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَحَفِظَهُ اللهُ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ وَانْقَلَبَ كَيْدُهُمْ وَمَكْرُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ، و أَحَاطَ، ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الْغَرَقُ فِي الدُّنْيَا وَالنَّارُ فِي الآخرة، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٤٦] : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَرْوَاحُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أَجْوَافِ طُيُورٍ سُودٍ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ تَغْدُو وَتَرُوحُ إِلَىٰ النَّارِ وَيُقَالُ: يَا آلَ فرعون هذه مأواكم حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ وَالْكَلْبِيُّ: تُعْرَضُ رُوحُ كُلِّ كَافِرٍ عَلَىٰ النَّارِ بُكْرَةً وعشيا ما دامت الدنيا ، قال القرطبي : وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أن هذا العرض في البرزخ. وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: أَشَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ؟ فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «**إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا إنكم تفتنون في القبور**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بعد، يستعيذ من عذاب القبر[1]، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يبعثك الله عزَّ وجلَّ إليه يوم القيامة**»[2]، وكانَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِذَا أَصْبَحَ يُنَادِي: أَصْبَحْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَعُرِضَ آلُ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ النَّارِ، فَإِذَا أَمْسَىٰ نَادَىٰ: أَمْسَيْنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَعُرِضَ آلُ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ النَّارِ، فَلَا يَسْمَعُ أَبَا هُرَيْرَةَ أَحَدٌ إِلَّا تَعَوَّذَ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ عَنْ مُسْتَقَرِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾ مِنَ الدُّخُولِ، أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ادْخُلُوا يَا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وقيل مِنَ الْإِدْخَالِ، أَيْ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَلْوَانَ الْعَذَابِ غَيْرَ الَّذِي كَانُوا يُعَذَّبُونَ بِهِ مُنْذُ أُغْرِقُوا، وَآلُ فِرْعَوْنَ: مَنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِهِ وَعَلَىٰ مَذْهَبِهِ، وَإِذَا كَانَ مَنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ فِي أَشَدِّ الْعَذَابِ كَانَ هُوَ أَقْرَبَ إِلَىٰ ذَلِكَ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أَيْ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إِذْ يَخْتَصِمُونَ يَعْنِي أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ، وقيل: المراد فرعون وقومه، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَيْ أَطَعْنَاكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ فِي

(١) مسلم (٥٨٤).

(٢) البخاري (١٣٧٩) ومسلم (٢٨٦٦).

الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَالتَّبَعُ: اسْمٌ لِمَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَهُوَ مِثْلُ خَدَمٍ وَحَشَمٍ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَصْدَرٌ، فَلِذَلِكَ اسْتَوَىٰ فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَقِيلَ التَّبَعُ: جَمْعٌ لَا يَجْرِي عَلَىٰ الْوَاحِدِ، فَهُوَ إِذَنْ مِنَ الْجُمُوعِ النَّادِرَةِ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أَيْ قِسْطًا تَتَحَمَّلُونَهُ عَنَّا ولو قليلا.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وَهُمُ الرُّؤَسَاءُ الْمَتْبُوعُونَ عَلَىٰ الضَّلَالَةِ فِي الدُّنْيَا: إِنَّا أَيُّهَا الْقَوْمُ وَأَنْتُمْ كُلُّنَا فِي هَذِهِ النَّارِ مُخَلَّدُونَ، لَا خَلَاصَ لَنَا مِنْهَا ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أَيْ لَا نَتَحَمَّلُ عَنْكُمْ شَيْئًا كَفَىٰ بِنَا مَا عِنْدَنَا وَمَا حَمَلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أَيْ فَقَسَمَ بَيْنَنَا الْعَذَابَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلٌّ مِنَّا.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ وَخَزَنَةٌ: جَمْعُ خَازِنٍ، وَهُوَ الْحَافِظُ لِمَا فِي الْمَكَانِ مِنْ مَالٍ أو عرُوض، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: بَلَغَنِي أَوْ ذُكِرَ لِي أَنَّ أَهْلَ النَّارِ اسْتَغَاثُوا بِالْخَزَنَةِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذابِ﴾ فَسَأَلُوا يَوْمًا وَاحِدًا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ فِيهِ الْعَذَابُ فَرُدَّتْ عَلَيْهِمْ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قالُوا بَلىٰ قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ .

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يعني خزنة جهنم للكفار، ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات﴾؟ أي أو ما قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَجُ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادْعُوا﴾ أَيْ أَنْتُم لِأَنْفُسِكُمْ فَنَحْنُ لَا نَدْعُو لَكُمْ وَلَا نَسْمَعُ منكم، ثم نخبركم أنه لَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْكُمْ، وَلِهَذَا قَالُوا ﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ أَيْ لَا يُقْبَلُ وَلَا يُسْتَجَابُ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ مُحْبِطٌ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ، صَادٌّ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ يعني موسىٰ وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولكن قَدْ عُلِمَ أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسلام قتله قومه كيحيىٰ وزكريا وشعيا، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِمَّا مُهَاجِراً إِلَىٰ الله كَإِبْرَاهِيمَ، وَإِمَّا إِلَىٰ السَّمَاءِ كَعِيسَىٰ، فَأَيْنَ النُّصْرَةُ في الدنيا؟ أجاب الطبري علىٰ ذَلِكَ بِجَوَابَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ خَرَجَ عاماً، والمراد به البعض، وَهَذَا سَائِغٌ فِي اللُّغَةِ .

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالنَّصْرِ الِانْتِصَارَ لَهُمْ مِمَّنْ آذَاهُمْ، كَمَا فَعَلَ بِقَتَلَةِ يَحْيَىٰ وَزَكَرِيَّا ، سُلِّطَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ مَنْ أَهَانَهُمْ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ.

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ النُّمْرُوذَ أَخَذَهُ اللهُ تعالىٰ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ رَامُوا صَلْبَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْيَهُودِ، فَسَلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وهذه نصرة عظيمة، وسنة الله تعالىٰ في خلقه في قديم الدهر، أَنَّهُ يَنْصُرُ

عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَيُقِرُّ أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك الله عزَّ وجلَّ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ، وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَهْلَ مَدْيَنَ وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَضْرَابَهُمْ مِمَّنْ كَذَّبَ الرسل وخالف الحق، وأنجىٰ الله تعالىٰ من بينهم الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَعَذَّبَ الْكَافِرِينَ فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ يبعث الله عزَّ وجلَّ رَسُولًا قَطُّ إِلَىٰ قَوْمٍ فَيَقْتُلُونَهُ أَوْ قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ الْحَقِّ فَيُقْتَلُونَ، فَيَذْهَبُ ذلك القرن حتىٰ يبعث الله تبارك وتعالىٰ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ، فَيَطْلُبُ بِدِمَائِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَالَ: فَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ يُقْتَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَنْصُورُونَ فِيهَا، وهكذا نصر الله نبيه محمداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا، وَدِينَهُ هُوَ الظَّاهِرَ علىٰ سائر الأديان، وأمره بالهجرة إِلَىٰ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَجَعَلَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، ثُمَّ مَنَحَهُ أَكْتَافَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ فَتَحَ عَلَيْهِ مَكَّةَ، فقرت عينه ببلده المشرف المعظم، وَفَتَحَ لَهُ الْيَمَنَ، وَدَانَتْ لَهُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِكَمَالِهَا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، ثم قبضه الله تعالىٰ إليه فأقام الله تبارك وتعالىٰ أَصْحَابَهُ خُلَفَاءَ بَعْدَهُ، فَبَلَّغُوا عَنْهُ دِينَ اللهِ عزَّ وجلَّ، حَتَّىٰ انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، ثُمَّ لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلّ قَالَ مجاهد: الأشهاد الملائكة يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ

بِالتَّبْلِيغِ وَعَلَىٰ الْكَفَّارِ بِالتَّكْذِيبِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بِالْحُجَّةِ وَفِي الْآخِرَةِ بالعذاب، وَقِيلَ: بِالِانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ إِنِ اعْتَذَرُوا عَنْ كُفْرِهِمْ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَابُوا لَمْ ينفعهم، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ اللَّعْنَةُ: الْبُعْدُ وَالطَّرْدُ، أي الْبُعْدُ مِنَ رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يَعْنِي جَهَنَّمَ ، قَالَ السُّدِّيُّ: بِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ سُوءُ الْعَاقِبَةِ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ﴾ وَهُوَ مَا بَعَثَهُ الله عزَّ وجلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالنُّورِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: الْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ، يَعْنِي التَّوْرَاةَ، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكتاب﴾ أَيْ جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ، وَأَوْرَثْنَاهُمْ مُلْكَ فِرْعَوْنَ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أُورِثُوهُ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ مَوْعِظَةً لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ فِي إِظْهَارِ دِينِكَ، وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِكَ ﴿حَقٌّ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَسَخَتْ آيَةُ الْقِتَالِ آية الصبر، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هَذَا تَعَبُّدٌ مِنَ اللهِ لِيَزِيدَهُ بِهِ دَرَجَةً وَلِيَصِيرَ سُنَّةً لِمَنْ بعده، قِيلَ: لِذَنْبِ أُمَّتِكَ حُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ صَلِّ شَاكِرًا لِرَبِّكَ، قَالَ القرطبي : اسْتَدِمِ التَّسْبِيحَ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجًا مِنْهَا لِتَشْتَغِلَ بِذَلِكَ عَنِ اسْتِعْجَالِ النَّصْرِ ، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّىٰ قَامَ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، فَقَالَتْ لَهُ عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»(١) ، ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ العشي : أَيْ فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وأواخر الليل، قَالَ الْحَسَنُ البصري : يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَاةَ الْفَجْرِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْعَشِيُّ: آخِرُ النَّهَارِ إِلَىٰ ابْتِدَاءِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ طَعَامُ اللَّيْلِ عَشَاءً، وَسُمِّيَتِ الصَّلَاةُ الْأَخِيرَةُ بِاللَّيْلِ عِشَاءً ، وَالْإِبْكَارُ: اسْمٌ لِبُكْرَةِ النَّهَارِ كَالْإِصْبَاحِ اسْمٌ لِلصَّبَاحِ، وَالْبُكْرَةُ أَوَّلُ النَّهَارِ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أَيْ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَرُدُّونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشُّبَهِ الْفَاسِدَةِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللهِ، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ﴾ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَالصَّدْرُ مَوْضِعُ الْقَلْبِ، فَكَنَّىٰ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ لقرب الجوار، ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِكَ إِلَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْكِبَرِ وَالْعَظَمَةِ، ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أي: لا يبلغون ذلك الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا هُمْ بِبَالِغِي مُقْتَضَىٰ ذَلِكَ الْكِبَرِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُذِلُّهُمْ ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ

(١) البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩) .

إِلَّا تَكَبُّرٌ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَمَعٌ فِي أَنْ يَغْلِبُوهُ وَمَا هُمْ بِبَالِغِي ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَاحْتِقَارٌ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يَرُومُونَهُ مِنْ إِخْمَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ بِحَاصِلٍ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ، وَقَوْلُهُمْ وَقَصْدُهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ، ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أَيِ: اعْتَصِمْ وَالْجَأْ ﴿بِاللهِ﴾، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ إِرَادَةً لِلْعُمُومِ، أَيِ: اسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الْكِبْرِ الَّذِي يُوجِبُ التَّكَبُّرَ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَىٰ اخْتِلَافِهَا، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بِجَمِيعِ الْمَرْئِيَّاتِ، بِأَيِّ مَحَلٍّ وَمَوْضِعٍ وَزَمَانٍ كَانَتْ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظمهما، ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ فِي الصُّدُورِ، ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أَيْ مِنْ إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ يَحْيَىٰ ابْنُ سَلَّامٍ: هُوَ احْتِجَاجٌ عَلَىٰ مُنْكِرِي الْبَعْثِ، أَيْ هُمَا أَكْبَرُ مِنْ إِعَادَةِ خَلْقِ النَّاسِ فَلِمَ اعْتَقَدُوا عَجْزِي عَنْهَا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني الكفار، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث لَا يَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَىٰ تَوْحِيدِ خَالِقِهَا، وَقَالَ قَوْمٌ: أَكْبَرُ أَيْ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الدَّجَّالِ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، يَعْنِي الْيَهُودَ الَّذِينَ يُخَاصِمُونَ فِي أمر الدجال.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ كَمَا لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ الَّذِي يَرَىٰ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، كَذَلِكَ

لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ، وَالْكَفَرَةُ الْفُجَّارُ ﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كثير من الناس.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ أَيْ الْقِيَامَةَ ﴿لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أَيْ لَكَائِنَةٌ وَوَاقِعَةٌ، قَدْ أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ الَّذِينَ هُمْ أَصْدَقُ الْخَلْقِ، وَنَطَقَتْ بِهَا الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ، الَّتِي جَمِيعُ أَخْبَارِهَا أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الصِّدْقِ، وَقَامَتْ عَلَيْهَا الشَّوَاهِدُ الْمَرْئِيَّةُ، وَالْآيَاتُ الْأُفُقِيَّةُ.﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا وَعِنْدَهَا يَبِينُ فَرْقُ مَا بَيْنَ الطائع والعاصي.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أَيِ اعْبُدُونِي دُونَ غَيْرِي أُجِبْكُمْ وَأُثِبْكُمْ وَأَغْفِرْ لَكُمْ، فَلَمَّا عَبَّرَ عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**» ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] ، فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ، وَكَذَا قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَكَانَ خَالِدٌ الرَّبْعِيُّ يَقُولُ: عَجِيبٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ قِيلَ لَهَا:﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أَمَرَهُمْ بِالدُّعَاءِ وَوَعَدَهُمُ الِاسْتِجَابَةَ وَلَيْس بَيْنَهُمَا شَرْطٌ. قَالَ لَهُ قَائِلٌ: مِثْلُ مَاذَا؟ قَالَ: مِثْلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ [البقرة: ٢٥] فَهَا هُنَا شَرْطٌ،

---

(١) أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]، فَلَيْسَ فِيهِ شَرْطُ الْعَمَلِ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فها هنا شَرْطٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لَيْسَ فِيهِ شَرْطٌ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أَيْ عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي، وَالْمَعْنَىٰ: وَحِّدُونِي وَاعْبُدُونِي أَتَقَبَّلْ عِبَادَتَكُمْ وَأَغْفِرْ لَكُمْ، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَيْ صَاغِرِينَ حقيرين، وَالدَّاخِرُ: الْخَاضِعُ الذَّلِيلُ، أَيْ دَاخِرُونَ لِعَظَمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة مثال الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ (بُولَسُ) تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ عُصَارَةِ أهل النار**».

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا، قَالَ القرطبي: (جَعَلَ) هُنَا بِمَعْنَىٰ خَلَقَ، وَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ بَيْنَ جَعَلَ إِذَا كَانَتْ بمعنىٰ خلق وبين جعل إذ لَمْ تَكُنْ بِمَعْنَىٰ خَلَقَ، فَإِذَا كَانَتْ بِمَعْنَىٰ خَلَقَ فَلَا تُعَدِّيهَا إِلَّا إِلَىٰ مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ بِمَعْنَىٰ خلق عَدَّتْهَا إِلَىٰ مَفْعُولَيْنِ، نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ أَيْ مُضِيئًا لِتُبْصِرُوا فِيهِ حوائجكم وتتصرفوا في طلب معايشكم ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أَيْ: عَظِيمٌ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّنْكِيرُ ﴿عَلَىٰ النَّاسِ﴾ حَيْثُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ وَغَيْرِهَا، وَصَرَفَ عَنْهُمُ النِّقَمَ، وَهَذَا يُوجِبُ

عَلَيْهِمْ، تَمَامَ شُكْرِهِ وَذِكْرِهِ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ وَظُلْمِهِمْ.وقد بَيَّنَ لهم الدَّلَالَةَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيْ: الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَالْمُنْفَرِدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ انْفِرَادَهُ بِهَذِهِ النِّعَمِ مِنْ رُّبُوبِيَّتِهِ، وَإِيجَابَهَا لِلشُّكْرِ مِنْ أُلُوهِيَّتِهِ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَقْرِيرٌ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تَقْرِيرٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ فَقَالَ: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: كَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بَعْدَ مَا أَبَانَ لَكُمُ الدَّلِيلَ، وَأَنَارَ لَكُمُ السَّبِيلَ؟وَمَعْنَىٰ يُؤْفَكُونَ يُصْرَفُونَ، يُقَالُ: أَفَكَهُ يَأْفِكُهُ إِذَا صَرَفَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] وَالْإِفْكُ بِمَعْنَىٰ الْكَذِبِ قَدْ جَاءَ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ لِأَنَّ الْكَاذِبَ يَصْرِفُ السَّامِعَ عَنِ الصِّدْقِ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ عَنِ الْحَقِّ ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، كَذَلِكَ أُفِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ، بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ والهوىٰ، وجحدوا حجج الله وآياته.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ فراشًا، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: ﴿قَرَارًا﴾ أَيْ: تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَتَسْكُنُونَ فَوْقَهَا، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أَيْ مَبْنِيَّةً مَرْفُوعَةً فَوْقَكُمْ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا لِمَصَالِحِكُمْ وَقِوَامِ دُنْيَاكُمْ ، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أَيْ: خَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَجَعَلَ كُلَّ عُضْوٍ فِي مَكَانٍ

يَلِيقُ بِهِ، لِيَتِمَّ الِانْتِفَاعُ بِهَا، فَتَسْتَدِلُّوا بِذَلِكَ عَلَىٰ كَمَالِ حِكْمَتِهِ، فَيَدْعُوكُمْ ذَلِكَ إِلَىٰ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ وَالِاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ مُقَاتِلٌ: خَلَقَكُمْ فَأَحْسَنَ خَلْقَكُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خُلِقَ ابْنُ آدَمَ قَائِمًا مُعْتَدِلًا يَأْكُلُ وَيَتَنَاوَلُ بِيَدِهِ، وَغَيْرُ ابْنِ آدَمَ يَتَنَاوَلُ بِفَمِهِ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لِكُلِّ طَيِّبٍ، مِنْ مَأْكَلٍ، وَمَشْرَبٍ، وَمَنْكَحٍ، وَمَلْبَسٍ، وَمَنْظَرٍ، وَمَسْمَعٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي يَسَّرَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ، وَيَسَّرَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الْخَبَائِثِ، الَّتِي تُضَادُّهَا، وَتَضُرُّ أَبْدَانَهُمْ، وَقُلُوبَهُمْ، وَأَدْيَانَهُمْ، ﴿ذَلِكُمُ﴾ الَّذِي دَبَّرَ الْأُمُورَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ ﴿اللهُ رَبُّكُمْ﴾، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: تَعَاظَمَ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ وَإِحْسَانُهُ، الْمُرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ التَّامَّةُ، الْمُسْتَلْزِمَةُ لِمَا تَسْتَلْزِمُهُ مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، الَّتِي لَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِهَا، كَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْكَلَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ، إِلَّا وَجْهُهُ الْكَرِيمُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ خَبَرٌ وَفِيهِ إِضْمَارُ الْأَمْرِ، مَجَازُهُ: فَادْعُوهُ وَاحْمَدُوهُ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَلْيَقُلْ عَلَىٰ إِثْرِهَا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَادْعُوهُ﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ، وَدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَيِ: اقْصِدُوا بِكُلِّ عِبَادَةٍ وَدُعَاءٍ وَعَمَلٍ، وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ، هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(١)، وَفِي (الْحِلْيَةِ) لِأَبِي نُعَيْمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: « **مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَنْجَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ، أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ**»(٢) ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: جَمِيعُ الْمَحَامِدِ وَالْمَدَائِحِ وَالثَّنَاءِ، بِالْقَوْلِ كَنُطْقِ الْخَلْقِ بِذِكْرِهِ، وَالْفِعْلِ، كَعِبَادَتِهِمْ لَهُ، كُلُّ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِكَمَالِهِ فِي أَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَتَمَامِ نِعَمِهِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: « **لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(٣) ، وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَىٰ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ**»(٤).

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ: نَهَانِي اللهُ الَّذِي هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ غَيْرَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَكُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ. وَلَسْتُ عَلَىٰ شَكٍّ مِنْ أَمْرِي، بَلْ عَلَىٰ يَقِينٍ وَبَصِيرَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ:

---

(١) البخاري (٤٢٥) ومسلم (٦٥٧) .

(٢) الحلية : ٥/٤٥.

(٣) مسلم (٢٦٩٥) .

(٤) ابن ماجه (٣٨٠٥) .

﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ أَيْ دَلَائِلُ تَوْحِيدِهِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أَذِلَّ وَأَخْضَعَ بِقَلْبِي وَلِسَانِي، وَجَوَارِحِي، بِحَيْثُ تَكُونُ مُنْقَادَةً لِطَاعَتِهِ، مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ، وَهَذَا أَعْظَمُ مَأْمُورٍ بِهِ، عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، كَمَا أَنَّ النَّهْيَ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، أَعْظَمُ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ ، ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَكَانُوا دَعَوْهُ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِ، فَأُمِرَ أَنْ يَقُولَ هَذَا.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وَذَلِكَ بِخَلْقِهِ لِأَصْلِكُمْ وَأَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وَهَذَا ابْتِدَاءُ خَلْقِ سَائِرِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، مَا دَامَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَنَبَّهَ بِالِابْتِدَاءِ، عَلَىٰ بَقِيَّةِ الْأَطْوَارِ، مِنَ الْعَلَقَةِ، فَالْمُضْغَةِ، فَالْعِظَامِ، فَنَفْخِ الرُّوحِ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثُمَّ هَكَذَا تَنْتَقِلُونَ فِي الْخِلْقَةِ الْإِلَهِيَّةِ حَتَّىٰ تَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، وَجَمِيعِ قُوَاهُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالطِّفْلُ: اسْمٌ يَصْدُقُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ، لِلْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ وَقَدْ يُطَابِقُ فَيُقَالُ: طِفْلٌ وَطِفْلَانِ وَأَطْفَالٌ ، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ بلوغ الأشد وَشُيُوخٌ: جَمْعُ شَيْخٍ، وَهُوَ مَنْ بَلَغَ سِنَّ الْخَمْسِينَ إِلَىٰ الثَّمَانِينَ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة ﴿أَجَلًا مُسَمًّىٰ﴾ تنتهي عنده أعماركم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ لِكَيْ تَعْقِلُوا تَوْحِيدَ رَبِّكُمْ وَقُدْرَتَهُ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: تَتَذَكَّرُونَ الْبَعْثَ، أَيْ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُقُولٌ فَهُوَ مُرَادٌ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ الْخَلْقِ فَمِنْ حِكْمَتِهِ أَن جعل ذَلِك الْخَلْقَ الْعَجِيبَ عِلَّةً لأمور كَثِيرَة ،

وَتَرَوْا أَحْوَالَكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُطَوِّرَ لَكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كَامِلُ الِاقْتِدَارِ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَأَنَّكُمْ نَاقِصُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو المتفرد بِذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيْ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مَحَالَةَ، عن أبي ذر، أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَهُوَ ثَانٍ رِجْلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحُرِسَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَنْبَغِ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ إِلاَّ الشِّرْكَ بِاللهِ**»(١).

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ يَقُولُونَ لَيْسَ مِنْ عند الله، ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ دِينِ الْحَقِّ، وَإِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ يَذْهَبُونَ بَعْدَ الْبَيَانِ التَّامِّ؟ و﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بِمَعْنَىٰ (كَيْفَ)، وَهِيَ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّعْجِيبِ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] قِيلَ: هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَجَمَاعَةٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ في القدرية.

---

(١) الترمذي (٣٤٧٤) وأحمد (١٧٩٩٠).

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِالْكِتَابِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أَيْ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِهَؤُلَاءِ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ يُجَرُّونَ. أَيْ مُتَّصِلَةٌ بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم علىٰ وجوهم تارة إلىٰ الجحيم، وتارة إلىٰ الجحيم ، وَالْأَغْلَالُ: جَمْعُ غل، بِضَم الْعين، وَهُوَ حَلَقَةٌ مِنْ قِدٍّ أَوْ حَدِيدٍ تُحِيطُ بِالْعُنُقِ تُنَاطُ بِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَوْ سَيْرٌ مِنْ قِدٍّ يُمْسَكُ بِهَا الْمُجْرِمُ وَالْأَسِيرُ. وَالسَّلَاسِلُ: جَمْعُ سِلْسِلَةٍ بِكَسْرِ السِّينَيْنِ وَهِيَ مَجْمُوعُ حِلَقٍ غَلِيظَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أَيْ: الْمَاءُ الَّذِي اشْتَدَّ غَلَيَانُهُ وَحَرُّهُ، وَالْحَمِيمُ: أَشَدُّ الْحَرِّ ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُوقَدُ عَلَيْهِمُ اللَّهَبُ الْعَظِيمُ، فَيَصْلَوْنَ بِهَا، ثُمَّ يُوَبَّخُونَ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وَكَذِبِهِمْ، قَالَ مُقَاتِلٌ: تُوقَدُ بِهِمُ النَّارُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَصِيرُونَ وَقُودًا لِلنَّارِ، وَالسَّجْرُ: مَلْءُ التَّنُّورِ بِالْوَقُودِ لِتَقْوِيَةِ النَّارِ فِيهِ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ هَذَا تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ لَهُمْ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ هَلْ نَفَعُوكُمْ، أَوْ دَفَعُوا عَنْكُمْ بَعْضَ الْعَذَابِ؟، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أَيْ هَلَكُوا وَذَهَبُوا عَنَّا وَتَرَكُونَا فِي الْعَذَابِ، مِنْ

ضَلَّ الْمَاءُ فِي اللَّبَنِ أَيْ خَفِيَ ، وَقِيلَ: أَيْ صَارُوا بِحَيْثُ لَا نَجِدُهُمْ ، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أَيْ شَيْئًا لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَيْسَ هَذَا إِنْكَارًا لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، بَلْ هُوَ اعْتِرَافٌ بِأَنَّ عِبَادَتَهُمُ الْأَصْنَامَ كَانَتْ بَاطِلَةً، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ ابْنُ الْفَضْلِ: أَيْ لَمْ نَكُنْ نَصْنَعُ مِنْ قَبْلُ شَيْئًا أَيْ ضَاعَتْ عِبَادَتُنَا لَهَا، كَمَا يَقُولُ مَنْ ضَاعَ عَمَلُهُ: مَا كُنْتُ أَعْمَلُ شَيْئًا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيْ كَمَا أَضَلَّ هَؤُلَاءِ، ﴿يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: كَذَلِكَ الضَّلَالُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، الضَّلَالُ الْوَاضِحُ لِكُلِّ أَحَدٍ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، يُقِرُّونَ بِبُطْلَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْعَذَابُ الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ تَبْطَرُونَ وَتَأْشَرُونَ، قال القرطبي : فَرَحُونَ بِالْمَعَاصِي يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَوْبِيخًا، أَيْ إِنَّمَا نَالَكُمْ هَذَا بِمَا كُنْتُمْ تُظْهِرُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ السُّرُورِ بِالْمَعْصِيَةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْأَتْبَاعِ وَالصِّحَّةِ، وَقِيلَ إِنَّ فَرَحَهُمْ بِهَا عِنْدَهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِلرُّسُلِ: نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا لَا نُبْعَثُ وَلَا نُعَذَّبُ، ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَفْرَحُونَ وَتَخْتَالُونَ، قَالَ الضَّحَّاكُ: الْفَرَحُ السُّرُورُ، وَالْمَرَحُ الْعُدْوَانُ ، وَقِيلَ: الْفَرَحُ هُنَا: هُوَ السُّرُورُ بِالْبَاطِلِ ، وَالْمَرَحُ: هُوَ الْأَشَرُ وَالْبَطَرُ ، وَالْآيَةُ تَوْبِيخٌ لَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِالْمَعَاصِي وَيَمْرَحُونَ بِالْكِبْرِ وَالْبَطَرِ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ:

وَالْفَرَحُ: الْمَسَرَّةُ وَرِضَىٰ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ أَحْوَالِهِ، فَهُوَ انْفِعَالٌ نَفْسَانِيٌّ ، وَالْمَرَحُ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ الْفَارِحِ مِنَ الْحَرَكَاتِ فِي مَشْيِهِ وَنَظَرِهِ وَمُعَامَلَتِهِ مَعَ النَّاسِ وَكَلَامِهِ وَتَكَبُّرِهِ فَهُوَ هَيْئَةٌ ظَاهِرِيَّةٌ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: -يَقُولُ-: ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ السَّبْعَةَ، مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مَقْسُومٌ مِنْكُمْ، فَبِئْسَ مَنْزِلُ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِرُسُلِهِ الْيَوْمَ جَهَنَّمُ، روىٰ الإمام مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مسعود قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(١) ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أَيْ فَبِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهَوَانُ وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ، لِمَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللهِ، واتباع دلائله وحججه،

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ بِنَصْرِكَ، هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَيْ إِنَّا لَنَنْتَقِمُ لَكَ مِنْهُمْ إِمَّا فِي حَيَاتِكَ أَوْ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ فَاصْبِرْ عَلَىٰ جِدَالِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي آيَاتِ اللهِ، وَعَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، فَإِنَّ وَعْدَ اللهِ إِيَّاكَ بِالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، حَقٌّ ثَابِتٌ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَقَرَّ عينه يَوْمِ بَدْرٍ ثُمَّ فَتَحَ اللهُ

---

(١) مسلم (٢٨٤٢) .

عَلَيْهِ مَكَّةَ وسائر جزيرة العرب في حياته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أَيْ فَنُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أَخبَرَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، أَيْ مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَهُمْ وَقِصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ، ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِأَضْعَافِ أَضْعَافٍ، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِأَمْرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ، أَيْ وَلَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَن يَأْذَنَ اللهُ فِي ذَلِكَ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ قَضَاؤُهُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ، وَهُوَ عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين، ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿أَيْ إِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمُسَمَّىٰ لِعَذَابِهِمْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، وَإِنَّمَا التَّأْخِيرُ لِإِسْلَامِ مَنْ عَلِمَ اللهُ إِسْلَامَهُ مِنْهُمْ، وَلِمَنْ فِي أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: أَشَارَ بِهَذَا إِلَىٰ الْقَتْلِ بِبَدْرٍ﴾ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: وَقَدْ كَانُوا خَاسِرِينَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بَيَّنَ لَنَا الْخُسْرَانَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: الَّذِينَ وَصْفُهُمُ الْبَاطِلُ، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، بَاطِلٌ، وَغَايَتُهُمُ الْمَقْصُودَةُ لَهُمْ، بَاطِلَةٌ، فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ الْمُخَاطَبُونَ، أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فَيَخْسَرُوا، كَمَا خَسِرَ أُولَئِكَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا خَيْرَ مِنْهُمْ، وَلَا لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الْكُتُبِ بِالنَّجَاةِ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ قَالَ أبو إسحاق الزجاج: الأنعام ها هنا الْإِبِلُ ، قال ابن كثير : يَقُولُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًّا عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يأكلون، فَالْإِبِلُ تُرْكَبُ وَتُؤْكَلُ وَتُحْلَبُ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرِّحَالِ، إِلَىٰ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ، وَالْبَقَرُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا وَتُحْرَثُ عَلَيْهَا الْأَرْضُ، وَالْغَنَمُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا، وَالْجَمِيعُ تُجَزُّ أَصْوَافُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا فَيُتَّخَذُ مِنْهَا الْأَثَاثُ وَالثِّيَابُ والأمتعة ولذا قال عزَّ وجلَّ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ بَعْضَهَا، قال الطبري: يعني الخيل والحمير. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ فِي أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَلْبَانِهَا. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَاتِكُمْ، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أَيْ عَلَىٰ الْإِبِلِ فِي الْبَرِّ وَعَلَىٰ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ، مثل قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِهِ، حَيْثُ أَشْهَدَ عِبَادَهُ، آيَاتِهِ النَّفْسِيَّةَ، وَآيَاتِهِ الْأُفُقِيَّةَ، وَنِعَمَهُ الْبَاهِرَةَ، وَعَدَّدَهَا عَلَيْهِمْ، لِيَعْرِفُوهُ، وَيَشْكُرُوهُ، وَيَذْكُرُوهُ، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ إِذَا كُنْتُمْ لَا تُنْكِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ اللهِ فَلِمَ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَالنَّشْرِ فَإِنَّكُمْ، قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَكُمْ، أَنَّ جَمِيعَ الْآيَاتِ وَالنِّعَمِ، مِنْهُ

تَعَالَىٰ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْإِنْكَارِ مَحَلٌّ، وَلَا لِلْإِعْرَاضِ عَنْهَا مَوْضِعٌ، بَلْ أَوْجَبَتْ لِذَوِي الْأَلْبَابِ، بَذْلَ الْجُهْدِ، وَاسْتِفْرَاغَ الْوُسْعِ، لِلاجْتِهَادِ فِي طَاعَتِهِ، وَالتَّبَتُّلِ فِي خِدْمَتِهِ، وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يَحُثُّ تَعَالَىٰ، الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِمْ، عَلَىٰ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، بِأَبْدَانِهِمْ، وَقُلُوبِهِمْ: وَسُؤَالِ الْعَالَمِينَ. ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نَظَرَ فِكْرٍ وَاسْتِدْلَالٍ، لَا نَظَرَ غَفْلَةٍ وَإِهْمَالٍ، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَعَادٍ، وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ كَانُوا أَعْظَمَ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَشَدَّ آثَارًا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الْحَصِينَةِ، وَالْغِرَاسِ الْأَنِيقَةِ، وَالزُّرُوعِ الْكَثِيرَةِ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حِينَ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللهِ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّتُهُمْ، وَلَا افْتَدَوْا بِأَمْوَالِهِمْ، وَلَا تَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ بِمَعْنَىٰ الِاسْتِفْهَامِ، وَمَجَازُهُ: أَيُّ شَيْءٍ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ كَسْبُهُمْ؟.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْخَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ الْمُبَيِّنِ، لِلْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، وَالْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل، قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ لَنْ نُعَذَّبَ وَلَنْ نُبْعَثَ ، وَقِيلَ: فَرِحَ الْكُفَّارُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الدُّنْيَا نَحْوَ : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] ، وَقِيلَ: الَّذِينَ فَرِحُوا الرُّسُلُ لَمَّا كَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ أَعْلَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مُهْلِكُ

الْكَافِرِينَ وَمُنْجِيهِمْ وَالْمُؤْمِنِينَ فَـ ﴿ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ،﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أَيْ أَحَاطَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ وَيُنْكِرُونَهُ ، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ يُكَذِّبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ، أَيْ عِقَابُ اسْتِهْزَائِهِمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ أَيْ عَايَنُوا الْعَذَابَ ، قَالَ السُّدِّيُّ: النِّقِمَاتُ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمْ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ أَقْرَرْنَا بِتَوْحِيدِ اللهِ وَصَدَّقْنَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَجَحَدْنَا الْآلِهَةَ الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَقْتِنَا هَذَا نُشْرِكُهَا فِي عِبَادَتِنَا اللهَ، وَنَعْبُدُهَا مَعَهُ وَنَتَّخِذُهَا آلِهَةً، فَبَرِئْنَا مِنْهَا ، ﴿وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أَيْ بِالْأَوْثَانِ الَّتِي أَشْرَكْنَاهُمْ فِي الْعِبَادَةِ"يَعْنِي تَبَرَّأْنَا مِمَّا كُنَّا نَعْدِلُ بِاللهِ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ عَذَابَنَا، قَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا رَأَوْا عَذَابَ اللهِ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَنْفَعْهُمُ الْإِيمَانُ عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿سُنَّتَ اللهِ﴾ أَيْ كَسُنَّةِ اللهِ. وَقِيلَ: أَيِ احْذَرُوا سُنَّةَ اللهِ، قال القرطبي : ﴿سُنَّتَ اللهِ﴾ مَصْدَرٌ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: سَنَّ يَسُنُّ سَنًّا وَسُنَّةً، أَيْ سَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْكُفَّارِ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَقِيلَ: أَيِ احْذَرُوا يَا أَهْلَ مَكَّةَ سُنَّةَ اللهِ فِي إهلاك الكفرة فـ﴿ سُنَّتَ اللهِ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ التَّحْذِيرِ وَالْإِغْرَاءِ، ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ وَتِلْكَ السُّنَّةُ أَنَّهُمْ إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ آمَنُوا، وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: تَرَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِقَالَتَهُمْ وَقَبُولَ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ وَمُرَاجَعَتَهُمُ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَتَصْدِيقَ رُسُلِهِمْ بَعْدَ مُعَايَنَتِهِمْ بَأْسَهُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ، سُنَّتَهُ

الَّتِي قَدْ مَضَتْ فِي خَلْقِهِ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ هَذَا حُكْمُ اللهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ ؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[1]، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ بذهاب نعيم الدَّارَيْنِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الْكَافِرُ خَاسِرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ خُسْرَانُهُمْ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) أحمد (٦١٦٠) والترمذي (٣٥٣٧) .

سُورَةُ فُصِّلَتْ

تُسَمَّىٰ حم السَّجْدَةِ ، بِإِضَافَةِ حم إِلَىٰ السَّجْدَةِ ، وَقَالَ الْكَوَاشِيُّ: وَتُسَمَّىٰ سُورَةَ الْمَصَابِيحِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِيهَا: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾، وَتُسَمَّىٰ سُورَةَ الْأَقْوَاتِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ غَافِرٍ وَقبل سُورَةِ الزُّخْرُف.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حم﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلٌ﴾ صَادِرٌ ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، الَّذِي مِنْ أَعْظَمِ رَحْمَتِهِ وَأَجَلِّهَا، إِنْزَالُ هَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي حَصَلَ بِهِ، مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَىٰ، وَالنُّورِ، وَالشِّفَاءِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، مَا هُوَ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ لِلسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ. قَالَ الْأَخْفَشُ: تَنْزِيلٌ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٣] : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أَيْ بُيِّنَتْ وَفُسِّرَتْ ، وَالتَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ وَالْإِخْلَاءُ مِنَ الِالْتِبَاسِ، قَالَ قَتَادَةُ: بِبَيَانِ حَلَالِهِ مِنْ حَرَامِهِ، وَطَاعَتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَقَالَ سُفْيَانُ: بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ،

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ وَلَوْ كَانَ بِغَيْرِ لِسَانِهِمْ مَا عَلِمُوهُ وَنُصِبَ قُرْآنًا بِوُقُوعِ الْبَيَانِ عَلَيْهِ أَيْ فَصَّلْنَاهُ قرآنـًا.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نَعْتَانِ لِلْقُرْآنِ أَيْ بَشِيرًا لِأَوْلِيَاءِ اللهِ وَنَذِيرًا لِأَعْدَائِهِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: بَشِيرًا لَهُمْ يُبَشِّرُهُمْ إِنْ هُمْ آمَنُوا بِهِ وَعَمِلُوا بِمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ حُدُودِ اللهِ وَفَرَائِضِهِ بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِرًا مَنْ كَذَّبَ بِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ بَأْمْرِ اللهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَخُلُودِ الْأَبَدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي آجِلِ الْآخِرَةِ، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لَا يَصْغُونَ إِلَيْهِ تَكَبُّرًا.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ فِي أَغْطِيَةٍ، الْأَكِنَّةُ جَمْعُ كِنَانٍ وَهُوَ الْغِطَاءُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْكِنَانُ لِلْقَلْبِ كَالْجُنَّةِ لِلنَّبْلِ، ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فَلَا نَفْقَهُ مَا تَقُولُ، ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ فَلَا نَسْمَعُ مَا تَقُولُ، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّا فِي تَرْكِ الْقَبُولِ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَسْمَعُ، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خِلَافٌ فِي الدِّينِ وَحَاجِزٌ فِي الْمِلَّةِ فَلَا نُوَافِقُكَ عَلَىٰ مَا تقول، ﴿فَاعْمَلْ﴾ أَنْتَ عَلَىٰ دِينِكَ، ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ عَلَىٰ دِينِنَا، أي كَمَا رَضِيتَ بِالْعَمَلِ بِدِينِكَ، فَإِنَّنَا رَاضُونَ كُلَّ الرِّضَا، بِالْعَمَلِ فِي دِينِنَا.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قل يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُشْرِكِينَ يَعْنِي كَوَاحِدٍ مِنْكُمْ وَلَوْلَا الْوَحْيُ مَا دَعَوْتُكُمْ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: عَلَّمَهُ اللهُ التَّوَاضُعَ، ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِله وَاحِدٌ﴾ لا ما تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾

أَيْ أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَىٰ مِنْوَالِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من ذنوبكم، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ دَمَارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَهِيَ زَكَاةُ الْأَنْفُسِ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا يُطَهِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: لَا يُقِرُّونَ بِالزَّكَاةِ وَلَا يَرَوْنَ إِيتَاءَهَا وَاجِبًا وكان يقول: الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الْإِسْلَامِ فَمَنْ قَطَعَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: لَا يُنْفِقُونَ فِي الطَّاعَةِ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يُزَكُّونَ أَعْمَالَهُمْ ، قَالَ ابنُ كثير : المراد بالزكاة هنا طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيَتْ زَكَاةً، لِأَنَّهَا تُطَهِّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، واستعماله فِي الطَّاعَاتِ، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: غَيْرُ مَنْقُوصٍ، وَمِنْهُ الْمَنُونُ لِأَنَّهُ يُنْقِصُ مُنَّةَ الْإِنْسَانِ وَقُوَّتَهُ، وَقِيلَ: غَيْرُ مَمْنُونٍ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: غَيْرُ مَحْسُوبٍ، قال ابن عاشور : وَالْمَمْنُونُ: مِنَ الْمَنِّ، وَهُوَ ذِكْرُ النِّعْمَةِ لِلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا، وَالتَّقْدِيرُ غَيْرُ مَمْنُونٍ بِهِ عَلَيْهِمْ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَمَرَهُ بِتَوْبِيخِهِمْ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ فِعْلِهِمْ، أَيْ لِمَ تكفرون بالله وهو خالق السموات

وَالْأَرْضِ؟! ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ الْأَحَدُ وَالِاثْنَيْنِ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: أَيْ وَتَجْعَلُونَ لِمَنْ خَلَقَ ذَلِكَ كَذَلِكَ أَنْدَادًا وَهُمُ الْأَكْفَاءُ مِنَ الرِّجَالِ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ ، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خَالِقُ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَيِّدُهَا وَمُرَبِّيهَا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أَيْ فِي الْأَرْضِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لَمَّا بَيَّنَ آيَاتِ السَّمَاوَاتِ بَيَّنَ آيَاتِ الْأَرْضِ، أَيْ بَسَطَ الْأَرْضَ طُولًا وَعَرْضًا ، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، وَالرَّوَاسِي: جَمْعُ رَاسٍ، وَهُوَ الثَّابِتُ الْمُسْتَقِرُّ، أَيْ جِبَالًا رَوَاسِيَ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِخَلْقِ الْجِبَالِ عَلَىٰ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ لِمَا فِي خَلْقِهَا مِنَ الْعَظَمَةِ الْمُشَاهَدَةِ بِخِلَافِ خِلْقَةِ الْمَعَادِنِ وَالتُّرَابِ فَهِيَ خَفِيَّةٌ، ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أَيْ فِي الْأَرْضِ بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ والثمار، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَبَارَكَ فِي الْأَرْضِ فَجَعَلَهَا دَائِمَةَ الْخَيْرِ لِأَهْلِهَا، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: قَسَّمَ فِي الْأَرْضِ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ: قَدَّرَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ فِي الْأُخْرَىٰ لِيَعِيشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِالتِّجَارَةِ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: قَدَّرَ الْخُبْزَ لِأَهْلِ قُطْرٍ وَالذُّرَةَ لِأَهْلِ قُطْرٍ وَالسَّمَكَ لِأَهْلِ قُطْرٍ وَكَذَلِكَ أَقْوَاتُهَا، الْقُوتُ بِالضَّمِّ وَهُوَ مَا يَقُومُ بِهِ بَدَنُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطَّعَامِ ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: ﴿أَيْ فِي تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ بِالْيَوْمَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ. قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ﴾ أَيْ فَرَغَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَجَمِيعِ مَا تَقُومُ بِهِ حَاجَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، يَوْمَ

سَيَسْكُنُهَا بِأَمْرِهِ، فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ: وَهِيَ بَدْءًا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ، يَوْمَ خَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ، وَانْتِهَاءً بِيَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ، يَوْمَ خَلَقَ فِيهَا النُّورَ وَالْأَمَلَ، الَّذِي سَيُشْرِقُ يَوْمًا فِي قُلُوبِ خَلْقِهِ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، فَكَمَّلَ سُبْحَانَهُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَمِيعَ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ فِيهَا، مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْمَاءِ وَالْمَدَائِنِ وَالْعُمْرَانِ وَالْخَرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ وَيَصْلُحُ بِهِ الْحَالُ، ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ سَأَلَ عَنْهُ فَهَكَذَا الْأَمْرُ سَوَاءٌ لَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ جَوَابًا لِمَنْ سَأَلَ فِي كَمْ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَالْأَقْوَاتُ؟.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ أَيْ عَمَدَ إِلَىٰ خَلْقِ السَّمَاءِ، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ الدُّخَانُ بُخَارَ الْمَاءِ، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَيِ: ائْتِيَا مَا آمُرُكُمَا أَيِ: افْعَلَاهُ، كَمَا يُقَالُ: ائْتِ مَا هذا الْأَحْسَنُ أَيِ افْعَلْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: أَمَّا أَنْتِ يَا سَمَاءُ فَأَطْلِعِي شَمْسَكِ وَقَمَرَكِ وَنُجُومَكِ، وَأَنْتِ يَا أَرْضُ فَشُقِّي أَنْهَارَكِ وَأَخْرِجِي ثِمَارَكِ وَنَبَاتَكِ، وَقَالَ لَهُمَا افْعَلَا مَا آمُرُكُمَا طَوْعًا وَإِلَّا أَلْجَأْتُكُمَا إِلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَفْعَلَاهُ كَرْهًا فأجابتا بالطوع، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ طَائِعَتَيْنِ لِأَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، مَجَازُهُ: أَتَيْنَا بِمَا فِينَا طَائِعِينَ، فَلَمَّا وَصَفَهُمَا بِالْقَوْلِ أَجْرَاهُمَا فِي الْجَمْعِ مُجْرَىٰ مَنْ يَعْقِلُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَيْ أَتَمَّهُنَّ وَفَرَغَ مِنْ خَلْقِهِنَّ، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أَيْ وَرَتَّبَ مُقَرَّرًا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ، قَالَ ابْنِ

عَبَّاسٍ: خَلَقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْبِحَارِ وَجِبَالِ الْبَرَدِ وَمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ. يَعْنِي خَلَقَ فِيهَا شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا وَنُجُومَهَا،وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ كُلِّ سَمَاءٍ مَا أَرَادَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَالْجُمْعَةِ ، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَالْمَصَابِيحُ: جَمْعُ مِصْبَاحٍ، وَهُوَ مَا يُوقَدُ بِالنَّارِ فِي الزَّيْتِ لِلْإِضَاءَةِ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الصَّبَاحِ لِأَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ خَلَفًا عَنِ الصَّبَاحِ. وَالْمُرَادُ بِالْمَصَابِيحِ: النُّجُومُ، اسْتُعِيرَ لَهَا الْمَصَابِيحُ لِمَا يَبْدُو مِنْ نُورِهَا. ﴿وَحِفْظًا﴾ أَيْ حَفِظْنَاهَا بِالْكَوَاكِبِ حِفْظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَسْتَرِقُّونَ السَّمْعَ، ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ صُنْعِهِ، ﴿الْعَزِيزِ﴾ أَي الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَغَلَبَهُ وقهره، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَنَاتِهِمْ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْإِيمَانِ ، ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ خَوَّفْتُكُمْ، هَلَاكًا مِثْلَ ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وَالصَّاعِقَةُ: الْمُهْلِكَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِنْذَارُ: التَّخْوِيفُ، وَهُوَ هُنَا تَخْوِيفٌ بِتَوَقُّعِ عُقَابٍ مِثْلِ عِقَابِ الَّذِينَ شَابَهُوهُمْ فِي الْإِعْرَاضِ خَشْيَةَ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِأُولَئِكَ، بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنْ تَجْرِيَ أَفْعَالُ اللهِ عَلَىٰ سَنَنٍ وَاحِدٍ، وَلَيْسَ هُوَ وَعِيدًا لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمْ تُصِبْهُمْ صَاعِقَةٌ مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، رَوَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ : أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ كلم النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ فَتَلَا عَلَيْهِم النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حَتَّىٰ بَلَغَ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً الْآيَةَ، فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَىٰ فَم النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: «نَاشَدْتُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ»(١) .

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ﴾ يعني عاداً أو ثموداً، ﴿الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يَعْنِي مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ مَنْ قَبْلَهُمْ ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَىٰ آبَائِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ هُودٌ وَصَالِحٌ، فَالْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ عَادٍ وَثَمُودَ وَفِي قَوْلِهِ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الرُّسُلِ، ﴿أَلَّا﴾ بِأَنْ لَا، ﴿تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ أَيْ: يَأْمُرُونَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، فَرَدُّوا رِسَالَتَهُمْ وَكَذَّبُوهُمْ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ فِي الْقُرَىٰ الْمُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَرَأَوْا مَا أَحَلَّ اللهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النِّقَمِ، وَمَا أَلْبَسَ اللهُ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّعَمِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَّقُوا، بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا ، ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ﴾ بَدَلَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ، ﴿مَلَائِكَةً﴾ أَيْ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا دَعْوَةَ الْخَلْقِ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ مِنَ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ، قِيلَ: هَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: أَقَرُّوا بِإِرْسَالِهِمْ ثُمَّ بَعْدَهُ جُحُودٌ وَعِنَادٌ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ بَغَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا، وَالِاسْتِكْبَارُ: الْمُبَالَغَةُ فِي الْكِبْرِ، أَيِ التَّعَاظُمُ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ، فَالسِّينُ

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٩٣ .

وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلَ: اسْتَجَابَ ، وَعَادٌ: هِيَ الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْيَمَنِ، أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَذَّبُوهُ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أَيْ مَنُّوا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَاهُمْ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هُودًا هَدَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ، فَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ منا قوة، ونحن نَقْدِرُ عَلَىٰ دَفْعِ الْعَذَابِ عَنَّا بِفَضْلِ قُوَّتِنَا، وَكَانُوا ذَوِي أَجْسَامٍ طِوَالٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا، وَأَنَّ بَطْشَهُ شَدِيدٌ فَلِهَذَا قَالَ:

[١٦] : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عَاصِفَةً شَدِيدَةَ الصَّوْتِ، مِنَ الصِّرَّةِ وَهِيَ الصَّيْحَةُ، وَقِيلَ: الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ أَيْ دَوِيٌّ فِي هُبُوبِهَا مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ تَنَقُّلِهَا. قَالَ النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»(١) ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي مشئومات، قِيلَ:﴿ نَحِساتٍ﴾ بَارِدَاتٍ، وَقِيلَ: مُتَتَابِعَاتٍ، قَالَ الضَّحَّاكُ: أَمْسَكَ اللهُ عَنْهُمُ الْمَطَرَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَدَامَتِ الرِّيَاحُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مَطَرٍ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: النَّحْسُ: الشَّرُّ، أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحَ شَرٍّ لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ. وَأَصْلُ النَّحْسِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ضِدُّ السَّعْدِ، فَيَكُونُ

---

(١) البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٤١٠٥) .

الْمَعْنَىٰ: أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ فِي أَيَّامٍ ذَوَاتِ نَحْسٍ: أَيْ ذَوَاتِ شُؤْمٍ وَشَرٍّ وَشِدَّةٍ عَلَيْهِمْ، ابْتُدِئَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أَيْ عَذَابَ الْهُونِ وَالذُّلِّ، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أَشَدُّ إِهَانَةً ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أَيْ فِي الأُخرىٰ كَمَا لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ دَعَوْنَاهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَّا لَهُمْ سَبِيلَ الْهُدَىٰ، وَقِيلَ: دَلَلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ ثَمُودُ وَهُمُ الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ الَّذِينَ سَكَنُوا الْحِجْرَ وَحَوَالَيْهِ، الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وَآتَاهُمُ اللهُ النَّاقَةَ، آيَةً عَظِيمَةً، لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ مِنَ الْمَاءِ يَوْمًا، وَلَيْسُوا يُنْفِقُونَ عَلَيْهَا، بَلْ تَأْكُلُ مِنْ أَرْضِ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ فَاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ قَالَ السَّعْدِيُّ: هِدَايَةَ بَيَانٍ، وَإِنَّمَا نَصَّ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ، قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَحَصَلَ لَهُمُ الْبَيَانُ، لِأَنَّ آيَةَ ثَمُودَ، آيَةٌ بَاهِرَةٌ، قَدْ رَآهَا صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، وَذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، وَكَانَتْ آيَةً مُبْصِرَةً، فَلِهَذَا خَصَّهُمْ بِزِيَادَةِ الْبَيَانِ وَالْهُدَىٰ، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ أَيْ هَلَكَةُ الْعَذَابِ ﴿الْهُونِ﴾ أَيْ ذِي الْهُونِ وَهُوَ الَّذِي يُهِينُهُمْ، وَيَجْزِيهِمْ وَالْهُونِ:الْهَوَانُ وَهُوَ الذُّلُّ،وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْهُونُ اسْمًا مِثْلَ الدُّونِ، يُقَالُ: عَذَابٌ هُونٌ أَيْ مُهِينٌ كَمَا قَالَ: ﴿ مَا لَبِثُوا

فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] وَقِيلَ: أَيْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ صَالِحًا وَعَقْرِهِمُ النَّاقَةَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أَيْ نَجَّىٰ اللهُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ لِلشِّرْكِ، وَالْمَعَاصِي.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَىٰ النَّارِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ أَعْدَائِهِ، الَّذِينَ بَارَزُوهُ بِالْكُفْرِ بِهِ وَبِآيَاتِهِ، وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ وَمُعَادَاتِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ، وَحَالِهِمُ الشَّنِيعَةِ حِينَ يُحْشَرُونَ، أَيْ: يُجْمَعُونَ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُسَاقُونَ وَيُدْفَعُونَ إِلَىٰ النَّارِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ لِيَتَلَاحَقُوا، وَالْوَزْعُ: كَفُّ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْفَوْضَىٰ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الْمَحْشُورِينَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ جَاءُوا النَّارَ ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ أَيْ بَشْرَاتُهُمْ، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَالَ السُّدِّيُّ وَجَمَاعَةٌ: الْمُرَادُ بِالْجِلْدِ الْفُرُوجُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: تَنْطِقُ جَوَارِحُهُمْ بِمَا كَتَمَتِ الْأَلْسُنُ مِنْ عَمَلِهِمْ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي الْكُفَّارُ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تَمَّ الْكَلَامُ هَاهُنَا. وفي الحديث قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلىٰ، فيقول:**

فإنني لَا أَقْبَلُ عليَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَوَ لَيْسَ كَفَىٰ بي شهيداً والملائكة الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ - قَالَ - فَيُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ مِرَارًا - فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكُنَّ كُنْتُ أجادل»[1] ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيْ رَكَّبَ الْحَيَاةَ فِيكُمْ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ نُطَفًا، فَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يُنْطِقَ الْجُلُودَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِنْشَائِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَعَلَىٰ إِعَادَتِكُمْ وَرُجُوعِكُمْ إِلَىٰ جَزَائِهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أَيْ: تَسْتَخْفُونَ - عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَتَّقُونَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: تَظُنُّونَ ، ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أَيْ: وَمَا كُنْتُمْ تَخْتَفُونَ عَنْ شَهَادَةِ أَعْضَائِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَحَاذَرُونَ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ بِإِقْدَامِكُمْ عَلَىٰ الْمَعَاصِي ﴿أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فَلِذَلِكَ صَدَرَ مِنْكُمْ مَا صَدَرَ، وَهَذَا الظَّنُّ، صَارَ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَشَقَائِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٢٣] : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أَهْلَكَكُمْ، أَيْ: ظَنُّكُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، أَرْدَاكُمْ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَرَحَكُمْ فِي النَّارِ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ،**

---

(١) مسلم (٢٩٦٩) .

فَإِنَّ قَوْمًا أَسَاءُوا الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ فَأَهْلَكَهُمْ » فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ﴾[1] ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ حَسَنَةٌ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي وَكَذَبَ، وَلَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَتَلَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ:﴿ وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ ، وَعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كُنْتُ مُسْتَتِرًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ فَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ، فَقَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَذَكَرْتُ ذَلِك للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ ، فَقَالَ:

[٢٤] : ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ مَسْكَنٌ لَهُمْ، الْمَثْوَىٰ مَكَانُ الْإِقَامَةِ الْمُنْبِئَةُ عَنِ الْمُكْثِ، وَالْمَأْوَىٰ الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَقَدَّمَ الْمَأْوَىٰ عَلَىٰ الْمَثْوَىٰ لِأَنَّهُ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ الْوُجُودِيِّ يَأْوِي ثُمَّ يَثْوِي ، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾:

---

(١) مسلم (٢٨٧٧) ، أما الزيادة في ذكر الآية فقد وردت عند أحمد (١٥٢١٦) من حديث أبي هريرة.

يَسْتَرْضُوا وَطَلَبُوا الْعُتْبَىٰ، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾: الْمَرْضِيِّينَ، وَالْمُعْتَبُ الَّذِي قُبِلَ عِتَابُهُ وَأُجِيبَ إِلَىٰ مَا سَأَلَ، يُقَالُ: أَعْتَبَنِي فُلَانٌ أَيْ أَرْضَانِي بَعْدَ إِسْخَاطِهِ إِيَّايَ، وَاسْتَعْتَبْتُهُ: طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَعْتِبَ أَيْ يَرْضَىٰ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ﴿أَيْ طَلَبُوا الرِّضَا لَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ النَّارِ﴾، وَقِيلَ: ﴿وَإِنْ يَسْتَقِيلُوا رَبَّهُمْ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُقَالِينَ﴾، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُوا الْعُتْبَىٰ وَهِيَ الرَّجْعَةُ لَهُمْ﴾ - أَيْ إِلَىٰ الدُّنْيَا- فَلَا جَوَابَ لَهُمْ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَإِنْ طَلَبُوا أَنْ يَسْتَعْتِبُوا وَيُبْدُوا أَعْذَارًا فَمَا لَهُمْ أَعْذَارٌ، وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثَرَاتٌ﴾، وَالْمَقْصُودُ: وَإِنْ حَاوَلُوا الْتِمَاسَ رِضَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ وَالنَّدَمِ، وَطَلَبُوا فُرْصَةً أُخْرَىٰ لِيُعَدِّلُوا طَرِيقَهُمْ وَمِنْهَاجَ عِبَادَتِهِمْ لَمْ يُجَابُوا لِذَلِكَ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أَيْ بَعَثْنَا وَوَكَّلْنَا، وَقَيَّضَ: أَتَاحَ وَهَيَّأَ شَيْئًا لِلْعَمَلِ فِي شَيْءٍ ، وقال الْقُشَيْرِيُّ: وَيُقَالُ قَيَّضَ اللهُ لِي رِزْقًا أَيْ أَتَاحَهُ كَمَا كُنْتُ أَطْلُبُهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هَيَّأْنَا ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: سَبَّبْنَا لَهُمْ، ﴿قُرَنَاءَ﴾ نُظَرَاءَ مِنَ الشَّيَاطِينِ حَتَّىٰ أَضَلُّوهُمْ، وَالْقُرَنَاءُ جَمْعُ: قَرِينٍ، وَهُوَ الصَّاحِبُ الْمُلَازِمُ، وَالْقُرَنَاءُ هُنَا: هُمُ الْمُلَازِمُونَ لَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ: إِمَّا فِي الظَّاهِرِ مِثْلَ دُعَاةِ الْكُفْرِ وَأَيِمَّتِهِ، وَإِمَّا فِي بَاطِنِ النُّفُوسِ مِثْلَ شَيَاطِينِ الْوَسْوَاسِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ آثَرُوهُ علىٰ الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ التَّكْذِيبِ بِهِ وَإِنْكَارِ

الْبَعْثِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: فَزَيَّنَ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ قُرَنَاؤُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَحَسَّنُوا ذَلِكَ لَهُمْ وَحَبَّبُوهُ إِلَيْهِمْ حَتَّىٰ آثَرُوهُ عَلَىٰ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: وَحَسَّنُوا لَهُمْ أَيْضًا مَا بَعْدَ مَمَاتِهِمْ بِأَنْ دَعَوْهُمْ إِلَىٰ التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ، وَأَنَّ مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ فَلَنْ يُبْعَثَ وَأَنْ لَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ حَتَّىٰ صَدَّقُوهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ كُلِّ مَا يَشْتَهُونَهُ، وَرُكُوبَ كُلِّ مَا يَلْتَذُّونَهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ بِاسْتِحْسَانِهِمْ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا وَجَبَ عَلَىٰ الْأُمَمِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَكُفْرِهِمْ، وَقِيلَ: (فِي) بِمَعْنَىٰ مَعَ، فَالْمَعْنَىٰ هُمْ دَاخِلُونَ مَعَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ قَبْلَهُمْ فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أَعْمَالَهُمْ فِي الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْغَطُوا فِيهِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُوصِي إِلَىٰ بَعْضٍ، إِذَا رَأَيْتُمْ مُحَمَّدًا يَقْرَأُ فَعَارِضُوهُ بِالرَّجَزِ وَالشِّعْرِ وَاللَّغْوِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْغَوْا فِيهِ بِالْمُكَاءِ وَالصَّفِيرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَكْثِرُوا الْكَلَامَ فَيَخْتَلِطُ عَلَيْهِ مَا يَقُولُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: صِيحُوا فِي وَجْهِهِ، وَاللَّغْوُ: الْقَوْلُ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَيُسَمَّىٰ الْكَلَامُ الَّذِي لَا جَدْوَىٰ لَهُ لَغْوًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَانَ النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَكَانَ أَبُو جَهْلٍ وَغَيْرُهُ يَطْرُدُونَ النَّاسَ عَنْهُ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: لَا تَسْمَعُوا لَهُ وَالْغَوْا فِيهِ، فَكَانُوا يَأْتُونَ بِالْمُكَاءِ

وَالصَّفِيرِ وَالصِّيَاحِ وَإِنْشَادِ الشِّعْرِ وَالْأَرَاجِيزِ وَمَا يَحْضُرُهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَصْخَبُونَ بِهَا»، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّهُمْ قَالُوا لَمَّا اسْتَمَعُوا إِلَىٰ قِرَاءَةِ أَبِي بَكْرٍ - وَكَانَ رَقِيقَ الْقِرَاءَةِ - إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا»[1] ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ مُحَمَّدًا عَلَىٰ قِرَاءَتِهِ ، أَيْ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَهُوَ غالبكم.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي﴾ يَعْنِي بِأَسْوَأِ الَّذِي، أَيْ بِأَقْبَحِ الذي، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ أَعْظَمَ عُقُوبَةً عَلَىٰ أَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ الْكُفْرُ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ الْجَزَاءَ فَقَالَ: ﴿النَّارُ﴾ أَيْ هُوَ النَّارُ، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أَيْ فِي النَّارِ، ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ دَارُ الْإِقَامَةِ لَا انْتِقَالَ مِنْهَا، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ: لَهُمْ فِيهَا الْمُكْثُ الْأَبَدِيُّ مُقَابِلَ مَا كَانُوا مِنْ حُجَجِ اللهِ يُنْكِرُونَ وَيَلْغُونَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ، ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ يَعْنُونَ إِبْلِيسَ وَقَابِيلَ بْنَ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ لِأَنَّهُمَا سنَّا المعصية، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ: « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْتَلُ**

---

(١) البخاري (٢٢٩٧) .

ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ ذَنْبِهِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»[1] ، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ**، فَقُلْتُ: أَوَ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينُ؟ قَالَ: **نَعَمْ** »[2]، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أَيْ أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا، ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ لِيَكُونَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيَكُونَا أشد عذاباً منا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أَخْلَصُوا له الدين والعمل، وَالِاسْتِقَامَةُ حَقِيقَتُهَا: عَدَمُ الِاعْوِجَاجِ وَالْمَيْلِ، وَتُطْلَقُ الِاسْتِقَامَةُ بِوَجْهِ الِاسْتِعَارَةِ عَلَىٰ مَا يَجْمَعُ مَعْنَىٰ حُسْنِ الْعَمَلِ وَالسِّيرَةِ عَلَىٰ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت : ٦] ، وَيُقَالُ: اسْتَقَامَتِ الْبِلَادُ لِلْمَلِكِ، أَيْ أَطَاعَتْ، وعن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَكْثَرَ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَرَفِ لِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا**»[3] ، وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ ؟ فَقَالَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ

---

(١) البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧) .

(٢) أحمد (٢١٥٣٢) .

(٣) الترمذي (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) .

اللهُ عَنْهُ: الِاسْتِقَامَةُ أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا تَرُوغَ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ ، وَقَالَ عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ، وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَدَّوُا الْفَرَائِضَ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اسْتَقَامُوا عَلَىٰ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: اسْتَقَامُوا عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ فَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ وَاجْتَنَبُوا مَعْصِيَتَهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: اسْتَقَامُوا عَلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَتَّىٰ لحقوا بالله ، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الْكِرَامُ، أَيْ: يَتَكَرَّرُ نُزُولُهُمْ عَلَيْهِمْ، مُبَشِّرِينَ لَهُمْ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: إذ قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ، قَالَ وَكِيعُ بْنُ الْجِرَاحِ: الْبُشْرَىٰ تَكُونُ فِي ثلاثة مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ وعند البعث، ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ مِنَ الْمَوْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَخَافُوا عَلَىٰ مَا تَقْدَمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَىٰ مَا خَلَّفْتُمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ، فَإِنَّا نَخْلُفُكُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ ذُنُوبِكُمْ فَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكُمْ، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: تُوعَدُونَ فِي كُتُبِ اللهِ ، وَعَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ بِالْبِشَارَةِ: نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ أَنْصَارُكُمْ وَأَحِبَّاؤُكُمْ، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي في الدنيا والآخرة، قال السُّدِّيُّ: تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ نَحْنُ الْحَفَظَةُ الَّذِينَ كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْآخِرَةِ يَقُولُونَ لَا نُفَارِقُكُمْ حَتَّىٰ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. قال ابن عاشور : أَي نَحن الَّذين كُنَّا فِي صُحْبَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا، إِذْ كَانُوا يَكْتُبُونَ

حَسَنَاتِهِمْ وَيَشْهَدُونَ عِنْدَ اللهِ بِصَلَاتِهِمْ ، كَمَا فِي حَدِيثِ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(١) ، وَقَالَ زَيْدُ ابْنُ أَسْلَمَ: يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وفي قبره وحين يبعث، قَالَ ابنُ كثير : وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَهُوَ حَسَنٌ جداً، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَاللَّذَّاتِ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنون ، أَيْ مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ وَحَضَرَ بَيْنَ أيديكم كَمَا اخْتَرْتُمْ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًا﴾ رزقًا، وَالنُّزُلُ: مَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ مِنَ الْقِرَىٰ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ النُّزُولِ لِأَنَّهُ كَرَامَةُ النَّزِيلِ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِمَا يُعْطُونَهُ مِنَ الرَّغَائِبِ سَوَاءٌ كَانَتْ رِزْقًا أَمْ غَيْرَهُ، ﴿مِنْ غَفُورٍ﴾ غَفَرَ لَكُمُ السَّيِّئَاتِ، ﴿رَحِيمٍ﴾ حَيْثُ وَفَّقَكُمْ لِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ، ثُمَّ قَبِلَهَا مِنْكُمْ ، فَبِمَغْفِرَتِهِ أَزَالَ عَنْكُمُ الْمَحْذُورَ، وَبِرَحْمَتِهِ، أَنَالَكُمُ الْمَطْلُوبَ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ﴾ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، قال ابن سيرين: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، دَعَا إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ مَا أَجَابَ إِلَيْهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إنني مع الْمُسْلِمِينَ ، وَقَالَتْ

---

(١) البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢) .

عَائِشَةُ: أَرَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِينَ ، قَالَتْ: فَهُوَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ ، فَقَدْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ، وَقَالَ قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: هُوَ الصَّلَاةُ بين الأذان الإقامة ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْمُؤَذِّنِينَ وَغَيْرِهِمْ ، فَأَمَّا حَالُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْأَذَانُ مَشْرُوعًا بِالْكُلِّيَّةِ، لِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَالْأَذَانُ إِنَّمَا شُرِعَ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَيْ: مَعَ دَعْوَتِهِ الْخَلْقَ إِلَىٰ اللهِ، بَادَرَ هُوَ بِنَفْسِهِ، إِلَىٰ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، الَّذِي يُرْضِي رَبَّهُ. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ، السَّالِكِينَ فِي طَرِيقِهِ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ، تَمَامُهَا لِلصِّدِّيقِينَ، الَّذِينَ عَمِلُوا عَلَىٰ تَكْمِيلِ أَنْفُسِهِمْ وَتَكْمِيلِ غَيْرِهِمْ

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: ﴿ لَا﴾ هَاهُنَا صِلَةٌ، معناه: لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ، يَعْنِي الصَّبْرُ وَالْغَضَبُ، وَالْحِلْمُ وَالْجَهْلُ، وَالْعَفْوُ وَالْإِسَاءَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَسَنَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالسَّيِّئَةُ الشِّرْكُ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْحَسَنَةُ الْعِلْمُ، وَالسَّيِّئَةُ الْفُحْشُ، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَرَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَبِالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَبِالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ ، وورَدَ فِي صِفَةِ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»(١) ، قَالَ القرطبي : نُسِخَتْ بِآيَةِ السَّيْفِ، وَبَقِيَ الْمُسْتَحَبُّ مِنْ ذَلِكَ: حُسْنُ الْعِشْرَةِ وَالِاحْتِمَالُ وَالْإِغْضَاءُ ، ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

(١) البخاري (٢١٢٥) .

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ يَعْنِي إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ خَضَعَ لَكَ عَدُوُّكَ وَصَارَ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ، ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ كَالصَّدِيقِ وَالْقَرِيبِ ، وَالْوَلِيُّ: اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَلَايَةِ وَالْوَلَاءِ، وَهُوَ: الْحَلِيفُ وَالنَّاصِرُ، وَهُوَ ضِدُّ الْعَدُوِّ، وَالْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ وَالصَّدِيقُ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ مَا يُلَقَّىٰ هَذِهِ الْخَصْلَةَ وَهِيَ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ، أَيْ وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَىٰ النُّفُوسِ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ كَظْمِ الْغَيْظِ وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فِي الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْحَظُّ الْعَظِيمُ الْجَنَّةُ، أَيْ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا مَنْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ أَيْ إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسْوَسَ، إِلَّا الِاسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَّطَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا اسْتَعَذْتَ بِاللهِ وَالْتَجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ**

وَنَفْخِهِ ونفثه»[1] ، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك وأقوالك، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأحوالك.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَنُفُوذِ مَشِيئَتِهِ، وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أَيْ: اعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، لِأَنَّهُ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ، وَدَعُوا عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ، مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِنْ كَبُرَ جُرْمُهُ وَكَثُرَتْ مَصَالِحُهُ ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فَخُصُّوهُ بِالْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالىٰ، ولم ينقادوا لها، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لا يملون ولا يفترون ، وَالسَّآمَةُ: الضَّجَرُ وَالْمَلَلُ مِنَ الْإِعْيَاءِ. وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لله تعالىٰ** »[2] .

---

(١) أبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) .

(٢) أحمد (٢١٥١٦) وابن ماجه (٤١٩٠)

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أَيْ يَابِسَةً جَدْبَةً، هَذَا وَصْفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ، وَالْأَرْضُ الْخَاشِعَةُ، الْغَبْرَاءُ الَّتِي تُنْبِتُ. وَبَلْدَةٌ خَاشِعَةٌ: أَيْ مُغَبَّرَةٌ لَا مَنْزِلَ بِهَا. وَمَكَانٌ خَاشِعٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أَيِ: انْتَفَخَتْ وَعَلَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْبُتَ ، قال مُجَاهِدٌ : أَيْ تَصَعَّدَتْ عَنِ النَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَالِاهْتِزَازُ وَالرَّبْوُ قَدْ يَكُونَانِ قَبْلَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَدْ يَكُونَانِ بَعْدَ خُرُوجِ النَّبَاتِ إِلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَرُبُوُّهَا ارْتِفَاعُهَا. وَيُقَالُ لِلْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ: رَبْوَةٌ وَرَابِيَةٌ، فَالنَّبَاتُ يَتَحَرَّكُ لِلْبُرُوزِ ثُمَّ يَزْدَادُ فِي جِسْمِهِ بِالْكِبَرِ طُولًا وَعَرْضًا ، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بَعْدَ مَوْتِهَا وَهُمُودِهَا، ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ بَعْثِهِمْ، وَنُشُورِهِمْ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَكَمَا لَمْ تَعْجَزْ قُدْرَتُهُ عَنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، لَا تَعْجَزُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يَمِيلُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي أَدِلَّتِنَا،أَيْ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ بِالْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ وَاللَّغْوِ وَالْغِنَاءِ ، وَالْإِلْحَادُ حَقِيقَتُهُ: الْمَيْلُ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ تَبْدِيلُ الْكَلَامِ وَوَضْعُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا بِالْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ وَاللَّغْوِ وَاللَّغَطِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَكْذِبُونَ فِي آيَاتِنَا ، قَالَ الْسُّدِّيُّ: يُعَانِدُونَ وَيُشَاقُّونَ ، ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ، يلقىٰ علىٰ وجهه ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قِيلَ: هُوَ حَمْزَةُ ، وَقِيلَ: عُثْمَانُ ، وقيل: عمار بن ياسر ، وَقِيلَ:

الْمُؤْمِنُونَ وَقِيلَ: إِنَّهَا عَلَىٰ الْعُمُومِ، فَالَّذِي يُلْقَىٰ فِي النَّارِ الْكَافِرُ، وَالَّذِي يَأْتِي آمِنًا يوم القيامة المؤمن، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ، أَيْ بَعْدَ مَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ فَلَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ الْجَزَاءِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: إِنْ شِئْتُمْ، فَاسْلُكُوا طَرِيقَ الرُّشْدِ الْمُوصِلَةَ إِلَىٰ رِضَا رَبِّكُمْ وَجَنَّتِهِ، وَإِنْ شِئْتُمْ، فَاسْلُكُوا طَرِيقَ الْغَيِّ الْمُسْخِطَةَ لِرَبِّكُمْ، الْمُوصِلَةَ إِلَىٰ دَارِ الشَّقَاءِ، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عَالِمٌ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم؛ لِأَنَّ فِيهِ ذِكْرَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ثُمَّ أَخَذَ فِي وَصْفِ الذِّكْرِ ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ جَامِعٌ لِأَوْصَافِ الْكَمَالِ ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيْ: مَنِيعٌ مِنْ كُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِتَحْرِيفٍ أَوْ سُوءٍ،، قَالَ الْكَلْبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَرِيمٌ عَلَىٰ اللهِ ، قَالَ قَتَادَةُ: أَعَزَّهُ اللهُ -عزّ وجلّ- فَلَا يَجِدُ الْبَاطِلُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ السُّدِّيُّ: عَزِيزٌ مِنَ الشَّيْطَانِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أَيْ: لَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، لَا بِسَرِقَةٍ، وَلَا بِإِدْخَالِ مَا لَيْسَ مِنْهُ بِهِ، وَلَا بِزِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ، فَهُوَ مَحْفُوظٌ فِي تَنْزِيلِهِ، مَحْفُوظَةٌ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ، قَدْ تَكَفَّلَ مَنْ أَنْزَلَهُ بِحِفْظِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ :﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْبَاطِلُ هُوَ الشَّيْطَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ أَوْ يَزِيدَ فِيهِ أَوْ يَنْقُصَ منه ، قال الحجاج: مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنْ أَنْ يُنْقَصَ مِنْهُ، فَيَأْتِيَهُ

الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَوْ يُزَادَ فِيهِ فَيَأْتِيَهُ الْبَاطِلُ مَنْ خَلْفِهِ، وَعَلَىٰ هَذَا مَعْنَىٰ: الْبَاطِلُ الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يَأْتِيهِ التَّكْذِيبُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي قَبْلَهُ، وَلَا يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِ كِتَابٌ فَيُبْطِلُهُ ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أَيْ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَمِيدٌ بِمَعْنَىٰ مَحْمُودٍ أَيْ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَىٰ عَنْهُ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ مِنَ الْأَذَىٰ، ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَقُولُ إِنَّهُ قَدْ قِيلَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ قَبْلَكَ سَاحِرٌ كَمَا يُقَالُ لَكَ، وكُذِّبوا كَمَا كُذِّبْتَ، قال قتادة والسدي: مَّا يُقَالُ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ إِلَّا كَمَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ من قبلك فكما كُذبِت كُذِّبُوا، وَكَمَا صَبَرُوا عَلَىٰ أَذَىٰ قَوْمِهِمْ لَهُمْ فَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَىٰ أَذَىٰ قَوْمِكَ لَكَ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ بِكَ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لِمَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَيْ جَعَلَنَا هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي تَقْرَؤُهُ عَلَىٰ النَّاسِ، ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ بِغَيْرِ لُغَةِ الْعَرَبِ، ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ هَلَّا بُيِّنَتْ آيَاتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ حَتَّىٰ نفهمها، ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يَعْنِي أَكِتَابٌ أَعْجَمِيٌّ وَرَسُولٌ عَرَبِيٌّ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِنْكَارِ، أَيْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ وَالْمُنَزَّلُ أَعْجَمِيٌّ، قال القرطبي : وَالْعَجَمِيُّ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ كَانَ فَصِيحًا أَوْ غَيْرَ فَصِيحٍ، وَالْأَعْجَمِيُّ الَّذِي لَا يُفْصِحُ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مِنَ الْعَجَمِ، فَالْأَعْجَمُ ضِدُّ الْفَصِيحِ وَهُوَ الَّذِي لَا يُبِينُ كَلَامَهُ، وَيُقَالُ لِلْحَيَوَانِ غَيْرِ

النَّاطِقِ أَعْجَمُ، وَمِنْهُ : «صَلَاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءُ»(١) أَيْ لَا يجهر فيها بالقراءة ، فَكَانَتِ النِّسْبَةُ إِلَىٰ الْأَعْجَمِ آكَدَ، لِأَنَّ الرَّجُلَ الْعَجَمِيَّ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ يَكُونُ فَصِيحًا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَالْعَرَبِيَّ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ فَصِيحٍ، فَالنِّسْبَةُ إِلَىٰ الْأَعْجَمِيِّ آكَدُ فِي الْبَيَانِ ، وَالْمَعْنَىٰ أَقُرْآنٌ أَعْجَمِيٌّ، وَنَبِيٌّ عَرَبِيٌّ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ. قَالَ مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ يَسَارٍ غُلَامِ عَامِرِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَكَانَ يَهُودِيًّا أَعْجَمِيًّا، يعني أَبَا فَكِيهَةَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ يَسَارٌ فَضَرَبَهُ سَيِّدُهُ، وَقَالَ: إِنَّكَ تُعَلِّمُ مُحَمَّدًا، فَقَالَ يَسَارٌ: هُوَ يُعَلِّمُنِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هذه الآية: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنُ، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًىٰ وَشِفَاءٌ﴾ لِمَا فِي الْقُلُوبِ، وَقِيلَ: شِفَاءٌ مِنَ الْأَوْجَاعِ، قال قتادة: ﴿ جعله الله نورًا وبركة وشفاء للمؤمنين﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىٰ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: عَمُوا عَنِ الْقُرْآنِ وَصُمُّوا عَنْهُ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ كَمَا أَنَّ مَنْ دُعِيَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَفْهَمْ، وَهَذَا مَثَلٌ لِقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِمَا يُوعَظُونَ بِهِ كَأَنَّهُمْ يُنَادَوْنَ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ، وَحَكَىٰ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنَّهُ يُقَالُ لِلَّذِي يَفْهَمُ: أَنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَرِيبٍ، وَيُقَالُ لِلَّذِي لَا يَفْهَمُ: أَنْتَ تُنَادَىٰ مِنْ بَعِيدٍ ، أَيْ كَأَنَّهُ يُنَادَىٰ مِنْ مَوْضِعٍ بَعِيدٍ مِنْهُ فَهُوَ لا يسمع النداء وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿ يُنادَوْنَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) قال الإمام النووي: هذا ليس بحديث، وإنما هو قول لبعض الفقهاء.

بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِمْ ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِتَوْبِيخِهِمْ وَفَضِيحَتِهِمْ. وَقِيلَ: أَيْ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ صَارَ كَالْأَعْمَىٰ الْأَصَمِّ، فَهُوَ يُنَادَىٰ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فَيَنْقَطِعُ صَوْتُ الْمُنَادِي عَنْهُ وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فَمُصَدِّقٌ وَمُكَذِّبٌ كَمَا اخْتَلَفَ قَوْمُكَ فِي كِتَابِكَ، وَالْكِنَايَةُ تَرْجِعُ إِلَىٰ الكتاب، وتسلية لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ لَا يَحْزُنْكَ اخْتِلَافُ قَوْمِكَ فِي كِتَابِكَ، فَقَدِ اخْتَلَفَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنِ الْمُكَذِّبِينَ بالقرآن، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لَفَرَغَ مِنْ عَذَابِهِمْ وَعَجَّلَ إِهْلَاكَهُمْ، قَالَ الْكَلْبِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ أَخَّرَ عَذَابَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ كَمَا فُعِلَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من صدقك، ﴿مُرِيبٍ﴾ أَيْ وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لِمَا قَالُوا، بَلْ كانوا شاكين فيما قالوه غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِشَيْءٍ كَانُوا فِيهِ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحـًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَفِي هَذَا، حَثٌّ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَانْتِفَاعِ الْعَامِلِينَ، بِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ، وَضَرَرِهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَأَنَّهُ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَيْ لَا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وإرسال الرسول إليه. وكَمَا ورد عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا

رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: « **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا** » .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَيْ عِلْمُهَا إِذَا سُئِلَ عَنْهَا مَرْدُودٌ إِلَيْهِ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: **مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** »(١)، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها فَالْأَكْمَامُ أَوْعِيَةُ الثَّمَرَةِ، وَاحِدُهَا كُمَّةٌ وَهُوَ وِعَاءُ الثَّمَرِ وَهُوَ الْجُفُّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ النَّخْلَةِ مُحْتَوِيًا عَلَىٰ طَلْعِ الثَّمَرِ، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَقُولُ: يُرَدُّ إِلَيْهِ عِلْمُ السَّاعَةِ كَمَا يُرَدُّ إِلَيْهِ عِلْمُ الثِّمَارِ وَالنِّتَاجِ ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ مَا يَحْدُثُ شَيْءٌ مِنْ خُرُوجِ ثَمَرَةٍ وَلَا حَمْلِ حَامِلٍ وَلَا وَضْعِ وَاضِعٍ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ، يَعْلَمُ عَدَدَ أَيَّامِ الْحَمْلِ وَسَاعَاتِهِ وَأَحْوَالَهُ مِنَ الْخِدَاجِ وَالتَّمَامِ وَالذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يُنَادِي اللهُ الْمُشْرِكِينَ، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهَا آلِهَةٌ تَشْفَعُ، ﴿قَالُوا﴾ يعني المشركين، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَهُمْ جَمِيعًا الْعَابِدَ وَالْمَعْبُودَ ﴿آذَنَّاكَ﴾ أَعْلَمْنَاكَ، يُقَالُ: آذَنَ يؤذن: إذا أعلم ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أَيْ مِنْ شَاهِدٍ بِأَنَّ لَكَ شَرِيكًا لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ تَبَرَّءُوا مِنَ الْأَصْنَامِ.

---

(١) مسلم (٨) .

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: ذَهَبَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، الَّتِي أَفْنَوْا فِيهَا أَعْمَارَهُمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَظَنُّوا أَنَّهَا تُفِيدُهُمْ، وَتَدْفَعُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، وَتَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، فَخَابَ سَعْيُهُمْ، وَانْتَقَضَ ظَنُّهُمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ شَيْئًا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا، ﴿وَظَنُّوا﴾ أَيْقَنُوا، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب، وَالْمَحِيصُ حَاصَ يَحِيصُ، إِذَا هَرَبَ، أَيْ مَا لَهُمْ مَفَرٌّ مِنَ النَّارِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ﴾ لَا يَمَلُّ الْكَافِرُ، ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الْخَيْرَ، يَعْنِي الْمَالَ وَالْغِنَىٰ وَالصِّحَّةَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَا يَمَلُّ دَائِمًا، مِنْ دُعَاءِ اللهِ، فِي الْغِنَىٰ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا، وَلَا يَزَالُ يَعْمَلُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَقْتَنِعُ بِقَلِيلٍ، وَلَا كَثِيرٍ مِنْهَا، فَلَوْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا، مَا حَصَلَ، لَمْ يَزَلْ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مَنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ لَهُمَا ثَالِثًا، وَلَوْ أَنَّ لَهُ ثَلَاثَةً لَأَحَبَّ لَهُمَا رَابِعًا، وَلَا يَمْلَأُ عَيْنَ ابْنِ** آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ»[1]، ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الشدة والفقر، وأنواع البلايا ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من روح الله، ﴿قَنُوطٌ﴾ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ مِنْ مَالٍ وَصِحَّةٍ وَرَفَاهِيَةٍ وَسُرُورٍ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ مِنْ بَلَاءٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ ضِيقٍ أَوْ أَلَمٍ سَارَعَ إِلَىٰ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ وَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ.

---

(١) البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٨) .

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ آتَيْنَاهُ خَيْرًا وَعَافِيَةً وَغِنًىٰ، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ مِنْ بَعْدِ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ أَصَابَتْهُ، ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي بعملي وأنا محبوب بِهَذَا، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يَقُولُ هَذَا الْكَافِرُ لَسْتُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنَ الْبَعْثِ، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَرُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ، أَيِ الْجَنَّةُ أَيْ كَمَا أَعْطَانِي فِي الدُّنْيَا سَيُعْطِينِي فِي الْآخِرَةِ، يَتَمَنَّىٰ الْأَمَانِيَّ بِلَا عَمَلٍ، قَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: لِلْكَافِرِ أُمْنِيَّتَانِ أَمَّا فِي الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ: ﴿ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَقُولُ: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] ، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ : ٤٠] ، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيْ لَنَجْزِيَنَّهُمْ ، قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ عَلَيْهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: لنوقفنهم عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، وَكَنَّىٰ بِغَلِيظٍ: الْعَذَابَ عَنْ شِدَّتِهِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الإِنْسَانِ﴾ بصحة، أو رزق، أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَأَىٰ﴾ ترفع ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عجبا وتكبرًا. ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أَيْ: الْمَرَضُ، أَوِ الْفَقْرُ، أَوْ غَيْرُهُمَا ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أَيْ: كَثِيرٌ جِدًّا، لِعَدَمِ صَبْرِهِ، فَلَا صَبْرَ فِي الضَّرَّاءِ، وَلَا شُكْرَ فِي الرَّخَاءِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الطُّولَ وَالْعَرْضَ فِي الْكَثْرَةِ، يُقَالُ: أَطَالَ فُلَانٌ الْكَلَامَ وَالدُّعَاءَ وَأَعْرَضَ، أَيْ أَكْثَرَ، قَالَ النَّسَفِيُّ: هَذَا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ طُغْيَانِ

الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ اللهُ بِنِعْمَةٍ أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ فَنَسِيَ الْمُنْعِمَ وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِهِ ، ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ وَتَبَاعَدَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَدُعَائِهِ أَوْ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ وَتَكَبَّرَ وَتَعَظَّمَ، وَتَحْقِيقُهُ أَنْ يُوضَعَ جَانِبُهُ مَوْضِعَ نَفْسِهِ لِأَنَّ مَكَانَ الشَّيْءِ وَجِهَتَهُ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ نَفْسِهِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ أَيْ كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ؟ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أَيْ فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلْحَقِّ وَمَسْلَكٍ بعيد من الهدىٰ، وَالشِّقَاقُ: الْعِصْيَانُ، وَالْمُرَادُ: عِصْيَانُ أَمْرِ اللهِ لِظُهُورِ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَىٰ هَذَا الْفَرْضِ بَيْنَنَا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: يَعْنِي مَنَازِلَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَبْدَانُهُمْ، مِنْ بَدِيعِ آيَاتِ اللهِ وَعَجَائِبِ صَنْعَتِهِ، وَبَاهِرِ قُدْرَتِهِ، وَفِي حُلُولِ الْعُقُوبَاتِ وَالْمَثُلَاتِ فِي الْمُكَذِّبِينَ، وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: فِي الْآفَاقِ يَعْنِي وَقَائِعَ اللهِ فِي الْأُمَمِ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وقال مجاهد والحسن البصري: فِي الْآفَاقِ مَا يُفْتَحُ مِنَ الْقُرَىٰ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ فَتْحُ مَكَّةَ ، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي دِينَ الْإِسْلَامِ ، وَقِيلَ: الْقُرْآنُ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَقِيلَ: مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ

أَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَقَالَ عَطَاءٌ وَابْنُ زَيْدٍ: فِي الْآفَاقِ يَعْنِي أَقْطَارَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ لَطِيفِ الصَّنْعَةِ وَبَدِيعِ الْحِكْمَةِ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ صَادِقٌ، بِشَهَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِالتَّصْدِيقِ، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ، وَأَيَّدَهُ، وَنَصَرَهُ نَصْرًا مُتَضَمِّنًا لِشَهَادَتِهِ الْقَوْلِيَّةِ، عِنْدَ مَنْ شَكَّ فِيهَا ، قَالَ مُقَاتِلٌ: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ لِأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ شَاهِدٌ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ، وَالْمِرْيَةُ: الشَّكُّ؛ وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُقَرِّرًا: إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا كُلِّهَا بِحُكْمِهِ فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: هُوَ الَّذِي أَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِجَمِيعِ خلقه، وَهُوَ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَهَذَا الِاسْمُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي مَعْرِضِ الْوَعِيدِ، وَحَقِيقَتُهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَاسْتِئْصَالُ الْمُحَاطِ بِهِ، وَأَصْلُهُ مُحْيِطٌ نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْيَاءِ إِلَىٰ الْحَاءِ فَسُكِّنَتْ، يُقَالُ مِنْهُ: أَحَاطَ يُحِيطُ إِحَاطَةً وَحَيْطَةً، وَمِنْ ذَلِكَ حَائِطُ الدَّارِ، يحوطها أهلها.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ ، بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الشُّورَى

وَتُسَمَّىٰ «سُورَةَ عسق» بِدُونِ لَفْظِ حم لِقَصْدِ الِاخْتِصَارِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَقَبْلَ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ.

[١-٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حم . عسق﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَقد سُئِلَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ لِمَ يُقَطَّع ﴿حم . عسق﴾ وَلَمْ يُقطَّع ﴿كهيعص﴾ ؟ فقال: لأنها سور أَوَائِلُهَا حم فَجَرَتْ مَجْرَىٰ نَظَائِرِهَا ، فَكَانَ حم مُبْتَدَأً وَعسق خَبَرَهُ، وَلِأَنَّهُمَا عُدَّا آيَتَيْنِ، وَأَخَوَاتُهَا مِثْلُ : (كهيعص) ، (المص)، (المر) ، عُدَّتْ آيَةً وَاحِدَةً ، وَقِيلَ: لِأَنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي (كهيعص وَأَخَوَاتِهَا أَنَّهَا حُرُوفُ التَّهَجِّي لَا غَيْرَ، وَاخْتَلَفُوا فِي حم فَأَخْرَجَهَا بَعْضُهُمْ مِنْ حَيِّزِ الْحُرُوفِ وَجَعَلَهَا فِعْلًا، وَقَالَ: مَعْنَاهَا: حَمَّ أَيْ قَضَىٰ مَا هُوَ كَائِنٌ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أَيْ كَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ كَذَلِكَ أُنْزِلَ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْيَانًا

يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي المَلك رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» ، قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جبينه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتفصد عرقـًا »[1] ، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ تُحِسُّ بِالْوَحْيِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَسْمَعُ صَلَاصِلَ، ثُمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَىٰ إليَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أن نفسي تقبض**»[2] ، ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أَيْ فِي انْتِقَامِهِ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أقواله وأفعاله.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ الْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصْرِيفِهِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره، ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي من عظمته:

[٥] : ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أَيْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَتَفَطَّرُ فَوْقَ الَّتِي تَلِيهَا مِنْ قَوْلِ المشركين: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، نَظِيرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم : ٨٨-٨٩] ، وقال ابن عباس : أَيْ تَكَادُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَنْفَطِرُ فَوْقَ الَّتِي تَلِيهَا، مِنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿ اتَّخَذَ اللهُ

---

(١) البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣) .

(٢) أحمد (٧٠٦٥) .

وَلَداً﴾، وقَالَ قتادة : من عَظمَة الله تَعَالَىٰ وجلاله ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ فَوْقَ الْأَرَضِينَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ لَوْ كُنَّ مِمَّا يَعْقِلُ ، قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ يُنَزِّهُونَهُ عَمَّا لَا يَجُوزُ فِي وَصْفِهِ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ. وَقِيلَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ جُرْأَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَيُذْكَرُ التَّسْبِيحُ فِي مَوْضِعِ التَّعَجُّبِ ، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ تَسْبِيحَهُمْ تَعَجُّبٌ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ تَعَرُّضِهِمْ لِسَخَطِ اللهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَسْبِيحُهُمْ خُضُوعٌ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ عَظَمَةِ اللهِ. قال القرطبي : وَمَعْنَىٰ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه ، قال الْمَاوَرْدِيُّ: وَفِي اسْتِغْفَارِهِمْ لَهُمْ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا- مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ مُقَاتِلٍ.

الثَّانِي- أَنَّهُ طَلَبُ الرِّزْقِ لَهُمْ وَالسَّعَةِ عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ.

قَالَ القرطبي : وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَعُمُّ الْكَافِرَ وَغَيْرَهُ، وَعَلَىٰ قَوْلِ مُقَاتِلٍ لَا يَدْخُلُ فِيهِ الْكَافِرُ ، ﴿أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الَّذِي لَوْلَا مَغْفِرَتُهُ وَرَحْمَتُهُ، لَعَاجَلَ الْخَلْقَ بِالْعُقُوبَةِ الْمُسْتَأْصِلَةِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي أَصْنَامًا يَعْبُدُونَهَا، ﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ يَحْفَظُ أَعْمَالَهُمْ لِيُجَازِيَهُمْ بِهَا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لَمْ يُوَكِّلْكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ تُؤْخَذَ بِهِمْ، وَلَا مُفَوَّضٌ إِلَيْكَ إِحْصَاءُ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ فَبَلِّغْهُمْ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ مِثْلَ مَا ذَكَرْنَا، أَيْ وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَإِلَىٰ مَنْ قَبْلِكَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عربيا بيناه بلغة العرب، وقيل: أَيْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بِلِسَانِ قَوْمِكَ، كَمَا أَرْسَلْنَا كُلَّ رَسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مَكَّةَ يَعْنِي : أَهْلَهَا، وَكُنِّيَتْ: أُمَّ الْقُرَىٰ لِأَنَّهَا أَقْدَمُ الْمُدُنِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَدَعَاهَا الْعَرَبُ: أُمَّ الْقُرَىٰ، لِأَنَّ الْأُمَّ تُطْلَقُ عَلَىٰ أَصْلِ الشَّيْءِ مِثْلَ: أُمِّ الرَّأْسِ، وَقَوْلِهِمْ: أُمُّ الطَّرِيقِ، لِلطَّرِيقِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَوْلَهُ طُرُقٌ صِغَارٌ ، وَقَال ابن كثير : وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ البلاد لأدله كثيرة منها قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(١) ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يَعْنِي قُرَىٰ الْأَرْضِ كُلَّهَا، ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أَيْ تُنْذِرُهُمْ بِيَوْمِ الْجَمْعِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ والآخرين وأهل السماوات والأرضين، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لَا شَكَّ فِي الْجَمْعِ أَنَّهُ كَائِنٌ ثُمَّ بَعْدَ الْجَمْعِ يَتَفَرَّقُونَ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ فَضْلٌ مِنَ اللهِ، ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ عَدْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ مِنْهُمْ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ، وَاتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، أَيِ النَّارِ الْمُوقَدَةِ الْمَسْعُورَةِ عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَخَالَفُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُ.

---

(١) الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ إِمَّا عَلَىٰ الْهِدَايَةِ أَوْ عَلَىٰ الضَّلَالَةِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَىٰ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ، فَهَدَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَأَضَلَّ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ والحجة البالغة، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: عَلَىٰ دِينٍ وَاحِدٍ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: عَلَىٰ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٣٥] ، ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في دين الإسلام، ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَدْفَعُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَمْنَعُهُمْ مِنَ النَّارِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بَلِ اتَّخَذُوا أَيْ الْكَافِرُونَ، ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ إِنْكَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ اتِّخَاذَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِخْبَارٌ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ الْعِبَادَةَ غَيْرَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَلِيُّكَ يَا مُحَمَّدُ وَوَلِيُّ مَنِ اتَّبَعَكَ، ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ إِحْيَاءِ خَلْقِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، قال القرطبي: أَيْ وَمَا خَالَفَكُمْ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَقُولُوا لَهُمْ حُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ لَا إِلَيْكُمْ، وَقَدْ حَكَمَ أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْإِسْلَامُ لَا غَيْرُهُ. وَأُمُورُ الشَّرَائِعِ إِنَّمَا تُتَلَقَّىٰ مِنْ بَيَانِ اللهِ ، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ﴾ يَقْضِي فِيهِ وَيَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْفَصْلِ الَّذِي يُزِيلُ الرَّيْبَ، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ [الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ

الْمُخْتَلِفِينَ هُوَ ﴿رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ عَلَيْهِ اعْتَمَدْتُ، وَإِلَيْهِ ﴿أُنِيبُ﴾ أَرْجِعُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، والْفَاطِرُ: الْمُبْدِعُ وَالْخَالِقُ ، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ مِنْ مِثْلِ خَلْقِكُمْ حَلَائِلَ، قِيلَ: إِنَّمَا قَالَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِأَنَّهُ خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أَصْنَافًا ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يخلقكم، وَالذَّرْءُ: بَثُّ الْخَلْقِ وَتَكْثِيرُهُ، ﴿فِيهِ﴾ أَيْ فِي الرَّحِمِ، وَقِيلَ: فِي الْبَطْنِ، وَقِيلَ: عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْخِلْقَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: نَسَلًا بَعْدَ نَسْلٍ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ، وَقِيلَ: فِي بِمَعْنَىٰ الْبَاءِ أَيْ يَذْرَؤُكُمْ بِهِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ يُكَثِّرُكُمْ بالتزويج. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ يُشْبِهُهُ تَعَالَىٰ وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، لِأَنَّ أَسْمَاءَهُ كُلَّهَا حُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ صِفَةُ كَمَالٍ وَعَظَمَةٍ، وَأَفْعَالُهُ تَعَالَىٰ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لِانْفِرَادِهِ وَتَوَحُّدِهِ بِالْكَمَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَىٰ تَفَنُّنِ الْحَاجَاتِ، ﴿الْبَصِيرُ﴾ يَرَىٰ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، عَلَىٰ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، وَيَرَىٰ سَرَيَانَ الْقُوتِ فِي أَعْضَاءِ الْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ جِدًّا، وَسَرَيَانَ الْمَاء فِي الْأَغْصَانِ الدَّقِيقَةِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: الْمَطَرُ وَالنَّبَاتُ، وقال النَّحَّاسُ: وَالَّذِي يَمْلِكُ الْمَفَاتِيحَ يَمْلِكُ الْخَزَائِنَ، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لِأَنَّ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ بِيَدِهِ، فيُوَسِّعُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُّ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَيَعْلَمُ أَحْوَالَ عِبَادِهِ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ، فَلَهُ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ بَيَّنَ وَسَنَّ لَكُمْ، وَمَعْنَىٰ شَرَعَ أَوْضَحَ وَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَالِكَ مَا كَلَّفَكُمْ بِهِ وَالشَّارِعُ: الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ، وَقَدْ شُرِعَ الْمَنْزِلُ إِذَا كَانَ عَلَىٰ طَرِيقٍ نَافِذٍ ، وَشَرَعْتَ الْإِبِلَ إِذَا أَمْكَنْتَهَا مِنَ الشَّرِيعَةِ. وَشَرَعْتَ الْأَدِيمَ إِذَا سَلَخْتَهُ، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ وَهُوَ أَوَّلُ أَنْبِيَاءِ الشَّرِيعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: أَوْصَيْنَاكَ وَإِيَّاهُ يَا مُحَمَّدُ دِينًا وَاحِدًا، قال ابن كثير : فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ وَهُوَ ﴿ نُوحٌ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرَهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﴿ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ ، ثم ذكر ما بين ذلك من أولي العزم، وهو: إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَظَمَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مِنْ الْقُرْآنِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ خَصَّ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ أَرْبَابُ الشَّرَائِعِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ الْآيَةِ، فَقَالَ قَتَادَةُ: تَحْلِيلُ الْحَلَالِ وَتَحْرِيمُ الْحَرَامِ ، وَقَالَ الْحَكَمُ: تَحْرِيمُ الْأُمَّهَاتِ وَالْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَمْ يَبْعَثِ الله نبيا إلا أوصاه بِإِقَامِ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْإِقْرَارِ لله بالطاعة، فَذَلِكَ دِينُهُ الَّذِي شَرَعَ لَهُمْ، وَقِيلَ: هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: هُوَ مَا ذَكَرَ مِنْ بَعْدِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ بَعَثَ اللهُ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَالْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَتَرْكِ الْفُرْقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ عَظُمَ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَرَفْضِ الْأَوْثَانِ ، قَالَ قَتَادَةُ: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَضَاقَ بِهَا إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ، فَأَبَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهَا ويعليها ويظهرها على من نَاوَأَهَا، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: شَقَّ عَلَيْهِمْ غَايَةَ الْمَشَقَّةِ، حَيْثُ دَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يصطفي لدينه مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَالِاجْتِبَاءُ الِاخْتِيَارُ، أَيْ يَخْتَارُ لِلتَّوْحِيدِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمِنْهُ أَنِ اجْتَبَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَفَضَّلَهَا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَاخْتَارَ لَهَا أَفْضَلَ الْأَدْيَانِ وَخَيْرَه.، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أَيْ هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهِدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَيَكْتُبُ الضَّلَالَةَ عَلَى مَنْ آثَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

[١٤] : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يعني أهل الْكِتَابَ ، فَالْمُشْرِكُونَ قَالُوا: لِمَ خُصَّ بِالنُّبُوَّةِ! وَالْيَهُودُ حسدوه لما بعث، وكذا النصارى ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِمْ نَبِيٌّ، وَقِيلَ: أُمَمُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمُ اخْتَلَفُوا لَمَّا طَالَ بِهِمُ الْمَدَى ، فَآمَنَ قَوْمٌ وَكَفَرَ قَوْمٌ،

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ لِلْبَغْيِ، فَلَيْسَ تَفَرُّقُهُمْ لِقُصُورٍ فِي الْبَيَانِ وَالْحُجَجِ، وَلَكِنْ للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا ، قَالَ عَطَاءٌ: يَعْنِي بَغْيًا بَيْنَهُمْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقال قتادة: ﴿ إياكم والفرقة فإنها هلكة ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَيْ: وَلَوْلَا مَا سَبَقَ فِي قَضَاءِ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ لَا يُعَاجِلَهُمْ بِالْعَذَابِ بَلْ يُؤَخِّرَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ مَنْ آمَنَ وَكَفَرَ، يَعْنِي أَنْزَلَ الْعَذَابَ بِالْمُكَذِّبِينَ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي مِنْ بَعْدِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَقِيلَ: مِنْ بَعْدِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ مِنْ قَبْلِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أَيْ مَنَّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم ليسُوا علىٰ يقين من أمرهِم، وَإِنَّمَا هُمْ مُقَلِّدُونَ لِآبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مُرِيبٍ، وَشِقَاقٍ بَعِيدٍ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أَيْ فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ، أصحاب الشرائع المتبعة، فادع الناس إليه، قال البغوي : أَيْ فَإِلَىٰ ذَلِكَ كَمَا يُقَالُ دَعَوْتُ إِلَىٰ فُلَانٍ وَلِفُلَانٍ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ مَا وَصَّىٰ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ التَّوْحِيدِ، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي اثْبُتْ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي أُمِرْتَ بِهِ، ال قَتَادَةُ: أَيِ اسْتَقِمْ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، وَقَالَ سُفْيَانُ: أَيِ اسْتَقِمْ عَلَىٰ الْقُرْآنِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتَقِمْ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَالِاسْتِقَامَةُ: الِاعْتِدَالُ،

وَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلَ: أَجَابَ وَاسْتَجَابَ، قال ابن عاشور : وَإِنَّمَا أُمِرَ بِالِاسْتِقَامَةِ، أَيِ الدَّوَامِ عَلَيْهَا، لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ كَمَالَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْحَقِّ لَا يَحْصُلُ إِلَّا إِذَا كَانَ الدَّاعِي مُسْتَقِيمًا فِي نَفْسِهِ ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ فيه وكذبوه وافتروا من عبادة الأوثان ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أَيْ آمنت بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أَنْ أَعْدِلَ بَيْنَكُمْ، قال قَتَادَة : أَمر نَبِي الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ان يَعْدِلَ فَعدل حَتَّىٰ مَاتَ وَالْعَدْلُ مِيزَانُ اللهِ فِي الْأَرْضِ بِهِ يَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَلِلضَّعِيفِ مِنَ الشَّدِيدِ، وَبِالْعَدْلِ يُصَدِّقُ اللهُ الصَّادِقَ وَيُكَذِّبُ الْكَاذِبَ، وَبِالْعَدْلِ يَرُدُّ الْمُعْتَدِيَ وَيُوَبِّخُهُ ، وَقِيلَ: لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْيَاءِ ، عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، فَقَالَ: ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًىٰ مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَىٰ، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا**»[١] ، ﴿اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أَيْ: هُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ، لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا ، ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخِطَابُ لِلْيَهُودِ، أَيْ لَنَا دِينُنَا وَلَكُمْ دِينُكُمْ ،﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ: لَا خُصُومَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ لَا

(١) البيهقي ﴿الشعب ، رقم ٧٣١) .

خُصُومَةَ وَلَا مُحَاجَّةَ بَعْدَ هَذَا، لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُحَاجَّةِ حَاجَةٌ، وَلَا لِلْمُخَالَفَةِ مَحَلٌّ سِوَىٰ الْمُكَابَرَةِ، وقيل : نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْقِتَالِ وَأُمِرَ بِالدَّعْوَةِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَا يُجِيبُ خُصُومَةٌ، ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ فِي الْمَعَادِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، وَيَتَبَيَّنُ حِينَئِذٍ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ يُخَاصِمُونَ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْيَهُودُ قَالُوا: كِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، فَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ، فَهَذِهِ خُصُومَتُهُمْ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أَيْ اسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ فَأَسْلَمُوا وَدَخَلُوا فِي دِينِهِ لِظُهُورِ مُعْجِزَتِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ بَعْدِ مَا أَسْلَمَ النَّاسُ، قَالَ: وَهَؤُلَاءِ قَدْ تَوَهَّمُوا أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ تَعُودُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، وَمُحَاجَّتُهُمْ قَوْلُهُمْ نَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمُ الْفَضِيلَةَ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَنَّهُمْ أَوْلَادُ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ خُصُومَتُهُمْ بَاطِلَةٌ، وَالدَّاحِضَةُ: الَّتِي دَحَضَتْ يُقَالُ: دَحَضَتْ رِجْلُهُ تَدْحَضُ أَيْ زَلَّتِ ، وَدَحَضَتِ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ زَالَتْ أَيْ لَا ثَبَاتَ لَهَا كَالشَّيْءِ الَّذِي يَزِلُّ عَنْ ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لِعِصْيَانِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ وَتَكْذِيبِهَا، وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ: « **إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ**

مِثْلَهُ »[1] ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُثْبِتُونَ صِفَةَ الْغَضَبِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ لَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُشَبِّهُونَ وَلَا يُحَرِّفُونَ وَلَا يُؤَوِّلُونَ؛ كَمَنْ يَقُولُ: الغضبُ إرادةُ العِقابِ، ولا يُعطِّلون، بل يَقولُونَ ﴿ :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وذهب أحمدُ بنُ حَنبَلٍ رحمه الله إلىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يغضَبُ ويرضىٰ، وأنَّ له غَضَبًا ورضًا، وقرأ أحمدُ قَولَه عزَّ وجَلَّ ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ، وقال ابنُ أبي زيد القيرواني: ممَّا أجمعت عليه الأئمَّةُ من أمورِ الدِّيانةِ، ومن السُّنَنِ التي خلافُها بِدعةٌ وضلالةٌ... أنَّه يرضىٰ عن الطَّائعين ويحِبُّ التَّوَّابين ويَسخَطُ علىٰ من كَفَر به ويَغضَبُ، فلا يقومُ شيءٌ لغَضَبِه... وكُلُّ ما قَدَّمْنا ذِكْرَه فهو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ وأئمَّةِ النَّاسِ في الفِقهِ والحديثِ علىٰ ما بَيَّنَّاه، وكُلُّه قَولُ مالكٍ؛ فمنه منصوصٌ من قَولِه، ومنه معلومٌ مِن مَذهَبِه ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هُوَ أَثَرُ غَضَبِ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَهَذِهِ عُقُوبَةُ كُلِّ مُجَادِلٍ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَهُوَ العدل والإنصاف، قال ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْعَدْلُ يُسَمَّىٰ مِيزَانًا، لِأَنَّ الْمِيزَانَ آلَةُ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ ، وَقِيلَ: الْمِيزَانُ مَا بُيِّنَ فِي الْكُتُبِ مِمَّا يَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ. وَقَالَ

(١) البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) .

قَتَادَةُ: الْمِيزَانُ الْعَدْلُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَىٰ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْوَفَاءِ، وَنَهَىٰ عَنِ الْبَخْسِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَأَمَّا الْمِيزَانُ، فَهُوَ الْعَدْلُ وَالِاعْتِبَارُ بِالْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَالْعَقْلِ الرَّجِيحِ، فَكُلُّ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ، مِنَ الْآيَاتِ الْآفَاقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَالِاعْتِبَارَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْمُنَاسَبَاتِ وَالْعِلَلِ، وَالْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ، دَاخِلَةٌ فِي الْمِيزَانِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَوَضَعَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، لِيَزِنُوا بِهِ مَا اشْتَبَهَ مِنَ الْأُمُورِ، وَيَعْرِفُوا بِهِ صِدْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَأَخْبَرَتْ رُسُلُهُ، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ بِمَعْلُومٍ بُعْدُهَا، وَلَا مَتَىٰ تَقُومُ، فَهِيَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُتَوَقَّعٌ وُقُوعُهَا، مَخُوفٌ وَجْبَتُهَا.وَلَمْ يَقُلْ قَرِيبَةً لِأَنَّ تَأْنِيثَهَا غير حقيقي، وَالْمَعْنَىٰ: لَعَلَّ الْبَعْثَ أَوْ لَعَلَّ مَجِيءَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ. وقال الْكِسَائِيُّ: إِتْيَانُهَا قَرِيبٌ ، وقد روي أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ، وَهُوَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «**هاؤم**»، فقال له: متىٰ الساعة؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْحَكَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» فَقَالَ: حب الله ورسوله، فقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(١) ، قَالَ مُقَاتِلٌ: ذَكَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

---

(١) البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (٢٦٣٩) .

الساعة ذات يوم وعنده قوم من المشركين، فقالوا تَكْذِيبًا: مَتَىٰ تَكُونُ السَّاعَةُ؟: فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ:

[١٨] : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا غَيْرُ آتِيَةٍ، يَعْنِي عَلَىٰ طَرِيقِ الِاسْتِهْزَاءِ ، أَوْ إِيهَامًا لِلضَّعفاء أَنَّهَا لَا تَكُونُ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ أَيْ خَائِفُونَ، وَجِلُونَ لِاسْتِقْصَارِهِمْ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْجَهْدِ فِي الطَّاعَةِ، ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أَنَّهَا آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يخاصمون وقيل يدخلهم الْمِرْيَةُ وَالشَّكُّ، ﴿فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الِاعْتِبَارِ، إِذْ لَوْ تَذَكَّرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ إِلَىٰ أَنْ بَلَغُوا مَا بَلَغُوا، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَهُمْ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: حَفِيٌّ بِهِمْ قَالَ عِكْرِمَةُ: بَارٌّ بِهِمْ ، قَالَ الْسُّدِّيُّ : رَفِيقٌ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَطِيفٌ بالبَرِّ وَالْفَاجِرِ حيث لا يُهْلِكْهُمْ جُوعًا بِمَعَاصِيهِمْ، وَقِيلَ: اللَّطِيفُ الَّذِي يَنْشُرُ مِنْ عِبَادِهِ الْمَنَاقِبَ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمُ الْمَثَالِبَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ بِلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ لِيَعْرِفُوهُ وَيُحِبُّوهُ، وَيَتَعَرَّضُوا لِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللُّطْفُ مِنْ أَوْصَافِهِ تَعَالَىٰ مَعْنَاهُ: الَّذِي يُدْرِكُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ، الَّذِي يُوصِلُ عِبَادَهُ -وَخُصُوصًا الْمُؤْمِنِينَ- إِلَىٰ مَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَحْتَسِبُونَ ، قَوْلُهُ:﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَكُلُّ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَذِي رُوحٍ فَهُوَ مِمَّنْ يَشَاءُ اللهُ أَنْ يَرْزُقَهُ، قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ : اللُّطْفُ فِي الرِّزْقِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَنَّهُ جَعَلَ رِزْقَكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَدْفَعْهُ إليك مرة واحدة .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ كُلُّهَا، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ إِلَّا بِهِ، الَّذِي دَانَتْ لَهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الْحَرْثُ فِي اللُّغَةِ: الْكَسْبُ، يَعْنِي مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ، قَالَ القرطبي : الْحَرْثُ الْعَمَلُ وَالْكَسْبُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ: وَاحْرُثْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الرَّجُلُ حَارِثًا ، ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بِالتَّضْعِيفِ بِالْوَاحِدِ عَشَرَةً إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الزِّيَادَةِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيْ مَنْ طَلَبَ بِمَا رَزَقْنَاهُ حَرْثًا لِآخِرَتِهِ، فَأَدَّىٰ حُقُوقَ اللهِ وَأَنْفَقَ فِي إِعْزَازِ الدِّينِ، فَإِنَّمَا نُعْطِيهِ ثَوَابَ ذَلِكَ لِلْوَاحِدِ عَشْرًا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةٍ فَأَكْثَرَ ، وَقِيلَ: حَرْثُ الْآخِرَةِ الطَّاعَةُ، أَيْ من أطاع فله الثواب ، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا، ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ نُؤْتِهِ بِقَدْرِ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] ، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ لِلْآخِرَةِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ يعني كفار مكة، يقول ألهم آلِهَةٌ سَنُّوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، قال ابن كثير : أَيْ هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ

لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: شَرَعُوا لَهُمْ دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ لَوْلَا أَنَّ اللهَ حَكَمَ فِي كَلِمَةِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لَفَرَغَ مِنْ عَذَابِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَكَ في الدنيا، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ المشركين يوم القيامة، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وَجِلِينَ، ﴿مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أَيِ الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا محالة، جزاء كسبهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يشاؤون عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، مِمَّنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجِنَانِ، فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَاذَّ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أَيْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنِّعْمَةُ التَّامَّةُ، الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي﴾ ذَكَرْتُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، ﴿يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُمْ أَهْلُهُ، ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أن تذروني أبلغ رسالات ربي، فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، روى البخاري: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ من القرابة**»[1] ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنْ تَحْفَظُونِي فِي قَرَابَتِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُ الْكَذَّابُونَ ، وقال الحسن البصري: هُوَ الْقُرْبَىٰ إِلَىٰ اللهِ، يَقُولُ: إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ وَالتَّوَدُّدَ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ إِلَّا أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي وَعِتْرَتِي وَتَحْفَظُونِي فيهم. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ لَيْسَ بِاسْتِثْنَاءٍ مُتَّصِلٍ بِالْأَوَّلِ حَتَّىٰ يكون ذلك أجرا علىٰ مُقَابَلَةِ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، بَلْ هُوَ مُنْقَطِعٌ، وَمَعْنَاهُ: وَلَكِنِّي أُذَكِّرُكُمُ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَأُذَكِّرُكُمْ قَرَابَتِي مِنْكُمْ ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي من يكتسب طَاعَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا بالتضعيف، وَأَصْلُ الْقَرْفِ الْكَسْبُ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَقْرِفُ لِعِيَالِهِ، أَيْ يَكْسِبُ ، وَالِاقْتِرَافُ الِاكْتِسَابُ، وقال ابن عاشور: فَالِاقْتِرَافُ مُبَالَغَةٌ فِي الْكَسْبِ نَظِيرَ الِاكْتِسَابِ، وَلَيْسَ خَاصًّا بِاكْتِسَابِ السُّوءِ وَإِنْ كَانَ قَدْ غَلَبَ فِيهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَرَفَ الشَّجَرَةَ، إِذَا قَشَّرَ قِرْفَهَا، بِكَسْرِ الْقَافِ، وَهُوَ لِحَاؤُهَا، أَيْ قِشْرُ عُودِهَا، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب، ﴿شَكُورٌ﴾ لِلْقَلِيلِ حَتَّىٰ يُضَاعِفَهَا.

---

(١) البخاري (٤٨١٨) .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بَلْ يَقُولُونَ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ، ﴿افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أَيْ لَوِ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ، قال مجاهد: نربط عَلَىٰ قَلْبِكَ بِالصَّبْرِ حَتَّىٰ لَا يَشُقَّ عَلَيْكَ أَذَاهُمْ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّهُ مُفْتَرٍ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي يَطْبَعُ عَلَىٰ قَلْبِكَ فَيُنْسِيكَ الْقُرْآنَ وَمَا أَتَاكَ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَوِ افْتَرَىٰ علىٰ الله كذبا لَفَعَلَ بِهِ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فقال: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ قَالَ الْكِسَائِيُّ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مجازه: وَاللهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ، فَهُوَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَلَكِنَّهُ حُذِفَتْ مِنْهُ الْوَاوُ فِي الْمُصْحَفِ عَلَىٰ اللَّفْظِ كَمَا حُذِفَتْ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ [الإسراء: ١١] و ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [الْعَلَقِ: ١٨]، وَقد أَخْبَرَ أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ بَاطِلٌ يَمْحُوهُ اللهُ، ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أَيِ الْإِسْلَامَ بِمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ، وَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ فَمَحَا بَاطِلَهُمْ، وَأَعْلَىٰ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ بِمَا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ، وَتَنْطَوِي عليه السرائر.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ، قِيلَ: التَّوْبَةُ تَرْكُ الْمَعَاصِيَ نِيَّةً وَفِعْلًا، وَالْإِقْبَالُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ نِيَّةً وَفِعْلًا، قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: التَّوْبَةُ الِانْتِقَالُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمَذْمُومَةِ إِلَىٰ الْأَحْوَالِ الْمَحْمُودَةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ الْعَوْدِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سَيِّئِ الْإِخْوَانِ، ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَيَعْفُو عَنِ

السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ، فَإِذَا تَابُوا فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِهَا ، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَهُوَ مَا دُونَ الشِّرْكِ، يَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ بِلَا تَوْبَةٍ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَىٰ من تاب إليه.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ وَيُجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إِذَا دَعَوْهُ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَيُثِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ سِوَىٰ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ تَفَضُّلًا مِنْهُ، وقال أَبُو صَالِحٍ عَنْهُ: يُشَفِّعُهُمْ فِي إِخْوَانِهِمْ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ قَالَ فِي إِخْوَانِ إِخْوَانِهِمْ، ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُوجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ أَيْ: لَغَفَلُوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ التَّمَتُّعِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا، فَأَوْجَبَتْ لَهُمُ الإِكْبَابَ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ، وَلَوْ كَانَ مَعْصِيَةً وَظُلْمًا ، وَبَسَطَ الشَّيْءَ : نَشَرَهُ، قَالَ خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ: فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّا نَظَرْنَا إِلَىٰ أَمْوَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ والنضير وَبَنِي قَيْنُقَاعَ فَتَمَنَّيْنَاهَا فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ﴾ وَسَّعَ اللهُ الرِّزْقَ ﴿لَبَغَوْا﴾ لَطَغَوْا وَعَتَوْا، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَغْيُهُمْ طَلَبُهُمْ مَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ وَمَرْكَبًا بَعْدَ مَرْكَبٍ وَمَلْبَسًا بَعْدَ مَلْبَسٍ، ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ﴾ أرزاقهم، ﴿بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ كَمَا يَشَاءُ نَظَرًا مِنْهُ لِعِبَادِهِ ولحكمة اقتضتها قدرته، أَيْ يُنَزِّلُ

أَرْزَاقَهُمْ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ لِكِفَايَتِهِمْ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ يَجْعَلُ من يشاء غنيًا ومن يشاء فقيراً، ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ كَمَا فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الْغِنَىٰ، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَمْرَضْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الْمَرَضُ، وَلَوْ عَافَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، إِنِّي خَبِيرٌ بَصِيرٌ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ الْمَطَرَ، وَالْغَيْثُ مَا كَانَ نَافِعًا فِي وَقْتِهِ، وَالْمَطَرُ قَدْ يَكُونُ نَافِعًا وضارا في وقته وغير وقته، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ يَعْنِي مِنْ بَعْدِ مَا يَئِسَ النَّاسُ مِنْهُ وَذَلِكَ أَدْعَىٰ لَهُمْ إِلَىٰ الشُّكْرِ، وَالْقُنُوطُ: الْيَأْسُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: حَبَسَ اللهُ الْمَطَرَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ حَتَّىٰ قَنِطُوا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ الْمَطَرَ فَذَكَّرَهُمُ اللهُ نعمته، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أَيْ يَعُمُّ بِهَا الْوُجُودَ عَلَىٰ أهل ذلك القطر وتلك الناحية، ، كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وقال قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قُحِطَ الْمَطَرُ، وَقَنَطَ النَّاسُ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مُطِرْتُمْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ، وَيَتَوَلَّىٰ

الْقِيَامَ بِمَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ،﴿الْحَمِيدُ﴾ فِي وِلَايَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، الْحَمِيدُ عَلَىٰ مَا لَهُ مِنَ الْكَمَالِ، وَمَا أَوْصَلَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِفْضَالِ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانُهُ الْقَاهِرُ ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾، أَيْ ذَرَأَ فِيهِمَا، أَيْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾، وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ. وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ أقطار السماوات والأرض، ﴿وَهُوَ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الحق.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي مهما أصابكم فَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بَلْ يَعْفُو عَنْهَا، ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : مَا عاقَبَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَاللهُ أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي عَفْوِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هَرَبًا يَعْنِي لَا تُعْجِزُونَنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ وَلَا تَسْبِقُونَنِي، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَتَوَلَّاكُمْ، فَيَحْصُلَ لَكُمُ الْمَنَافِعُ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَدْفَعُ عَنْكُمُ الْمَضَارَّ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي﴾ يَعْنِي السُّفُنَ، وَاحِدَتُهَا جَارِيَةٌ وَهِيَ السائرة، أَيِ السُّفُنُ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٩] سُمِّيَتْ جَارِيَةً لِأَنَّهَا تَجْرِي فِي الْمَاءِ، وَالْجَارِيَةُ: هِيَ الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا يَجْرِي فِيهَا مَاءُ الشَّبَابِ،﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أَيِ الْجِبَالِ، وَالْأَعْلَامُ: جَمْعُ عَلَمٍ وَهُوَ الْجَبَلُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْقُصُورُ، أحدها عَلَمٌ، وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٌ عِنْدَ الْعَرَبِ فَهُوَ عَلَمٌ ، قَالَتِ الْخَنْسَاءُ تَرْثِي أَخَاهَا صَخْرًا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ التي تجريها، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ يعني السفن، ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت وَالرَّوَاكِدُ: جَمْعُ رَاكِدَةٍ، وَالرُّكُودُ: الِاسْتِقْرَارُ وَالثُّبُوتُ، كُلُّ ثَابِتٍ فِي مَكَانٍ فهو راكد ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ عَلَىٰ ظَهْرِ الْبَحْرِ لَا تَجْرِي، وَالظَّهْرُ: الصُّلْبُ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ الشَّيْءِ إِطْلَاقًا شَائِعًا. يُقَالُ: ظَهْرُ الْبَيْتِ، أَيْ سَطْحُهُ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيْ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ لِأَنَّ صِفَةَ الْمُؤْمِنِ الصَّبْرُ فِي الشِّدَّةِ وَالشُّكْرُ في الرخاء، قَالَ قُطْرُبٌ: نِعْمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ، الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرِ شَاكِرٍ، وَكَمْ مِنْ مُبْتَلَىٰ غَيْرِ صَابِرٍ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن ويغرقهن، وَالْإِيبَاقُ: الْإِهْلَاكُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْغَرَقُ، وَقِيلَ: يُوبِقْ أَهْلَ السُّفُنِ، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيْ بِمَا كَسَبَتْ رُكْبَانُهَا مِنَ الذنوب، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مِنْ ذُنُوبِهِمْ فَلَا يُعَاقِبُ عَلَيْهَا.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أَيْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ إِذَا صَارُوا إِلَىٰ اللهِ بَعْدَ الْبَعْثِ أَنْ لَا مَهْرَبَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ. قَالَ القرطبي : أَيْ إِذَا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ وَغَشِيَتْهُمُ الرِّيَاحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ أَوْ بَقِيَتِ السُّفُنُ رَوَاكِدَ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ سِوَىٰ اللهِ، وَلَا دَافِعَ لَهُمْ إِنْ أَرَادَ اللهُ إِهْلَاكَهُمْ فَيُخْلِصُونَ لَهُ الْعِبَادَةَ ، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَيْ مِنْ فِرَارٍ وَمَهْرَبٍ، قَالَ السُّدِّيُّ: مِنْ مَلْجَأٍ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَاصَ بِهِ الْبَعِيرُ حَيْصَةً إِذَا رَمَىٰ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ يَحِيصُ عَنِ الْحَقِّ أَيْ يَمِيلُ عَنْهُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يُرِيدُ من الغنىٰ والسعة في الدنيا. ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لَيْسَ مِنْ زَادِ الْمَعَادِ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ يَسْتَوِيَانِ فِي أَنَّ الدُّنْيَا مَتَاعٌ لهم يتمتعان بها فإذا صار إِلَىٰ الْآخِرَةِ كَانَ مَا عِنْدَ الله خيرا لِلْمُؤْمِنِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ قد ذَكَرْنَا مَعْنَىٰ الْكَبَائِرِ فِي سُورَةِ النساء ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الزِّنَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: مَا يُوجِبُ الْحَدَّ، والْفَوَاحِشَ: جَمْعُ فَاحِشَةٍ، وَهِيَ: الفِعْلَةُ الْمَوْصُوفَةُ بِالشَّنَاعَةِ

وَالَّتِي شَدَّدَ الدِّينُ فِي النَّهْيِ عَنْهَا وَتَوَعَّدَ عَلَيْهَا بِالْعَذَابِ أَوْ وَضَعَ لَهَا عُقُوبَاتٍ فِي الدُّنْيَا لِلَّذِي يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْ فَاعِلِيهَا. وَهَذِهِ مِثْلُ قتل النَّفس، وَالزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، قَالَ ابن عباس: كَبِيرُ الْإِثْمِ الشِّرْكُ ، وَقَالَ قَوْمٌ: كَبَائِرُ الْإِثْمِ مَا تقعُ عَلَىٰ الصَّغَائِرِ مَغْفُورَةٌ عِنْدَ اجْتِنَابِهَا ، وَالْفَوَاحِشُ دَاخِلَةٌ فِي الْكَبَائِرِ، وَلَكِنَّهَا تَكُونُ أَفْحَشَ وَأَشْنَعَ كَالْقَتْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْجُرْحِ، وَالزِّنَىٰ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْمُرَاوَدَةِ ، وَقِيلَ: الْفَوَاحِشُ وَالْكَبَائِرُ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، فَكَرَّرَ لِتَعَدُّدِ اللَّفْظِ، أَيْ يَجْتَنِبُونَ الْمَعَاصِيَ لِأَنَّهَا كَبَائِرُ وَفَوَاحِشُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْفَوَاحِشُ مُوجِبَاتُ الْحُدُودِ ، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يَحْلُمُونَ وَيَكْظِمُونَ الْغَيْظَ وَيَتَجَاوَزُونَ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ»(١).

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَجَابُوهُ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا يَبْدُو لَهُمْ وَلَا يعجلون، قِيلَ: الْمُشَاوَرَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ شَارَ الدَّابَّةَ إِذَا اخْتبرَ جَرْيَهَا عِنْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ الْمُشْتَرِي، وَفِعْلُ شَارَ الدَّابَّةَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمِشْوَارِ وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي تَرْكُضُ فِيهِ الدَّوَابُّ. وَقِيلَ: مُشْتَقَّةٌ مِنْ شَارَ الْعَسَلَ أَي جناه مِنَ الْوَقْبَةِ لِأَنَّ بِهَا يُسْتَخْرَجُ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ فِي الْأَمْرِ الْمُهِمِّ الْمُشكل من شؤون الْمَرْءِ فِي

---

(١) البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧) .

نَفسه أَو شؤون الْقَبِيلَة أَو شؤون الْأُمَّةِ ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: اجْتَمَعَ لِأَبِي بَكْرٍ مَالٌ مَرَّةً، فَتَصَدَّقَ بِهِ كُلِّهِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، فَلَامَهُ الْمُسْلِمُونَ وَخَطَّأَهُ الْكَافِرُونَ فَنَزَلَتْ هذه الآية.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ الظلم والعدوان، ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ يَنْتَقِمُونَ مِنْ ظَالِمِيهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَدُوا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ: صِنْفٌ يَعْفُونَ عَنْ ظَالِمِيهِمْ فَبَدَأَ بِذِكْرِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وَصِنْفٌ يَنْتَصِرُونَ مِنْ ظَالِمِيهِمْ وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَذِلُّوا فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا. قَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمُ الْكُفَّارُ مِنْ مكة وبغوا عليهم مَكَّنَهُمُ اللهُ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ انتصروا ممن ظلمهم، ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ الِانْتِصَارَ فَقَالَ:

[٤٠] : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ سَمَّىٰ الْجَزَاءَ سَيِّئَةً وَإِنْ لَمْ يكن سَيِّئَةً لِتَشَابُهِهِمَا فِي الصُّورَةِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْقِصَاصَاتِ فِي الْجِرَاحَاتِ وَالدِّمَاءِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ جَوَابُ الْقَبِيحِ إِذَا قَالَ لَهُ أَحَدٌ أَخْزَاكَ اللهُ ، يَقُولُ : أَخْزَاكَ اللهُ، وَإِذَا شَتَمَكَ فَاشْتُمْهُ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْتَدِيَ، وَقَالَ هِشَامُ بْنُ حُجَيْرَةَ :الْجَارِحُ إِذَا جَرَحَ يُقْتَصُّ مِنْهُ وَلَيْسَ هُوَ أَنْ يَشْتُمَكَ فَتَشْتُمَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْعَفْوَ فَقَالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ ظلمه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بِالْعَفْوِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَالِمِهِ، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَىٰ

اللهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِينَ يَبْدَءُونَ بِالظُّلْمِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أَيْ بَعْدَ ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ يَعْنِي الْمُنْتَصِرِينَ، ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بِعُقُوبَةٍ وَمُؤَاخَذَةٍ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يَبْدَءُونَ بِالظُّلْمِ، ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يَعْمَلُونَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ فلم ينتصر، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصَّبْرَ وَالتَّجَاوُزَ، ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ حَقِّهَا وَجَزْمِهَا، قَالَ مُقَاتِلٌ: مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. قَالَ الزَّجَّاجُ: الصَّابِرُ يُؤْتَىٰ بِصَبْرِهِ الثَّوَابَ، فَالرَّغْبَةُ فِي الثَّوَابِ أَتَمُّ عَزْمًا.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فماله مِنْ أَحَدٍ يَلِي هِدَايَتَهُ بَعْدَ إضلال الله إياه أو يمنعه مِنْ عَذَابِ اللهِ، ﴿وَتَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فِي الدُّنْيَا.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي علىٰ النار، فَكَنَّىٰ عَنِ الْعَذَابِ الْمَذْكُورِ بِحَرْفِ التَّأْنِيثِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْعَذَابَ هُوَ النَّارُ، ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ خَاضِعِينَ مُتَوَاضِعِينَ، وَالْخُشُوعُ الِانْكِسَارُ وَالتَّوَاضُعُ ، ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أَيْ لَا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ لِلنَّظَرِ رَفْعًا تاما، لأنهم ناكسو الرؤوس.

وَالْعَرَبُ تَصِفُ الذَّلِيلَ بِغَضِّ الطَّرْفِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِطَرْفٍ ذَابِلٍ ذَلِيلٍ، وَقِيلَ: (مِنْ) بِمَعْنَىٰ الْبَاءِ أَيْ بطرف خفي ضعيف مع الذُّلِّ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَفْتَحُ عَيْنَهُ إِنَّمَا يَنْظُرُ بِبَعْضِهَا ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ النَّارِ بِقُلُوبِهِمْ لِأَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ عُمْيًا وَالنَّظَرُ بِالْقَلْبِ خَفِيٌّ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حَيْثُ ظَهَرَتْ عَوَاقِبُ الْخَلْقِ، وَتَبَيَّنَ أَهْلُ الصِّدْقِ مِنْ غَيْرِهِمْ: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ علىٰ الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْجَنَّةِ لَمَّا عَايَنُوا مَا حَلَّ بِالْكَفَّارِ إِنَّ الْخُسْرَانَ فِي الْحَقِيقَةِ مَا صَارَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي الْعَذَابِ الْمُخَلَّدِ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ لِأَنَّ الْأَهْلَ إِنْ كَانُوا فِي النَّارِ فَلَا انْتِفَاعَ بِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْجَنَّةِ فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أَيْ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَيْ أَعْوَانًا وَنُصَرَاءَ ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أَيْ مِنْ عَذَابِهِ، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَيْ طَرِيقٍ يَصِلُ بِهِ إِلَىٰ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقُ النجاة.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقيل : أَجِيبُوهُ إِلَىٰ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالطَّاعَةِ، اسْتَجَابَ وَأَجَابَ بِمَعْنًىٰ واحد ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ دَفْعِهِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ﴾ تَلْجَئُونَ إِلَيْهِ ﴿يَوْمَئِذٍ

وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أَيْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ مِنْ وَقِيلَ: النَّكِيرُ بِمَعْنَىٰ الْمُنْكَرِ، كَالْأَلِيمِ بِمَعْنَىٰ الْمُؤْلِمِ، أَيْ لَا تَجِدُونَ يَوْمَئِذٍ مُنْكِرًا لِمَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عَنِ الْإِجَابَةِ، ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تُحْفَظُ أَعْمَالُهُمْ وَتُسْأَلُ عَنْهَا، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فَإِذَا أَدَّيْتَ مَا عَلَيْكَ، فَقَدْ وَجَبَ أَجْرُكَ عَلَىٰ اللهِ، سَوَاءٌ اسْتَجَابُوا أَمْ أَعْرَضُوا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ صَغِيرَ أَعْمَالِهِمْ وَكَبِيرَهَا، وَظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْغِنَىٰ وَالصِّحَّةَ. ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قَحْطٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أَيْ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ يَنْسَىٰ وَيَجْحَدُ بِأَوَّلِ شِدَّةٍ جَمِيعَ مَا سَلَفَ مِنَ النعم.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِمَا بِمَا يُرِيدُ، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ فَلَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ، قَالَ وَاثِلَةُ بْنُ الْأَسْقَعِ: إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَبْكِيرَهَا بِالْأُنْثَىٰ قَبْلَ الذَّكَرِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فَبَدَأَ بِالْإِنَاثِ، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فَلَا يَكُونُ لَهُ أُنْثَىٰ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَهُمَا فَيُولَدُ لَهُ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ أَنْ تَلِدَ الْمَرْأَةُ غُلَامًا ثُمَّ تَلِدُ جَارِيَةً، ثُمَّ تَلِدُ غُلَامًا ثُمَّ تَلِدُ جَارِيَةً، وَأَدْخَلَ الْأَلِفَ وَاللَّامَ عَلَىٰ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ لِأَنَّهُمْ أَشْرَفُ فَمَيَّزَهُمْ بِسِمَةِ التَّعْرِيفِ، قَالَ الْقُتَبِيُّ: التَّزْوِيجُ ها هنا هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْبَنِينَ

وَالْبَنَاتِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: زَوَّجْتُ إِبِلِي إِذَا جَمَعْتُ بَيْنَ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أَيْ لَا يُولَدُ لَهُ، يُقَالُ: رَجُلٌ عَقِيمٌ، وَامْرَأَةٌ عَقِيمٌ، وَالْعَقِيمُ: الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَيَتَصَرَّفُ بِعِلْمِهِ وَإِتْقَانِهِ الْأَشْيَاءَ، وَبِقُدْرَتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ جَنَابِ الرب جلَّ وعلا، فتارة يَقْذِفُ فِي رَوْعِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم وحياً لَا يَتَمَارَىٰ فِيهِ إِنَّهُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[(١)]، ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ يُسْمِعُهُ كَلَامَهُ وَلَا يَرَاهُ كَمَا كَلَّمَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إِمَّا جِبْرِيلَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كَمَا يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: ﴿إِنَّهُ﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ذُو عُلُوٍّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَارْتِفَاعٍ عَلَيْهِ وَاقْتِدَارٍ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يَقُولُ: ذُو حِكْمَةٍ فِي تَدْبِيرِهِ خَلْقَهُ.

---

(١) الحاكم (٢١٣٦).

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَيْ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ سَائِرِ رُسُلِنَا، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَحْيًا وَرَحْمَةً مِنْ أَمْرِنَا ، قَالَ السَّعْدِيُّ: سَمَّاهُ رُوحًا، لِأَنَّ الرُّوحَ يَحْيَا بِهِ الْجَسَدُ، وَالْقُرْآنَ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَرْوَاحُ، وَتَحْيَا بِهِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ وَالْعِلْمِ الْغَزِيرِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نُبُوَّةً ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: رَحْمَةً، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ: وَحْيًا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كِتَابًا، وَقَالَ الرَّبِيعُ: جِبْرِيلَ، وَقَالَ مَالِكُ ابْنُ دِينَارٍ: يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ قَبْلَ الْوَحْيِ، ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يَعْنِي شَرَائِعَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَهُ، وقَالَ جَمَاعَةٌ: مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ شَرَائِعُ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمُهُ، ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ ، وَقِيلَ: تَفَاصِيلُ هَذَا الشَّرْعِ، أَيْ كُنْتَ غَافِلًا عَنْ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ ، وَقِيلَ: مَا كُنْتَ تَدْرِي قَبْلَ الْوَحْيِ أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ، وَلَا كَيْفَ تَدْعُو الْخَلْقَ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْإِيمَانَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْقُرْآنَ ، ﴿نَهْدِي بِهِ﴾ نُرْشِدُ بِهِ، ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أَيْ لَتَدْعُو، ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يَعْنِي الْإِسْلَامَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: تُبَيِّنُهُ لَهُمْ وَتُوَضِّحُهُ، وَتُنِيرُهُ وَتُرَغِّبُهُمْ فِيهِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ ضِدِّهِ، وَتُرَهِّبُهُمْ مِنْهُ، ثُمَّ فَسَّرَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَقَالَ:

[٥٣] : ﴿صِرَاطِ اللهِ﴾ أَيْ شَرْعُهُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهِ، قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : هُوَ الْقُرْآنُ، وَقِيلَ الْإِسْلَامُ ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: كُلُّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ حَقِيقَةٍ، أَوْ حَالٍ أَوْ مَقَامٍ خَرَجَ مِنْ مِشْكَاةِ نُبُوَّتِهِ، فَهُوَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَا

لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ. ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ رَبُّهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿أَلاَ إِلَىٰ اللهِ تَصِيرُ الأمور﴾ وَعِيدٌ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ. أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها، سُبْحَانَهُ وتعالىٰ عَمَّا يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، وَالْمَصِيرُ: الرُّجُوعُ وَالِانْتِهَاءُ، وَاسْتُعِيرَ هُنَا لِظُهُورِ الْحَقَائِقِ كَمَا هِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَذْهَبُ تَلْبِيسُ الْمُلَبِّسِينَ، وَيَهِنُ جَبَرُوتُ الْمُتَجَبِّرِينَ ، وَيُقِرُّ بِالْحَقِّ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْمُعَانِدِينَ، قَالَ سَهْلُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ: احْتَرَقَ مُصْحَفٌ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَوْلُهُ : ﴿أَلَا إِلَىٰ اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ وَغَرَقَ مُصْحَفٌ فَامَّحَىٰ كُلُّهُ إِلَّا قَوْلُهُ : ﴿أَلا إِلَىٰ اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَىٰ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الزُخْرُف

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَسبب التَّسْمِيَةِ أَنَّ كَلِمَةَ (وَزُخْرُفًا) وَقَعَتْ فِيهَا وَلَمْ تَقَعْ فِي غَيْرِهَا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ ، فَعَرَّفُوهَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَقد نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ فُصِّلَتْ وَقَبْلَ سُورَةِ الدُّخَانِ.

[١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿حم﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَبَانَ طُرُقَ الْهُدَىٰ مِنْ طُرُقِ الضَّلَالَةِ وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنَ الشَّرِيعَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: مُبِينٌ وَاللهِ بَرَكَتُهُ، وَهُدَاهُ وَرُشْدُهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قَوْلُهُ جَعَلْنَاهُ أَيْ: صَيَّرْنَاهُ هَذَا الْكِتَابَ عَرَبِيًّا، وَقِيلَ: بَيَّنَّاهُ، وَقِيلَ: سَمَّيْنَاهُ، وَقِيلَ: وَصَفْنَاهُ، يُقَالُ جَعَلَ فُلَانٌ زَيْدًا أَعْلَمَ النَّاسِ، أي وصفه بهذا قال ابن عاشور : فهو بِهَذَا الْوَصْفِ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ علىٰ مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَامِعٌ لِوَصْفَيْنِ: كَوْنِهِ كِتَابًا، وَكَوْنِهِ مَقْرُوءًا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْأُمَّةِ، وَهَذَا مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ كِتَابُ الْإِسْلَامِ، وَ (عَرَبِيًّا) نِسْبَةً إِلَىٰ الْعَرَبِ، وَإِذْ قَدْ كَانَ الْمَنْسُوبُ كِتَابًا وَمَقْرُوءًا فَقَدِ اقْتَضَىٰ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَىٰ

الْعَرَبِ نِسْبَةُ الْكَلَامِ وَاللُّغَةِ إِلَىٰ أَهْلِهَا،﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ تفهمونه وتتدبرونه، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّا يَسَّرْنَا فَهْمَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَأَعْرَضْتُمْ وَلَمْ تَعْقِلُوا مَعَانِيَهُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، قَالَ قَتَادَةُ: أُمُّ الْكِتَابِ أَصْلُ الْكِتَابِ، وَأُمُّ كُلِّ شَيْءٍ أَصْلُهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ، فَالْكِتَابُ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملأ الأعلىٰ في أعلىٰ الرتب وأفضلها ، فَالْقُرْآنُ مُثَبَّتٌ عِنْدَ اللهِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كَمَا قَالَ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ - فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١-٢٢] ، وفي الحديث عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا ، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**؟ ، قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سببٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تضلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أبداً** »(١)، ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: لَعَلِيٌّ فِي قَدْرِهِ وَشَرَفِهِ وَمَحَلِّهِ، حَكِيمٌ فِيمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْأَخْبَارِ، فَلَيْسَ فِيهِ حُكْمٌ مُخَالِفٌ لِلْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ، قَالَ قَتَادَةُ: يُخْبِرُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ وَشَرَفِهِ،

---

(١) ابن حبان (١٢٢) والحاكم (١٠٧) .

أَيْ إِنْ كَذَّبْتُمْ بِالْقُرْآنِ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، فَإِنَّهُ عِنْدَنَا لَعَلِيٌّ رَفِيعٌ شَرِيفٌ مُحْكَمٌ مِنَ الْبَاطِلِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يُقَالُ: ضَرَبْتُ عَنْهُ وَأَضْرَبْتُ عَنْهُ إِذَا تَرَكْتُهُ وَأَمْسَكْتُ عَنْهُ، وَالصَّفْحُ مَصْدَرُ قَوْلِهِمْ صَفَحْتَ عَنْهُ إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِأَنْ تُوَلِّيَهُ صَفْحَةَ وَجْهِكَ وَعُنُقِكَ ، وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ الْقُرْآنُ، وَمَعْنَاهُ: أَفَنَتْرُكُ عَنْكُمُ الْوَحْيَ وَنُمْسِكُ عَنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ ، فَلَا نَأْمُرُكُمْ وَلَا نَنْهَاكُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ أَسْرَفْتُمْ فِي كُفْرِكُمْ وَتَرَكْتُمُ الْإِيمَانَ؟ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ، أَيْ لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَعْنَىٰ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ نَصْفَحَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَلَمَّا تَفْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ، وقال قَتَادَةُ: وَاللهِ لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا، وَلَكِنَّ اللهَ رَدَّدَهُ وَكَرَّرَهُ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ عَادَ عَلَيْهِمْ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَكَرَّرَهُ عَلَيْهِمْ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ مَا شَاءَ اللهُ، وقيل: معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إِيَّاكُمْ صَافِحِينَ مُعْرِضِينَ ، قَالَ الْكِسَائِيُّ والسدي: أَفَنَطْوِي عَنْكُمُ الذِّكْرَ طَيًّا فَلَا تُدْعَوْنَ وَلَا تُوعَظُونَ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَفَنَتْرُكُكُمْ سُدًىٰ لَا نَأْمُرُكُمْ وَلَا نَنْهَاكُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: أَفَنُعْرِضُ عَنْكُمْ وَنَتْرُكُكُمْ فَلَا نُعَاقِبَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ ، وَقِيلَ: الذِّكْرُ التَّذَكُّرُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ أَنَتْرُكُ تَذْكِيرَكُمْ لِأَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ، ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ مَعْنَىٰ (مُسْرِفِينَ) مُشْرِكِينَ، وَالْإِسْرَافُ: الْإِفْرَاطُ وَالْإِكْثَارُ، وَأَغْلَبُ إِطْلَاقِهِ عَلَىٰ الْإِكْثَارِ مِنَ الْفِعْلِ القبيح وَلِذَلِكَ قِيلَ : «لَا سَرَفَ فِي الْخَيْرِ»، قال ابن كثير : وَحَاصِلُهُ أَنَّ مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ

مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بخلقه لا يترك دعاءهم إلىٰ الخير، وإلىٰ الذكر الْحَكِيمِ وَهُوَ (الْقُرْآنُ) وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عنه، بل أمر ليهتدي به مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ، وَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَىٰ مَنْ كتب شقاوته.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ قال القرطبي : (كَمْ) هُنَا خَبَرِيَّةٌ وَالْمُرَادُ بِهَا التَّكْثِيرُ، وَالْمَعْنَىٰ مَا أَكْثَرَ مَا أَرْسَلْنَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. كَمَا قَالَ ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أَيْ مَا أَكْثَرَ مَا تَرَكُوا ، والْأَوَّلِينَ جَمْعُ الْأَوَّلِ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَىٰ الْمَاضِينَ السَّابِقِينَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ أَيْ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِمْ، ﴿مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ به، كَاسْتِهْزَاءِ قَوْمِكَ بِكَ، يُعَزِّي نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَيْ أَقْوَىٰ مِنْ قَوْمِكَ يَعْنِي الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَالْبَطْشُ: الْإِضْرَارُ الْقَوِيُّ. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ صِفَتُهُمْ وَسُنَّتُهُمْ وَعُقُوبَتُهُمْ، فَعَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ كَذَلِكَ فِي الْإِهْلَاكِ، قَالَ قَتَادَةُ: عُقُوبَةُ الْأَوَّلِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُنَّتُهُمْ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ سَلَفَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْهُ، ذِكْرُ قِصَّتِهِمْ وَحَالِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ وَمَا مَثَّلْنَاهُ لَهُمْ. أَيْ فَلْيَتَوَقَّعْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئُونَ مِنَ الْعُقُوبَةِ مِثْلَ مَا حَلَّ بِسَلَفِهِمْ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أَيْ سَأَلْتَ قَوْمَكَ، قال ابن عاشور : قَوْلِهِ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ الْآيَةَ، لِقَصْدِ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا كَذَّبُوهُ لِأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ وَنَبْذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَرَأَوْا ذَلِكَ عَجَبًا مَعَ أَنَّهُمْ يُقِرُّونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ خَالِقُ الْعَوَالِمِ وَمَا فِيهَا. وَهَلْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُ خَالِقِ الْعَابِدِينَ، وَلِأَنَّ الْأَصْنَامَ مِنْ جُمْلَةِ مَا خَلَقَ اللهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ حِجَارَةٍ، فَلَوْ سَأَلَهُمْ الرّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مُحَاجَّتِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ خَالِقِ الْخَلْقِ لَمَا اسْتَطَاعُوا غَيْرَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ ، ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ وأقروا بِأَنَّ اللهَ خَالِقُهَا، وَأَقَرُّوا بِعِزِّهِ وَعِلْمِهِ ثُمَّ عَبَدُوا غَيْرَهُ وَأَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ لِفَرْطِ جَهْلِهِمْ، أَيْ فَإِذَا اعْتَرَفْتُمْ فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ؟! وَذَلِكَ الْغَيْرُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَهُوَ إِلْزَامٌ صحيح،قَالَ ابنُ كثير : أَيْ هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ ولا يرزق، ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، العَلِيمِ بِهِنَّ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الأَشْيَاءِ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، ثُمَّ ابْتَدَأَ دَالًّا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصُنْعِهِ فَقَالَ:

[١٠] : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أَيْ فِرَاشًا قراراً ثابتة، تسيرون عليها وتقومون وتنامون، مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَلَىٰ تَيَّارِ الْمَاءِ، لَكِنَّهُ أرساها بالجبال لئلا تميد، وَالْمِهَادُ: اسْمٌ لِشَيْءٍ يُمَهَّدُ، أَيْ يُوَطَّأُ وَيُسَهَّلُ لِمَا يَحِلُّ فِيهِ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ إلىٰ مقاصدكم في أسفاركم ، وَالسُّبُلُ: جَمْعُ سَبِيلٍ، وَهُوَ

الطَّرِيقُ، وَيُطْلَقُ السَّبِيلُ عَلَىٰ وَسِيلَةِ الشَّيْءِ كَقَوْلِهِ ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤٤]، وَيَصِحُّ إِرَادَةُ الْمَعْنَيَيْنِ هُنَا لِأَنَّ فِي الْأَرْضِ طُرُقًا يُمْكِنُ سُلُوكُهَا، وَهِيَ السُّهُولُ وَسُفُوحُ الْجِبَالِ وَشِعَابُهَا، أَيْ لَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كُلَّهَا جِبَالًا فَيَعْسُرَ عَلَىٰ الْمَاشِينَ سُلُوكُهَا، بَلْ جعَلَ فِيهَا سُبُلًا سَهْلَةً وَجَعَلَ جِبَالًا لِحِكْمَةٍ أُخْرَىٰ؛ وَلِأَنَّ الْأَرْضَ صَالِحَةٌ لِاتِّخَاذِ طُرُقٍ مَطْرُوقَةٍ سَابِلَةٍ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ فِي سَيْرِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ، وَقُطْرٍ إِلَىٰ قُطْرٍ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أَيْ بِقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ لَا كَمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ بِغَيْرِ قَدْرٍ حَتَّىٰ أَهْلَكَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَا كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ بِغَيْرِ قَدَرٍ حَتَّىٰ أَغْرَقَهُمْ، بَلْ هُوَ بِقَدَرٍ لَا طُوفَانَ مُغْرِقٌ وَلَا قَاصِرَ عن الحاجة، حتىٰ يَكُونَ مَعَاشًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ، ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ أحيينا، وَالْإِنْشَاءُ: الْإِحْيَاءُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ثُمَّ إذا شاءَ أَنْشَرَهُ وَأَصْلُ النَّشْرِ بَسْطُ مَا كَانَ مَطْوِيًّا وَتَفَرَّعَتْ مِنْ ذَلِكَ مَعَانِي الْإِعَادَةِ وَالِانْتِشَارِ. ﴿بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ﴾ أَيْ أَرْضًا مَيْتَةً، فَلَمَّا جاءَهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كل زوج بهيج، أَيْ كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْبَلْدَةَ الميتة بالمطر كذلك، ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً، قَالَ قَتَادَةُ: كَمَا أَحْيَا اللهُ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بِهَذَا الْمَاءِ كَذَلِكَ تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أَيِ الْأَصْنَافَ كُلَّهَا، وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَقِيلَ: أَزْوَاجَ الْحَيَوَانِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَقِيلَ مَا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْإِنْسَانُ

مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ، وَفَقْرٍ وَغِنًىٰ، وَصِحَّةٍ وَسَقَمٍ ، قَالَ القرطبي: وَهَذَا الْقَوْلُ يَعُمُّ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَيَجْمَعُهَا بِعُمُومِهِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾ السُّفُنِ ﴿والْأَنْعام﴾ الْإِبِلِ ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالرُّكُوبُ حَقِيقَتُهُ: اعْتِلَاءُ الدَّابَّةِ لِلسَّيْرِ، أَيْ: سَخَّرَ لَكُمُ السُّفُنَ لِلرُّكُوبِ فِي الْبَحْرِ، وَذَلَّلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِلرُّكُوبِ فِي الْبَرِّ، إِضَافَةً إِلَىٰ اسْتِمْتَاعِكُمْ بِأَكْلِ لُحُومِهَا وَشُرْبِ أَلْبَانِهَا وَلُبْسِ أَصْوَافِهَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أَيْ لِتَسْتَوُوا مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِقِينَ وَالِاسْتِوَاءُ الِاعْتِلَاءُ. والظُّهُورُ: جَمْعُ ظَهْرٍ، وَالظَّهْرُ مِنْ عَلَائِقِ الْأَنْعَامِ لَا مِنْ السفن ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بِتَسْخِيرِ الْمَرَاكِبِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ذَلَّلَ لَنَا هَذَا، قَالَ ابن عاشور : والتسخير: التذييل وَالتَّطْوِيعُ ، وَتَسْخِيرُ اللهِ الدَّوَابَّ هُوَ خَلْقُهُ إِيَّاهَا قَابِلَةً لِلتَّرْوِيضِ فَاهِمَةً لِمُرَادِ الرَّاكِبِ، وَتَسْخِيرُ الْفُلْكِ حَاصِلٌ بِمَجْمُوعِ خَلْقِ الْبَحْرِ صَالِحًا لَسَبْحِ السُّفُنِ عَلَىٰ مَائِهِ، وَخَلْقِ الرِّيَاحِ تَهُبُّ فَتَدْفَعُ السُّفُنَ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَخَلْقِ حِيلَةِ الْإِنْسَانِ لِصُنْعِ الْفُلْكِ، وَرَصْدِ مَهَابِّ الرِّيَاحِ، وَوَضْعِ الْقُلُوعِ وَالْمَجَاذِيفِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتْ قُوَّةُ الْإِنْسَانِ دُونَ أَنْ تَبْلُغَ اسْتِخْدَامَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْقَوِيَّةِ.﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مُطِيقِينَ، وَقِيلَ: ضَابِطِينَ. وَالْمُقْرِنُ: الْمُطِيقُ، يُقَالُ: أَقْرَنَ، إِذَا أَطَاقَ، قَالَ عَمْرو بن معديكرب:

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مَا عُقَيْلٌ ... لَنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُقْرِنِينَا

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُتِيَ بِدَابَّةٍ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، فَلَمَّا اسْتَوَىٰ عَلَيْهَا قَالَ: الْحَمْدُ للهِ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ تعالىٰ ثَلَاثًا وَكَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: مِمَّ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَعْجَبُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَيَقُولُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غيري**»[١] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أَيْ:رَاجِعُونَ إِلَيْهِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أَيْ نَصِيبًا وَبَعْضًا ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَمَعْنَىٰ الْجَعْلِ هَاهُنَا الْحُكْمُ بِالشَّيْءِ وَالْقَوْلُ كَمَا تَقُولُ: جَعَلْتُ زَيْدًا أَفْضَلَ النَّاسِ، أَيْ وَصَفْتُهُ وَحَكَمْتُ بِهِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي الْكَافِرَ، ﴿لَكَفُورٌ﴾ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ، ﴿مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الْكُفْرَانِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ هَذَا اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ وَإِنْكَارٍ، يَقُولُ: اتَّخَذَ رَبُّكُمْ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ، ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أَيِ اخْتَصَّكُمْ وَأَخْلَصَكُمْ بِالْبَنِينَ، يُقَالُ: أَصْفَيْتُهُ بِكَذَا، أَيْ آثَرْتُهُ به، وَأَصْفَيْتُهُ الْوُدَّ أَخْلَصْتُهُ لَهُ، قَالَ

---

(١) أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦) .

الْقُرْطُبِيُّ: عَجِبَ مِنْ إِضَافَتِهِمْ إِلَىٰ اللهِ اخْتِيَارَ الْبَنَاتِ مَعَ اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمُ الْبَنِينَ، وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ إِنْ تَوَهَّمَ جَاهِلٌ أَنَّهُ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ وَلَدًا فَهَلَّا أَضَافَ إِلَيْهِ أَرْفَعَ الْجِنْسَيْنِ! وَلِمَ جَعَلَ هَؤُلَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ أَشْرَفَ الْجِنْسَيْنِ وَلَهُ الْأَخَسَّ؟ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزىٰ﴾ [النجم : ٢٢].

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بما جعل الله شَبَهًا وَذَلِكَ أَنَّ وَلَدَ كُلِّ شَيْءٍ يُشْبِهُهُ، يَعْنِي إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْبَنَاتِ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ [النحل : ٥٨] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ من الغيظ والحزن، قال عكرمة : مَكْرُوبٌ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ﴾ أَيْ يَنْبُتُ وَيَكْبُرُ، وهو استفهام أنكاري عَطْفُ إِنْكَارٍ عَلَىٰ إِنْكَارٍ، وَالتَّقْدِيرُ: أَاتَّخَذَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ..؟! ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ فِي الزِّينَةِ يَعْنِي النِّسَاءَ، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فِي الْمُخَاصَمَةِ غَيْرُ مُبِينٍ لِلْحُجَّةِ مِنْ ضَعْفِهِنَّ وَسَفَهِهِنَّ، قال قَتَادَةَ: مَا تَكَلَّمَتِ امْرَأَةٌ وَلَهَا حُجَّةٌ إِلَّا جَعَلَتْهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا، وَالْمَقْصُودُ: تَرْكِيبُ الْمَرْأَةِ فِيهِ نُقْصَانٌ، وَيُكَمَّلُ نَقْصُهَا بِلُبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً، وَإِذَا خَاصَمَتْ فَعِبَارَتُهَا ضَعِيفَةٌ، فَهَلْ هَذَا النَّعْتُ يُنَاسِبُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَىٰ جَنَابِ اللهِ الْعَظِيمِ؟.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أَيِ اعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَىٰ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: لَمَّا

قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « **مَا يُدْرِيكُمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ؟ قَالُوا: سَمِعْنَا مِنْ آبَائِنَا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا** » ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أَيْ بِذَلِكَ ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أَيْ لَوْ أَرَادَ اللهُ لَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، الَّتِي هي علىٰ صور الملائكة بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عَلَيْهِ، وقال مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْأَوْثَانَ وَإِنَّمَا لَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَنَا عَلَىٰ عِبَادَتِنَا إِيَّاهَا لرضاه منها بِعِبَادَتِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فِيمَا يَقُولُونَ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ مَا هُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَضِيَ منا عبادتها، وَقِيلَ: إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ وَإِنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ. وَالْخَرْصُ: التَّوَهُّمُ وَالظَّنُّ الَّذِي لَا حُجَّةَ فِيهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات : ١٠] .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ بِأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: أَحَضَرُوا خَلْقَهُمْ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ؟ أَيْ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ بِمَا ادَّعَوْهُ، فَهُمْ بِهِ مُتَمَسِّكُونَ يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: علىٰ دين وملة قَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَىٰ إِمَامٍ، وقيل : أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ وَمَذْهَبٍ، وَالْإِمَّةُ الطَّرِيقَةُ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْأُمَّةُ الطَّرِيقَةُ وَالدِّينُ، يُقَالُ: فُلَانٌ لَا أُمَّةَ لَهُ، أَيْ لَا دِينَ لَهُ وَلَا

نِحْلَةَ، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أَيْ نَهْتَدِي بِهِمْ، قَالَ قَتَادَةُ: مُقْتَدُونَ مُتَّبِعُونَ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ، لِذَمِّهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَتَرْكِهِمُ النَّظَرَ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالَةِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ، أَنَّهَا كَحَالِ هَؤُلَاءِ الْحَاضِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ اللهَ إِذَا أَرْسَلَ رَسُولًا فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَىٰ، ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أَغْنِيَاؤُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا، وَالْمُتْرَفُونَ: جَمْعُ الْمُتْرَفِ وَهُوَ الَّذِي أُعْطِيَ التَّرَفَ أَيِ النِّعْمَةَ، قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ جَبَابِرَتُهُمْ وَرُؤُوسُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ وَقَادَتُهُمْ فِي الشَّرِّ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: علىٰ دين وملة ، قَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَىٰ إِمَامٍ، وَقيل : أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ وَمَذْهَبٍ، وَالْإِمَّةُ الطَّرِيقَةُ ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْأُمَّةُ الطَّرِيقَةُ وَالدِّينُ، يُقَالُ: فُلَانٌ لَا أُمَّةَ لَهُ، أَيْ لَا دِينَ لَهُ وَلَا نِحْلَةَ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ بِهِمْ ، أَيْ: وَكَذَلِكَ يَا مُحَمَّدُ فَقَدْ سَلَكَ مُشْرِكُو قَوْمِكَ مِنْهَاجَ مَنْ قَبْلَهُمْ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ﴾ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لقومك: أو ليس قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِأَهْدَىٰ، يُرِيدُ بِأَرْشَدَ ، ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَتَّبِعُونَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ وَإِنْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِنْهُ﴾ فَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا الِاحْتِجَاجُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الضَّالِّينَ، بِتَقْلِيدِهِمْ لِآبَائِهِمُ الضَّالِّينَ، لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِ اتِّبَاعَ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ،

وَإِنَّمَا هُوَ تَعَصُّبٌ مَحْضٌ، يُرَادُ بِهِ نُصْرَةُ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ، ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَيْ وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ لَمَا انقادوا لذلك لسوء قَصْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ﴾ بِالْقَحْطِ وَالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، أَيْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِأَنْوَاعٍ من العذاب كما فصله تبارك وتعالىٰ فِي قَصَصِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِالِانْتِقَامِ اسْتِئْصَالُهُمْ وَانْقِرَاضُهُمْ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، يْ كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا، وَكَيْفَ نَّجىٰ اللهُ المؤمنين.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ أَيْ بَرِيءٌ، وَلَا يُثَنَّىٰ الْبَرَاءُ وَلَا يُجْمَعُ وَلَا يُؤَنَّثُ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضِعَ النَّعْتِ، وَالْمَعْنَىٰ: وَاذْكُرْ زَمَانَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ قَوْلًا صَرِيحًا فِي التبرّؤ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَخُصَّ أَبُو إِبْرَاهِيمَ بِالذِّكْرِ قَبْلَ ذِكْرِ قَوْمِهِ وَمَا هُوَ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْهُمُ اهْتِمَامًا بِذِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاءَةَ إِبْرَاهِيمَ مِمَّا يَعْبُدُ أَبُوهُ أَدَلُّ عَلَىٰ تَجَنُّبِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ بِحَيْثُ لَا يُتَسَامَحُ فِيهَا وَلَوْ كَانَ الَّذِي يَعْبُدُهَا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَىٰ مُوَحِّدِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ مِثْلَ الْأَبِ، ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أَيْ: مُبْغِضٌ لَهُ، مُجْتَنِبٌ مُعَادٍ لِأَهْلِهِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فَإِنِّي أَتوَلَّاهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَهْدِيَنِي لِلْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَكَمَا فَطَرَنِي وَدَبَّرَنِي بِمَا يُصْلِحُ بَدَنِي وَدُنْيَايَ، فَـ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لِمَا يُصْلِحُ دِينِي وَآخِرَتِي.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يَعْنِي هَذِهِ الْكَلِمَةَ، الضَّمِيرُ فِي ﴿جَعَلَها﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، أَيْ وَجَعَلَ اللهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، وَالْمَقَالَةَ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، وَهُمْ وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ، أَيْ إِنَّهُمْ تَوَارَثُوا الْبَرَاءَةَ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَأَوْصَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ، قَالَ ابنُ عاشور : وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ لِلْكَلَامِ كَلِمَةٌ إِذَا كَانَ كَلَامًا سَائِرًا عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ مُتَمَثَّلًا بِهِ، كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ**»[1] وَالْعَقِبُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ، قَالَ مجاهد : الإخلاص والتوحيد لَا يزَال فِي ذُرِيَّته من يَقُولهَا من بعده ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَيُوَحِّدُهُ ، وَقَالَ الْقُرَظِيُّ: يَعْنِي جعل وَصِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَوْصَىٰ بِهَا بَنِيهِ بَاقِيَةً فِي نَسْلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] ، وَالْعَقِبُ: الذُّرِّيَّةُ الَّذِينَ لَا يَنْفَصِلُونَ مِنْ أَصْلِهِمْ بِأُنْثَىٰ، أَيْ جَعَلَ إِبْرَاهِيمُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ بِالْوِصَايَةِ عَلَيْهَا رَاجِيًا أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لَعَلَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَتَّبِعُونَ هَذَا الدِّينَ وَيَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ. لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) مسلم (٢٢٥٦) .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ أُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، حَتَّىٰ صَارَتْ هِيَ غَايَتَهُمْ وَنِهَايَةَ مَقْصُودِهِمْ، فَلَمْ تَزَلْ يَتَرَبَّىٰ حُبُّهَا فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّىٰ صَارَتْ صِفَاتٍ رَاسِخَةً، وَعَقَائِدَ مُتَأَصِّلَةً، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أَيْ القرآن ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْإِسْلَامُ، ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ يُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَحْكَامَ وَهُوَ مُحَمَّدٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَكَانَ مِنْ حَقِّ هَذَا الْإِنْعَامِ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَعَصَوْا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الَّذِي يُوجِبُ عَلَىٰ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ دِينٍ وَمَعْقُولٍ أَنْ يَقْبَلَهُ وَيَنْقَادَ لَهُ ، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُعَانَدَةِ وَالْمُشَاقَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، بَلْ وَلَا جَحْدِهِ، فَلَمْ يَرْضَوْا حَتَّىٰ قَدَحُوا بِهِ قَدْحًا شَنِيعًا، وَجَعَلُوهُ بِمَنْزِلَةِ السِّحْرِ الْبَاطِلِ، الَّذِي لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا أَخْبَثُ الْخَلْقِ وَأَعْظَمُهُمْ افْتِرَاءً، وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، طُغْيَانُهُمْ بِمَا مَتَّعَهُمُ اللهُ بِهِ وَآبَاءَهُمْ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: مُعَظَّمٌ عِنْدَهُمْ، مُبَجَّلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنُونَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ بِالطَّائِفِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ مَكَّةَ، وَابْنُ عبد يا ليل الثَّقَفِيُّ مِنَ الطَّائِفِ، وَقِيلَ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَمِنَ الطَّائِفِ حَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيُّ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي النُّبُوَّةَ فَيَضَعُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا. قَالَ مُقَاتِلٌ: يَقُولُ بِأَيْدِيهِمْ مَفَاتِيحُ الرِّسَالَةِ فَيَضَعُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَجَعَلْنَا هَذَا غَنِيًّا وَهَذَا فَقِيرًا وَهَذَا مَلِكًا وَهَذَا مَمْلُوكًا فَكَمَا فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ كَمَا شِئْنَا، كَذَلِكَ اصْطَفَيْنَا بِالرِّسَالَةِ مَنْ شِئْنَا، قَالَ القرطبي : فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الدُّنْيَا إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ يُفَوَّضُ أَمْرُ النُّبُوَّةِ إِلَيْهِمْ، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أَيْ فَاضَلْنَا بَيْنَهُمْ بِالْغِنَىٰ وَالْمَالِ، وَقِيلَ: بِالْحُرِّيَّةِ وَالرِّقِّ، فَبَعْضُهُمْ مَالِكٌ وَبَعْضُهُمْ مَمْلُوكٌ، وَقِيلَ: بِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، فَبَعْضُهُمْ غَنِيٌّ وَبَعْضُهُمْ فَقِيرٌ، ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ لِيَسْتَخْدِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيُسَخِّرُ الْأَغْنِيَاءُ بِأَمْوَالِهِمُ الْأُجَرَاءَ الْفُقَرَاءَ بِالْعَمَلِ، فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَبَبَ الْمَعَاشِ هَذَا بِمَالِهِ، وَهَذَا بِأَعْمَالِهِ، فَيَلْتَئِمُ قِوَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: يَمْلِكُ بَعْضُهُمْ بِمَالِهِمْ بَعْضًا بِالْعُبُودِيَّةِ والملك، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ السُّخْرِيَةِ الَّتِي بِمَعْنَىٰ الِاسْتِهْزَاءِ، أَيْ لِيَسْتَهْزِئَ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني الجنة، ﴿خَيْرٌ﴾ للمؤمنين، ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِمَّا يَجْمَعُ الْكُفَّارُ مِنَ الْأَمْوَالِ، ثُمَّ قِيلَ: الرَّحْمَةُ النُّبُوَّةُ، وَقِيلَ الْجَنَّةُ، وَقِيلَ: تَمَامُ الْفَرَائِضِ خَيْرٌ مِنْ كثرة النَّوَافِلِ، وَقِيلَ: مَا يُتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ مِمَّا يُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ لَوْلَا أَنْ يَصِيرُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا فَيَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ الْكُفْرِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: الْمَعْنَىٰ لَوْلَا أَنْ يَكْفُرَ

النَّاسُ جَمِيعًا بِسَبَبِ مَيْلِهِمْ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَتَرْكِهِمُ الْآخِرَةَ لَأَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا وَصَفْنَاهُ، لِهَوَانِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ مَصَاعِدَ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أَيْ يَصْعَدُونَ يُقَالُ: ظَهَرْتُ عَلَىٰ السطح إذا علوته.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ من فضة، ﴿وَسُرُرًا﴾ أَيْ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سُرُرًا مِنْ فضة، وَهُوَ جَمْعُ السَّرِيرِ، وَقِيلَ: جَمْعُ الْأَسِرَّةِ، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: ولجعلنا كذلك لبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا من فضة عليها يتكئون. والتوكؤ: التحامل علىٰ الشيء، وَاتَّكَأَ عَلَىٰ الشَّيْءِ فَهُوَ مُتَّكِئٌ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي ولجعلنا مَعَ ذَلِكَ لَهُمْ زُخْرُفًا وَهُوَ الذَّهَبُ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: النُّقُوشُ، وَأَصْلُهُ الزِّينَةُ. يُقَالُ: زَخْرَفْتُ الدَّارَ، أَيْ زَيَّنْتُهَا. وَتَزَخْرَفَ فُلَانٌ، أَيْ تَزَيَّنَ، قال القرطبي: وَالْمَعْنَىٰ فَجَعَلْنَا لَهُمْ سُقُفًا وَأَبْوَابًا وَسُرُرًا مِنْ فِضَّةٍ وَمِنْ ذَهَبٍ، ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَمَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا خوَّلهم الله تعالىٰ في الدنيا لحقارتها، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ أبداً**»(١)، ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ هِيَ لَهُمْ خَاصَّةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، ذَا لَمَّا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِرَسُولِ اللهِ

---

(١) الترمذي (٢٣٢٠) وابن ماجه (٤١١٠).

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رآه علىٰ رمال الحصير، قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِيمَا هم فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا فجلس وقال: «**أو في شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**» ثُمَّ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لهم الدنيا ولنا الآخرة**»(١).

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أَيْ يُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فَلَمْ يَخَفْ عِقَابَهُ، وَلَمْ يَرْجُ ثَوَابَهُ، يُقَالُ: عَشَوْتُ إِلَىٰ النَّارِ أَعْشُو عَشْوًا، إِذَا قَصَدْتُهَا مُهْتَدِيًا بِهَا، وَعَشَوْتُ عَنْهَا أَعْرَضْتُ عَنْهَا، كَمَا يَقُولُ: عَدَلْتُ إِلَىٰ فُلَانٍ وَعَدَلْتُ عَنْهُ وَمِلْتُ إِلَيْهِ وَمِلْتُ عَنْهُ، قَالَ الْقُرَظِيُّ: يُوَلِّي ظَهْرَهُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وَهُوَ الْقُرْآنُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَظْلِمُ بِصَرْفِ بَصَرِهِ عَنْهُ، قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: أَصْلُ الْعَشْوِ النَّظَرُ بِبَصَرٍ ضَعِيفٍ، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أَيْ يَتَحَكَّمُ بِفِكْرِهِ وَفَهْمِهِ وَعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَحَرَكَتِهِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الْجِنِّ عَلَىٰ ظَلَمَةِ الْإِنْسِ، وَالتَّقْيِيضُ: الْإِتَاحَةُ وَتَهْيِئَةُ شَيْءٍ لِمُلَازَمَةِ شَيْءٍ لِعَمَلٍ حَتَّىٰ يُتِمَّهُ، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أَيْ مُلَازِمٌ وَمُصَاحِبٌ، فلَا يُفَارِقُهُ يُزَيِّنُ لَهُ الْعَمَىٰ وَيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ عَلَىٰ الْهُدَىٰ.

---

(١) البخاري (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يَعْنِي الشَّيَاطِينَ، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيْ لِيَمْنَعُونَهُمْ عَنِ الْهُدَىٰ أَيْ: الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالدِّينِ الْقَوِيمِ، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وَيَحْسَبُ كُفَّارُ بَنِي آدَمَ أَنَّهُمْ علىٰ هدىٰ ، وَقِيلَ: وَيَحْسَبُ الْكُفَّارُ إِنَّ الشَّيَاطِينَ مُهْتَدُونَ فَيُطِيعُونَهُمْ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي الكافر وقرينه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قد جُعِلَا فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، ﴿قَالَ﴾ الْكَافِرُ لِقَرِينِهِ الشَّيْطَانِ، ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ بُعْدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَغَلَبَ اسْمُ أَحَدِهِمَا عَلَىٰ الْآخَرِ كَمَا يُقَالُ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: الْقَمَرَانِ، ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أَيْ فَبِئْسَ الصَّاحِبُ أَنْتَ، لِأَنَّهُ يُورِدُهُ إِلَىٰ النَّارِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: إِذَا بُعث الكافر زُوِّج بقرينه الشيطان فَلَا يُفَارِقُهُ حَتَّىٰ يَصِيرَ إِلَىٰ النار.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ في الآخرة، ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ أَشْرَكْتُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يَعْنِي لَا يَنْفَعُكُمُ الِاشْتِرَاكُ فِي الْعَذَابِ وَلَا يُخَفِّفُ الِاشْتِرَاكُ عَنْكُمْ الْعَذَابِ، لِأَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَالشَّيَاطِينِ الْحَظَّ الْأَوْفَرَ مِنَ الْعَذَابِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَنْ يَنْفَعَكُمُ الِاعْتِذَارُ وَالنَّدَمُ الْيَوْمَ فَأَنْتُمْ وَقُرَنَاؤُكُمُ الْيَوْمَ مُشْتَرِكُونَ فِي الْعَذَابِ كَمَا كنتم مشتركين فِي الْكُفْرِ ، قَالَ القرطبي : أَعْلَمَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَنَعَ أَهْلَ النَّارِ التَّأَسِّي كَمَا يَتَأَسَّىٰ أَهْلُ الْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ التَّأَسِّي يَسْتَرْوِحهُ أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: لِي فِي الْبَلَاءِ وَالْمُصِيبَةِ أُسْوَةٌ، فَيُسَكِّنُ ذَلِكَ مِنْ حُزْنِهِ، كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ:

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ يَعْنِي الْكَافِرِينَ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا يُؤْمِنُونَ. أَيْ لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ إِنْ كَفَرُوا، فَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بِأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ أَنْ نُعَذِّبَهُمْ، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بالقتل بعدك، أَيْ لابد أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ وَلَوْ ذَهَبْتَ أَنْتَ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ فِي حياتك، ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قَادِرُونَ مَتَىٰ شِئْنَا عَذَّبْنَاهُمْ، وَأَرَادَ بِهِ مُشْرِكِي مَكَّةَ انْتَقَمَ مِنْهُمْ يوم بدر، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: عَنَىٰ بِهِ أَهْلَ الْإِسْلَامِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِقْمَةٌ شَدِيدَةٌ فِي أُمَّتِهِ، فَأَكْرَمَ اللهُ نَبِيَّهُ وَذَهَبَ بِهِ وَلَمْ يُرِهْ فِي أُمَّتِهِ إِلَّا الَّذِي يَقَرُّ عَيْنَهُ، وَأَبْقَىٰ النِّقْمَةَ بعده.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَىٰ قَلْبِكَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يُوصِلُكَ إِلَىٰ اللهِ وَرِضَاهُ وَثَوَابِهِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني القرآن، ﴿لَذِكْرٌ لَكَ﴾ أي لشرف لك، ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ مِنْ قُرَيْشٍ، إِذْ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَعَلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عَنْ حَقِّهِ وَأَدَاءِ شُكْرِهِ، قال مُجَاهِدٌ: الْقَوْمُ هُمُ الْعَرَبُ، فَالْقُرْآنُ لَهُمْ شَرَفٌ إِذْ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، ثُمَّ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ الشَّرَفِ الْأَخَصَّ فَالْأَخَصَّ مِنَ الْعَرَبِ، حَتَّىٰ يَكُونَ الْأَكْثَرُ لِقُرَيْشٍ وَلِبَنِي هَاشِمٍ، وَقِيلَ: ذَلِكَ شَرَفٌ لَكَ بِمَا أَعْطَاكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلِقَوْمِكَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا هُدَاهُمُ اللهُ بِهِ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ عَنِ الْقُرْآنِ وَعَمَّا يَلْزَمُكُمْ مِنَ القيام بحقه.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَؤُلَاءِ الْمَسْئُولِينَ، قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: سَلْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءَ هَلْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ؟ فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَهُمْ وَاسْتَخْبَرْتَهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، لَمْ تَجِدْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَدْعُو إِلَىٰ اتِّخَاذِ إِلَهٍ آخَرَ مَعَ اللهِ مَعَ أَنَّ كُلَّ الرُّسُلِ، مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، يَدْعُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وَكُلُّ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، يَقُولُ لِقَوْمِهِ: اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، فَدَلَّ هَذَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِي شِرْكِهِمْ، لَا مِنْ عَقْلٍ صَحِيحٍ، وَلَا نَقْلٍ عَنِ الرُّسُلِ، وقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ اللهُ لَهُ آدَمَ وَوَلَدَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَذَّنَ جِبْرِيلُ ثُمَّ أَقَامَ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ تَقَدَّمْ فَصَلِّ بِهِمْ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: سَلْ يَا مُحَمَّدُ مَنْ

أَرْسَلْنَا قبلك من رسلنا، الْآيَةُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **لَا أَسْأَلُ فَقَدِ اكْتَفَيْتُ**» ، وَمَعْنَىٰ الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ التَّقْرِيرُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَسُولٌ وَلَا كِتَابٌ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الَّتِي دَلَّتْ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، كَالْعَصَا، وَالْحَيَّةِ، وَإِرْسَالِ الْجَرَادِ، وَالْقُمَّلِ، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أَيْ: رَدُّوهَا وَأَنْكَرُوهَا، وَاسْتَهْزَأُوا بِهَا، ظُلْمًا وَعُلُوًّا، فَلَمْ يَكُنْ لِقُصُورٍ بِالْآيَاتِ، وَعَدَمِ وُضُوحٍ فِيهَا.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ لِأَنَّ الْأُولَىٰ تَقْتَضِي عِلْمًا وَالثَّانِيَةُ تَقْتَضِي عِلْمًا، فَتُضَمُّ الثَّانِيَةُ إِلَىٰ الْأُولَىٰ فَيَزْدَادُ الْوُضُوحُ، وَمَعْنَىٰ الْأُخُوَّةِ الْمُشَاكَلَةُ وَالْمُنَاسَبَةُ، كَمَا يُقَالُ: هَذِهِ صَاحِبَةُ هَذِهِ، أي هما قريبتان في المعنىٰ،﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ بِالسِّنِينَ وَالطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ وَالطَّمْسِ، فَكَانَتْ هَذِهِ دَلَالَاتٍ لِمُوسَىٰ، وَعَذَابًا لَهُمْ، فَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ أَكْبَرَ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالُوا﴾ لِمُوسَىٰ عليه السلام لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ، ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ الْكَامِلُ الْحَاذِقُ، إنما قَالُوا هَذَا تَوْقِيرًا وَتَعْظِيمًا لَهُ لِأَنَّ

السِّحْرَ عِنْدَهُمْ كَانَ عِلْمًا عَظِيمًا وَصِفَةً مَمْدُوحَةً، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَا أَيُّهَا الَّذِي غَلَبَنَا بِسِحْرِهِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: خَاطَبُوهُ بِهِ لِمَا تَقَدَّمَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِالسَّاحِرِ. وَلَمْ يَكُنِ السِّحْرُ صِفَةَ ذَمٍّ، وَقِيلَ: يَا أَيُّهَا الَّذِي غَلَبَنَا بِسِحْرِهِ، يُقَالُ: سَاحَرْتُهُ فَسَحَرْتُهُ، أَيْ غَلَبْتُهُ بِالسِّحْرِ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أَيْ بِمَا أَخْبَرْتَنَا مِنْ عَهْدِهِ إِلَيْكَ إِنْ آمَنَّا كَشَفَ عَنَّا الْعَذَابَ فَاسْأَلْهُ يَكْشِفُ عَنَّا الْعَذَابَ، ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مُؤْمِنُونَ فَدَعَا مُوسَىٰ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-:

[٥٠]: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ وَيُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَالنَّكْثُ حَقِيقَتُهُ نَقْضُ الْمَفْتُولِ مِنْ حَبْلٍ أَوْ غَزْلٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثًا﴾ [النَّحل: ٩٢] وَاسْتُعِيرَ النَّكْثُ لِعَدَمِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ، أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ فَنَادَىٰ فِيهِمْ مُتَبَجِّحًا مُفْتَخِرًا بِمُلْكِ مِصْرَ وَتَصَرُّفِهِ فِيهَا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أَنْهَارُ النِّيلِ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ مِنْ تَحْتِ قُصُورِي، وَقَالَ قَتَادَةُ: تَجْرِي بَيْنَ يَدِي فِي جِنَانِي وَبَسَاتِينِي. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَنْهَارِ الْأَمْوَالَ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْأَنْهَارِ لِكَثْرَتِهَا وَظُهُورِهَا. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عَظَمَتِي وَشِدَّةَ مُلْكِي، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَنْهَارِ الْأَمْوَالَ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْأَنْهَارِ لِكَثْرَتِهَا وَظُهُورِهَا، وَعَنِ الرَّشِيدِ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: لَأُوَلِّيَنَّهَا أَحْسَنَ عَبِيدِي، فَوَلَّاهَا الْخَصِيبَ، وَكَانَ عَلَىٰ وُضُوئِهِ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاهِرٍ أَنَّهُ وَلِيَهَا

فَخَرَجَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا شَارَفَهَا وَوَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرُهُ قَالَ: أَهَذِهِ الْقَرْيَةُ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا فِرْعَوْنُ حَتَّىٰ قَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؟! وَاللهِ لَهِيَ عِنْدِي أَقَلُّ مِنْ أَنْ أَدْخُلَهَا! فَثَنَّىٰ عَنَانَهُ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ بَلْ أَنَا خَيْرٌ، ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَىٰ بَلْ وَلَيْسَ بِحَرْفِ عَطْفٍ عَلَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَالْمَعْنَىٰ: قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ بَلْ أَنَا خَيْرٌ ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ يَعْنِي مُوسَىٰ، فلَا عَزَّ لَهُ فَهُوَ يَمْتَهِنُ نَفْسَهُ فِي حَاجَاتِهِ لِحَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يُفْصِحُ بِكَلَامِهِ لِلُثْغَتِهِ الَّتِي فِي لسانه يَعْنِي لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ ، قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي فِي لِسَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْجَمْرَةِ حِينَ وَضَعَهَا فِي فمه وَهُوَ صَغِيرٌ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إِنْ كَانَ صَادِقًا، ﴿أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا إِذَا سَوَّدُوا رَجُلًا سَوَّرُوهُ بِسِوَارٍ وَطَوَّقُوهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ يَكُونُ ذَلِكَ دَلَالَةً لِسِيَادَتِهِ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ: هَلَّا أَلْقَىٰ رَبُّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ أَسْوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ إِنْ كَانَ سَيِّدًا تَجِبُ عَلَيْنَا طَاعَتُهُ، وَالسِّوَارُ: حَلْقَةٌ عَرِيضَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ تُحِيطُ بِالرُّسْغِ، هُوَ عِنْدُ مُعْظَمِ الْأُمَمِ مِنْ حِلْيَةِ النِّسَاءِ الْحَرَائِرِ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْمَثَلِ: لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي أَيْ لَوْ حُرَّةٌ لَطَمَتْنِي، قَالَهُ أَحَدُ الْأَسْرَىٰ لَطَمَتْهُ أَمَةٌ لِقَوْمٍ هُوَ أَسِيرُهُمْ ، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يتابع بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشْهَدُونَ لَهُ بِصِدْقِهِ وَيُعِينُونَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ أَيِ اسْتَخَفَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ الْقِبْطَ، أَيْ وَجَدَهُمْ جُهَّالًا. وَقِيلَ حَمَلَهُمْ عَلَىٰ الْخِفَّةِ وَالْجَهْلِ، يُقَالُ: اسْتَخَفَّهُ عَنْ رَأْيِهِ إِذَا حَمَلَهُ عَلَىٰ الْجَهْلِ وَأَزَالَهُ عَنِ الصَّوَابِ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْمَعْنَىٰ فَاسْتَجْهَلَ قَوْمَهُ: ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لِخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ وَقِلَّةِ عُقُولِهِمْ، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ عَلَىٰ تَكْذِيبِ مُوسَىٰ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أَيْ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَجَدْتُ النِّقْمَةَ مَعَ الْغَفْلَةِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ هم الْمَاضُونَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ الْأُمَمِ، يُقَالُ: سَلَفَ يُسْلِفُ إِذَا تَقَدَّمَ، وَالسَّلَفُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْآبَاءِ فَجَعَلْنَاهُمْ مُتَقَدِّمِينَ لِيَتَّعِظَ بِهِمُ الْآخَرُونَ، ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ. وَقِيلَ: سَلَفًا لِكُفَّارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَىٰ النَّارِ وَمَثَلًا لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ.

---

(١) أحمد (١٧٣١١).

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أَيْ: نُهِيَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَجُعِلَتْ عِبَادَتُهُ بِمَنْزِلَةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّمَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ أَنْ نَعْبُدَهُ كَمَا عَبَدَ قَوْمُ عِيسَىٰ ﴿عِيسَىٰ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أَيْ: يَسْتَلِجُّونَ فِي خُصُومَتِهِمْ لَكَ، وَيَصِيحُونَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ قَدْ غَلَبُوا فِي حُجَّتِهِمْ، وَأَفْلَجُوا: أَيْ يَضِجُّونَ كَضَجِيجِ الْإِبِلِ عِنْدَ حَمْلِ الأثقال. قَالَ سَعِيدُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ: يَصِيحُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَجْزَعُونَ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَمْ هُوَ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا فَنَعْبُدُهُ وَنُطِيعُهُ وَنَتْرُكُ آلِهَتَنَا، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ أَمْ هو يعنون عِيسَىٰ، قَالُوا: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ كُلَّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ فِي النَّارِ فَنَحْنُ نَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ آلِهَتُنَا مَعَ عِيسَىٰ وَعُزَيْرٍ وَالْمَلَائِكَةِ فِي النَّارِ، وَقَالَ الله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ يَعْنِي هَذَا الْمَثَلَ، ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أَيْ جَدِلِينَ. يَعْنِي مَا ضَرَبُوا لَكَ هَذَا الْمَثَلَ إِلَّا إِرَادَةَ الْجَدَلِ، أَيْ مِراءً وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَىٰ الْآيَةِ لأنها لما لا يعقل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ ، وَالْخَصْمُ بِكَسْرِ الصَّادِ: شَدِيدُ التَّمَسُّكِ بِالْخُصُومَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَىٰ فَقَالَ:

[٥٩] : ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا هُوَ يَعْنِي عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ آية وعبرة، ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يَعْرِفُونَ بِهِ قُدْرَةَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَىٰ مَا يَشَاءُ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ .

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً﴾ أَيْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَهْلَكْنَاكُمْ وَجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً، ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يكونون خلفاء مِنْكُمْ يُعَمِّرُونَ الْأَرْضَ وَيَعْبُدُونَنِي وَيُطِيعُونَنِي ، وَقِيلَ: يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعْنِي عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يَعْنِي نُزُولَهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ يُعْلَمُ بِهِ قُرْبُهَا، وَقَرَأَ ابْنُ عباس وأبو هريرة وقتادة: ﴿إنه لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وَالْعَيْنِ أي أمارة وعلامة، وَقَالَ الْحَسَنُ وَجَمَاعَةٌ: وَإِنَّهُ يَعْنِي وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ يُعْلِمُكُمْ قِيَامَهَا، وَيُخْبِرُكُمْ بِأَحْوَالِهَا وَأَهْوَالِهَا، وعن ابن عباس : إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِقُرَيْشٍ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِيهِ خَيْرٌ**» ، وَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَىٰ تَعْبُدُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَىٰ كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ صَالِحًا، فَلَئِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَإِنَّ آلِهَتَهُمْ لَكَمَا تَقُولُونَ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قَالَ: قُلْتُ: مَا يَصِدُّونَ؟ قَالَ: يَضِجُّونَ، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ ، قَالَ: هُوَ خُرُوجُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فَلَا تَشُكُّونَ فِيهَا، يَعْنِي فِي السَّاعَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُكَذِّبُوا بِهَا، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ علىٰ التوحيد، وَفِيمَا أُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللهِ ﴿هَذَا﴾ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ طَرِيقٌ قَوِيمٌ إِلَىٰ اللهِ، أَيْ إِلَىٰ جَنَّتِهِ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ لا يصرفنكم، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ عَنْ دِينِ اللهِ، أَيْ لَا تَغْتَرُّوا بِوَسَاوِسِهِ وَشُبَهِ الْكُفَّارِ الْمُجَادِلِينَ، فَإِنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ تَخْتَلِفْ فِي التَّوْحِيدِ وَلَا فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ السَّاعَةِ وَغَيْرِهَا بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ حَرِيصٌ عَلَىٰ إِغْوَائِكُمْ، بَاذِلٌ جُهْدَهُ فِي ذَلِكَ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ وَإِبْرَاءَ الْأَسْقَامِ وَخَلْقَ الطَّيْرِ وَالْمَائِدَةَ وَغَيْرَهَا، وَالْإِخْبَارَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْغُيُوبِ، وَقَالَ قتادة: البينات هُنَا الْإِنْجِيلُ. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالنُّبُوَّة، وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: عِلْمُ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ الْجَمِيلِ وَيَكُفُّ عَنِ الْقَبِيحِ ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي اخْتِلَافَ الْفِرَقِ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَىٰ أَمْرِ عِيسَىٰ عليه السلام ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ فِي الْإِنْجِيلِ إِنَّمَا هُوَ بَعْضُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ فِي غَيْرِ الْإِنْجِيلِ مَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَوْتِ مُوسَىٰ فِي أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَأَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ فَبَيَّنَ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أَيِ اتَّقُوا الشِّرْكَ وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ، وَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ عِيسَىٰ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَهٍ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ عِبَادَةُ اللهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، وَمَا سِوَاهُ مُعْوَجٌّ لَا يُؤَدِّي سَالِكَهُ إِلىٰ الحق، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَفِيهِ الْإِقْرَارُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُرَبِّي جَمِيعَ خَلْقِهِ بِأَنْوَاعِ

النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالْإِقْرَارُ بِتَوْحِيدِ الْعُبُودِيَّةِ، بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِخْبَارُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، لَيْسَ كَمَا قَالَ فِيهِ النَّصَارَىٰ: إِنَّهُ ابْنُ اللهِ ، أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَالْإِخْبَارُ بِأَنَّ هَذَا الْمَذْكُورَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، مُوصِلٌ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلف الْفِرَقُ وَصَارُوا شِيَعًا فِيهِ، ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ أَيِ اخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ بَيْنَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيْ مَا بَيْنَهُمْ فَاخْتَلَفَتِ الْفِرَقُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. مِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْحَقُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وُلَدُ اللهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ اللهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَالْمُرَادُ بِالْأَحْزَابِ : أَحْزَابُ النَّصَارَىٰ ؛ لِأَنَّ الِاخْتِلَافَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ وَلَمْ يَكُنِ الْيَهُودُ مُوَافِقِينَ النَّصَارَىٰ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ ، وَقَدْ كَانَ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ قَوْلٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ فِي حَيَاةِ الْحَوَارِيِّينَ ثُمَّ حَدَثَ الِاخْتِلَافُ فِي تَلَامِيذِهِمْ ، وإِنَّ الِاخْتِلَافَ صار إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ: الْمَلْكَانِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ، وَالنَّسْطُورِيَّةُ. وَانْشَعَبَتْ مِنْ هَذِهِ الْفِرَقِ عِدَّةُ فِرَقٍ ذَكَرَهَا الشَّهْرَسْتَانِيُّ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : هِيَ نَصْرَانِيَّةٌ مَشُوبَةٌ بِعَقَائِدِ الصَّابِئَةِ ، وَحَدَثَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِرْقَةُ الِاعْتِرَاضِيَّةِ : (الْبُرُوتِسْتَانت) أَتْبَاعُ (مارتن لُوثِر) وَأَشْهَرُ الْفِرَقِ الْيَوْمَ هِيَ الْمَلْكَانِيَّةُ (كَاثُولِيك)، وَالْيَعْقُوبِيَّة (أُرْثُوذُوكْس)، وَالِاعْتِرَاضِيَّة (بْرُوتِسْتَان) ، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، الْقَائِلُونَ بِعِيسَىٰ قَوْلَ الْكُفْرِ ، ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، الْقَائِلُونَ بِعِيسَىٰ قَوْلَ الْكُفْرِ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل ينتظرون، ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ يَعْنِي أَنَّهَا تَأْتِيهِمْ لَا مَحَالَةَ فَكَأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَهَا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ لَا يَنْتَظِرُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ إِلَّا السَّاعَةَ، وَيَكُونُ (الْأَحْزَابُ) عَلَىٰ هَذَا، الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبُوهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعَةٌ، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا، فَإِذَا جَاءَتْ إِنَّمَا تَجِيءُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بها، فحيئذ يَنْدَمُونَ كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يدفع عنهم.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ فِي الدُّنْيَا، أَيْ كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللهِ، فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً إِلَّا مَا كَانَ للهِ عزَّ وجلَّ، فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِهِ، والْأَخِلَّاءُ: جَمْعُ خَلِيلٍ، وَهُوَ الصَّاحِبُ الْمُلَازِمُ، قِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّخَلُّلِ لِأَنَّهُ كَالْمُتَخَلِّلِ لِصَاحِبِهِ وَالْمُمْتَزِجِ بِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكُلُّ خُلَّةٍ هِيَ عَدَاوَةٌ إِلَّا خُلَّةَ الْمُتَّقِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَكُلُّ خُلَّةٍ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا مُتَعَادُونَ، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، إِلَّا الْمُتَحَابِّينَ فِي اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**»(١) .

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يا عِبادِ﴾ أَيْ فَيُقَالُ لَهُمْ يَا عِبَادِي، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أَيْ: لَا خَوْفَ يَلْحَقُكُمْ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا حُزْنَ يُصِيبُكُمْ فِيمَا مَضَىٰ مِنْهَا، وَإِذَا انْتَفَىٰ الْمَكْرُوهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ثَبَتَ الْمَحْبُوبُ الْمَطْلُوبُ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: وَصَفَهُمُ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللهِ، وَذَلِكَ لِيَشْمَلَ التَّصْدِيقَ بِهَا، وَمَا لَا يَتِمُّ التَّصْدِيقُ إِلَّا بِهِ، مِنَ الْعِلْمِ بِمَعْنَاهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا. ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لِلَّهِ مُنْقَادِينَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الِاتِّصَافِ بِعَمَلِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَيَيْأَسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ:

[٧٠] : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرُّونَ وَتُنَعَّمُونَ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ جَمْعُ صَحْفَةٍ وَهِيَ الْقَصْعَةُ الْوَاسِعَةُ، ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جَمْعُ كُوبٍ وَهُوَ إِنَاءٌ مُسْتَدِيرٌ مُدَوَّرُ الرَّأْسِ لَا عُرَىٰ لَهَا، ﴿وَفِيهَا﴾ أَيْ فِي الْجَنَّةِ، ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أَيْ طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ وحسن المنظر، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أَيْ فِي الْجَنَّةِ

---

(١) مسلم (٢٥٦٦) .

﴿خَالِدُونَ﴾ أَيْ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا تَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، ثم قيل لهم علىٰ مجه التَّفَضُّلِ وَالِامْتِنَانِ .

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ أَعْمَالُكُمُ الصَّالِحَةُ كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللهِ إِيَّاكُمْ، نَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ يُنَالُ تَفَاوُتُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أَيْ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أَيْ مَهْمَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ، وَلَمَّا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ لِتُتَمِّمَ النِّعْمَةَ وَالْفَرَحَ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ، وَالْمُجْرِمُونَ: الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الْإِجْرَامَ، وَهُوَ الذَّنْبُ الْعَظِيمُ ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا: الْمُشْرِكُونَ المكذبون للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ السِّيَاقَ لَهُمْ، ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ قوله تعالىٰ :

[٧٥] : ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أَيْ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أَيْ آيِسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقِيلَ: سَاكِتُونَ سُكُوتَ يَأْسٍ، والْمُبْلِسُ الْبَاهِتُ الْحَزِينُ الْآيِسُ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي لَا يُحِيرُ جَوَابًا لِشِدَّةِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ سوء الحال، وَمِنْ ذَلِكَ اشْتُقَّ اسْمُ إِبْلِيسَ، أَبْلَسَ الرَّجُلُ سَكَتَ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ وَالْإِصْرَارِ عَلَىٰ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ بِأَعْمَالِكُمُ السَّيِّئَةِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وِفَاقًا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وَهُوَ خَازِنُ جَهَنَّمَ، إِذَا زَجَرَ النَّارَ زَجْرَةً أَكَلَ بَعْضُهَا بَعْضًا، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ لِيُمِتْنَا رَبُّكَ فَنَسْتَرِيحَ فَيُجِيبُهُمْ مَالِكٌ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ مُقِيمُونَ فِي الْعَذَابِ، لَا تَخْرُجُونَ عَنْهَا أَبَدًا، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مَا قَصَدُوهُ، بَلْ أَجَابَهُمْ بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، وَزَادَهُمْ غَمًّا إِلَىٰ غَمِّهِمْ، وَعَنِ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ : أَنه خطب النَّاس بِالْبَصْرَةِ فَقَالَ: يَا أَيهَا النَّاس ابكوا فَإِن لم تبكوا فتباكوا ، فَإِن أهل النَّار يَبْكُونَ الدُّمُوع حَتَّىٰ تَنْقَطِع ثمَّ يَبْكُونَ الدِّمَاء حَتَّىٰ لَو أجري فِيهَا السفن لجرت.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بَيَّنَّاهُ لَكُمْ وَوَضَّحْنَاهُ وَفَسَّرْنَاهُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ لَهُمْ، أَيْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي النَّارِ لِأَنَّا جِئْنَاكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْحَقِّ فَلَمْ تَقْبَلُوا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللهِ لَهُمُ الْيَوْمَ، أَيْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأَدِلَّةَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمُ الرُّسُلَ ، يَقُولُ أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ، وَالْحَقُّ: الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ فَنَسَبَ مَالِكٌ الْمَجِيءَ بِالْحَقِّ إِلَىٰ جَمْعِ الْمَلَائِكَةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ اعْتِزَازِ الْفَرِيقِ وَالْقَبِيلَةِ بِمَزَايَا بَعْضِهَا، وَهِيَ طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ كَانَتْ

سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُقْبِلُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَنْقَادُ لِلْبَاطِلِ وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، فَعُودُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ، وَانْدَمُوا حَيْثُ لَا تنفعكم الندامة.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أحكموا وَالْإِبْرَامُ الْإِحْكَامُ. أَبْرَمْتُ الشَّيْءَ أَحْكَمْتُهُ ، وَأَبْرَمَ الْفِتَالَ إِذَا أَحْكَمَ الْفَتْلَ، ﴿أَمْرًا﴾ فِي الْمَكْرِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ مُحْكِمُونَ، والْمَعْنَىٰ أَمْ أَحْكَمُوا كَيْدًا ، فَإِنَّا مُحْكِمُونَ لَهُمْ كَيْدًا،، قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنْ كَادُوا شَرًّا كِدْتُهُمْ مِثْلَهُ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ مَا يُسِرُّونَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَتَنَاجَوْنَ به بينهم، ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ونعلم، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أَيْضًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَعْنِي الْحَفَظَةَ، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَيْ نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَاهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: الْمَعْنَىٰ مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، فَـ(إِنْ) بِمَعْنَىٰ مَا، وَيَكُونُ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذَا تَامًّا، ثُمَّ تَبْتَدِئُ : ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ أَيِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنْ كَانَ﴾ أَيْ مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ الشَّاهِدِينَ لَهُ بِذَلِكَ، جعل ﴿إن﴾ بمعنىٰ الجحد ، قال السُّدِّيُّ: مَعْنَاهُ لَوْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ ولد فأنا أول من أعبده بِذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، وقيل: العابدين بمعنىٰ الآنفين، يعنىٰ أَوَّلُ الْجَاحِدِينَ وَالْمُنْكِرِينَ لِمَا قُلْتُمْ ، وَيُقَالُ: مَعْنَاهُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ غَضِبَ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يُقَالَ لَهُ وَلَدٌ،

يُقَالُ: عَبَدَ يَعْبُدُ - إِذَا أنف أو غضب – عبداً ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَىٰ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ عَبَدَهُ وَحْدَهُ، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ أَيْضًا: الْمَعْنَىٰ لَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَبَدَهُ، عَلَىٰ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي ذلك. قال المهدوي: فَـ(إِنْ) عَلَىٰ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لِلشَّرْطِ، وَهُوَ الْأَجْوَدُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ، لِأَنَّ كَوْنَهَا بِمَعْنَىٰ مَا يُتَوَهَّمُ مَعَهُ أَنَّ الْمَعْنَىٰ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيمَا مَضَىٰ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ فَقَالَ:

[٨٢] : ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيْ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ، عَنْ أن يكون له ولد، فإنه فرد صَمَدٌ، لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، فلا ولد له.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أَيْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَيْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَآلُهُمْ وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هو ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِمَصَالِحِهِمْ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تَبَارَكَ بِمَعْنَىٰ تَعَالَىٰ وَتَعَاظَمَ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَاتَّسَعَتْ صِفَاتُهُ، وَعَظُمَ مُلْكُهُ. وَلِهَذَا ذَكَرَ سَعَةَ مُلْكِهِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَسَعَةَ عِلْمِهِ، وَأَنَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، حَتَّىٰ إِنَّهُ تَعَالَىٰ، انْفَرَدَ بِعِلْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْغُيُوبِ، الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، لَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ قَدَّمَ الظَّرْفَ، لِيُفِيدَ الْحَصْرَ، أَيْ: لَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَجِيءُ السَّاعَةُ إِلَّا هُوَ، وَمِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ وَسَعَتِهِ، أَنَّهُ مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: فِي الْآخِرَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ، وَمِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ، أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا، وَلَا يُقْدِمُ عَلَىٰ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وَهُمْ عِيسَىٰ وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُمْ عُبدوا مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَهُمُ الشَّفَاعَةُ، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ ﴿مَنْ﴾ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ، وَقِيلَ: ﴿مَنْ﴾ فِي مَحَلِّ الْخَفْضِ، وَأَرَادَ بِالَّذِينِ يدعون عيسىٰ وعزير والملائكة، بعني أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا لمن شهد الحق والأولىٰ أَصَحُّ، وَأَرَادَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ قَوْلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً التوحيد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بِقُلُوبِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أَيْ وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أَيْ هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ يَعْنِي قَوْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاكِيًا إِلَىٰ رَبِّهِ يَا رَبِّ، والقَوْلُ والقالُ والقِيْلُ بمعنىٰ واحد ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ بِالتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قال مجالد : قَالَ: هَذَا قَول نَبِيكُم صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم يشكو قومه إِلَىٰ ربه.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم، ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ مَعْنَاهُ الْمُتَارَكَةُ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَلِهَذَا أَحَلَّ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ، وَأَعْلَىٰ دِينَهُ وَكَلِمَتَهُ، وَشَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِهَادَ وَالْجِلَادَ، حَتَّىٰ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَشَارِقِ والمغارب، والله أعلم.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الدُخَانِ

وَجْهُ تَسْمِيَتِهَا بِالدُّخَانِ : وُقُوعُ لَفْظِ الدُّخَانِ فِيهَا الْمُرَادُ بِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ أَيَّدَ اللهُ بها رَسُوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِهِ اهْتِمَامًا بِشَأْنِهِ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: هِيَ مَكِّيَّةٌ لَا أَحْفَظُ خِلَافًا فِي شَيْءٍ مِنْهَا.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿حم﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هَذَا قَسَمٌ بِالْقُرْآنِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ، فَأَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ لِكُلِّ مَا يُحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ ، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نزل جبريل عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُجُومًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً، وَسُمِّيَتْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، لِعِظَمِ قَدْرِهَا وَفَضْلِهَا عِنْدَ اللهِ، وَلِأَنَّهُ يُقَدَّرُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي الْعَامِ مِنَ الْأَجَلِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْمَقَادِيرِ الْقَدَرِيَّةِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فِيهَا﴾ أَيْ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، ﴿يُفْرَقُ﴾ أي يفصل، وَالْفَرْقُ: الْفَصْلُ وَالْقَضَاءُ، أَيْ فِيهَا يُفْصَلُ كُلُّ مَا يُرَادُ قَضَاؤُهُ فِي النَّاسِ وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ الْقُرْآنُ فُرْقَانًا، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ مُحْكَمٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَكْتُبُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي السَّنَةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ حَتَّىٰ الْحُجَّاجِ، يُقَالُ: يَحُجُّ فُلَانٌ وَيَحُجُّ فُلَانٌ، قَالَ الْحَسَنُ البصري وَمُجَاهِدٌ: يُبْرَمُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كُلُّ أَجَلٍ وَعَمَلٍ وَخَلْقٍ وَرِزْقٍ، وَمَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْرًا﴾ أَيْ أَنْزَلْنَا أَمْرًا، ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ يْ جَمِيعَ مَا يَكُونُ وَيُقَدِّرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَمَا يُوحِيهِ فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَيْ إِلَىٰ النَّاسِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ، فَإِنَّ الحاجة كانت ماسة إليه، مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ رَحْمَةً بِالْعِبَادِ لِاسْتِقَامَةِ أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ، وَالرَّحْمَةُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : رَأْفَةً مِنِّي بِخَلْقِي وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ بِمَا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ لِلرَّحْمَةِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: يَسْمَعُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ وَيَعْلَمُ جَمِيعَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَقَدْ عَلِمَ تَعَالَىٰ ضَرُورَةَ الْعِبَادِ إِلَىٰ رُسُلِهِ وَكُتُبِهِ فَرَحِمَهُمْ بِذَلِكَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ فَلَهُ تَعَالَىٰ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَالْإِحْسَانُ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رَبُّ السماوات وَالْأَرْضِ وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أَنَّ اللهَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ أَيْ: لَا مَعْبُودَ إِلَّا وَجْهُهُ، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ وَحْدَهُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَسَيَجْمَعُكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِعَمَلِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أَيْ مَالِكُكُمْ وَمَالِكُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنكُمْ. وَاتَّقُوا تَكْذِيبَ مُحَمَّدٍ لِئَلَّا يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ، وَوَصَفَهُمْ بِ الْأَوَّلِينَ لِأَنَّهُمْ جعَلُوا أَقْدَمَ الْآبَاءِ حُجَّةً أَعْظَمَ مِنَ الْآبَاءِ الْأَقْرَبِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْهُمْ مَا سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من هذا القرآن، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يَهْزَءُونَ بِهِ لَاهُونَ عَنْهُ، وَقِيلَ: ﴿ يَلْعَبُونَ﴾ يُضِيفُونَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الِافْتِرَاءَ اسْتِهْزَاءً ، وَيُقَالُ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْمَوَاعِظِ: لَاعِبٌ، وَهُوَ كَالصَّبِيِّ الَّذِي يَلْعَبُ فَيَفْعَلُ مَا لَا يَدْرِي عَاقِبَتَهُ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَارْتَقِبْ﴾ مَعْنَاهُ انْتَظِرْ يَا مُحَمَّدُ بِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ احْفَظْ قَوْلَهُمْ هَذَا لِتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْحَافِظُ رَقِيبًا، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قال القرطبي : وَفِي الدُّخَانِ أَقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ:

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ لَمْ يَجِئْ بَعْدُ، وَأَنَّهُ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ مِثْلُ الزُّكَامِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْفَاجِرُ فَيَدْخُلُ فِي أُنُوفِهِمْ فَيَثْقُبُ مَسَامِعَهُمْ، وَيُضَيِّقُ أَنْفَاسَهُمْ، وَهُوَ مِنْ آثَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: « اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: **مَا تَذْكُرُونَ**؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: **إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ**- فَذَكَرَ- الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ من مغربها ونزول عيسىٰ بن مَرْيَمَ وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بالمشرق وخسف بالمغرب وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ »(١) .

الْقَوْلُ الثَّانِي- أَنَّ الدُّخَانَ هُوَ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا مِنَ الْجُوعِ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّىٰ كَانَ الرَّجُلُ يَرَىٰ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ دُخَانًا، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ. قَالَ: وَقَدْ كَشَفَهُ اللهُ عَنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكْشِفْهُ عَنْهُمْ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ- إِنَّهُ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا حَجَبَتِ السَّمَاءَ الْغَبَرَةُ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَغْشَىٰ النَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَمَعْنَىٰ يَغْشَىٰ النَّاسَ أَنَّهُ يُحِيطُ بِهِمْ وَيَعُمُّهُمْ كَمَا تُحِيطُ الْغَاشِيَةُ بِالْجَسَدِ أَيْ لَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْ أُولَئِكَ النَّاسِ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ.

(١) مسلم (٢٩٠١) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ سائلين رفعه عنهم .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ مِنْ أَيْنَ لَهُمُ التَّذَكُّرُ وَالِاتِّعَاظُ؟ يَقُولُ: كَيْفَ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَّعِظُونَ؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الصِّدْقِ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ابنُ كثير : يَقُولُ: كَيْفَ لَهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيِّن الرِّسَالَةِ وَالنِّذَارَةِ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَمَا وَافَقُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أعرضوا عنه، ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾ أي يعلمه بشر، ﴿مَجْنُونٌ﴾ أَيْ عَلَّمَهُ بَشَرٌ أَوْ عَلَّمَهُ الْكَهَنَةُ وَالشَّيَاطِينُ، ثُمَّ هُوَ مَجْنُونٌ وليس برسول .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ أي عذاب الجوع ﴿قَلِيلًا﴾ أَيْ زَمَانًا يَسِيرًا، قَالَ مُقَاتِلٌ: إِلَىٰ يَوْمِ بَدْرٍ ، ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إِلَىٰ كُفْرِكُمْ، وقيل : مَبْعُوثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بلونا، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قَبْلَ هَؤُلَاءِ، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ عَلَىٰ اللهِ ، وَهُوَ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ، وَقِيلَ: كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ

بِالتَّجَاوُزِ وَالصَّفْحِ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: كَرِيمٌ عَلَىٰ رَبِّهِ إِذِ اخْتَصَّهُ بالنبوة وإسماع الكلام.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَطْلِقْهُمْ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَدُّوا إِلَيَّ سَمْعَكُمْ حَتَّىٰ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أَيْ أَمِينٌ عَلَىٰ الْوَحْيِ فَاقْبَلُوا نصحي.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىٰ اللهِ﴾ أي لَا تَتَجَبَّرُوا عَلَيْهِ بِتَرْكِ طَاعَتِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تَبْغُوا عَلَىٰ اللهِ، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْبَغْيِ وَالِافْتِرَاءِ أَنَّ الْبَغْيَ بِالْفِعْلِ وَالِافْتِرَاءَ بِالْقَوْلِ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: لَا تَعْظُمُوا عَلَىٰ اللهِ. يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالِاسْتِكْبَارِ أَنَّ التَّعْظِيمَ تَطَاوُلُ الْمُقْتَدِرِ، وَالِاسْتِكْبَارُ تَرَفُّعُ الْمُحْتَقَرِ،﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بِبُرْهَانٍ بَيِّنٍ عَلَىٰ صِدْقِ قَوْلِي وَالسُّلْطَانُ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُجَّةِ قَالَ تَعَالَىٰ: إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهذا، وَهُوَ مَا أَتَىٰ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَاتِ، فَكَذَّبُوهُ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ فَلَجَأَ بِاللهِ مِنْ شَرِّهِمْ فَقَالَ:

[٢٠] : ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلون، وقال ابن عباس: تشتمونِ وَتَقُولُوا هُوَ سَاحِرٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: تَرْجُمُونِي بِالْحِجَارَةِ، وَالْمَقْصُودُ: إِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أَيْ إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ لِأَجْلِ بُرْهَانِي، ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ فَاتْرُكُونِي لَا مَعِيَ وَلَا عَلَيَّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاعْتَزِلُوا أَذَايَ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَقِيلَ: أَيْ كُونُوا بِمَعْزِلٍ مِنِّي وَأَنَا بِمَعْزِلٍ مِنْكُمْ إِلَىٰ أَنْ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا. وَقِيلَ: فَخَلُّوا سَبِيلِي وَكُفُّوا عَنْ أَذَايَ. وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ مُشْرِكُونَ قَدِ امْتَنَعُوا مِنْ إِطْلَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنَ الايمان، فَأَجَابَهُ اللهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْرِيَ، فَقَالَ:

[٢٣]: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أَيْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أُمِرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخُرُوجِ لَيْلًا. وَسَيْرُ اللَّيْلِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ خَوْفٍ، وَالْخَوْفُ يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنَ الْعَدُوِّ فَيَتَّخِذُ اللَّيْلُ سِتْرًا مُسْدِلًا، فَهُوَ مِنْ أَسْتَارِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِمَّا مِنْ خَوْفِ الْمَشَقَّةِ عَلَىٰ الدَّوَابِّ وَالْأَبْدَانِ بِحَرٍّ أَوْ جَدْبٍ، فَيُتَّخَذُ السُّرَىٰ مَصْلَحَةً مِنْ ذَلِكَ. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ إِذَا قَطَعْتَهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ، ﴿رَهْوًا﴾ سَاكِنًا عَلَىٰ حَالَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ضَرَبْتَهُ وَدَخَلْتَهُ، مَعْنَاهُ لَا تَأْمُرْهُ أَنْ يَرْجِعَ اتْرُكْهُ حَتَّىٰ يَدْخُلَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، وَأَصْلُ الرَّهْوِ: السُّكُونُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَعْنَاهُ اتْرُكِ البحر رَاهِيًا أَيْ سَاكِنًا، فَسُمِّيَ بِالْمَصْدَرِ، أَيْ ذَا رَهْوٍ، وقال الْجَوْهَرِيُّ: وَيُقَالُ افْعَلْ ذَلِكَ رَهْوًا، أَيْ سَاكِنًا عَلَىٰ راحتك مثل ما نقول بالعراقي، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: رَهَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ يَرْهُو رَهْوًا أَيْ فَتَحَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ ،

وَالرَّهْوُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، يُقَالُ: جَاءَتِ الْخَيْلُ رَهْوًا. وَقَالَ كَعْبٌ: اتْرُكْهُ طَرِيقًا. قَالَ قَتَادَةُ: طَرِيقًا يا بسـًا، قَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا قَطَعَ مُوسَىٰ الْبَحْرَ عَطَفَ لِيَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ لِيَلْتَئِمَ وَخَافَ أَنْ يَتْبَعَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَقِيلَ لَهُ: اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا كَمَا هُوَ، ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أَخْبَرَ مُوسَىٰ أَنَّهُ يُغْرِقُهُمْ لِيُطَمْئِنَ قلبه في تركه كَمَا جَاوَزَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا تَرَكُوا بِمِصْرَ، فَقَالَ:

[٢٥] : ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ يَعْنِي بَعْدَ الْغَرَقِ، ﴿كَمْ﴾: لِلتَّكْثِيرِ ، أَيْ: كَمْ تَرَكُوا مِنْ بَسَاتِينَ وَعُيُونِ مَاءٍ، كَالْأَنْهَارِ وَالْآبَارِ كَانُوا يَنْعَمُونَ بِخَيْرَاتِهَا ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ وَمَنَعَهُمْ مِنَ الِاسْتِمْرَارِ فِي النَّعِيمِ، وَصَيَّرَهُمْ إِلَىٰ حَيَاةِ الْهَلَاكِ وَالْجَحِيمِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا الْأَنْهَارُ والآبار ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ مَجْلِسٍ شَرِيفٍ، قَالَ قَتَادَةُ: الْكَرِيمُ الحسن ، وَالْكَرِيمُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَنْفَسُهُ وَخَيْرُهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْمَسَاكِنُ وَالدِّيَارُ وَالْأَسْوَاقُ وَنَحْوُهَا مِمَّا كَانَ لَهُمْ فِي مَدِينَةِ (مَنْفِسِ) .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ وَمُتْعَةٍ وَعَيْشٍ لَيِّنٍ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْمُرَادُ بِالنَّعْمَةِ نِيلُ مِصْرَ، ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾أَيْ كَانُوا مَغْمُورِينَ فِي النِّعْمَةِ لَاعِبِينَ فِي تِلْكَ النِّعْمَةِ، قَالَ ابنُ كثير : أَيْ عِيشَةٍ كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا، فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا، مَعَ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ، فَسُلِبُوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا، وَصَارُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَاسْتَوْلَىٰ علىٰ البلاد المصرية والممالك القبطية بنو إِسْرَائِيلَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كَذَلِكَ أَفْعَلُ بِمَنْ عصاني، وَقِيلَ: ﴿كَذلِكَ﴾ كَانَ أَمْرُهُمْ فَأُهْلِكُوا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أَيْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَتَبْكِي عَلَىٰ فَقْدِهِمْ، وَلَا لَهُمْ فِي الأرض بقاع عبدوا الله تعالىٰ فيها فقدتهم عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَىٰ أَحَدٍ؟ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مُصَلًّىٰ فِي الْأَرْضِ وَمَصْعَدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِنَّ آلَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا عَمَلٌ يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾، وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ لَمْ يَنْظُرُوا حِينَ أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ لِتَوْبَةٍ وَلَا لِغَيْرِهَا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يَعْنِي مَا كَانَتِ الْقِبْطُ تَفْعَلُ بِهِمْ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ، مِنْ قَتْلِ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِخْدَامِ النِّسَاءِ، وَاسْتِعْبَادِهِمْ إِيَّاهُمْ وَتَكَلُّفِهِمُ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أَيْ جَبَّارًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلَيْسَ هَذَا عُلُوَّ مَدْحٍ بَلْ هُوَ عُلُوٌّ فِي الْإِسْرَافِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ، وَقِيلَ: هَذَا الْعُلُوُّ هُوَ التَّرَفُّعُ عَنْ عِبَادَةِ الله.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ يَعْنِي مُؤْمِنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بهم ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَىٰ عَالِمِي زَمَانِهِمْ، بدليل قوله لهذه الامة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠].

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: نِعْمَةٌ بَيِّنَةٌ مَنْ فَلْقِ الْبَحْرِ وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ، وَالنِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عليهم ، قال ابْنُ زَيْدٍ: ابْتَلَاهُمْ بِالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وقرأ : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ .

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿لَيَقُولُونَ ﴾ :

[٣٥] : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ أَيْ لَا مَوْتَةَ إِلَّا هَذِهِ الَّتِي نَمُوتُهَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا بَعْث بَعْدَهَا. وَهُوَ قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ مَوْتَتِنَا، قَالَ السعدي: أي: ما هي إلَّا الحياةُ الدُّنيا، فلا بعثَ ولا نُشورَ، ولا جنَّةَ ولا نارَ، ثم قالوا متجرِّئين علىٰ ربِّهم، مُعجِّزين له :

[٣٦] : ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الَّذِينَ مَاتُوا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّا نُبْعَثُ أَحْيَاءً بَعْدَ الْمَوْتِ، ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مِثْلَ عَذَابِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ فَقَالَ:

[٣٧] : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أَيْ لَيْسُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، يَعْنِي أَقْوَىٰ وَأَشَدَّ وَأَكْثَرَ مِنْ قَوْمِ تُبَّعٍ ، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ تُبَّعٌ الْحِمْيَرِيُّ، وَكَانَ سَارَ بِالْجُيُوشِ حَتَّىٰ حَيَّرَ الْحِيرَةَ، وَبَنَىٰ سَمَرْقَنْدَ وَكَانَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، سُمّي تُبَّعا لِكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّىٰ تُبَّعًا لِأَنَّهُ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ، وكان هذا الملك يَعْبُدُ النَّارَ فَأَسْلَمَ وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَهُمْ حِمْيَر، فَكَذَّبُوهُ وكانت عائشة تقول: لا تسبّوا تُبَّعًا، فإنه كان رجلًا صالحًا ، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وَقَالَ كَعْبٌ: ذَمَّ اللهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَضَرَبَ بِهِمْ لِقُرَيْشٍ مِثْلًا لِقُرْبِهِمْ مِنْ دَارِهِمْ وَعِظَمِهِمْ فِي نُفُوسِهِمْ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أَيْ غَافِلِينَ ، وقيل: لاهين.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ إِلَّا بِالْأَمْرِ الْحَقِّ ، وقِيلَ: يَعْنِي لِلْحَقِّ وَهُوَ الثَّوَابُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وَالْعِقَابِ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلِذٰلِكَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يَوْمَ يَفْصِلُ الرَّحْمَنُ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَفْصِلُ فِيهِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يُوَافِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، أي الْوَقْتُ الْمَجْعُولُ لِتَمْيِيزِ الْمُسِيءِ مِنَ الْمُحْسِنِ، وَالْفَصْلِ بَيْنَهُمَا: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. وَالْمِيقَاتُ: اسْمُ زَمَانِ التَّوْقِيتِ، أَيِ التَّأْجِيلِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًىٰ عَنْ مَوْلًىٰ شَيْئًا﴾ لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ قَرِيبَهُ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ شَيْئًا، وَالْمَوْلَىٰ: الْوَلِيُّ وَهُوَ ابْنُ الْعَمِّ وَالنَّاصِرُ، أَيْ لَا يَدْفَعُ ابْنُ عَمٍّ عَنِ ابْنِ عَمِّهِ، وَلَا قَرِيبٌ عَنْ قَرِيبِهِ، وَلَا صَدِيقٌ عَنْ صَدِيقِهِ، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ لَا يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ﴾ يُرِيدُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لبعض، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ وَيَرْتَفِعُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّتِي تَسَبَّبَ إِلَيْهَا وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا فِي الدُّنْيَا.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ قال القرطبي : وشَجَرَةُ الزَّقُّومِ: الشَّجَرَةُ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ فِي جَهَنَّمَ وَسَمَّاهَا الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ، فَإِذَا جَاعَ أَهْلُ النَّارِ الْتَجَئُوا إِلَيْهَا فَأَكَلُوا مِنْهَا، فَغَلِيَتْ فِي بُطُونِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْمَاءُ الْحَارُّ. وَشَبَّهَ مَا يَصِيرُ مِنْهَا إِلَىٰ بُطُونِهِمْ بِالْمُهْلِ، وَهُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ذِي الْإِثْمِ، وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو دُرْدِيُّ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ، وَهُوَ مَا تَرَسَّبَ مِنَ الزَّيْتِ عِنْدَ غَلَيَانِهِ، وَيَكُونُ أَسْوَدَ ذَا رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ، وَقَالَ السعدي :أَيْ كَالصَّدِيدِ الْمُنْتِنِ خَبِيثِ الرِّيحِ وَالطَّعْمِ، شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، يَغْلِي فِي بُطُونِهِمْ، ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أَيْ بُطُونِ الْكُفَّارِ .

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ كَالْمَاءِ الْحَارِّ إِذَا اشْتَدَّ غَلَيَانُهُ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿خُذُوهُ﴾ أَيْ يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ خُذُوهُ يَعْنِي الأثيم، ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أَيِ ادْفَعُوهُ وَسُوقُوهُ، يُقَالُ: عَتَلَهُ يَعْتِلُهُ عَتْلًا إِذَا سَاقَهُ بِالْعُنْفِ وَالدَّفْعِ والجذب، وفي لهجتنا العراقية نقول تلته الشرطة ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وَسَطِهِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنْ خَازِنَ النَّارِ يَضْرِبُهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيَنْقُبُ رَأْسَهُ عَنْ دِمَاغِهِ ثُمَّ يَصُبُّ فِيهِ مَاءً حَمِيمًا قَدِ انْتَهَىٰ حَرُّهُ. ثم يقال له:

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أَيْ: بِزَعْمِكَ أَنَّكَ عَزِيزٌ سَتَمْتَنِعُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَأَنَّكَ كَرِيمٌ عَلَىٰ اللهِ لَا يُصِيبُكَ بِعَذَابٍ، فَالْيَوْمَ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّكَ أَنْتَ الذَّلِيلُ الْمُهَانُ الْخَسِيسُ عِنْدَ قَوْمِكَ بِزَعْمِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ: أَنَا أعز أهل الوادي وأكرمهم، أَيْ يَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ بِزَعْمِكَ. وَقِيلَ: هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الِاسْتِخْفَافِ وَالتَّوْبِيخِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالْإِهَانَةِ وَالتَّنْقِيصِ، أَيْ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ أَنْتَ الذَّلِيلُ الْمُهَانُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون فيه ولا وتؤمنون بِهِ، أَيْ تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ تشكون فيه في الدنيا، وَالِامْتِرَاءُ: الشَّكُّ، ثُمَّ ذَكَرَ مُسْتَقَرَّ الْمُتَّقِينَ، فَقَالَ:

[٥١] : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ وَالْمُقَامُ بِضَمِّ الْمِيمِ: مَكَانُ الْإِقَامَةِ. وَالْمَقَامُ بِفَتْحِ الْمِيمِ: مَكَانُ الْقِيَامِ وَيَتَنَاوَلُ الْمَسْكَنَ وَمَا يَتْبَعُهُ، والأمين : أَيْ فِي

مَجْلِسٍ أَمِينٍ، أَمِنُوا فِيهِ مِنَ الْغَيْرِ، أَيْ مِنَ الْمَوْتِ وَمِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ، قال قتادة: إي والله، آمين من الشيطان والأنصاب والأحزان، قال ابن عاشور : وَالْأَمْنُ أَكْبَرُ شُرُوطِ حُسْنِ الْمَكَانِ لِأَنَّ السَّاكِنَ أَوَّلُ مَا يَتَطَلَّبُ الْأَمْنَ وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَخَاوِفِ فَإِذَا كَانَ آمِنًا فِي مَنْزِلِهِ كَانَ مُطْمَئِنَّ الْبَالِ شَاعِرًا بِالنَّعِيمِ الَّذِي يَنَالُهُ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعالَىٰ : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قَالَ الطبري :وَالْجَنَّاتُ الْبَسَاتِينُ، وَالْعُيُونُ: عُيُونُ الْمَاءِ الْمُطَّرِدِ فِي أُصُولِ أَشْجَارِ الْجَنَّاتِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعالَىٰ : ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ فِي كَمَالِ الرَّاحَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعِشْرَةِ الْحَسَنَةِ وَالْآدَابِ الْمُسْتَحْسَنَةِ.وَالسُّنْدُسُ: الدِّيبَاجُ الرَّقِيقُ النَّفِيسُ، وَالْأَكْثَرُ عَلَىٰ أَنَّهُ مُعَرَّبٌ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ وَقِيلَ عَرَبِيٌّ ، أَصْلُهُ: سِنْدِيٌّ، مَنْسُوبٌ إِلَىٰ السِّنْدِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاسٍ. وَالسُّنْدُسُ يُلْبَسُ مِمَّا يَلِي الْجَسَدَ ، وَالْإِسْتَبْرَقُ: الدِّيبَاجُ الْقَوِيُّ يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ وَهُوَ مُعَرَّبُ اسْتَبَرَهْ فَارِسِيَّةٌ، وَهُوَ الْغَلِيظُ مُطْلَقًا ثُمَّ خُصَّ بِغَلِيظِ الدِّيبَاجِ، ثُمَّ عُرِّبَ ، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مالك قال : « أهدىٰ أمير دُومَةَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُبَّةً مِنْ سُنْدُسٍ ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهَا ، فَقَالَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْهَا** »[1].

---

(١) البخاري (٣٢٤٨) ومسلم (٢٤٦٨) .

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ أَيْ كَمَا أَكْرَمْنَاهُمْ بِمَا وَصَفْنَا مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ وَاللِّبَاسِ كَذَلِكَ أَكْرَمْنَاهُمْ بِأَنْ زَوَّجْنَاهُمْ ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ أَيْ قَرَنَّاهُمْ بِهِنَّ لَيْسَ مَنْ عَقْدِ التَّزْوِيجِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: زَوَّجْتُهُ بِامْرَأَةٍ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: جعلناهم أزواجا لهم كأنما يزوج النعل بالنعل، أي جعلناهم اثنين اثنين، والحور هُنَّ النِّسَاءُ النَّقِيَّاتُ الْبَيَاضِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَحَارُ فِيهِنَّ الطَّرْفُ مِنْ بَيَاضِهِنَّ وَصَفَاءِ لَوْنِهِنَّ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحُورُ هُنَّ شَدِيدَاتُ بَيَاضِ الْأَعْيُنِ الشَّدِيدَاتُ سَوَادِهَا وَاحِدُهَا أَحْوَرُ، والمرأة حوراء، والعين جَمْعُ الْعَيْنَاءِ وَهِيَ عَظِيمَةُ الْعَيْنَيْنِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ اشتهوها، ﴿آمِنِينَ﴾ مِنْ نَفَادِهَا وَمِنْ مَضَرَّتِهَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: آمَنِينَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْأَوْصَابِ وَالشَّيَاطِينِ، قال ابن كثير : أَيْ مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ أُحْضِرَ لَهُمْ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنِ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ بَلْ يَحْضُرُ إِلَيْهِمْ كلما أرادوا.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي سوىٰ الموتة الأولىٰ التي ذاقوها في الدنيا، وَقِيلَ: إِنَّمَا اسْتَثْنَىٰ الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَهِيَ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَوْتٍ فِي الْجَنَّةِ ؛ لِأَنَّ السُّعَدَاءَ حِينَ يَمُوتُونَ يَصِيرُونَ بِلُطْفٍ إِلَىٰ أَسْبَابِ الْجَنَّةِ، يَلْقَوْنَ الرُّوحَ وَالرَّيْحَانَ وَيَرَوْنَ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَكَانَ مَوْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ لِاتِّصَالِهِمْ بِأَسْبَابِهَا، وَمُشَاهَدَتِهِمْ إِيَّاهَا. هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يؤكد النفي، ومعناه أنهم لا يذقون فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحُ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أهل النار خلود فلا موت**» ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تشبوا فلا تهرموا أبداً**»(١) ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ مَعَ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، قَدْ وَقَاهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَزَحْزَحَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

[٥٧] : ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيْ إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رسول الله؟ قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ منه وفضل**»(٢).

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا بِلِسَانِكَ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ

---

(١) مسلم (٢٨٣٧) .

(٢) البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٥٦٧٣) .

وَأَجْلَاهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْمَلُونَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ ، مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ، قَالَ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسَلِّيًا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَمُتَوَعِّدًا لِمَنْ كذبه بالعطف وَالْهَلَاكِ :

[٥٩] : ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أَيِ انْتَظِرْ ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أَيْ فسيعلمون لمن تكون النصرة وَالظَّفَرُ، وَعُلُوُّ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلِإِخْوَانِكَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

وَتُسَمَّىٰ حم الْجَاثِيَةِ لِوُقُوعِ لَفْظِ جاثِيَةً فِيهَا وَلَمْ يَقَعْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَتُسَمَّىٰ سُورَةَ الدَّهْرِ لِوُقُوعِ مَا يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ فِيهَا ، وَلَمْ يَقَعْ لَفْظُ الدَّهْرِ فِي ذَوَاتِ حم الْأُخَرِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الدُّخَانِ وَقَبْلَ الْأَحْقَافِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿حم﴾ كَسَابِقِهِ، يُفِيدُ التَّحَدِّيَ وَالإِعْجَازَ، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُعْجِزَ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ مُؤَلَّفٌ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ الَّتِي يَتَخَاطَبُ الْعَرَبُ بِهَا.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: الَّذِي نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الْحَكِيمِ فِي تَدْبِيرِهِ خَلْقَهُ، لَا مِنْ غَيْرِهِ، فَلَا تَكُونَنَّ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ، أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْمَنِيعِ الْجَنَابِ الْحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ فِي خَلْقِهِمَا ، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ اللَّاتِي مِنْهُنَّ نُزُولُ الْغَيْثِ، وَالْأَرْضِ الَّتِي مِنْهَا خُرُوجُ الْخَلْقِ أَيُّهَا النَّاسُ لَأَدِلَّةً وَحُجَجًا لِلْمُصَدِّقِينَ بِالْحُجَجِ إِذَا تَبَيَّنُوهَا

وَرَأَوْهَا، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فَآيَةُ السَّمَاوَاتِ: ارْتِفَاعُهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ مِنْ تَحْتِهَا وَلَا عَلَائِقَ مِنْ فَوْقِهَا، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْقُدْرَةِ وَخَرْقِ الْعَادَةِ. وَلَوْ جَاءَ نَبِيٌّ فَتُحُدِّيَ بِوُقُوفِ جَبَلٍ فِي الْهَوَاءِ دُونَ عَلَاقَةٍ كَانَ مُعْجِزًا، ثُمَّ مَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ السَّائِرَةِ وَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ شَارِقَةً وَغَارِبَةً نَيِّرَةً وَمَمْحُوَّةً آيَةٌ ثَانِيَةٌ، وَآيَةُ الْأَرْضِ: بِحَارُهَا وَأَنْهَارُهَا وَمَعَادِنُهَا وَشَجَرُهَا وَسَهْلُهَا وَوَعْرُهَا ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَالْخِطَابُ مُوَجَّهٌ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ أَيْ هِيَ آيَاتٌ لِمَنْ يَعْلَمُونَ دَلَالَتَهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنَ الَّذِينَ يُوقِنُونَ إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ لَا أَثَرَ لَهَا فِي نُفُوسِ مَنْ هُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾ أَيْ فَرَّقَ وَنَشَرَ، وَمِنْهُ ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، وَالْبَثُّ: التَّوْزِيعُ وَالْإِكْثَارُ وَهُوَ يَقْتَضِي الْخَلْقَ وَالْإِيجَادَ فَكَأَنَّهُ قِيلَ وَفِي خَلْقِ اللهِ مَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ، وَدَابَّةٌ تَجْمَعُ الْحَيَوَانَ كُلَّهُ، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قِيلَ: اخْتِلَافُهُمَا بِإِقْبَالِ أَحَدِهِمَا وَإِدْبَارِ الْآخَرِ مِنْ حَيْثُ لَا يُعْلَمُ، وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمَا فِي الْأَوْصَافِ مِنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَالطُّولِ وَالْقِصَرِ، ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ يَعْنِي الْغَيْثَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أَيْ: فَيُنْبِتُهَا وَيُخْرِجُ زَرْعَهَا بَعْدَ خَرَابِهَا وَجُدُوبِهَا، ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ﴾ تَصْرِيفُهَا: إِرْسَالُهَا عَقِيمًا وَمُلْقِحَةً، وَصِرًّا وَنَصْرًا وَهَلَاكًا، وَحَارَّةً وَبَارِدَةً، وَلَيِّنَةً

وَعَاصِفَةً. وَقِيلَ: تَصْرِيفُهَا إِرْسَالُهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا، وَدَبُورًا وَصَبًّا، وَنَكْبَاءَ، وَهِيَ الَّتِي تَأْتِي بَيْنَ مَهَبَّيْ رِيحَيْنِ ، وَقِيلَ: تَصْرِيفُهَا أَنْ تَأْتِيَ السُّفُنُ الْكِبَارُ بِقَدْرِ مَا تَحْمِلُهَا، وَالصِّغَارُ كَذَلِكَ، وَيُصْرَفُ عنهما ما يضربهما، وَلَا اعْتِبَارَ بِكِبَرِ الْقِلَاعِ وَلَا صِغَرِهَا، فَإِنَّ الرِّيحَ لَوْ جَاءَتْ جَسَدًا وَاحِدًا لَصَدَمَتِ الْقِلَاعَ وَأَغْرَقَتْ ، وَالرِّيَاحُ جَمْعُ رِيحٍ سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا تَأْتِي بِالرَّوْحِ غَالِبًا ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال سبحانه وتعالىٰ أولًا: ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقٍّ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَىٰ مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَىٰ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يُرِيدُ هَذَا الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا بَاطِلَ وَلَا كَذِبَ فِيهِ، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ﴾ بَعْدَ كِتَابِ اللهِ، ﴿وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ بَعْدَ آيَاتِهِ وَدَلَائِلِهِ الْبَاهِرَةِ. وَتَقْدِيمُ اسْمِ اللهِ لِلْمُبَالَغَةِ وَالتَّعْظِيمِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كَذَّابٍ صَاحِبِ إِثْمٍ يَعْنِي النَّضِرَ بْنَ الْحَارِثِ ، (وَيْلٌ) وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، تَوَعَّدَ مَنْ تَرَكَ الِاسْتِدْلَالَ بِآيَاتِهِ ، وَالْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْإِفْكُ الْكَذِبُ، ﴿أَثِيمٍ﴾ أَيْ مُرْتَكِبٌ لِلْإِثْمِ ، قال ابن عاشور : وَالْمرَاد بِكُل أَفَّاكٍ أَثِيمٍ جَمِيعُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا دَعْوَة الرَّسُول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَانَدُوا فِي مُعْجزَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي آيَاتِ الْقُرْآنِ. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أَيْ يَتَمَادَىٰ عَلَىٰ كُفْرِهِ مُتَعَظِّمًا فِي نَفْسِهِ عَنِ الِانْقِيَادِ، مَأْخُوذٌ مِنْ صَرَّ الصُّرَّةَ إِذَا شَدَّهَا، وَالْإِصْرَارُ: مُلَازَمَةُ الشَّيْءِ وَعَدَمُ الِانْفِكَاكِ عَنْهُ ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ فأخبره أن له عند الله تعالىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: مِنَ الْقُرْآنِ، قال القرطبي: نَحْوُ قَوْلِهِ فِي الزَّقُّومِ: إِنَّهُ الزُّبْدُ وَالتَّمْرُ، وَقَوْلُهُ فِي خَزَنَةِ جَهَنَّمَ: إِنْ كَانُوا تِسْعَةَ عَشَرَ فَأَنَا أَلْقَاهُمْ وَحْدِي، ﴿ اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، ولهذا «نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أن يناله العدو»(١).

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أمامهم، ﴿جَهَنَّمُ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مُمَتَّعُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ النَّارُ يَدْخُلُونَهَا، أَيْ مِنْ وَرَاءِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّعَزُّزِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّكَبُّرِ عَنِ الْحَقِّ جَهَنَّمُ، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ، ﴿شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وَلَا مَا عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الأصنام ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي دائم مؤلم.

---

(١) البخاري (٢٩٩٠) ومسلم (١٨٦٩).

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :﴿هَذَا﴾ يعني هذا القرآن، ﴿هُدًىٰ﴾ بيَانٌ مِنَ الضَّلَالَةِ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أَيْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَقِيلَ: الرِّجْزُ الْقَذَرُ مِثْلُ الرِّجسِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:﴿وَيُسْقىٰ مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] أَيْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ تَجَرُّعِ الشَّرَابِ الْقَذِرِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَىٰ نعمهم عَلَىٰ عَبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ، وَمَعْنَىٰ تَسْخِيرِهَا أَنَّهُ خَلَقَهَا لِمَنَافِعِنَا، فَهُوَ مُسَخَّرٌ لَنَا مِنْ حَيْثُ إِنَّا نَنْتَفِعُ بِهِ ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وَهِيَ السُّفُنُ فِيهِ بِأَمْرِهِ تَعَالَىٰ فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ أَيْ فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ عَلَىٰ حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ، مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْآفَاقِ الْقَاصِيَةِ، ثُمَّ قال عزَّ وجلَّ .

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ، الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَمِيعًا مِنْهُ كُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْهُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: كُلُّ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ وَإِحْسَانٌ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِأَجْرَامِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِمَا أَوْدَعَ اللهُ فِيهِمَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَالثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَأَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْأَشْجَارِ وَالثَّمَرَاتِ وَأَجْنَاسِ الْمَعَادِنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُعَدٌّ لِمَصَالِحِ بَنِي آدَمَ وَمَصَالِحِ مَا هُوَ مِنْ ضَرُورَاتِهِ، فَهَذَا

يُوجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا غَايَةَ جُهْدِهِمْ فِي شُكْرِ نِعْمَتِهِ وَأَنْ تَتَغَلْغَلَ أَفْكَارُهُمْ فِي تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَحِكَمِهِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: فِي آيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ وَأَدِلَّتِهِ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا وَيَتَفَكَّرُونَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ :﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ أَيْ لَا يَخَافُونَ وَقَائِعَ اللهِ وَلَا يُبَالُونَ نِقْمَتَهُ، وَلَا يَرْجُونَ ثَوَابَهُ وَلَا يَخَافُونَ وَقَائِعَهُ فِي الْعَاصِينَ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ سَيَجْزِي كُلَّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. فَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ يَجْزِيكُمْ عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ وَصَفْحِكُمْ وَصَبْرِكُمْ، ثَوَابًا جَزِيلًا. قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ:وَالْأَيَّامُ: جَمْعُ يَوْمٍ، وَهَذَا الْجَمْعُ أَوْ مُفْرَدُهُ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ اسْمِ أَحَدٍ أَوْ قَوْمٍ أَوْ قَبِيلَةٍ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْيَوْمَ الَّذِي حَصَلَ فِيهِ لِمَنْ أُضِيفَ هُوَ إِلَيْهِ نَصْرٌ وَغَلَبٌ عَلَىٰ مُعَانِدٍ أَوْ مُقَاتِلٍ، وَمِنْهُ أُطْلِقَ عَلَىٰ أَيَّامِ الْقِتَالِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ: أَيَّامُ الْعَرَبِ، أَيِ الَّتِي كَانَ فِيهَا قِتَالٌ بَيْنَ قَبَائِلَ مِنْهُمْ فَانْتَصَرَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَمَعْنَىٰ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ أَنَّهُمْ فِي شُغُلٍ عَنْ تَرَقُّبِ نِعَمِ اللهِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ إِسْنَادِ فِعْلِ الْخَيْرِ إِلَىٰ أَصْنَامِهِمْ بِانْكِبَابِهِمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ دُونَ عِبَادَةِ اللهِ تعالىٰ ، عَن قَتَادَةَ رَضِي الله عَنهُ فِي قَوْله ﴿قل للَّذين آمنُوا يغفروا للَّذين لَا يرجون أَيَّام الله﴾ قَالَ: هِيَ مَنْسُوخَة بقول الله : ﴿فَإِذا انْسَلَخَ الْأَشْهر الْحرم فَاقْتُلُوا الْمُشْركين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة : ٥] ، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: لِيَجْزِيَ بِالْمَغْفِرَةِ قَوْمًا مَخْصُوصِينَ بِصَبْرِهِمْ عَلَىٰ أَذَىٰ أَعْدَائِهِمْ مُقَابِلَ إِحْسَانِهِمْ. فَتَنْكِيرُ ﴿قَوْمًا﴾ عَلَىٰ الْمَدْحِ لَهُمْ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُعْرَضُونَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خيرها وشرها.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَاةُ، ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الْحُكْمُ: الْفَهْمُ فِي الْكِتَابِ ، وَقِيلَ: الْحُكْمُ عَلَىٰ النَّاسِ والقضاء، و﴿النُّبُوَّةَ﴾ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ مِنْ وَقْتِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ زَمَنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَيْ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، الَّتِي كَانَتْ بِالشَّامِ. وَقِيلَ: يَعْنِي الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ فِي التِّيهِ ، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ عَالَمِي زَمَانِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِهِمْ أَكْرَمَ عَلَىٰ اللهِ وَلَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُمْ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَوَاهِدَ نُبُوَّتِهِ بِأَنَّهُ يُهَاجِرُ مِنْ تِهَامَةَ إِلَىٰ يَثْرِبَ، وَيَنْصُرُهُ أَهْلُ يَثْرِبَ، وَقِيلَ: بَيِّنَاتُ الْأَمْرِ شَرَائِعُ وَاضِحَاتٌ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَمُعْجِزَاتٌ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ حَسَدًا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل: مَعْنَىٰ ﴿ بَغْيًا﴾ أَيْ بَغَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَطْلُبُ الْفَضْلَ وَالرِّيَاسَةَ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، فَكَذَا مُشْرِكُو عَصْرِكَ يَا مُحَمَّدُ، قَدْ جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَعْرَضُوا عَنْهَا لِلْمُنَافَسَةِ فِي الرِّيَاسَةِ ، قال ابن عاشور

: وَالْبَغْيُ: الظُّلْمُ ، وَالْمُرَادُ: أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ عَنْ عَمْدٍ وَمُكَابَرَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَلَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ، وَهَذَا الظُّلْمُ هُوَ ظُلْمُ الْحَسَدِ فَإِنَّ الْحَسَدَ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، أَيْ فَكَذَلِكَ حَالُ نُظَرَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَا اخْتَلَفُوا علىٰ النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بَغْيًا مِنْهُمْ عَلَيْهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فَيُمَيِّزُ الْمُحِقَّ مِنَ الْمُبْطِلِ وَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الاخْتِلَافِ الْهَوَى أَوْ غَيْرُهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الشَّرِيعَةُ فِي اللُّغَةِ: الْمَذْهَبُ وَالْمِلَّةُ، وَيُقَالُ لِمَشْرَعَةِ الْمَاءِ- وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ-: شَرِيعَةٌ. وَمِنْهُ الشَّارِعُ لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَىٰ الْمَقْصِدِ، فَالشَّرِيعَةُ: مَا شَرَعَ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ، وَالْجَمْعُ الشَّرَائِعُ، وَالشَّرَائِعُ فِي الدِّينِ: الْمَذَاهِبُ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ لِخَلْقِهِ. فَمَعْنَىٰ: ﴿جَعَلْنَاكَ علىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أَيْ عَلَىٰ مِنْهَاجٍ وَاضِحٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ يَشْرَعُ بِكَ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿علىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أَيْ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنَ الْأَمْرِ. قَتَادَةُ: الشَّرِيعَةُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحُدُودُ والفرائض ، قَالَ ابن العربي : وَتَقْدِيرُهُ: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ مِنَ الدِّينِ وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُغَايِرْ بَيْنَ الشَّرَائِعِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمَكَارِمِ وَالْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا خَالَفَ بَيْنَهُمَا فِي الْفُرُوعِ حَسْبَمَا عَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ ، ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي مُرَادَ الْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ارْجِعْ إِلَىٰ دِينِ آبَائِكَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ لَنْ يَدْفَعُوا عَنْكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا إِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَيْ أَصْدِقَاءُ وَأَنْصَارٌ وَأَحْبَابٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَوْلِيَاءُ الْيَهُودِ. ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ نَاصِرُهُمْ وَمُعِينُهُمْ ، وَالْمُتَّقُونَ هُنَا: الَّذِينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ والمعاصي.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَذَا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿بَصَائِرُ﴾ مَعَالِمُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: (الْقُرْآنُ. هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْقَلْبِ ، قَالَ: وَالسَّمْعُ وَالْبَصِيرُ فِي الْقَلْبِ. وَقَرَأَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وَلَيْسَ بِبَصَرِ الدُّنْيَا وَلَا بِسَمْعِهَا، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: جَعَلَ مَا فِيهِ مِنْ مَعَالِمِ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ، بِمَنْزِلَةِ الْبَصَائِرِ فِي الْقُلُوبِ كَمَا جُعِلَ رُوحًا وَحَيَاةً ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: يَحْصُلُ بِهِ التَّبْصِرَةُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ لِلنَّاسِ فَيَحْصُلُ بِهِ الِانْتِفَاعُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةُ ، ﴿لِلنَّاسِ﴾ فِي الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ يُبْصِرُونَ بِهَا، ﴿وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فَيَهْتَدُونَ بِهِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَيَحْصُلُ بِهِ الْخَيْرُ وَالسُّرُورُ وَالسَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الرَّحْمَةُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ بل حسب، ، وَالتَّقْدِيرُ: لَا يَحْسَبُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّهُمْ كَالَّذِينِ آمَنُوا لَا فِي الْحَيَاةِ وَفِي فِي الْمَمَاتِ، ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اكْتَسَبُوا الْمَعَاصِيَ وَالْكُفْرَ وَالِاجْتِرَاحُ: الِاكْتِسَابُ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْجُرْحِ فَأُطْلِقَ عَلَىٰ اكْتِسَابِ السِّبَاعِ وَنَحْوِهَا، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ كِلَابُ

الصَّيْدِ جَوَارِحَ وَسُمِّي بِهِ اكْتِسَابُ النَّاسِ ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كَحَيَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوْتِهِمْ سَوَاءً كَلَّا، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَنْ نُسَاوِيَ بين الأبرار والفجار، فكما لَا يُجْتَنَىٰ مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبُ، كَذَلِكَ لَا ينال الفجار منازل الأبرار، ذكر محمد بن إسحاق أنهم وجدوا حجراً بمكة من أُسِّ الْكَعْبَةِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ «تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتَرْجُونَ الحسنات، أجل كما يجنىٰ من الشوك العنب» ، وعن مَسْرُوقٍ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ قَامَ لَيْلَةً حَتَّىٰ أَصْبَحَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وعملوا الصالحات﴾ وَقَالَ بَشِيرٌ: بِتُّ عِنْدَ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَامَ يُصَلِّي فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَمَكَثَ لَيْلَهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ لَمْ يَعْدُهَا بِبُكَاءٍ شَدِيدٍ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ: كَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يُرَدِّدُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَىٰ آخِرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ وَنَظِيرَهَا، ثُمَّ يَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي! مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَنْتَ؟ وَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُسَمَّىٰ مَبْكَاةُ الْعَابِدِينَ لأنها محكمة.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحِكْمَةِ وَلِيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ يُجَازِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ هَلْ شَكَرُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَقَامُوا بِالْمَأْمُورِ؟ أَمْ كَفَرُوا فَاسْتَحَقُّوا جَزَاءَ الْكَفُورِ؟.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: معناه ذَلِكَ الْكَافِرُ اتَّخَذَ دِينَهُ مَا يَهْوَاهُ، فَلَا يَهْوَىٰ شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَلَا يَخَافُهُ، وَلَا يُحَرِّمُ مَا حرم الله. وقال الآخرون: مَعْنَاهُ اتَّخَذَ مَعْبُودَهُ هَوَاهُ فَيَعْبُدُ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَإِذَا وَجَدُوا شَيْئًا أَحْسَنَ مِنَ الْأَوَّلِ رَمَوْهُ وكسروه، وَعَبَدُوا الْآخَرَ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا سُمي الْهَوَىٰ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ، ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِ وَقِيلَ عَلَىٰ ما سبق في عمله أَنَّهُ ضَالٌّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ، ﴿وَخَتَمَ﴾ طبع، ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فَلَمْ يَسْمَعِ الْهُدَىٰ، ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فَلَمْ يَعْقِلِ الْهُدَىٰ، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ غشاوة بِفَتْحِ الْغَيْنِ وَسُكُونِ الشِّينِ، وَالْبَاقُونَ غِشَاوَةً ظُلْمَةً فَهُوَ لَا يُبْصِرُ الْهُدَىٰ، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ أَيْ فَمَنْ يَهْدِيهِ بَعْدَ أَنْ أضله الله، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي مُنْكِرِي الْبَعْثِ، ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أَيْ مَا الْحَيَاةُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أَيْ يَمُوتُ الْآبَاءُ وَيَحْيَا الْأَبْنَاءُ، وَقَالَ الزَّجَاجُ: يَعْنِي نَمُوتُ وَنَحْيَا، فَالْوَاوُ لِلِاجْتِمَاعِ، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أَيْ وَمَا يُفْنِينَا إِلَّا مرُّ الزَّمَانِ وَطُولُ الْعُمْرِ وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ والنهار ، ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي الذي قالوه، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ لَمْ يَقُولُوهُ عَنْ عِلْمٍ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أَيْ يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ: إِذَا تُلِيَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ حَالَ كَوْنِهَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ ظَاهِرَةَ الْمَعْنَىٰ وَالدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْبَعْثِ ، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَنَّا نُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَيْ: مَا كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ وَلَا مُتَمَسَّكٌ إِلَّا هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْحُجَّةِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ حُجَّةً تَهَكُّمًا بِهِمْ

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَإِلَّا فَلَوْ وَصَلَ الْعِلْمُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ، لَعَمِلُوا لَهُ أَعْمَالًا وَتَهَيَّؤُوا لَهُ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني الكافرين هُمْ أَصْحَابُ الْأَبَاطِيلِ، يَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ خُسْرَانُهُمْ بِأَنْ يَصِيرُوا إلىٰ النار.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ بَارِكَةً عَلَىٰ الرُّكَبِ وَهِيَ جِلْسَةُ الْمُخَاصِمِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَاكِمِ يَنْتَظِرُ القضاء من الله، قَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ: إِنَّ فِي الْقِيَامَةِ سَاعَةً هِيَ عَشْرُ سِنِينَ يَخِرُّ النَّاسُ فِيهَا جُثَاةً عَلَىٰ رُكَبِهِمْ حَتَّىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنَادِي رَبَّهُ لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾الذي فيه أعمالها، وَيُقَالُ لَهُمْ، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يَعْنِي دِيوَانَ الْحَفَظَةِ، ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِبَيَانٍ شَافٍ، فَكَأَنَّهُ يَنْطِقُ ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ اللَّوْحُ

الْمَحْفُوظُ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِنَسْخِ أَعْمَالِكُمْ، أَيْ بِكَتْبِهَا وَإِثْبَاتِهَا عَلَيْكُمْ. وَقِيلَ تستنسخ أي تأخذ نسخه، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَيْنِ يَرْفَعَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ فَيُثْبِتُ اللهُ مِنْهُ مَا كَانَ لَهُ فِيهِ ثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ، وَيَطْرَحُ مِنْهُ اللَّغْوَ نَحْوَ قَوْلِهِمْ هَلُمَّ وَاذْهَبْ، وَقِيلَ: الِاسْتِنْسَاخُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ تَنْسَخُ الْمَلَائِكَةُ كل عام ما يكون أعمال من بَنِي آدَمَ، وَالِاسْتِنْسَاخُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ، فَيُنْسَخُ كِتَابٌ مِنْ كِتَابٍ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تُسْتَنْسَخُ أَيْ يُثْبَتُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: تُكْتَبُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: تُحْفَظُ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظَّفْرُ الظَّاهِرُ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يُقَالُ لَهُمْ، ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ مُتكَبِّرِينَ كَافِرِينَ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قَرَأَ حَمْزَةُ: (وَالسَّاعَةَ) نَصَبَ عَطْفَهَا عَلَىٰ الْوَعْدِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالرَّفْعِ عَلَىٰ الِابْتِدَاءِ، ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أَيْ مَا نَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا حَدْسًا وَتَوَهُّمًا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها كائنة.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أَيْ: وَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُقُوبَاتُ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أَيْ: نَزَلَ، قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: حَاقَ بِهِ الْأَمْرُ، أَيْ نَزَلَ بِهِ وَأَحَاطَ بِهِ. وَيُقَالُ: مَا حَاقَ بِهِمْ إِلَّا مَا عَمِلُوا، أَيْ مَا أَصَابَهُمْ

إِلَّا جَزَاءُ أَعْمَالِهِمْ ،﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ: نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَبِوُقُوعِهِ وَبِمَنْ جَاءَ بِهِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ نَتْرُكُكُمْ فِي النَّارِ، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ تَرَكْتُمُ الْإِيمَانَ، وَالْعَمَلَ لِلِقَاءِ هَذَا الْيَوْمِ، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يَنْصُرُونَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَيَدْفَعُونَ عَنْكُمْ عِقَابَهُ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ حَتَّىٰ قُلْتُمْ: لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥] قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الرَّاءِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عُذْرًا وَلَا تَوْبَةً.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: لَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ لِسَائِرِ الْخَلَائِقِ حَيْثُ خَلَقَهُمْ وَرَبَّاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَهُ الْجَلَالُ وَالْعَظَمَةُ وَالْمَجْدُ، فَالْحَمْدُ فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَىٰ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَمَحَبَّتِهِ تَعَالَىٰ وَإِكْرَامِهِ، وَالْكِبْرِيَاءُ فِيهَا عَظَمَتُهُ وَجَلَالُهُ وَالْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ رُكْنَيْنِ، مَحَبَّةِ اللهِ وَالذُّلِّ لَهُ، وَهُمَا نَاشِئَانِ عَنِ الْعِلْمِ بِمَحَامِدِ اللهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾

الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فَلَا يُشْرِعُ مَا يُشْرِعُهُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَمَصْلَحَةٍ وَلَا يَخْلُقُ مَا يَخْلُقُهُ إِلَّا لِفَائِدَةٍ وَمَنْفَعَةٍ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

الفهرست